الدكتور عدنان علي رضا النحوي

المسلمون

بين العَلمانية وحقوق الإنسان الوضعيّة

الطبعة الأولى
١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

دار النحوي
للنشر والتوزيع

ح دار النحوي للنشر والتوزيع ، ١٤١٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

النحوي ، عدنان علي رضا

المسلمون بين العَلمانيّة وحقوق الإنسان الوضعية

... ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك ١-٣٤-٦٨٧-٩٩٦٠

١. العَلمانية ٢. الإسلام والمجتمع ٣. الإسلام وحقوق الإنسان

أ- العنوان

ديوي ٢١٤,٢٠١١٦ ١٧/٣٥٢٤

رقم الإيداع ١٧/٣٥٢٤

ردمك ١-٣٤-٦٨٧-٩٩٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى
١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م

دار النحوي للنشر والتوزيع
تلفون وفاكس : ٤٠١٠٢٥٧
ص.ب : ١٨٩١ الرياض : ١١٤٤١
المملكة العربية السعودية

الإهـــداء

إلى الصـالحين العـاملين ، ذكرى فإن الذكرى تنفع المؤمنين. وإلى المجـرمين الظالمين ، عسى أن يفيقوا إذا عرفوا الحقّ المبين . وإلى الحائرين التائهين عسى الله أن يهديهم ليكـونـوا من الذاكرين

الافتتـــاح

﴿الذين يستحبون الحياة الـدّنيا على الأخرة ويصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً أولئك في ضلال بعيد ﴾ [إبراهيم : ٣]

﴿ إن الذين لايـرجون لقاءنـا ورضوا بـالحياة الدنيـا واطمأنّوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون * أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون * إن الـذين آمنـوا وعملوا الصـالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنـات النعيم * دعواهم فيهـا سبحـانك اللهم وتحيّتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ [يونس ٧-١٠]

﴿ يثبت الله الذين آمنـوا بالقول الثـابت في الحياة الدنيـا وفي الأخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله مـايشاء* ألم تر إلى الذين بـدّلوا نعمة الله كفراً وأحلـوا قومهم دار البـوار * جهنّم يصلونها وبئـس القرار * وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله قل تمتّعوا فإن مصيركم إلى النار ﴾ [إبراهيم : ٢٧-٣٠]

﴿ ولا تحسبنّ الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يـؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار * مهطعين مقنعي رؤوسهم لايرتـدّ إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء * وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقـول الذين ظلموا ربنا أخّرنا إلى أجل قـريب نُجِبْ دعوتك ونتبع الـرسل أولم تكونـوا أقسمتم من قبل مـالكم من زوال * وسكنتم في مسـاكن الـذين ظلمـوا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنـا بهم وضربنـا لكم الأمثـال * وقـد مكـروا مكـرهم وعنـد الله مكـرهم وإن كان مكـرهم لتزول منـه الجبال * فـلا تحسبنّ الله مخلف وعده رسله إن الله عـزيز ذو انتقام ﴾ [إبراهيم ٤٢-٤٧]

المقـــدّمـــــة

إن من أخطـر مـاأصاب العـالم الإسـلامي في العصر الحديث هـو الغزو الفكـريّ والثقافي ، والـدينيّ التنصيري ، والـدينيُّ اليهوديُّ الماسـونيُّ ، الغزو الـذي كان ومـايزَال مصاحباً للغزو العسكري .

لقد ولّـد هذا الغـزو انحرافـات فكريـة كثيرة في العالم الإسـلامي ، ونشر كثيراً من وسائل الفتنـة وأبوابها بالشهوات الملتهبـة والأهواء الثائرة ، وصبّ في العـروق خدراً كثيراً ، وشوّه الحقائق وأفسد الضمائر وأضلّ الناس .

ونعتقـد أن هـذا الغزو المتعـدِّد الجوانب كـان قـديماً ولم يبـدأ في العصر الحديث . ولكنه أخذ في الآونة الأخيرة تطوراً كبيراً في مناهجه وتخطيطه ووسائله .

لقد سخّـر الغرب كلّ إمكـاناته العلميّـة والفنيّة والماليّـة والصناعيـة من أجل هذه الجريمة الكبيرة في الأرض عـامة ، وفي العـالم الإسلامي خـاصة ، فأحـرز بذلك نجـاحاً ملحوظاً على قدر من الله سبحانه وتعالى ، ولحكمة بالغة يريدها .

ولكن نجاحه لم يكن سببه الأول قوته العلميـة والفنية والصناعية والمالية ، لقد كان السبب الأول ضعف العالم الإسلامي والخلل الـذي دبّ في النفوس والصدور ، في الإيمان والتـوحيد ، والعلم بـالكتاب والسنـة ومصاحبتها ، والخلل في فهم الـواقع ، والخلل في الممارسة الإيمانية .

لقـد فتح هـذا الخلل أبوابـاً كثيرة يتسلل منهـا أعـداء الله إلى الديـار وإلى القلـوب والنفـوس ، ووجـدوا نفـوساً كثيرة بـاعت أنفسهـا بثمن بخس للشيطـان ولأعـداء الله ، ووجـدوا الكثيرين الـذين يسـارعـون فيهم يقـولـون نخشى أ ن تصيبنـا دائرة ، ووجـدوا الكثيرين الذي انقطـع رجاؤهم بالله ، وطحنهـم اليأس ، وأذلّهم حبّ الدنيـا ، ومزقتهم الشهوات .

هؤلاء هم حز ب الشيطان وجنوده ، فتحـوا القلوب للمجرمين في الأرض فأضحوا

جنودهم وأعوانهم يتولّون الفساد ونشره ، والجريمة وتغذيتها .

ولقد كـان أَخطر مـاحققوه وأصابـوا فيه نجـاحاً أن جعلـوا بعض النفوس تفصل الدنيا عن الآخرة تصـوّراً وإيماناً ، وعلماً وممارسة ، وقانوناً وتشريعاً . لقد عـزلوا الدنيا عن الآخـرة ، وحصروا فكـرهم وقلـوبهم ، ونشـاطهم وعلمهم ، حصروا كل شيء في الـدنيـا وحدها ، وللدنيا وحدها ومن أجل شهوات الدنيا وغرورها وفتنتها .

ومن هذا الباب الشيطاني الواسع تدفّـق المجرمون إلى العالم الإسلامي ، يصاحبهم التخطيط والنهج والدراسات التفصيلية ! .

هذا الباب الواسع يسمّى **العَلمانية** !

وكان من أخطر ثمرات هذا الباب الـواسع (العَلمانية) ، دخول القوانين الوضعية لتحلّ محل التشريع الإسلامي ولتكون منفصلة عنه وعن روحه .

وكان من أخطر ثمرات القـوانين الوضعية ووثائقها ، **حقوق الإنسان** ، النابعة من تصور عَلماني دنيوي ومن روح عَلمانيّة مختلطة بالدين !

ولكن هذا الخطـر أو ذاك جاء يحمل من الزخـرف والزينة مـاأغرى الكثيرين حتى فتنهم وصدّهـم عن دين الله .

وزاد من هــذه الفتنـة أن كثيراً من المسلمين لايعـرفون الإسـلام وشرعـه وعظمتـه ، ولكنهم ينظـــرون إلى واقع المسلمين في كثير من ديـــار المسلمين فيرون التخلف العلمي والفنّي والصنـاعي يقـابله التقـدم في ذلك كلـه عنـد أولئك ، ويـرون العصبية الجاهليـة تحكمهم وتحكم ديـارهـم ويلقـون بعض الحريـة والتيسير لـدى أولئـك ، ويـرون الظلم والاضطهاد والتعسف والحرمان في بلادهـم ويرون مسحـة العدالة هناك ، ويرون الفوضى الإداريـة واختـلاط الحقوق وغلبـة الأهـواء والمصـالح ، ليستفيد أصحـاب النفـوذ ويُحرَم العامة ، ويرون عند أولئك النظام والإدارة ودرجـة مغرية من المساواة في ذلك كله ، فيفتن المسلم عن دينه وأهله ودياره !

كثير من الناس لايقـارن بين الكفر والإيمان ، أو الفتنـة والإسلام ، ولكن يقـارنون بين واقع وواقع ، فيُفتنون .

ومن أجل ذلك جـاء هذا الكتـاب ليقـدّم قدر الجهـد دراسة أمينـة علمية تعتمـد الحقائق لا الظنون ، والصدق لا الافتراء .

يأتي هذا الكتاب في ثمانية أبواب . الأبواب الأربعـة الأولى تدور حول قضايا تتعلق **بـالعَلمانيـة** : جـذورها ونشـأتها وتطورهـا ، وأسس اختـلافها عـن الإسلام ، والعَلمانيـة وتسللها إلى العـالم الإسلامي ، وأهم نتائج العلمانية ، ومن أهم النتـائج التعاون النصراني واليهودي وقيام دولة لليهود في فلسطين .

وتأتي الأبواب الثـلاثة التاليـة حول **حقوق الإنسـان الوضعيـة** وجذورها ونشأتها ومسيرتها ، ثم التصور الإيماني لحقوق الإنسان ونشأتـه ومسيرته وخصائصه ، والحق الأول والأكبر الذي أهملته الحقوق الوضعية لـلإنسان ، وامتداد حقوق الإنسان في الإسلام ، ثم نماذج من حقوق الإنسان في ميدان الممارسة .

ويأتي البـاب الأخير ليعرض **قضـايا وعقبـات** يتراوح الاجتهاد والفتـاوي فيها بين تيسير وتفلّت أو بين مبشرات وتحذير .

ويمكن أن نعتبر هـذا الكتـاب تفصيـلاً لما أو جـزناه في البـاب الثـالث بفصـولـه الخمسة التي استغـرقت الصفحات من (٩١-١٣٢) مـن كتاب « **التعـامل مع مجتمع غير مسلم من خلال الانتماء الصادق إلى الإسلام** » حول حقوق الإنسان والعَلمانية .

ولقد وضـح لي أن هذين الموضـوعين : العَلمانية وحقـوق الإنسان الـوضعية ، على جانب كبير مـن الأهمية ، والتأثير الكبير في واقع العـالم الإسلامي والواقـع الدولي ، حتى أصبحا بـاب فتنة لكثير من المسلمين ، تحت ضغط طـوفان الدعـاية وزخـرف الشعارات وفتنة الزينة ، مما جعـل الكتابة واجباً وضرورة لكشف ماأخفته الدعايـة والزخارف والزينة ولدرء الفتنة عن أمتنا .

نـدعو الله سبحـانه وتعـالى أن يتقبّل هذا العمل خـالصاً لـوجهه الكـريم ، نديـا برحمته، غنيّا بفضله ، نرجو به التوبة والمغفرة ، ورضاء الله والجنة والإلحاح في ذلك كله ، عسى الله أن يجمع قلوب المؤمنين الصـادقين ليكونوا أمة واحدة في الأرض ، تحمـل رسالته وتنصر دينه وتُعلي كلمته .

والحمد لله رب العالمين .

عدنان علي رضا النحوي

٢٧ رمضـــان ١٤١٧هـ

٥ كانون الثاني ١٩٩٧م.

الباب الأول

الجذور التاريخية للانحرافات الفكرية
في أوروبا
ونشأتها وصراعها

الفصل الأول

الجذور التاريخية للفكر الأوروبي بين الوثنية وبين النصرانية وصراعهما والانحراف إلى العَلمانية

١ - تمهيد :

إن الجذور العميقة الأُولى للفكر الأوروبي وفلسفته ، وكذلك لتصوّر حقوق الإنسان ، تعود إلى **الوثنية اليونانية والوثنية الرومانية** ، مع مسحة من عوامل أُخرى تقوى أو تضعف ، سنشير إليها مع بحثنا هذا . أهم هذه العوامل **النصرانية** التي جاءت إلى الامبراطورية الرومانية ، وصراعها الطويل مع الوثنية فيها وتأثير الوثنية عليها . وكذلك **الإسلام** الذي حاربته أوروبا طويلاً ، ولكنه ترك آثاراً مختلفة هنا وهناك .

واليونان ، شأنهم شأن سائر شعوب الأرض ، جاءتهم رسلهم وبلّغتهم رسالة الله بالتوحيد وبدينه الحق . ولكنهم انحرفوا كما انحرفت شعوب أخرى في التاريخ البشري عن الصراط المستقيم إلى مذاهب شتى يدور بينها الصراع حيناً ، أو تلتقي حيناً آخر ، أو تتقارب على ضوء مصالح دنيوية .

وقد نجد في بعض هذه المذاهب المنحرفة ومضة من مظاهر الخير ، فإنها تكون عندئذ بقية مشوهة من الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، والتي شُوِّهت بفعل الانحرافات والآثام والمعاصي ، أو تكون أثراً مشوّهاً من بلاغ الرسل والأنبياء الذين خلوا فيهم ، أو آثاراً متناثرة من الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ ، امتدت إليهم من الأندلس من الغرب خلال قرون طويلة مرّت بين سلم وحرب ، أو من خلال احتكاك أوروبا بالشرق احتكاكاً تداولته الحروب أو السلم . وحاولت أوروبا إخفاء أثر الإسلام وخاصة في العلوم ، الإسلام الذي ظلّ يمدُّ بركته ونوره وخيره في الأرض . ولكن الوثنية وصراعها

مع النصرانية كان لها الأثر الأول في صياغة الفكر والفلسفة ، والأثر الأول في انحراف النصرانيّة .

٢ - امتداد الرسل والأنبياء في التاريخ البشري ، وسنن الله الثابتة :

لقد كان من رحمة الله على عباده أن بعث في كل أُمة رسولاً ينذر ويبشر ويبلغ رسالة الله إلى عباده .

﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقّت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ [النحل : ٣٦]

وكذلك :

﴿ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلّم الله موسى تكليما * رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما﴾ . [النساء : ١٦٤ ، ١٦٥]

وكذلك :

﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ [فاطر : ٢٤]

وتتوالى الآيات والأحاديث لتؤكد هذه الحقيقة الأساسية الهامة : الحقيقة التي تعيننا على فهم أحداث التاريخ وحركته ومسيرته .

وكذلك تأتي سنّة أُخرى من سنن الله الثابتة ، تضيء لنا الأحداث لنعيها ، وتنير لنا الدرب ونحن نسير في الأرض كما أمرنا الله ، نتتبع الأحداث التي تجرى على السنن الربانية الثابتة :

﴿كان الناس أمةً واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البيّنات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ [البقرة : ٢١٣]

كيف يمكن أن نفهم التاريخ وأحداثه ، والفلسفة والفكر ، والمواقف والصراع ، إذا كنا لاندرس سنن الله الثابتة في الحياة ، السنن التي بيّنها لنا الله في المنهاج الرباني - قرآناً وسنّة ولغة عربية - :

﴿ **سنّة الله في الذين خلَوْا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً** ﴾ [الأحزاب : ٦٢]

وكذلك :

﴿ **استكباراً في الأرض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنّة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً** ﴾ . [فاطر : ٤٣]

إن هذه السنن الثابتة لله نراها جليّة حين نسير في الأرض ، كما أمر الله سبحانه وتعالى : ﴿ ... **فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذّبين** ﴾ [النحل : ٣٦]

فالسير في الأرض هو للنظر والتأمل والعبرة . والسير في الأرض هو دراسة الشعوب وتاريخهم وسنن الله الثابتة فيهم . ومن هذا السير الذي يحمل الدراسة والتأمل والتدبر نفهم أحداث التاريخ على قواعد راسخة ، ونأخذ العبرة والعظة وننهض إلى دفع الخير والصلاح في الأرض ، وإلى العمل الصالح على ميزان ربّانيّ حق .

وهذه القاعدة - قاعدة دراسة سنن الله الثابتة في التاريخ البشري هي أول قاعدة ضرورية لدراسة الفكر الإنساني ، وللتحليل السياسي ، ولإعطاء الأحداث قدرها الحق دون مغالاة أو إهمال . وهي القاعدة الأولى الثابتة في الفكر عامة ، وفي الاقتصاد ، وفي السياسة ، وفي سائر العلوم [١] ، على أساس من الإسلام .

ودون الأخذ بهذه القاعدة الهامة لايستقرُّ لدى المسلم تصوّر صادق للواقع الذي يعمل فيه ، ولاتحليل أمينٌ للأحداث السياسيّة والاقتصادية والاجتماعية وغيرها .

(١) يراجع كتاب « الصحوة الإسلامية إلى أين » للمؤلف - (ط : ٣) الفصل الأول الباب الثالث : «الواقع الدولي وسنن الله الثابتة » من أجل دراسة أوسع عن سنن الله الثابتة .

٣ - الصراع بين الوثنية والنصرانية :

عندما قامت دولة الرومان لم يكن لديهم الزاد الفكري والثقافي أو العلمي ، وكان أهم مايعتزّون به هو القوة العسكرية والاعتزاز الوطني الجاهلي . وكان اليونانيون قد سبقوا كثيراً في العطاء الفكريّ الوثني ، وفي الفلسفة الوثنية والأدب التابع لذلك . فامتدت الوثنية اليونانية إلى المجتمع الروماني بفلسفتها وفكرها وأدبها . وكانت الوثنية اليونانية قد امتدت إلى مختلف نواحي الحياة اليونانية وميادينها ، وإلى الأخلاق وانحرافها ، وإن كنت تلمس من خلال ظلام هذه الوثنية بصيصاً من مظاهر الخير ، فإنه البقيّة الباقية من الفطرة التي شُوِّهت ودُمّرت ، وبقيّة من أثر الرسالة الربّانية التي انحرفوا عنها .

وانتقلت هذه الوثنية بامتدادها إلى الرومان تحمل معها طغيان التصور المادّي للحياة ، وطغيان العصبية الوطنية الجاهلية . فأخذ الرومان من هذا الزاد اليوناني الشيء الكثير ، حتى أصبح هذا الزاد أساس الفكر الروماني ومصدر انطلاقه وعطائه . ولقد غَذّى هذا الزاد اليوناني العصبية الرومانيّة الوطنية الجاهلية ، وغذّى اعتزاز الرومان بقوتهم العسكرية ، ودفعهم إلى أن يأخذوا باللغة اليونانية أيضاً في مرحلة أوليّة .

ومن انتقال الفلسفة اليونانية وفكرها وأدبها إلى الرومان ، امتدّ النهج الوثني إلى أوروبا ليتغلغل في جميع العصور والأقطار ، وليدخل مع النصرانية الوافدة في حرب طويلة يسجّل فيها انتصارات ويؤثر في النصرانية تأثيراً واسعاً .

ولما جاءت النصرانية إلى الإمبراطورية الرومانيّة ، وجد النصارى عنتاً واضطهاداً امتد قرابة ثلاثة قرون ، ليمثل هذا الصراع صراعاً طويلاً بين الدين والوثنية ، وليظلّ في حقيقته ممتداً حتى يومنا هذا . ولقد قدّم النصارى تضحيات واسعة في أول أمرهم وهم صابرون ، فمهّد هذا للبدء بقبول الدين الجديد . إلا أن هذا القبول صاحبه تنازلات وانحرافات عن رسالة التوحيد التي جاء بها عيسى عليه السلام . فقد كان الامبراطور « جاليريوس » (٢٤٢م-٣١١م) ، قد أقنع قبل توليه السلطة الامبراطور « ديوكليتيان » أن يمنع هذا الدين وأن يعدم رجاله . ولما تولى « جاليريوس » السلطة مضى قدماً في هذه الخطة حتى سنة ٣١١م ، حين عاد عن رأيه ووقّع قراراً مع ثلاثة أباطرة آخرين معاصرين بإعطاء حرّية العبادة للنصارى .

ولما أصبح « قسطنطين الأول Constantine » (٢٨٠ – ٣٣٧م) إمبراطوراً حكم بين (٣٠٨م – ٣٣٧م) ، اعترف بالدين الجديد بعد أن نال دعم النصارى في تولّيه السلطة . وخلال هذه القرون كانت الوثنية قد أثّرت في النصرانية التي لم يكن لديها النصّ الربّاني الذي جاء به عيسى عليه السلام ، وإنما كان لديها ماتناقله أبناؤها ، ثم ما دوّنه علماؤهم بعد عيسى عليه السلام بزمن غير قصير . وكان الصدام شديداً بين الوثنية والنصرانية ، ومن خلال هذا الصدام بدأ التنازل خاصة بعد التعاون مع قسطنطين .
وبدأ تأثير قسطنطين الخطير بعد تسلمه السلطة في الإمبراطورية الرومانية ، حين دعا رجال الكنيسة إلى اجتماع في « نيقية Nicaea » الواقعة في أسيا الصغرى سنة ٣٢٥م ، في محاولة لتصفية النزاع مع « الآريوسيين » الذين يقولون إن عيسى عليه السلام ليس مشابهاً لله في الجوهر . وهؤلاء منسوبون إلى الكاهن آريوس الاسكندري (ت ٣٣٦م) . ولكن المجمع المنعقد في « نيقية » والمسمّى المجمع «المسكوني أو النيقاوي » أصدر قراراً بـ «عقيدة نيسين Nicene Creed » يتبنّى الطبيعة الثلاثية لعيسى عليه السلام (Trinity) : طبيعة الأب والابن والروح القدس ، التي خرجت من آثار التصور الوثنيّ ، منحرفة عن التوحيد الخالص الذي جاء به جميع المرسلين والأنبياء . ولما جاء الامبراطور ثيودوسيوس (٣٤٦م – ٣٩٥م) فرض الكنيسة الكاثوليكية ومذهبها على جميع الامبراطورية ، وفرض القرار « النيقاوي أو النّيسيني » والتصور الثلاثي لطبيعة المسيح كذلك . وليُنهيَ النزاع الذي كان مستمراً مع «الأريوسيين » النصارى ، دعا إلى لقاء كَنَسِيّ ، سُمّي فيما بعد «المجمع العالمي Ecumenical Council » سنة ٣٨١م في مدينة « القسطنطينية » . وقد أقرّ هذا المجمع «عقيدة نيسين » السابقة ، واعتبر الأريوسيين هراطقة وأخذ في مطاردتهم ومعاقبتهم ، وهدّم مكتبة الإسكندرية وألغى الألعاب الأولمبية . وعند وفاته قسّم الامبراطورية بين ولديه : أركاديوس » على الشرق ، وهونوريوس على الغرب ، واستمر التقسيم منذ ذلك الوقت : الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، والامبراطورية الرومانية الغربية في روما حتى كان سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية سنة (٤٧٦م) ، وسقوط الامبراطورية الرومانية الشرقية على يد السلطان محمد الفاتح سنة ١٤٥٣م .

٤ - تقويم الانحراف عن رسالة التوحيد التي جاء بها عيسى عليه السلام وجميع الرسل والأنبياء :

من هذا العرض الموجز ندرك أهمية التفريق بين حياة عيسى السلام ورسالته الربانيّة التي بعثه الله سبحانه وتعالى بها ، والتي هي رسالة الإسلام ودين جميع الأنبياء والمرسلين الذين ختموا بمحمد ﷺ ، وبين ماعرضناه في الصفحات السابقة من تاريخ المسيحية في أوروبا خاصة . فقد أصبح جليّاً أن هناك اختلافا واضحاً بين خطين ، خط حياة عيسى عليه السلام ورسالته بدين الإسلام ، وخط النصرانية التي نمتْ في أوروبا بتأثرها بالوثنية اليونانية والرومانية بعد صراع طويل .

لقد أخذ هذا الاختلاف بين الخطين ينمو من خلال الصراع بين النصرانية والوثنيّة من ناحية ، ومن خلال عجز النصرانية عن تقديم حلول لمشكلات المجتمع الروماني من ناحية أُخرى . إن النصرانية جاءت « **لخراف بني إسرائيل الضالة** » ، ولم تأت ديناً عالمياً يعالج جميع مشكلات الإنسان في مختلف المجتمعات البشرية ، شأنها في ذلك شأن سائر الديانات السابقة لها . فكل دين من هذه الديانات السابقة كان يأتي بقواعد الإيمان والتوحيد وأسس الإسلام ، وبقواعد لمعالجة مشكلات قومه خاصة . ولما خُتمت الرسالات برسالة محمد ﷺ ، جاءت رسالة محمد ﷺ للعالمين ، للبشرية كلها . فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « **فُضّلتُ على الأنبياء بست : أُعطيتُ جوامع الكلم ، ونُصرت بالرعب وأحلّت لي الغنائم ، وجعلت لِيَ الأرض طهوراً ومسجداً ، وأرسلتُ إلى الخلق كافَّة ، وخُتم بي النبيون** » . [رواه مسلم والترمذي] (١)

وكذلك فإن الآيات الكريمة جاءت لتؤكد هذه الحقيقة من أن محمداً ﷺ وبُعِثَ للعالمين ، للناس كافة ، للإنس والجن :

﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [الأنبياء : ١٠٧]

﴿ وما أرسلناك إلا كافّة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾ [سبأ : ٢٨]

(١) يراجع كتاب « الصحوة الإسلامية إلى أين » للمؤلف - (ط : ٣) الفصل الأول الباب الثالث : «الواقع الدولي وسنن الله الثابتة » من أجل دراسة أوسع عن سنن الله الثابتة .

﴿ قل يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبيّ الأميّ الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ . [الأعراف : ١٥٨]

ولا بد هنا من وقفة ندرك بها خطورة الانحراف الذي وقعت فيه بعض الديانات . إن لهذا الكون كله مشهده وغيبه ، ربّاً واحداً وإلهاً واحداً لاشريك له ، هو الله سبحانه وتعالى له الأسماء الحسنى كلها . ولايعقل أبداً أن يرسل رسله بديانات مختلفة . فالدين عند الله إذن واحد جاء به كل رسول ، يبلّغ رسالة التوحيد ويعالج مشكلات قومه . هذا الدين الواحد هو الإسلام خُتمت رسالته بالنبيّ الخاتم محمد ﷺ وبكتابه القرآن الكريم الذي جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ، جامعاً لكل ماسبقه . وكان كل نبيّ ورسول يبلّغ عن مجيء محمد النبي الخاتم ، فذلك عهد أخذه الله من جميع الأنبياء والمرسلين :

﴿ وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدّق لما معكم لتؤمنُنَّ به ولتَنْصُرُنَّه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين . ﴾ [آل عمران : ٨١]

ولا يقبل الله من أحد ديناً غير الإسلام :

﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ [آل عمران : ٨٥]

وكذلك :

﴿ إن الدين عند الله الإسلام وماختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعدما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب ﴾ [آل عمران : ١٩]

ولذلك جاء القرآن الكريم مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ، وذكرى للعالمين ، للناس كافّة :

﴿ ... قل لاأسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكرى للعالمين . ﴾ [الأنعام : ٩٠]

﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولاتتبع أهواءهم عما جاءك من الحق .. ﴾ [المائدة : ٤٨]

﴿ تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً . ﴾ [الفرقان : ١]

من هذه الآيات والأحاديث ندرك أن الدين عند الله واحد هو دين الإسلام ، وهذا التصور الذي تقودنا إليه الفطرة السويّة السليمة ، وتطمئن إليه النفس ، ويخشع بين يديه القلب .

ولما كان القرآن الكريم ، وما يتبعه من السنّة ، هو آخر كتاب منزل ، وقد جاء للعالمين ، فقد تعهد الله بحفظه . وبذلك يدخل في ذلك حفظ السنة وحفظ اللغة العربيّة . ولولا حفظ الله لكتابه وسنة نبيه ﷺ ولغة الكتاب ، لأصاب المسلمين ماأصاب غيرهم من الانحراف والبدع . وإننا لنرى في واقعنا اليوم مظاهر كثيرة من البدع والانحراف والشرك ، ولولا وجود منهاج الله بيننا غضّاً كما أُنزل دون تحريف ، لثبتت الانحرافات والبدع فينا . ولكنّ فضل الله كان عظيماً .

ولذلك فإننا نعتبر مظاهر الشرك في الأمم والشعوب وأصحاب الديانات انحرافاً عن الرسالة الحق التي جاءهم بها أنبياؤهم ، حتى ثبتت فيهم الانحرافات حين لم يوجد الأصل الحقُّ كما أنزل .

يحدّثنا « الدكتور موريس بوكاي Dr. Maurice Bu Caille » في كتابه المشهور «الكتاب المقدس والقرآن والعلم : The Bible The Quran and Science » عن دراسته للكتب المنزلة : التوراة والانجيل والقرآن ، على ضوء العلم الحديث ، وما توصل إليه من نتائج . فأهم شيء أن التوراة والإنجيل كما هما بين أيدينا الآن لايمثلان كلام الله كما أُنزل على موسى وعيسى عليهما السلام . فقد كُتبا بعد عهد غير قصير من موسى وعيسى بيد رجال من الديانتين معتمدين على الذاكرة . وكذلك فإن بعض المعلومات المتعلقة بالعلوم جاءت فيها مختلفة عن الحقائق العلمية الثابتة اليوم ، فلا يمكن أن تكون هذه

المعلومات الخاطئة من عند الله . إنه يعرض هذه الأمور بالتفصيل وبالأحداث والسنوات التي تمّ فيها كتابة هذا النصّ أو ذاك . لقد كان تتبُّعاً موثّقاً بالمراجع والتحليل والعلم .

ثم بيّن أنَّ القرآن الكريم دُوِّن في عهد محمد ﷺ ، وحفظه الرسول ﷺ وصحابته ، وظل يُتلى في الصلوات من جميع الصحابة . ثم تتبع جمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه ، وكتابة المصاحف في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه ، يكتبها صحابة النبي ﷺ الذين حفظوا القرآن غيباً عن ظهر قلب في مدرسة النبّوة الخاتمة . وبيّن كذلك أن العلم لم يصطدم في أي قضية مع القرآن الكريم ، بل إن القرآن الكريم ذكر حقائق علمية لم يعرفها العلماء إلا حديثاً .

إذن أصبح الاختلاف واسعاً مع مرور الزمن بين نصوص التوراة والإنجيل وبين ما قاله عيسى عليه السلام وحياً عن ربّه الله الذي لاإله إلا هو . ولقد أصبح تصور هذا الاختلاف والتباين واضحاً لدي الكثير ممن درسوا وناقشوا وبحثوا . وقد هزّت هذه الاختلافات إيمان الكثيرين من الناس في أوروبا حتى امتد هذا التأثير إلى العلماء والفلاسفة والمفكرين ، وحتى ظهرت ردود فعل كثيرة نتيجة لهذه الاختلافات وأصبح القرار المتخذ بالتثليث الذي أشرنا إليه آنفا موضع الشك والريبة أو موضع الرفض المطلق .

يعتقد بعض الكتاب أن إخفاق المسيحية وعجزها عن معالجة مشكلات المجتمع ، وبروز الانحرافات والتناقضات في بعض النصوص ، كان السبب الرئيس الذي دفع الكاتب الإسبانيّ الشاعر والمؤلف المسرحي والروائي « سرفانتس سافيدرا " Miguel de Cervantes Saavedra " (١٥٤٧م - ١٦١٦ م) إلى كتابة روايته الشهيرة دون كيشوت Don Quixote of Lamancha بين " ١٦٠٥م و ١٦١٥ " يتهكم فيها على حماقات الإنسان . وهذا « فريدرك ويلهلم نيتشه "Friedrich Wilhelm Nietzche" (١٨٤٤م - ١٩٠٠م) الفيلسوف الألماني يقول : « إن آخر مسيحي مات على الصليب» . وقال : « صدّقوني ياإخواني لقد مات المسيح مبكراً جداً . ولو أنه عاش ليبلغ عمري

لتراجع بنفسه عن عقيدته . لقد كان من النبل بحيث يستطيع أن يتراجع بنفسه »[١].

ويبدو أن « نيتشه » ينتقد الدين النصراني الذي عرفه في زمانه بعد أن مرَّ بالتطورات والانحرافات التي عرضنا موجزها في الصفحات السابقة ، ورأينا كيف أصبح هناك خطان متباعدان للنصرانية . ولو عرف « نيتشة » حقيقة رسالة عيسى عليه السلام ، لما قال جملته تلك .

إذن ظهر في النصرانية من خلال هذه التطورات مذهب كَنسيٌّ بعيدٌ عن رسالة عيسى عليه السلام . وأخذ هذا المذهب الكنسي ، بالإضافة إلى تصور التثليث ، طقوساً مبهرجة من الوثنية الرومانيّة مما لا أصل له في رسالة عيسى عليه السلام . فظهر تقديس الشهداء ومريم ، ثم ظهر فيما بعد نظام الأكليروس وظهر لقب المطران « وحاكم مختار وخادم للرب ومكرّس للأسرار ووسيط » ، والأسقف ، ونظام العِماد والقرابين المقدّسة . وكان الأساقفة يجتمعون في المجمع الكنسيّ ليقرّروا العقائد والتعاليم والطقوس ، وبذلك ظهر نظام «اللاهوت Theology» . فإذا كانت النصرانية ذاتها تأثرت بالوثنية اليونانية والرومانية هذا التأثر البعيد ، وأخذت تبتعد عن أصولها الربانيّة في الإيمان والتوحيد في رسالة عيسى عليه السلام ، فما بالك بالفلسفة والتصور للكون والحياة والموت ، وما بالك بالأدب ومذاهبه .

وحين نتتبَّع المذاهب الفلسفية والمذاهب الأدبية التي ظهرت في أوروبا في قلب النصرانية نجد أنها ترجع إلى أُصول يونانية رومانية وثنية . وكان كل مذهب جديد يظهر كأنه ردّ فعل للمذهب الذي سبقه . ونجد كذلك أنّ كل مذهب أدبيّ كان وراءه تصوّر فلسفيّ ينطلق منه ويمضي معه ، تصوّر فلسفي وثنيّ !

من خلال هذا العرض الموجز يمكن أن نلخّص العوامل التي أثّرت في صياغة الفكر الأوروبي كما يلي :

١ - الوثنية اليونانية والرومانية وامتداد آثارها إلى النصرانية ، وامتداد آثارها حتى اليوم .

(١) علي عزّت بيجوفتش - الإسلام بين الشرق والغرب - الترجمة - ط : ١-١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، ص : ٣٥٠-٣٥٤ .

٢ - النصرانية وصراعها مع الوثنية، مما أدخل في النصرانية انحرافات واسعة عن رسالة عيسى عليه السلام وعن دينه الإسلام، دين جميع الأنبياء والرسل الذين خُتموا بمحمدﷺ، ومما أدّى إلى ظهور «اللاهوت Theology» .

٣ - بقية آثار الفطرة التي فطر الله الناس عليها بعد أن شوّهتها الوثنية والانحرافات.

٤ - بقية من أثر رسالة الأنبياء والمرسلين الذين ظهروا في تاريخ تلك الشعوب، فانحرفت الشعوب عنها واختفت أُصول تلك الرسالة الربانية لتظهر مع رسل آخرين، منهم من قصَّ الله خبرهم علينا ومنهم من لم يقصص . ولتُختَم الرسالة الربّانية، رسالة الإسلام بمحمد ﷺ، وبالقرآن الكريم والسنّة النبوية.

٥ - آثار متفرّقة من رسالة الإسلام الخاتمة كما جاء بها محمدﷺ . الرسالة التي حاربتها أوروبا ومازالت تحاربها حتى اليوم، مستعينة بقوى الفتنة والفساد في الأرض، ليمضي هذا الصراع على سنن لله ثابتة وحكمة بالغة وقدر ماضٍ ابتلاء منه سبحانه وتعالى، ليميز الخبيث من الطيّب، ولتقوم الحجة على الكافرين، وليمحّص الله المؤمنين. آثار متفرّقة من رسالة الإسلام أخذت بها أوروبا من الأندلس خلال قرون طويلة، ومن الشرق خلال قرون طويلة أيضاً، ولكنها لم تأخذ التصّور الكامل للحياة والكون والإنسان في الإسلام.

والحكمة يريدها الله صدّت أوروبا الإسلام عنها، سواءً أكان قادماً من الغرب من الأندلس، أم من الشرق. ولكنّ زحف الإسلام ماضٍ لايتوقّف أبداً، ويبعث الله جنوداً له يمضون بهذا الزحف حتى يتّصل زحف الإسلام.

واليوم، والمسلمون في أضعف حالاتهم وهوانهم، والانحرافات تفتُّ في عضدهم، مازال زحف الإسلام ممتداً في أوروبا وفي أمريكا وفي آسيا واستراليا وأفريقيا، وسائر أنحاء الأرض.

الفصل الثاني

العَلمانيّــــة

نشــأتهــا :

١ - أهم العوامل التي صاغت الفكر الأوروبي:

لقد ذكـرنا في الفصل السابق خمسة عـوامل رئيسة أثرت في صياغـة الفكر الأوروبي نوجزها هنا للأهمية والتأكيد بنقاط ثلاث :

أ - امتداد تأثير الـوثنية اليـونانية والـرومانية في الفكـر الأوروبي حتى يومنـا هذا . وهذه الـوثنية هي انحراف عن الفطـرة التي فطر الله الناس عليهـا ، وعن رسالة التـوحيد التي جاء بها رسل الله ، فقد بعث الله في كل أُمة رسولاً.

ب - مجيء النصرانية إلى أوروبا ودخـولها في صراع شديد طويل مع الـوثنية ، ابتدأ بالصمود ، وانتهى بـالتنازل عن أسس رسالة التوحيد التي جـاء بها عيسى عليه السلام ، وبأخذ بعض التصورات والطقوس عن الوثنية .

جـ - الإسـلام الذي حكم الأندلس قرونـاً طويلة ، واقترب في زحفـه من باريس ، الإسلام الذي اتصلت به أوروبا من الشرق من خـلال علاقات سلم وحرب ، ومن خلال الحروب الصليبية ، ومن خلال الهند وجنوب شرق آسيـا ، ومن خلال شمال أفريقيا ، ومن خلال الـدولة العثمانية ، الإسـلام الذي أصرّت أوروبا على حـربه وصدّه عنهـا ، ومازالت تحاربه . لقـد فتح الإسلام لأوروبـا أبواباً واسعـة من العلوم فأخـذت منها ، وقـدّم لها نور الإيمان والتوحيـد فصدته وأغلقت الأبواب دونـه . ولكن الإسلام ماضٍ في نشر نـوره إليها وإلى الأرض كلهـا بإذن الله ، وسينتصر الإسـلام بجنـوده الربـانيين الـذين يصـدقـون الله ورسوله ، ويطرقون أبواب الجنة بصدقهم ووفائهم بعهدهم مع الله .

٢ - أهم العصور التي مرّ بها الفكر الأوروبي :

ومع هذه العوامل الرئيسة مرّت أوروبا بعصـور متعددة حتى يومنا هذا ، تكاد تدور

كلها حول موقف أوروبا من الدّين بعامة ومن النصرانية ومن الإسلام بخاصة. ويمكن أن نوجز هذه العصور بخمسة عصور للإيضاح، علماً أنه من الصعب أن نضع حداً فاصلاً بين عصر وعصر، ويختلف تحديد العصور، عددها ومدتها من مؤرخ إلى آخر:

أ - عصر الظلمات: Dark Ages: ويمتد من سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية سنة ٤٧٦م حتى نهاية القرن الثاني عشر. ويسمى أيضاً العصور الوسطى Middle Ages ويختلف تحديد فترته بين المؤرخين.

ب - عصر النهضة The Renaissance: ويمتدّ حسب بعض التقديرات من منتصف القرن الرابع عشر حتى بداية القرن السادس عشر. وتشير هذه النهضة إلى العودة إلى الثقافة اليونانية والرومانية الكلاسيكية. ويعتبر بعضهم أنها تمتد حتى منتصف القرن السابع عشر.

جـ - عصر الإصلاح Reformation Period: وتشير هذه الفترة إلى حركة الإصلاح الديني في أوروبا ضد الكنيسة الكاثوليكية. ولكنها بدأت عمليا بالتحدي الذي قام به مارتن لوثر (١٤٨٣-١٥٤٦م) سنة ١٥١٦م ضد البابا. وانطلق نتيجة لذلك المذهب البروتستنتي. ومع أن حركة الإصلاح ابتدأت دينية، إلا أنها أثارت حركة إصلاح اجتماعية وسياسية. ومع محاولتها التمسك بنصوص «الكتاب المقدّس» الذي سبق أن عرضنا كيف دخله التحريف، إلا أنها بسبب ذلك لم تستطع العودة الصادقة إلى التوحيد.

د - عصر التنوير: Enlightment Period: وتمتد هذه الفترة حتى بداية القرن التاسع عشر. وقد ظهرت خلال هذه الفترة أشد الأفكار ابتعاداً عن الدين وتمسكاً بالعلم والعقل والتجارب. وظهر فلاسفة متعددون أرسوا قواعد «التحرر» كما يسمونها، ولكنها كانت قواعد تقييد وتحلُّل وفتنة، وعصر ظلمات أشد من سابقتها. ومعظم الفلسفة والأفكار كان ردّ فعل ضد الكنيسة التي ساءت سمعتها، وضد الدين النصراني الذي عجز عن تقديم حلول لمشكلات أوروبا. عجز عن ذلك لأنه لم يكن مؤهلاً لهذه المهمة، فهو دين جاء من عند الله وحياً على عيسى عليه السلام لقومه خاصة، وليس للناس

كافة ، وكذلك لما دخل عليه من تحريف .

هـ - العصر الحديث : Modern Age : وهو امتداد للتحلل الذي برز مع العصور السابقة . ففيه ظهرت الاشتراكية والشيوعية وانطلقت العَلمانية ، وأعلنت معظم دول أوروبا نفسها دولاً علمانية .

إن الوثنية اليونانية التي امتدت إلى روما وسيطرت على فكرها وأدبها ، امتدت كذلك في أعماق الفكر الأوروبي ، وظلت «الأساطير» اليونانية والرومانية أساساً لكثير من الفلسفات والتصورات والأدب في أوروبا ، ودخلت في جميع العصور التي سبق ذكرها ، ومازال الكثيرون حتى اليوم يمجّدون الفكر اليوناني والروماني ، وحتى اللغة اليونانية والرومانية .

إن تقسيم العصور على النحو الذي عرضناه صورة من صور التقسيم . وربما آثر آخرون أن يتجهوا إلى تقسيم آخر ، إلى تقسيم العصور إلى ثلاثة عصور : العصور القديمة Ancient Ages ، العصور الوسطى The Middle Ages ، والعصور الحديثة The Modern Ages . ولكن العوامل الرئيسة تظل واحدة مهما اختلف تقسيم العصور.

٣ - أهم آثار صراع النصرانية مع الوثنية وظهور العلمانية :

لقد استمر الصراع بين الوثنية والنصرانية أكثر من ثلاثة قرون ، كما ذكرنا في الفصل السابق . ولقد كان من أهم آثار هذا الصراع هو زيادة التمسك بالآثار اليونانية الفكرية والأدبية والدعوة لها ، خاصة وأن النصرانية لم تستطع أن تقدم للمجتمع الأوروبي حلولاً لمشكلاته وإجابات على تساؤلاته ، ولم تستطع أن تحدِّد موقفاً واضحاً مقبولاً من العلوم . فدخلت النصرانية في هذه العصور في صراع في ثلاثة ميادين : صراع مع الوثنية ، صراع مع العلوم والعلماء ، صراع مع السلطة الحاكمة من ملوك وأمراء .

أما صراعها مع الوثنية فقد انتهى عندما تنازلت النصرانية عن بعض أسس التوحيد الذي جاء به عيسى عليه السلام ، كما عرضنا في الفصل السابق .

أما الصراع مع العلم فقد تولته الكنيسة واصطدمت مع العلماء وأحرقت بعضهم أحياءً ، وحكمت بالموت على آخرين . لقد ترك هذا الصراع ردود فعل سيئة ضد الدين .

وصار من الصعب التوفيق بين «اللاهوت» والعلم.

أما الصراع مع الملوك فلم يكن أحسن حالاً. فقد أذلَّت الكنيسة الملوك، وترك الصراع ردود فعل سيئة ضد الكنيسة وضد الدين.

لقد حاولت الكنيسة التوفيق بين اللاهوت والعلم. فلجأت إلى الفكر اليوناني، لجأت إلى فلسفة «أرسطو» تستنجد بها. فقامت فلسفة في عصر النهضة تُسَمَّى «السكولاستية Scholasticism» مبنيّة على منطق أرسطو ومفهومه لما وراء الطبيعة، في محاولة لإخضاع الفلسفة للاهوت أو للتوفيق بينهما. وكان من أبرز رجالها «توما الأكويني» الذي حاول أن يقيم صلة بين العقل والدين، لشدة ما كان يبدو من تنافر بين المفاهيم النصرانية آنذاك وبين النشاط العلمي. ولما ازداد هذا التنافر أخذت تظهر ردود فعل ضد «الفلسفة السكولاستية».

ولذلك أخذت الفلسفة تتجه إلى التصورات الدنيوية المعزولة عن الدار الآخرة، بعد أن فشل الدين في تقديم حلول وأفكار تنسجم مع واقع الحياة الدنيا. فظهرت «الحركة الإنسانية الدنيوية العَلْمانيّة Secular Humanism»، حيث تعني كلمة Secular دنيوّياً عَلْمانيّاً، مرتبطاً بالدنيا، منعزلاً عن الآخرة[١].

وكانت تهدف هذه الحركة إلى إحياء الفلسفة اليونانيّة وفكرها، وآدابها التي كانت تسمى الآداب الكلاسيكية. كما كانت تهدف إلى ترسيخ التصوّر الدنيوي معزولاً عن الدين وعن الدار الآخرة وكل مايتعلق بها من تصورات ومفاهيم. وهكذا ازداد نفوذ الفكر الوثنى اليوناني وأدبه وفلسفته، وازداد البعد عن التصورات المرتبطة بالدار الآخرة وبالدين. وكان معظم أتباع هذه الحركة من «اللاأدريين Agnostics» أو «الملحدين Atheists»[٢].

وبدأت العَلْمانية تمتدّ إلى الفكر والفلسفة والأدب، تعزل التصورات والنشاط والقوانين عن الدار الآخرة. لقد كانت حركة ضد اللاهوت وضد الدين. لقد كانت هذه الحَركة «العَلمانية»، وهي تقاوم اللاهوت والسكولاستية، تركِّز على الفرد وحرّيته ومصالحه

(١) العَلْمانية بفتح العين لابكسرها مشتقة من كلمة «العَلْم» التي تعني العالم الدنيوي.

(٢) الموسوعة العربية العالمية: (ج: ١٦)-(ص: ٤٠٢) الموسوعة الأمريكية New Standard Encyclopedia - (مجلد: ٨) - (ص: H-309).

الدنيوية . لقد ابتدأت هذه الحركة في إيطاليا ثم امتدت إلى أوروبا وخاصة أوروبا الغربية .

يعتقد المؤمنون بهذه الحركة «الإنسانية العَلمانية» أن على الإنسان أن يعتمد كليا على نفسه، وعلى مصادره الخاصة، وعلى قوته الذاتية، للوصول إلى حياة دنيوية طيبة، دون أن يلجأ إلى مصادر خارجة عنه أو مصادر غيبية، وأخذ التصوّر الدنيوي العَلمانيّ المعزول عن الآخرة والدّين وما يتصل بهما يستقرّ ويمتد في الفكر الأوروبي إلى ميادين مختلفة .

فامتـدّت «العَلمانية» إلى السيـاسة والفكـر السياسي على يـد رجل الدولـة الإيطالي «نيكـولو ميكـايـافيليNicolo Machiavelli» (١٤٦٩م-١٥٢٧م) وخـاصة في كتـابـه «الأمير The Prince» الذي قدّمه إلى «لورنزو دي ميدسيLorenzo de Medici» حاكم فلورنس في إيطاليا . وفي هذا الكتاب ينصح الحكام أن لايتقيّدوا بقواعد الأخلاق إذا رغبوا في ثبات سلطـاتهم ونموّه، وأن يـزاوجوا في الأسـاليب والمرواغة والخداع . وأطلق في كتـابه هذا الجملة الشهيرة التـي انتشرت في الأرض كلها تزرع الفتنة والفساد، ألا وهـي : «الغاية تسوّغ الـوسيلة» . فامتدّت العَلمانيـة «بماكيافيلي» خطوة بعيـدة في الإفساد في الأرض، وفي الابتعاد عن الدين وعن تصـورات الدار الآخرة والإيمان بالله وبيـوم الحساب . وأصبح هذا النهج العَلماني في دنيا السيـاسة يُسمّى «بالماكيـافيليّة Machiavellianism» . ولقد ساد هـذا الأُسلوب السيـاسيّ العَلمانيّ دولَ أوروبا، وأخـذ يمتدّ في الأرض، حتى أصبح اليـوم قاعـدة التعامل السيـاسي، حيث لايخضع هذا التعـامل اليوم لأيِّ قيم خلقيـة أو دينية، وإنما على المصالح الخاصـة، المصالح المادية الدنيـوية التي تتنافس عليها الـدول، ويدور عليها الصراع، وتُسْحق من خـلالها حقوق الإنسان وشعـاراتها، وتُسحق القيم والمبادىء التي بنـاها الإنسان، وتسحـق فيها الشعوب، ولكـن تُرْفع شعـارات مُزخـرَفة من قضـايا مختلفة تؤثر في الناس وتخدّرهم .

لقـد صـاحب هـذا الاتجاه «العَلماني» تصورات متعـددة كلهـا تجمع على استبعـاد الدين ومـا يتصل به، وتصورات تخالف العَلمانية وتتمسـك بالدين . وظل الدين ورجـاله يصارعون حتى هُزِموا وحتى امتدت العَلمانية بفلسفاتها المختلفة .

لقد ظهـر مذهب الشك مع القرن السـادس عشر . ومذهب الشك قـديم في حياة

البشرية عامة، وظهر في الفكر اليوناني في المدرسة «البيرونية» التابعة «لبيرون» (٣٦٥ق. م-٢٧٥ق. م). وظهر في المدرسة الأكاديمية التي هي مدرسة أفلاطون (٤٢٧ق. م - ٣٤٧ ق. م) بعد أن تسرّب الشك إليها. وامتد الشك في المدرسة الأكاديمية بعد أفلاطون من ٣١٦ق. م حتى ١٢٨ق. م. وأما مذهب الشك فنعتقد أنه ممتد في حياة البشرية. وينتهي عند بعضهم إلى الكفر والإلحاد، وينجو بعضهم فيهديهم الله إلى الإيمان، ويبقى بعضهم حيران في ظلام الشك.

ومذهب الشك قديم في حياة الإنسان منذ بدأ الكفر في الأرض، ومنذ أرسل الله رسله إلى الناس، وكان نوح عليه السلام أولهم. وكان الكافرون يردّون على الرسل عليهم السلام بالكفر والشك. ويصور لنا القرآن الكريم هذا الشك في سور عدة. ونأخذ هنا قبسات من هذا العرض الرباني:

﴿ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبيّنات فردّوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أُرسلتم به وإنا لفي شكٍّ مما تدعوننا إليه مريب * قالت رسلهم أفي الله شكٌّ فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى...﴾

[إبراهيم : ٩، ١٠]

وموقف آخر مع صالح عليه السلام وقومه:

﴿قالوا ياصالح قد كنتَ فينا مرجوّاً قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب﴾ [هود: ٦٢]

وهكذا نرى قضية «الشك» ممتدّة في التاريخ البشري كلما انحرف الناس عن الدعوة الربّانية الحق.

وأخذت العَلمانية تمتدّ في أوروبا في أقطارها المختلفة، وتتغلغل في الفلسفة والفكر، والأدب والفن، والسياسة والاقتصاد، وفي سائر ميادين الحياة، وتنشر الشك أو الكفر الصريح أو اللامبالاة في جذور الاعتقاد الديني.

ولكن بقي في بعض الناس أثر من جذوة الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وأثر

من رسالات الأنبيـاء والمرسلين، وأثر من النصرانية وصراعها، ليمتـدَّ الصراع في أوروبا في ميـادين متعـددة من الحيـاة من خـلال هـذه البقية من الفطـرة والـرسـالات ومن خـلال المصالح المادية.

ولقد كـان من أبرز رجال مـذهب الشك في أوروبا : مـونتاني (١٥٣٣-١٥٩٢م) وشارون (١٥٤١م-١٦٠٤م)، جـاسندي (١٥٩٢م-١٦٦٥م)، هـوويت (١٦٣٠م-١٧٢١م). وبَلْوَرَ «بييريبل» (١٦٤٧م-١٧٠٦م) نتائج نـزعة الشك بقوله : إنـه لايمكن التوفيق بين الإيمان والمعـرفة. ومن مـدرسة الشك خـرج «اللا أدريـونAgnostics»، وخرج كـذلك «الملحدونAtheists»، ليمثلوا اتجاهين رئيسين من اتجاهات العَلمانية الممتدة.

٤ - انفجار العلمانية إلى مذاهب تترك الدين وتعزله أو تحاربه :

بالإضـافة إلى المذاهب العلمانيـة التي سبق ذكـرها، فقـد ظهرت مذاهـب أُخرى، كان من أهمها المذهب التجـريبي. ونعتقد أن جذور التجربة العلمية أخـذها الأوروبيون عن الإسلام. «فـروجر بيكونRoger Bacon» (١٢١٤م-١٢٩٤م) الإنجليزي استفاد كثيراً من ابن رشـد وغيره من علماء المسلمين. فقـام بتجـارب لصنـاعة البـارود وحـاربتـه الكنيسـة، وأثارت أعمالـه صـدى واسعاً وشكـوى كثيرة، وربما وجـدنـا أثار هـذا الاتجاه التجريبي قديماً عنـد اليونان عند بـروتاجوراس Protagoras(٤٨٠ق.م-٤١٠ق.م). وكذلك نعتقد أن التجـربة قديمة في حياة الإنسـان، ومع مختلف الشعوب. ولكن أوروبا أخـذت النهج التجـريبي عن المسلمين وعـزلتـه عن التصور الإيماني الـذي كـان الـدافع الـرئيس الذي يـوجه معظم علماء المسلمين. فأصبح المنهج التجـريبي في أوروبا منهجـاً عَلمانياً بدلاً من أن يكون منهجاً إيمانياً.

وكـان ممن مضى في المذهب التجـريبي كحـركـة عَلمانيـة بعيـدة عن الـدين علماء وفـلاسفـة متعـددون. كـان من بينهـم «فـرانسيس بيكـونFrancis Bacon»

(١) يـراجع كتاب «الصحـوة الإسـلاميـة إلى أين» للمؤلف - (ط : ٣) الفصـل الأول الباب الثـالث : «الواقع الدولي وسنن الله الثابتة» من أجل دراسة أوسع عن سنن الله الثابتة.

(١٥٦١م-١٦٢٦م)، «وجون لوك الانجليزي John Locke» (١٦٣٢م-١٧٠٤م) الذي عارض الحق الإلهي للحاكم واعتبر التجربة أساس المعرفة، فطرح «المذهب التجريبي Empericism» وناقش التسامح الديني دون أن يصل إلى الإلحاد ولا إلى التعصب الكاثوليكي الكنسي. وكذلك الفيلسوف الفرنسي «بيتر بيلي Pietre Bayle» (١٦٧٢م-١٧٠٦م).

ويبني الفيلسوف الفرنسي «أوجست كومت August Comte» (١٧٦٨-١٨٥٧م) في القرن التاسع عشر «المذهب الوضعي Posihve Philosophy» على أساس هذا المذهب التجريبي.

وعند «رينيه ديكارت الفرنسي René Descartes» (١٥٩٦-١٦٥٠) يظهر موقف مغاير لتلك المذاهب من الدين. فقال إن الكمال المطلق لله موجود في أذهاننا منذ الأزل، وكأنه يحاول أن ينقل رأي الإسلام وتصوّره عن الفطرة والإيمان المغروس فيها. وهو القائل: «أنا أفكر فأنا موجود».

وامتد المذهب التجريبي مع الفيلسوف الإنجليزي «ديفيد هيوم David Hume» (١٧١١م- ١٧٧٦م)، فلم يُردْ أن يستثني فكرة الأُلوهية من مذهب التجربة الحسّية. إنه يعتقد أن أفكارنا جميعها ترجع إلى انطباع حسّي.

وتمتد الانحرافات عند اسبنيوزا (١٦٣٢م- ١٦٧٧م) الذي اعتبر أن الله سبحانه وتعالى منساب في الطبيعة، وليبنتز (١٦٣٨م- ١٧١٥م) الذي وضع الطبيعة مساوية لله سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً.

ويظهر الفيلسوف البريطاني توماس هوبز Thomas Hobes (١٥٨٨م-١٦٧٩م) ليستقر لديه مبدأ فصل السياسة عن الدين والأخلاق مقتديا بالفلسفة الميكيافيلية. ثم يساهم في ترسيخ هذا الاتجاه ثلاثة من المفكرين: رجل القانون الفرنسي «جين بودين»، وعالم السياسة الألماني «جوهانس التيسيوس»، والمحامي الهولندي

«هوجو جروتيوس» الذي وضع الأسس لعلم القانون الدولي[1].

و«هوبز» كانت فلسفته ماديّة، فهو يرى أنّ العالم يتألف من أجسام تتحرّك، وأن الله سبحانه وتعالى مادة وصفها «بالروح المادية Corporeal Spirit»، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً. ومن أهم كتب هوبز «ليفياثانLeviathan» الذي مثّل فيه الدولة ذات الحكم الديكتاتوري بالوحش البحري الهائل الشرّير الذي تعبّر عنه كلمة «ليفياثان»!

٥ - حركة الإصلاح الديني:

على أثر صراع النصرانية مع الوثنية والعلم والملوك في أوروبا، وفشلها في تقديم حلول، وظلمها وانحرافها، ظهر رجال يحاولون الإصلاح الديني. وكان من أهمهم «مارتن لوثرMartin Luther» (١٤٨٣م- ١٥٤٦م)، عالم وراهب ألماني انتقد مذهب الكنيسة الكاثوليكية وهاجمها. لقد سبق لوثر بهذا الانتقاد والهجوم آخرون مثل «هوس» و«سافونا رولا»، وقد دفعا حياتهما ثمنا لهذا الانتقاد. وكان من أهم ما أثار الناس هو أن بدأ البابا يبيع ما يسمى بصكوك الغفران. وترجم لوثر الكتاب المقدس إلى اللغة الألمانية فوضع بذلك أساساً للغة الألمانية الأدبية. وقد جرّد لوثر بحركته ومذهبه الجديد الذي أصبح معروفاً باسم البروتستانتية، جرد النصرانية من أي تفاعل مع مشكلات الحياة وحصرها لتكون علاقة بين الإنسان وربه. فمهّد بذلك لانعزال الدين عن السلطة. وامتدت حركته في أوروبا وأمريكا وغيرهما. ولم تساعد هذه الحركة على إصلاح الأخلاق، وإنما دفعت الناس إلى البحث عن الرخاء المادي، وساعدت على الانحلال الخلقي والاتجاه العَلماني.

وجاء بعده «جون كلفن John Calvin» (١٥٠٩م- ١٥٦٤م). فلم يأخذ ببروتستانتية لوثر. وأصبحت حركته تعرف «بالكلفانية Calvanism»، وهو فرنسيٌّ

(١)الموسوعة العربية العالمية - (ج: ١٦)-(ص: ٤٠٢).

انطلق بحركته من فرنسا وامتدت إلى الأراضي المنخفضة واسكوتلندة وأمريكا وانكلترا وألمانيا ووسط أوروبا. وهذه الحركات كلها كانت ردود فعل لظلم الكنيسة وفشلها.

وظهرت كذلك حركة «الجزويتJesuits» كحركة تحاول الإصلاح الداخليّ في الكنيسة الكاثوليكية في القرن السادس عشر. وتكوّن لهذه الحركة أتباع يلتزمون بقسم يؤدونه ، محوره: الفقر والطهارة والطاعة. وتكون لها معاهد وكليات، حتى كانوا يسمون «أساتذة أوروبا Schoolmasters of Europe» . ولقد أسس هذه الحركة «إجناتيوس» من ليولا في مدينة باريس مع ستة من رفقائه سنة ١٥٣٤م. وأقرّها البابا بول الثالث سنة ١٥٤٠م.

٦ - الحركة العلمية وصراع الكنيسة معها:

كان من أخطر آثار الصراع بين النصرانية والوثنية أن تسرّبت بعض الأفكار العلمية غير الثابتة عن طريق الوثنية ودخلت في الدين النصراني وتبنتها الكنيسة .

ولما أخذت الأبحاث العلمية والدراسات والتجارب تظهر نتائجها مخالفة لما سبق أن تبنّته النصرانية وكنيستها، وقع الصدام بين الكنيسة والعلماء. فظهر من العلماء «نيكولاس كوبرنيكوسNicolas Copernicus» (١٤٧٣م- ١٥٤٣م) الفلكي البولوني الذي قال إن الأرض وكواكب أخرى تدور حول الشمس، و«تيكو دي براهي Tycho de Brahi» (١٥٤٦م- ١٦٠١م) الفكلي الدانمركي الذي اكتشف أجراماً سماوية جديدة سمّي أحدها باسمه، وغاليلو غاليليGalileo Galilei (١٥٦٤م- ١٦٤٢م) العالم الإيطالي الذي اخترع المنظار الفلكي، واكتشف حركة البندول أو الرقاص، واكتشف أن الأجسام تسقط بنفس السرعة في الفراغ مهما اختلفت أوزانها، و«جوهانس كبلر Johannes Kepler» (١٥٧١م- ١٦٣٠م) العالم الفلكي الألماني الذي وضع القوانين الثلاثة لحركة الكواكب والتي بني عليها إسحق نيوتن قوانينه في الحركة. ولقد استفاد كبلر من دراسات براهي وملاحظاته في وضع قوانينه.

وقد استقبلت الكنيسة الكاثوليكية والبروتستانتية هذه النظريات بالعداء الشديد والمقاومة، بعد أن شعرت الكنيسة أن هذه النظريات تزلزل مكانتها وتكشف عيوبها

وأخطاءها العلمية التي تعطيها صفة القداسة وتنسبها إلى الله . وقامت محاكم التفتيش واستمرت حتى نهاية القرن السادس عشر. فأدانت جاليلو سنة : ١٦١٦م، وأجبرته على سحب أقواله، ورضي بذلك كما يبدو حتى يستطيع متابعة عمله . أما الفيلسوف الإيطالي جيوردانو برونو Giordano Bruno (١٥٤٨م- ١٦٠٠م)، فقد رفض سلطة الكنيسة وأفكارها، ورفض النظرية القائلة بأن الأرض هي مركز العالم، وقال بأن الكون غير محدود، ويضم عوالم كثيرة، وأن الكون آية دالة على وجود الله، وأن الله هو المصدر الأساسي لكل شيء. ولما طورد هرب وأُلقي عليه القبض في فينيس سنة ١٥٩٣م، وحكم عليه بالموت بعد أن رفض تغيير معتقده، وأُحرق على عمود خشبي حياً.

هذا الصراع مع العلماء بعث النفور في نفوس الناس من الكنيسة، ثم من الدين كله وتصوراته، وأخذ العلم والبحث يشق طريقه قدماً مستقلاً عن الدين أو محارباً له، وأخذت الكنيسة تضعف، وأخذت العَلمانية تترسّخ في الواقع الأوروبي.

ولابد أن نشير هنا إلى أن هذه الحركة العلمية لم تظهر في أوروبا إلا بعد أن أخذت أوروبا الكثير من العلوم التي بناها المسلمون في مختلف الميادين كالرياضيات والضوء والفيزياء والكيمياء والطب، ودراسات في علم الاجتماع وغيره. ومن المؤسف أن قليلاً من علماء أوروبا اعترف بما كان لعلماء المسلمين من فضل عليه وعلى غيره.

والناحية الأخرى أن أوروبا أخذت العلوم الدنيوية عن المسلمين، دون أن تأخذها مرتبطة بالإيمان والتوحيد وبدين الإسلام. فقد عزلتها عن الدين فخسرت أوروبا بذلك خسارة كبيرة، وزادت في ترسيخ الاتجاه العَلماني. وأصبح العلم في أوروبا مفصولاً عن الدين أو معادياً له أو مهملاً له. ومن هنا ظهر ما يمكن أن نسميه «بالعِلمانية» بكسر العين، «العِلمانية Scientism» وهي الحركة التي توجّه العِلْمَ بعيداً عن الدين أو محاربة له.

٧ - السلطة الزمنية وصراعها مع الكنيسة :

لقد تحوّلت الكنيسة إلى سلطة دينية تدَّعي الحق الإلهيّ لها، وأنها نائبة عن الله في الأرض، وأن لها سلطة مطلقة. فكان لابد أن تصطدم مع الملوك وأصحاب السلطة. ولقد تمادت الكنيسة كثيراً في هذا الاتجاه، لا على أساس قناعة إيمانية ونهج ديني جاء به

عيسى عليه السلام، ولكن على أساس مصالح دنيوية مادّية اكتسبتها الكنيسة من خلال صراعها الطويل الذي عرضناه.

فلقد دخل البابا غيريغوري السابع في صراع طويل مع إمبراطور روما المقدسة «هنري الرابع Henry 4» (١٠٥٠م- ١١٠٦م) بسبب خلافهما حول من يمنح الألقاب للأمراء والأدواق في الامبراطورية. فجرد البابا الامبراطور هنرى الرابع من حقوقه الكنسية، وأجبره على الاستغفار والمجيء إليه إلى اجتماع الخزي في قلعة كانوسا سنة ١٠٧٧م، وتركه ينتظر على باب القلعة حتى أفلحت الشفاعة، فدخل حافياً صاغراً ذليلاً يلتمس الرحمة والغفران من سدة البابا.

ولكن الصراع استمر حتى استطاع الإمبراطور طرد البابا غيريغوري السابع عن عرش البابوية سنة ١٠٨٤م، وعيّن مكانه منافِسه البابا كلمنت الثالث. لقد ساهم هذا الصراع كذلك في زعزعة مكانة الكنيسة في قلوب الناس، وزعزعة مكانة الدين في نفوس الكثيرين، وساهم في امتداد «العَلمانية» في مختلف نواحي الحياة في أوروبا.

لقد تضاءلت سلطة الكنيسة الكاثوليكية على أثر هذه الصدامات المتتالية. وأخذت الكنيسة الكاثوليكية تمر بفترات قوة وضعف. وفي إنكلترا اصطدم هنري الثامن مع الكنيسة وتسلّم جميع شؤونها وممتلكاتها على أثر حركات الإصلاح الدينية. ولكن في سنة ١٨٢٩م أعاد البرلمان للكنيسة الكاثوليكية سلطتها ورفع القيود التي كانت عليها. وكذلك في فرنسا ساعدت الحركة الرومانسية وردود الفعل ضد تجاوزات الثورة الفرنسية على إعادة النشاط للكنيسة الكاثوليكية. ومع نهاية القرن التاسع عشر تصدت الحركات القومية الوطنية والشيوعية والليبرالية لسلطة الكنيسة وتعاليمها في أوروبا. وفي سنة ١٨٧٠م استولت الملكية على الحكم في روما وأنهت النفوذ البابوي. واستمر ذلك حتي سنة ١٩٢٩م، حين قامت دولة الفاتيكان كوحدة سياسية بعد أن استقرّ الحكم العَلماني في جميع دول أوروبا.

٨ - اليهود ودورهم في تغذية العَلمانية وترسيخها:

إن من أبرز الظواهر في تاريخ اليهود ظاهرة التناقض العجيبة. فحين تراهم

يغضبـــــــون ويثورون من أجل ادعاءات دينية، فإنهم يخالفون الدين ويحملون تصورات دنيوية معزولة عن الآخرة.

لقد وضح من تاريخهم منذ أيام موسى عليه السلام، وحين تاهوا في صحراء سيناء عقوبـة من الله لهم، وخلال إقامتهم القصيرة في فلسطين، إقامتهم الطـارئة، وخلال فترة السبي والنفي، لقـد وضح من هـذا التاريخ كثـرة مـؤامـراتهم، وشدة تحريفهم للتـوراة، وابتداع أفكـار شيطانيـة وضعوها في التلمـود الذي يعلّمون أبنـاءهم أنه الكتـاب الرئيس الذي يعلمهم كيف يعملون ويتصرّفون، وكثرة خداعهم، وتقلّبهم، وغدرهم بمن يحسن إليهم، حتى أصبحت هـذه الخصائص بعض الصفـات الرئيسة في طبـاعهم وسجيتهم. فكانـوا بذلك عنصراً أسـاسياً في نشر الفساد والضـلال في الأرض. وبذلك كـانوا عـاملاً هاماً من العوامل التي رسّخت الأفكار العَلمانية في مختلف المناطق التي أقاموا فيها.

وفي القـرن السادس عشر بـرز نشـاط جمعياتهم ومـؤسسـاتهم في أوروبا، وبصـورة خاصة «الماسونية» وجمعيـة الإنسانيين. واشتد نشاطهم في نشر الانحلال الخلقي والإلحاد وسائر أوجه الفسـاد. واستغلوا ظهور الطباعة فنشروا أفكـارهم بمئات الكتب والمصادر، ونشروا نظريات منبثقة عن التوارة والتلمود، ليخالفوا بها تعليمات الكنيسة الكاثوليكية.

ولما قام لـوثر بحركته الإصـلاحية دعموه وأيدوه ضـد الكنيسة، ولما كشف تقلبهم انقلب عليهم وكشف خبيئة نفوسهم، فانقلبـوا عليه. واستفادوا من الحروب الدينية التي قامت، وجنـوا مكاسب هـائلة مستفيدين من الخدمـات المالية الربـويّة التي يقـدّمونها. وأقاموا مشروعات اقتصادية وإعلامية.

وفي القـرن الثامن عشر كـانـوا عنصراً رئيساً في التخطيط للثـورة الفـرنسية، فجنـوا مكـاسب قبل الثورة وخـلالها وبعـدها، حتى أصبح لهم نفـوذ مسيطـر كبير في فرنسـا في معظم ميـادين حياتها، وخـاصة الاقتصاديـة والإعلاميـة، مما سهل لهم الطـريق لترسيخ الفكر العَلماني في فرنسا وغيرها(١).

(١) س. نا جي: المفسدون في الأرض - (ص: ٢٧٢- ٢٧٥).

ومن خلال ذلك وطدوا علاقتهم مع نابليون بونابرت، ودعموه مالياً حتى أصبحوا يتحكمون بوضعه المالي. ومن جانب نابليون فقد قدّم لهم مساعدات كثيرة، وفتح لهم أبواباً واسعةً في كل بلد كان يحتله، وكان من أوائل من دعَوا إلى أن يتجمع اليهود في فلسطين، ووعدهم بإعادتهم إلى القدس، وإعادة بناء هيكلهم.

لقد نمت الدعاية اليهودية والنشاط اليهودي في أوروبا في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وزاد نموّه بشكل كبير في القرن التاسع عشر. فاستطاعوا بذلك أن يغرسوا في أوروبا وأمريكا أفكار الإلحاد والانحلال. واحتلوا مراكز رئيسة في دول أوروبا، وظهر علماء من اليهود يحوّرون العلم إلى صور عَلمانية إلحادية مثل داروين وفرويد ودركهايم وكثير غيرهم.

لقد استغل اليهود سيطرة نابليون على ألمانيا، فتمكنوا من الاستيلاء على مقدراتها المالية والاقتصادية، واحتلوا مراكز ذات جاه ونفوذ، وامتهنوا الحرف الحرة، وأصبح منهم مستشارون للدولة، وبلغت نسبة الأطباء منهم ٨٠٪، ونسبة المحامين ٧٠٪، وسيطروا على الميادين الصحية والعدلية، وتركوا أحياءهم القديمة ليعيثوا في الأحياء النصرانية فسقاً وفساداً، وليستولوا على أسواق البورصة والتجارة الخارجية، حتى كادت ألمانيا تصبح شبه مزرعة يهودية .

وأخذت الدول الأوروبية والأمريكية ترفع قيودها عن اليهود بلداً بلداً: فبسمارك رفع القيود عنهم سنة ١٨٧١م، وإيطاليا سنة ١٨٧٠م، وبريطانيا سنة ١٨٩٠م. أما أمريكا فقد رفعت القيود سنة ١٧٨٧م. وكأن خطاب بنيامين فرنكلين الذين طالب فيه إبعاد اليهود عن أمريكا، والذي ألقاه سنة ١٧٨٩م عند وضع دستور الولايات المتحدة الأمريكية لم يكن له أثر، فامتد نفوذ اليهود في أمريكا بصورة واسعة. وأما في فرنسا فقد رُفعت عنهم القيود سنة ١٧٩٠م.

إذن كان هناك قيود على اليهود في أوروبا وأمريكا، وكان هنالك تضييق أو مجازر نتيجة لتآمرهم على تلك البلاد. ولكن اليهود لم تتوقف مؤامراتهم وإنما اتخذت أسلوباً جديداً ينتهزون به كل فرصة لنيل تأييد أو حماية أو رفع قيود.

وسـواء أكـانت القيود مـرفـوعـة أو مـوضـوعة فإنهم ظلُّـوا ينشرون الفكـر العَلمانيّ بمختلف الوسائل والإمكانات، وما زالوا حتى اليوم.

هذه أمثلة سريعـة موجزة. ولو تتبعنا نشـاط اليهود في سائر الدول لوجـدنا النتيجة ذاتها. ولقد كان اليهود أساس الفكـر الاشتراكي الشيوعي، وكانوا من أهم العناصر التي دعمت الثـورة الشيوعيـة، كما كانـوا من أهم العناصر التي هـدمت الاتحاد السوفيـاتي في القرن العشرين.

لقد امتدت جرائم اليهود وامتد نفوذهم في أقطـار شتى: فرنسا، بريطانيا، ألمانيا، إسبانيـا، المجر، بولونيـا، رومانيا، تـركيا، قبرص، اليونـان، إيطاليا، أمريكـا، وبلدان أخرى. كما كـان لهم نشاط في أحـداث الصين مع انهيار النظـام الملكي. وكذلـك اليهود الذين طُردوا من ألمانيا لجأ بعضهم بهدوء إلى اليابان وبدأوا ينشرون سمومهم فيها.

من خلال هذا التاريخ الطويل الممتد في الأرض وفي الـزمن كان اليهود عاملاً هاماً في ترسيخ العَلمانيّة حيثما حلّوا فكراً وسياسة «ميكيـافيلية»، ومسالك لا أخلاقية، وتحويراً للعلم ليحمل النظرة المادية الـلادينية المعزولة عن تصـور الألوهية والربوبيـة والدار الآخرة والغيب.

وكما أن اليهود كـان لهم دور كبير في نشر العَلمانيّة وترسيخهـا، ونشر مفاسـدها في ميـادين الاقتصاد والسيـاسة والاجتماع والأخـلا ق، فقد كـان للعَلمانية دور كبير جـدّاً في امتـداد نفوذ اليهـود في الأرض، وفي بروز التعـاون النصراني اليهـودي، وفي ظهور الحركـة الصهيونيـة كحركة عَلمانيّة ممتـدة بمؤسساتها، كما سنفصل ذلك في فصول مقبلـة إن شاء الله.

- امتداد نفوذ العَلمانية مع القرن الثامن عشر:

يُسمِّي بعضُهم القـرن الثامن عشر «عصر التنـوير Enlightment»، حيث أخذ يبرز الاتجاه العقلي المنعزل عن الدين. وقد أعد عدد من الكتـاب موسوعة كبيرة في فرنسا، أعـدهـا رجـال أداروا ظهورهم للـدين ورأوا في العلـم القوة التي تُعْبَـد، وجمعـوا في هـذه

الموسوعة العلمية المعارف العلمية المطروحة في زمنهم. وكان من بين هؤلاء العلماء «فرنسوا فولتير François Marie Arouet de Voltair» (١٦٩٤م- ١٧٧٨م)، و «دنيس ديدرو Denis Diderot» (١٧١٣- ١٧٨٤م) و «جان لوروند دالمبير Jean le Rond D'Alambert» (١٧١٧م - ١٧٨٣م) العالم الرياضي الفرنسي، و «جان جاك روسو Jean Jack Rousseau» (١٧١٢م - ١٧٧٢م) وقد كُتِبت الموسوعة في (٢٨) مجلداً تعبّر كلها عن الاتجاه العقلي وحرية التفكير. ولقد كان لها تأثير على إطلاق الثورة الفرنسية. وكانت الموسوعة مليئة بالزندقة والإلحاد. ويأتي الفيلسوف الفرنسي «شارك سيكوندات وبارون بريد مونتسيكيو Charles de Secondat and Baron de la Bréd (١٦٨٩م- ١٧٥٥م). لينتقد المجتمع الفرنسي بعينين مضطربتين. فقد كان يرى الفصل بين الأخلاق النصرانية والأخلاق الوضعية، ويؤيد النزعة القومية، ويرى أن يقوم التشريع على أساس من القوانين الوضعية. وكان فولتير يرى مذهباً أُلوهياً فلسفياً يُعادي فيه النصرانية من ناحية ويعادي الإلحاد من ناحية أُخرى. وكان يرفض فكرة العناية الإلهية. وأما روسو فقد طرح فكرة الدين المدني للمجتمع دون أن ينكر وجود الله معتمداً على العاطفة والأخلاق دون العقل. وأما ديدرو فقد عزل فكرة الألوهية عن أبحاثه العلمية، وأما دولباك (١٧٢٣م- ١٧٨٩م)، فقد أعلن المادية المطلقة، واعتبر أن المادة متحرّكة بذاتها، وأنه لايوجد للعالم إله يدبّره، ولا توجد أدلة مقبولة على وجود إله. لقد أعمى الله بصيرته وأضله. وكان معه مجموعة ملحدون يظهرون العداء لفكرة الألوهية والدين. وكان دولباك لعنه الله يتباهى بأنه العدو الشخصي للإله.

وتابع هذا الاتجاه المادي الإلحادي في القرن الثامن عشرة فلاسفة آخرون. مثل: دي لامتيري (١٧٠٩م- ١٧٥١م)، وهلنسيوس (١٧١٥م- ١٧٧١م)، وكابانيس (١٧٥٧م- ١٨٠٨م)[(١)].

ويعتبر «إمانيويل كانت Immanuel Kant» (١٧٢٤م- ١٨٠٤م) من أكثر الفلاسفة تأثيراً في القرن الثامن عشر. وهو فيلسوف ألماني تميّز بقضية السببية المحضة والسببية العملية والمحاكمة. ورأى أن طبيعة الله المتناهية لاسبيل للبحث عنها، وهاجم اللاهوت الطبيعي، وأرجع الدين إلى مجرد العاطفة. وهكذا مع «كانت» ظلت فكرة

(١) زكريا فايد: العلمانية النشأة والأثر في الشرق والغرب - الزهراء للإعلام العربي - (ط: ١) (ص: ٣٢-٣٨).

الأُلوهية مضطربة، ولم تستطع أن تتناسق عنده مع العقل والعلم، كما لم تتناسق مع غيره.

لقد أرسى القرن الثامن عشر والقرن السابع عشر العَلْمانيّة في الفكر الأوروبي ولدى الفـلاسفـة والأدباء والعلماء. لقـد نفض الكثيرون أيـديهم من الـدين وظنّـوا واهمين أنهم استراحوا بذلـك. وحاول بعضهم المواءمة بين العلم والدين الـذي كان لديهم بانحـرافاته وتناقضه وصراعه الطويل مع العلم ففشلوا وضلّوا.

لقد كان الخطأ الكبير الذي وقع فيه الفـلاسفة والعلماء أنهم حاولوا فهم الكون كله وتفسير غيبـه ومشهده بعقـولهم المحـدودة في زمن محدود ومسـاحة محدودة من الكـون. لم يدركوا، أو أنهم تجاهلوا، أن كل ما يعرفونـه من الكون، وكل مالديهم من العلوم، قليل جداً. ولعلهم لم يلاحظوا أنهم كلما اكتشفـوا جديداً في هذا الكون ظهـرت لهم آفاق أوسع من المجهول آفـاق أوسع. وكأنهم كلما درسـوا وعلمـوا ازدادوا جهـلاً، ولكنـه الكبر والغـرور يُضِلُّ ويُعمي أصحابـه. هذا بعد أن يئسـوا من أن تقدم النصرانية التصـوّر المتناسق الذي لا يصـادم الحياة والحقائق العملية.

من أهم معالم القرن الثامن عشر وعَلمانيته التشكيك في الدين والألوهية، أو الكفر بهما أو اللامبالاة.

وكذلك عبـادة العقل وما يقدمـه من علم، حتى أصبح لديهم دين جديـد أسموه «دين العقل» بدأ في القرن السادس عشر وامتد إلى يومنا هذا، مع تعدّد «الآلهة» والأهواء.

كما ظهرت عبادة الطبيعـة، فظهر بذلك دين جديد سمّـوه الدين الطبعي. وهذه كلها تُنفّـر من الدين النصراني الكنسي وتـرفض معتقداتـه. ولكن ظهر مع ذلك حـركات تحاول التمسك بـالـدين أو الـوصـول إلى حلـول وسط، دون أن تغيّر في الاتجاه العَلماني (Secularism) المنطلق بقوة، والاتجاه العِلماني (Scientisim) المنطلق بقوة أيضاً. وغلب الاتجاه إلى تحطيم العقائد المتوارثة مع الفشل الكامل في تقديم بديل شامل.

والظـاهرة المهمـة أيضـاً هـو أن الحكومـات هنـاك انفصلت عن كل معنى ديني، وأخذت تلك الحكومات تتبنّى المصـالح الدنيوّية وحدها، وشهـواتها وأهواءها. واستقرّ المفهـوم الخُلُقي مستقـلاً عن أي تصـور دينـيّ، وأصبح العقل والعلم، دون الاستعـانـة بالتصور الإلهي، هما مرجع الأمور وميزانها والحكم فيها.

ولا ننسى أنَّ الثورة الفرنسية قامت في هذا القرن سنة ١٧٨٩م، وأنها غذَّت هذه الاتجاهات، ورفعت شعارات الحرية والإخاء والمساواة، الشعارات التي ظلت شعارات، لم يستطع العقل ولا العلم أن ينزلها حقائق تُمارَسُ في واقع الإنسان، بل مضت المظالم تنمو وتشتد والطغيان يعلو ويقوى!.

وامتدت العلوم ونمت الاكتشافات، مما زاد في نموّ العَلمانية وإضعاف التصورات اللاهوتية، فاتخذوا العلم إلها جديداً يفرحون به، ولنستمع إلى آيات الله تصف لنا هذه «الوثنية العِلمية Scientisim» العِلمانية»:

﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون* فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحا ق بهم ما كانوا به يستهزءون*فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين* فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون﴾ [غافر: ٨٢-٨٥]

نعم! **﴿.... فرحوا بما عندهم من العلم....﴾**، واستهزؤوا برسالة الله وصدّوا عن سبيل الله، فحاق بهم ما كانوا به يستهزئون! حتى إذا أخذهم الموت، أو أخذهم العذاب الشديد، ورأوا بأس الله، قالوا: **﴿آمنَّا بالله وحده*وكفرنا بما كنا به مشركين﴾** ولكن لم يعد ينفعهم الإيمان بعد أن رأوا العذاب الذي لاتنفع عنده التوبة.

هذا العلم الذي كانوا يعبدونه علم ناقص محدود، أو علم باطل مردود، لايقوم على الحق الذي قامت عليه السموات والأرض، ولا يصحّ أن يكون إلهاً يُعبَد من دون الله. إنه في أحسن حالاته آيات بيّنات تدلّ على الله الذي لا إله إلا هو، آيات لايراها إلا المؤمنون! إنه علم عن ظاهر الحياة الدنيا:

﴿وعدَ الله لايُخلف الله وعده ولكنَّ أكثر الناس لايعلمون*يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ [الروم: ٦، ٧]

هذا هو علمهم الذي يعبدونه: ظاهرٌ من الحياة الدنيا! وهو جزء بسيط من ظاهر الحياة الدنيا. فلو نظروا في أنفسهم وفي الأرض وفي السماء نظرة تدبّر لعرفوا أن الله حق وأنه لا إله إلا هو.

لقد جعلوا من العقل إلهاً، وهو عقل محدود، يختلف من إنسان إلى إنسان، ولا يفكر إلا في محيط محدود من هذا الكون الممتد. ولا يفكر إلا من خلال زمن محدود بالنسبة لامتداد حياة الإنسان على الأرض، فأنى لهذا العقل أن يحيط بكل العلوم، وأنّى له وحده أن يبلغ الحقَّ كله، والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿... ولايحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ....﴾ [البقرة: ٢٥٥]

ومع كلِّ هذا الحرص الذي يبدو من الفلاسفة والعلماء على البحث عن الحقيقة والحق والعدل، ومع كل الشعارات التي رُفِعتْ، فإن معظم دول أوروبا انطلقت خلال القرون السابقة في عدوان ظالم وطغيان سافر على العالم الإسلامي في الشرق، وعلى الدولة العثمانية، وعلى شمال افريقيا، يستغلون شعارات الدين أو الوطنية كذباً وبهتاناً، لينهبوا خيرات العالم الإسلامي وثرواته، ويبقوا المسلمين في جهل وفقر، وفي الحروب الصليبية، والاعتداء على بلدان جنوب شرق آسيا، و الأندلس، و الهند، و فلسطين، والبوسنة والهرسك، والشيشان. . . !

وفي هذه العصور انتقل «البيوريتانز» وغيرهم من النصارى من إنكلترا إلى أمريكا ليبيدوا شعباً كاملاً هم الهنود الحمر، وليُعمِل الكاثوليك أبشع الجرائم في المسلمين في الأندلس حرقاً وقتلاً وسجناً وطرداً، وليسوقوا النساء والأطفال والشباب من مسلمي أفريقيا إلى أمريكا ليعلموا عبيداً في مزارع الأمريكان. وتمتد الجرائم في الأرض لا يوقفها عقل ولا علم.

تعدّدت الآلهة لديهم من خلال حَيرتهم واضطرابهم: العقل، العلم، الطبيعة، وغير ذلك.

١٠ - استقرار العَلمانية في القرن التاسع عشر وتطورها إلى الإلحاد الصريح المعلن:

لقد ذهب «جوهان جوتليش فيشته Johann Gottlich Fichte» (١٧٦٢ - ١٨١٤)

خطوة أبعد في العَلمانية. لقد نادى بسيادة العقل، وغالى في النّزعة القومية الألمانية، ودعا إلى تصوّر يكون فيه الإنسان ربّ نفسه، وأدخل مبدأ النقيض بمصطلحات ثلاثة في الفلسفة، ليمهّد بأفكاره كلها إلى خطوة جديدة يمضي بها هيجل. وكأنه أضاف إلهاً جديداً هو «الإنسان»!

وعندما جاء «جورج ولهلم فريدريك هيجل George Wilhelm Friedrich Hegel» (١٧٧٠ - ١٨٣٠م) وضع الفلسفة المثالية التي تقوم على فكرة «المطلق» أو «الروح الكلية». ولكن كلمة «روح» لاتحمل المعنى الذي يقدمه الإسلام. واعتبر بضلاله وكفره أن الإنسان هو الذي خلق الله وليس الله هو الذي خلق الإنسان[١]. ونادى بسيطرة الدولة على الكنيسة. وأتى بعبارات خاصة به لمبدأ النقيض الذي دعا إليه فيشته هي: «الدعوى Thesis»، «مقابل الدعوى Anti-Thesis»، و «جامع الدعوى ومقابلها Synthesis».

ودعا شلنج (١٧٧٥ - ١٨٥٤) إلى وحدة الوجود، وشوبنهور (١٧٨٨-١٨٦٠) ردّ الوجود إلى إرادة عمياء.

لابد إذن أن يقود هذا التفكير والاتجاه إلى الإلحاد الكامل المعلن. فيأتي «لودفيج فيورباخ Ludweg Feuerbach» (١٨٠٤ - ١٨٧٢)، لينتقل من تقديس العقل والعلم إلى تقديس الإنسان نفسه، ليكون الإنسان لديه هو الإله المعبود وهو محور الوجود، منكراً وجود أيّ خالق، منكراً للغيب، فيمضي بالعَلمانية إلى مرحلة جديدة وبعدٍ جديد يستقرّ على الإلحاد الصريح المعلن.

وينتقل «كارل ماركس Karl Marx» (١٨١٨ - ١٨٨٣) بالنظريات السابقة إلى خطوة أبعد كذلك، إلى «المطلق الاجتماعي»، واستبعاد الخالق وكل الأفكار الدينية وعزلها عن الفكر والفلسفة والحياة. ويمضي معه «فريدريك إنجلز Freidrich Engles» (١٨٢٠-١٨٩٥م)، فيضعان النظرية المادية الجدلية والمادية التاريخية، نافضين أيديهما من أي تصور دينى أو غيبي. وتنطلق بهما الحركة الشيوعية لتمتد إلى القرن العشرين.

(١) فوكوياما: نهاية التاريخ والرجل الأخير - الترجمة - (ط: ١).

أما «فريـدريك ولهلم نيتشه Fruedrucg Wilhelm Nietzche» (١٨٤٤-١٩٠٠) فمضى في الكفر والإلحاد إلى أعماقه، ورأى أن الدين أداة يستخـدمها العبيد في أخلاقهم، وأن الحرّ يجب أن يعتبر أن «الربّ قـد مات»، تعالى الله عما يقـولون علوّاً كبيراً. ويقـال إنه المنظّر لأسس الفكـر النازي، ودعـا إلى الرجل أو الإنسـان الخارق بدلاً من الإلـه. ولكنه احتل مـركزاً في الفلسفة والفكـر في هذا الجو العَلماني المظلـم، وبين مجموعة مـن «العبيد» الحقيقيين، العبيـد الـذي أذلـوا أنفسهم بـالأهواء الشيطـانيـة، وقيـدوا أنفسهم بأغـلال الإلحاد» وغرقوا في أوحال الفتنة والفساد.

أمـام هـذا الاتجاه الإلحادى الصريح ظهر ردّ فعل معـاكس لم يهتـد إلى الحق. وإنما أخذ رجالـه حلولاً وسطاً. فدعا عدد من الفـلاسفة إلى أن الدين عاطفة وجـدانية، ودعا آخرون إلى التمسك بالمثل العليا، وآخرون إلى وحدة الوجود.

وقام نفـر من الكاثـوليك لينادوا بـالعودة إلى النصرانيـة كما وصلتهم، وإلى عصمة البابا. واتهم آخرون البروتستانتينية بأنها سبب اللامبالاة الظاهرة لأنها دعت إلى الفكر الحر.

وظلت الأفكار في القـرن التاسع عشر تتراوح بين الكفـر الصريح والعودة الصريحة للدين والمواقف الوسط.

إن عدد الفـلاسفة الذين ظهروا في هـذه الاتجاهات المتضاربة كثير جـداً. وكذلك ظهرت المذاهب الأدبية الكثيرة، وأخذت «الحداثة» في الفكر والأدب تنمو.

وظهر داروين (١٨٠٩- ١٨٨٢) بنظرية تطور خلق الإنسان منكراً التصورات الدينية.

ونرى أنـه لا داعي لذكـر جميع أسماء الفلاسفـة، ونكتفي بذكـر أسس الاتجاهات التي ظهرت كما عرضناها سابقاً.

القرن التـاسع عشر هو امتـداد للقرون السابقـة، مرتبط بها، لايمكن فصلـه عنها وهو ممهد للقرن العشرين.

لقد استقـرّت العَلمانية في القرن التـاسع عشر بأشكالها المختلفـة، الكفر والإلحاد، اللامبالاة. والحركات التي حاولت إعـادة النفوذ للدين لم تفلح ولكن الصراع ظل مستمرّاً

بالرغم من هزيمة التصورات النصرانية. وظلّ الصراع ماضياً في القرن العشرين.

وتميّز القرن التاسع عشر بامتداد الطغيان الأوروبي وعدوانه الممتد في الأرض لنهب ثروات الشعوب. وكان يقود هذا العدوان الإجرامي إنكلترا وفرنسا و إيطاليا وهولندا والبرتغال وغيرها.

كما تميّز هذا القرن بالتطور الصناعي الهائل الذي أنشأ النظام الرأسمالي، وما يحمل من تفلت خلقيّ وظلم للعمال من رجال ونساء، حتى ظهر ردّ الفعل العنيف بالحركة الاشتراكية والشيوعية، لتستبدل في القرن العشرين ظلماً بظلم.

وتميّز كذلك بالنشاط العلمي الهائل في ميادين مختلفة من الرياضيات والفيزياء والكيمياء والطب والهندسة وغيرها. ولكن هذا النشاط العلمي كان دعماً للعَلمانية أكثر مما كان دعماً لأي تصور ديني.

لقد كان القرن التاسع عشر ترسيخاً للعَلمانية في أوروبا وأمريكا وكثير من بقاع الأرض، وترسيخاً للعدوان والظلم والطغيان الأوروبي، وكان بصورة عامة تمهيداً لانفجار القرن العشرين عن تفلّت خلقي جنوني، وحروب مستعرة في الأرض، ومجازر مروّعة، مع انفجار علمي كبير كذلك.

ولقد بعث الفلسفة الوجودية ونَشَّطها في أوروبا الكاتب والفيلسوف الدانماركي «سورين آبيي كيركيغارد Soren Aabye Kierkegaard» (١٨١٣ - ١٨٥٥)، وذلك حين اعتبر أن الحقيقة موجودة بالنسبة لأي شخص فقط بالقدر والكيفية التي يحوّلها بنفسه وذاته إلى عمل. فاعتبر الدين مسألة شخصية تتضمن العلاقة بين الإنسان وربّه على صورة معاناة أو تجربة تدفعه إلى الإيمان بالله.

وكذلك طلع «وليام جيمس: William James» (١٨٤٢ - ١٩١٠)، الفيلسوف الأمريكي وعالم النفس، بالفلسفة «البراجماتية Pragmatism» ونشرها، ولكنه لم يكن هو مؤسسها. وهذه الفلسفة تقوم على قاعدة أن العمل والنتائج العملية هي المحك للحق.

ومن أهم مظاهر القرن التاسع عشر انحسار المدّ الإسلامي، وتمزق أقطار كثيرة من العالم الإسلامي، وظهور أمارات الضعف. وكذلك بدء انتقال العَلمانية وشرورها وفسادها إلى العالم الإسلامي، حتى سقطت الخلافة في القرن العشرين، وكأن الدعوة الإسلامية الربّانية توقّفت قليلاً، أو توقّف المسلمون قليلاً في حملها إلى العالم. ولكنها سرعان ما استأنفت نشاطها بين خطأ وصواب في صراع محموم مع الفتن والباطل.

لقد كان للأفكار المتناقضة المضطربة التي برزت في القرن التاسع عشر، أثر كبير على القرن العشرين. إن فتنة نظريات «التطور» التي دعا بها داروين ومن تبعه أثرت تأثيراً بالغاً في الفتنة عن الحق. وكذلك إشعال حماسة العصبيات القومية والوطنية في صورة جاهلية أثرت كثيراً وأشعلت حروباً كثيراً. وكذلك اضطراب التصورات الدينية وتنوعها واختلافها.

ولكن الأثر الأكبر كان هوى المجرمين في الأرض، أصحاب المصالح المادية، أهل الطمع الذي لاينتهي والشهوات التي لاتنطفىء. إنهم المترفون على حطام المستضعفين، وإنهم المستكبرون على هوان الضعفاء. إنهم هم الذين يصوغون القوانين والنظم، ويحرّكون الشعارات لتخدير الناس، أو لإلهائهم بإشعال الفتن بينهم، حتى يظل ترفهم مصوناً وشهواتهم ملبّاة.

لقد كان هذا الخط ماضياً في الحياة البشرية، ينشر لهيب الصراع. ولم يكن يتصدّى له في تاريخ البشرية كلها إلا الجنود الربانيون المؤمنون الذين يعبدون الله وحده ولايشركون به شيئاً. وربما يثور الصراع بين أصحاب المصالح أنفسهم وهم يتنافسون الدنيا والمصالح وغنائمها.

١١ - العَلمانية في القرن العشرين :

إذا كانت القرون السابقة قد خلطت التصوّرات الدينية وزرعت فيها الاضطراب والتفلت والفوضى، فإن القرن العشرين ضاعف الاضطراب والفوضى في التصورات الدينية.

لقد كان هناك عاملان مهمان: أولهما ظهور أمريكا بقوة في ميادين العلم والصناعة، والفكر والفلسفة، والأدب والفن، لتُعطي لهذا كله انحرافاً واسعاً عن الدين بعامة، وانحرافاً أوسع عن التوحيد الحق. وثانيهما انهيار الخلافة الإسلامية، وتمزّق العالم الإسلامي، وعودة رجال ابتعثوا إلى أوروبا لينشروا العَلمانية في العالم الإسلامي. فلم يعد العالم الإسلامي قادراً على حمل رسالة الله إلى الناس كافة. ولقد أصاب هذا الانهيارُ العالمَ الإسلامي بعد صراع طويل مع الغرب، وبعد معاناة شديدة تهافتت فيها الأمم المختلفة على المسلمين وديارهم.

لقد أخذ نفوذ أمريكا ينمو مع القرن العشرين، حتى أخذ ينافس النفوذ الأوروبي في مختلف أنحاء العالم، منافسة اقتصادية وعسكرية وثقافية وعدواناً وعَلمانية.

مع بداية القرن العشرين ظهر عدد من الفلاسفة الذين يرون أنه ما من شيء له وجود حقيقي في الواقع يمكن أن يخرج عن عالم المحسوسات المادية، وأن المنهج العلمي المتجرّد عن الدين هو المنهج الذي يمكن أن يتحقق به صدق هذا الموضوع أو ذاك، وأنه لا وجود لخالق ولا لإله، ولا لروح غير مادية. كفر بواح طلع به فيجل ولامبرخت وغيرهما.

بل ظهر من يدعو إلى أن تصور الإله خطر على الطبيعة وعلى الإنسان وعلى أسلوب البحث العلمي. قام بهذا الفكر الأمريكي «جون ديوي John Dewey» (١٨٥٩ - ١٩٥٢). لقد تأثر كثيراً «بالفكر الواقعي Pragmatism» الذي نادى به «شارلس بيرس Charles Pierce» (١٨٣٩ - ١٩١٤)، ووليام جيمس «William James» (١٨٤٢ - ١٩١٠). وذهب ديوي بإلحاده وكفره ليعطي للألوهية معنى نفسانيا.

ثم جاء من يدّعي أن فكرة المطلق ناقصة يكملها الإنسان الذي يمضي بحرّيته، وكأن الأفراد والناس أصبحوا مشاركين للألوهية. إنهم بهذا التصّور يعرضون الصورة الواضحة لمعنى «الشرك» الذي يعرضه القرآن الكريم والذي يذهب بصاحبه إلى الجحيم.

ويمضي صموئيل الكسندر (١٨٥٩-١٩٣٨) بالفتنة والضلال إلى حدود بعيدة، حين يدعو إلى الاتجاه الذي دعا إليه داروين بنظرية التطور. واعتبر الإله هو الميل إلى هذا

التطور الـذي يحققه الإنسـان وتحققه الطبيعـة. ومضى مع هذا المذهب في التطـور ألفرد نورث وايتهيـد (١٨٦١م- ١٩٤٧م) الفيلسوف وعالم الـرياضيات الإنجليـزي. وكذلك فردينـاند شيلـر (١٨٦٤م-١٩٣٧م)، و«برتـراندرسل Bertrand Russel» (١٨٧٢م-١٩٧٠م) الفيلسوف والـرياضي الإنجليـزي الذي تبنى حـرية التفكير المتفلِّـت ونال على ذلك جائزة نوبل سنة ١٩٥٠م.

وقد انتقل إلى أمـريكا سنة ١٩٣٨ حيث درّس في عـدد من جامعـاتها. وقد حكم عليه مجلـس مدينـة نيويـورك على أنه عدو للـدّين والأخـلاق. ونظر إلى الكـون على أنه لم يخلقه أحد، وإنما هو مؤلف من مـادة تكونها ترددات تتجمع حيناً على شكل عقل وحيناً على شكل مادة.

ويعتبر «إميل دوركايمEmile Durkheim» الفرنسي (١٨٥٨م- ١٩١٧م) واضع علـم الاجتماع المعـاصر على أسسه العَلمانيـة، وادّعى أنَّ الإلـه والديـن ومايتبع ذلك كلـه نتائج اجتماعية، فزاد العلمانيّة شراً على شر.

وظهـر آخرون يـدعون بـدعوات الفكـر العَلماني حتى تكوَّن حشـد كبير في مختلف القطاعات.

وأخذت الفلسفة الوجـودية تنشط وتقوى في فرنسا وألمانيـا وبلدان أوروبية أخرى. وأخذت الفلسفـة الوجـودية اتجاهين: اتجاه ديني واتجاه إلحادي يحملـه «جين بول سـارتر Jean Paul Sartre» (١٩٠٥- ١٩٨٠) الفيلســوف الملحــد الفــرنسي الــوجــودي «Existentialist». وقـدم آراءه بـالـروايـات والمسرحيـات والقصص القصيرة والمقـالات والأبحـاث. واعتبر سـارتر أن العقل لايـوجـد لـه محتـوى، ولكنه نشـاط وإسقـاط على الأشياء. وتستخدم «الوجودية Existentialism» الظواهر الطبيعية لتفسر هذا النشاط.

وكذلك كان «مارتن هيدجرMartin Heidegger» (١٨٩٩ - ١٩٧٦) الفيلسوف الـوجـودي الملحـد الألماني. واعتبر الإلحاد وسيلـة للتخلص والتطهير في ميـادين التطبيق العلمي والأبحاث النظـرية. واعتبر أن الإله لا يـدخل إلا في عالم الأسطورة عـائداً بذلك إلى الأساطير اليونانية. حاول أن يجيب على السـؤال: «لماذا نُوجد؟» بطريقة غير لاهوتية.

وكذلك «ألبرت كامـوس Albert Camus» الفرنسي (١٩١٣- ١٩٦٠) الـذي سار مع سارتر مدة ثم انفصلا لاختلاف وجهات النظر.

وحتى الوجـوديون المؤمنون لم يـروا الله سبحانه وتعـالى في وحدانيته وجـلاله، وإنما تأثروا بعـوامل الشرك والانحراف والضلال الـذي حملته قـرون طويلة مثل كـارل ياسبرز، جابرييل مارسيل وغيرهما.

وأصبحت العَلمانيـة مستقـرّة لـدى الحكومـات وكثير من أفـراد الشعـوب. ولكن النصرانية لم تلق السـلاح نهائيا بعـد حجزها في الكنـائس زمناً طـويلاً. إنها بقيت تتربّص الفرص لتعيد سالف مجدها.

والإسلام كـذلك مازال يصارع في مختلف أنحـاء الأرض، بالرغم من شـدة الهجوم الشرس الوحشي الإجرامي على المسلمين، وبالرغم من شدة التمزّق والوهن، وبالرغم من قـوة التغلغل الغـربي العَلماني في واقع المسلمين اليـوم. إنـه دين الله الحقّ، وإنـه سيمضي بإذن الله إلى النصر الحق، على سنن لله ثابتة.

إن القرن العشرين بـاتجاهاته المختلفة يثبت كل يوم حاجة البشريـة إلى الإسلام، ليُخرج البشريـة من الظلام المدلهم الذي تعيش فيـه. وإنها مسؤوليـة كل مسلم أن يشعر بهذه الحقيقة، لينهـض إلى مسؤوليـاته وتكاليفـه الربّـانية، ليسـاهم في إخراج النـاس من الظلمات إلى النور.

إن هذا العرض الموجز لنشأة العلمانية ومسيرتها في أوروبـا وأمريكا يكشف لنا مدى تخبّط الفـلاسفة، ومـدى اضطراب نظـرياتهم وبعـدها عن الحق، ومـدى اعتمادهم على الظنّ في فهم الكون والحياة والإنسان.

إن من أعجب العجب أن يكون الحق بين يـدي البشرية سهلاً، ميسّراً، دينـاً حقاً من عنـدالله، خاتم الـرسـالات السماويـة، جاء بـه خـاتم الأنبياء والمرسلين بكتـاب الله المبين، مصـدّقـاً لما بين يـديـه من الكتـاب ومهيمنـاً عليـه، ومع ذلك يصرّون على عـدم دراستـه، وعـدم تـدبُّـره، وعـدم الإيمان والعمل بـه، وعلى محاربتـه أيضـاً. إنـه العجب

العجاب! اللهم اهدنا واهد بنا وثبّتنا على طاعتك وأَنت أرحم الراحمين.

لقد استقرت الفلسفة في أوروبا وأمريكـا على صورتين أساسيتين، كل صورة أُخرى غير دينيـة يمكن أن تنتسب لإحـدى هاتين الفلسفتين. إنهما الفلسفـة المثـالية والفلسفـة المادية. وكلا الفلسفتين تنفـض يديها من الـدين الـذي جـاء به الـرسل والأنبيـاء، دين التوحيـد الخالص وكل مايتبعـه من تصورات للكون والإنسـان والحياة، وللمـوت والدار الآخرة والجنـة والنار، والملائكة والشيـاطين. وكأنها اكتفت بشياطين الإنس يصـوغون لها أفكارها.

النظرية المادية تعتبر كلّ الظواهر التي نعالجهـا والوجود كله مادة خارجة عن وعينا لا خالق لها، موجـودة منذ الأزل وماضية إلى مالانهايـة. وتعتبر الروحَ هي «العقل والفكر والوعي»، وليست الروح التي يتحدث عنها الإسلام. وتعتبر «المادة» أسبق في الوجود من «الروح».

أمـا النظـرية المثـاليـة فتعتبر «الـروح» هي «العقل والفكر والـوعي»، كما تعتبرهـا المادية، ولكنها تختلف عن المادية بأنها تعتبر هذه «الروح» أسبق في الوجود من «المادة».

وكـــلا الفلسفتين إذن تقـوم على تصـــور بشريّ محدود، في زمن محدود، ومن علم محدود، وعقل محدود، وفسحـــة من المكـان محدودة. إنهما تقـومــان على الظنّ والتخمين والوهم، ويحسبون ذلك علماً، أو يدّعون أنه علم، وما هو بعلم.

وتمضي الفلسفتان منـذ انطلاقتهما تـدفعان العَلمانيـة في الحياة البشريـة، وتدفعـان الإلحاد والفتنة والفسـاد. كـلا النظريتين كفرٌ وإلحاد، ومصادمة مبـاشرة مع التوحيد ودين الرسل والأنبياء جميعاً.

وقد تأخـذ العَلمانية هـذه مُسميات مختلفة في ميادين مختلفـة. ذلك لأن العَلمانية أصبحت تصـوراً للكون والحيـاة، تصوراً مضطـرباً متنـاقضاً، تصـوراً بشرياً لايقـوم على حقائق من علم وتجارب، بل يقوم على ظنون وأوهام.

ويمكن على سبيل التـوضيح أن نقـول إن «الحداثة» تمثـل عَلمانية الفكـر والأدب،

و «الديمقراطية» تمثل العَلمانية في السياسة والحكم والإدارة في العالم الغربي، وديكتاتورية الطبقة العاملة تمثل عَلمانية السياسة والحكم والإدارة في الاتحاد السوفياتي وكل من يدور في فلكه أو كل من يتبنّى النظرية الشيوعية.

وسواءً أكانت العَلمانية غربية أَم شرقية، فإن الفواجع والمآسي والمجازر التي ارتكبتها في حق شعوب الأرض رهيبة مرعبة. لقد شهد القرن العشرون حتى يومنا هذا أكثر من مائة وثلاثين حرباً كان ضحاياها من القتلى فقط أكثر من مائة وعشرين مليوناً من البشر. والحروب مازالت مستمرة، والقتلى يزيدون، وأصحاب العاهات والمشوّهون والمرضى بالملايين.

وكل هذا يتم تحت شعارات الإنسانية، الإخاء، لجان حقوق الإنسان، رعاية الطفولة، رعاية الأمومة، إلى غير ذلك من الشعارات التي سحقت الإنسان وحقوقه، والطفولة والأمومة. إنها سحقت حقوق الإنسان التي منحها الله له، واستبدلت بها حقوقاً لم تَزِدْ عن كونها شعارات تخدّر بها الناس -أفراداً وشعوباً. لقد جعلت العَلمانية الحرّية الفردية متفلتة من الضوابط الأمينة العادلة، وأطلقتها في ميادين الشهوات، وسنّت القوانين التي تحمي تفلّت الحرية، والتي تنشىء الجوّ الذي يُفسِد الفطرة التي فطر الله الناس عليها بالآثام والمعاصي والجريمة والعدوان.

الفصل الثالث

بـين العَلمـانيّـة والحـداثـة

لانريد أن نفصّل في موضوع الحداثة وموقف الإسلام منها، بعد أن عرضنا رأينا في كتابين: «الحداثة في منظور إيماني»، و«تقويم نظرية الحداثة وموقف الأدب الإسلامي منها». ويمكن الرجوع إليهما من أجل تفصيلات أوسع.

ولكننا نريد أن نبين بإيجاز أن «الحداثة» لفظة أو مصطلح آخر للعَلمانية وهي تعمل في ميدان الفكر والأدب.

ومهما اختلف الفلاسفة في تاريخ ولادة الحداثة، فقد بيّنا رأينا في الكتابين السابقين بأنها نشأت مع ظهور الكفر لأول مرّة في تاريخ الإنسان عندما بعث الله نوحاً عليه السلام يدعو قومه ليعودوا إلى الإيمان والتوحيد. وبذلك تكون العَلمانية في حقيقتها نشأت مع الحداثة ومضت معها، تحمل تصورها الإلحادي عن الكون والحياة معزولاً عن الدار الآخرة، وإذا وقع اختلاف حول النشأة إنما هو حول نشأة الصورة الأخيرة الجديدة للحداثة والعَلمانية.

والحداثة، كما ذكرنا، هي في رأينا عَلمانية الفكر والأدب، مهما أخذت الحداثة من صور وأشكال: كالبِنيوية وما بعد الحداثة والأسلوبية والتفكيكية وغير ذلك.

ولا ننكر أن أصحاب العَلمانية والحداثة يملكون من المهارة مايزخرفون به الباطل ويزينونه، حتى يدفعوه إلى الناس في صورة محبّبة، أو صورة يحسبونها محبَّبة.

ونحاول أن نبرز تغلغل الحداثة في ميادينها المختلفة لتمثل العَلمانية فيها:

١ - الحداثة في الفكر ومايسمى بالعلوم الإنسانية:

هي قاعدة العَلمانية الأُولى. فهي تفصل الماضي كله والدين واللغة في صورة جنونية هستيرية، وتعلن الحرب على الماضي كله. ولكنها تعود وتتناقض مع نفسها حين تأخذ من الماضي أساطير اليونان وتجعلها محوراً من محاورها الرئيسة، لتُثبِت في ذلك أن

قضيتها الأساسية في محاربة الماضي هي محاربة الدين، وتَثْبِيت الوثنية والشرك والإلحاد.

٢ - الحداثة في العلوم التطبيقية :

لقد نمت العلوم نمواً كبيراً في القرون الثلاثة الأخيرة. فأقبل الناس عليها كأنها هي الإله الجديد. وهكذا قدم كثير من الفلاسفة العلم بعد أن نفضوا أيديهم من الدين. فلم يستطيعوا أن يروا في هذه العلوم آيات مبثوثة في الكون لتدلَّ على الله وجلال سلطانه. ولم يروا في تغيّر بعض النظريات العلمية ما يدلهم على قصور العقل البشري وضيق حدوده بالنسبة للكون كله. ومن ناحية أخرى استخدموا بعض هذه العلوم استخداماً إجرامياً. ونما هذا الاستخدام تحت ظلال الحداثة والعلمانية حتى توافر لدى الاتحاد السوفياتي وأمريكا أسلحة تدمّر الكرة الأرضيّة والبشرية التي عليها مرات ومرات. وحسبك مثلاً ما حدث لهروشيما وناجازاكي عندما ألقت عليها أمريكا القنابل النووية قبل أكثر من نصف قرن. والمؤسف أن العلم استخدم كذلك لنشر الفاحشة في الأرض وتيسيرها، ولنشر الجريمة وحمايتها، ولقطع الأرحام وإفساد الحياة.

٣ - الحداثة في الفنون والأدب :

الفن والأدب وسيلة للتعبير. وفي جوّ الحيرة والاضطراب والخوف أصبح الرمز وسيلة التعبير للهروب من الواقع، ليأخذ صورة مظلمة في الغموض من ناحية، وفي إفساد اللغة والذوق والخلق من ناحية أخرى. هكذا كان الدور الرئيس للحركة الرمزية. وتطورت الرمزية إلى غموض أبعد في الحركة الانطباعية، وأوغلت أكثر مع الحركة المستقبلية، حين أخذت أشكالاً هيستيرية، وحين اخترعت الشعر الحرّ بغية قتل اللغة. فشاعر يقول: سي سي سي....، وآخر يقول في شعره الغربي: ستزن ستزن ستزن، وثالث يعبر بالرموز الحسابية: +-×-+++-×....! فلاديمير مايكوفسكى الأديب الروسي يسمي نفسه زرادشت زمانه الصخاب. ومارينيتي الإيطالي يلقى خطبة حماسية يصاحبها صوت مدوٍ، لايدري الجمهور إلا أنه من مارتيني. ولكنه في الحقيقة من طبل مخفيّ يقرعه صاحب له مختفٍ. ويقول الحداثيون إنهم يريدون أن يطهروا الكلمة من معانيها ومما علق بها من غبار السنين. ولقد كان الحداثيون في العالم الإسلامي مقلدين تقليداً دقيقاً لحداثيي الغرب، حتى عندما يزعمون أنهم أصحاب هذه النظرية أو تلك.

ويتعـاون جميعهم على حـرب اللغة والـدين والتراث لتبقى أمتنـا لا لغـة لها ولا دين لها ولا تـراث لها. ولم تكتـف الحداثـة في ميـدان الأدب والفن بـالغمـوض ولكنهـا امتـلأت بالتناقضات. ولا عجب في ذلك ما دامت قواعدها ونظرياتها مبنية على الظنون والأهواء. إنها العَلمانية بأهوائها وظنونها وأوهامها.

- الحداثة في السياسة والاقتصاد:

لقـد دخلت الحركـات الحداثيـة كالمستقبليـة وغيرهـا قلب النشـاط السيـاسي.. ومـادامت الحداثة هي صـورة العَلمانية في الفكـر والأدب والعلوم التطبيقيـة، فلن يختلف وجهها وهي في السيـاسة والاقتصاد. لقد انتحـر عدد من رجال الحركات السيـاسية على أثر الفشل في ميـادين نشاطها. لقد قـامت الديمقراطيـة لتمثل الوجه السياسيّ للحـداثة والعَلمانيـة، ولعزل الـدين عن المجتمع. لقـد أخـذ الصراع السياسي أعنـف صورة وهـو يحمل صفتين حـداثيتين: محاربـة الـدين أو استغـلالـه، والمنهج الميكيـافيلي العَلماني الحداثي. وفي واقعنا الإسلامي كـان محور موضوعات الشعر الحداثي السيـاسة والسلطة. وعاشت الحَداثة في قلب الوسط اليساري حيثما حلت.

وكذلك الاقتصـاد فقد جمع خصائص الحداثـة. فقد حملت الرأسماليـة الخصائص الـرئيسـة للحـداثـة في المجتمع الغـربي، وحملت الاشتراكيـة خصَـائصهـا في المجتمع الشيوعي. وذلك لوجود عناصر تلتقى عليها الـرأسمالية والاشتراكية الشيوعية، ومن بينها الظلم والعدوان والانحلال الخلقي وإشاعة الفاحشة واستغلال الضعفاء، هذه بأسلوبها وتلك بأسلـوبها. وهـذه قـدرة خـاصـة في الحداثـة والعَلمانيـة، هـي قـدرتها على جمع المتناقضات. والنظام العَلماني الحداثي يبيح الرّبا ويبني اقتصاده عليه وعلى أزماته.

٥ - الحداثة في الأخـلاق:

لقد كان فيما عرضناه عن الأخلاق في العَلمانيّـة مايغني عن الإعادة هنا، بعد أن بيّنّا تماثل المبـادىء والأُسس مع اختلاف المصطلح. والحداثـة، كما ذكـرنا، لها مصطلحـات عدة تخرج كلهـا من ظلام واحـد. إنه عزل الـدين عن حياة النـاس وشئون الأمـة كلها، وحصر التصور في الدنيا وحدها. ويحدّثنا كمال أبـوديب في كتابه «جدلية الخفاء والتجلّي» فيقول: ليست البنيويـة فلسفة، لكنها طريقـة في الرؤية ومنهج في معاينـه الوجود. ولأنها

كذلك تصبح البنيوية ثالث حركات ثلاث في تاريخ الفكر الحديث يستحيل بعدها أن نرى العالم ونعاينه كما كان الفكر السابق علينا يرى العالم ويعاينه. مع ماركس ومفهومي الجدلية والصراع الطبقي بشكل خاص أصبح محالاً أن نعاين المجتمع كما كان يعاينه الذين سبقوا ماركس. ومع الفنّ الحديث، وبعد أن رسم «بكاسو» كراسيه -كما يُعبِّر «روجيه جارودي»- أصبح محالاً أن نرى كرسّياً كما كان يراه الذين سبقوا «بكاسو». ومع البنيوية ومفاهيم التزامن والثناءات الضدية والإصرار على أن العلاقات بين العلامات لا العلامات نفسها، هي التي تعني، أصبح محالاً أن نعاين الوجود -الإنسان، الثقافة، الطبيعة- كما كان يعانيه الذين سبقوا البنيوية...»(١).

ولابد من وقفات سريعة هنا. إن كمال أبو ديب يناقض نفسه حين يقول إن البنيّوية ليست فلسفة، ثم يقول إنها رؤية جديدة للإنسان والطبيعة والثقافة، وهذه هي الفلسفة. فالفلسفة هي النظرة لمحاولة فهم الكون والحياة والإنسان وطريقة رؤية ذلك. ثم إنه يعزل رؤية البنيوية عما سبقها، والإسلام سبقها، فهو يعزل الإسلام والدين عزلاً كاملاً ليكون هو والعَلمانيّة على نهج واحد. وهو يربط البنيوية واتجاهها بماركس وبيكاسو وأمثالهما، فدخل العَلمانية من أوسع أبوابها.

من هذا التصور تنبع الأخلاق من الحداثة والبنيوية والعَلمانية. وكما يقول كمال أبو ديب في كتابه هذا عن البنيوية إنها تثوير جذريّ لمعاينة الوجود. فهي تثوير جذري للأخلاق ومفهومها وقيمها كما تراها العَلمانيّة. تقطيع للأرحام والأسرة، نشر للفاحشة ومساواة المرأة مع الرجل في هذه الفاحشة، وإطلاق الحرية الفردية في ميادين الفتنة والفساد، ونشر للجريمة في حق الأفراد وحق الشعوب، وسحق لحقوق الإنسان التي منحها الله له.

وبذلك تكون الحداثة والبنيوية ومايتبعها والعَلمانية قد استطاعت أن تجمع في وقت واحد بين مادية الرأسمالية والمادية الماركسية، وبين فساد هذه وفساد تلك، ظلمات بعضها فوق بعض.

---

(١) د. كمال أبو ديب: جدلية الخفاء والتجلي - (ص: ٧، ٨). يراجع كتاب «الحداثة في منظور إيماني»، وكتاب «تقويم نظرية الحداثة وموقف الأدب الإسلامي منها» للمؤلف.

الفصل الرابع

أُسس الاختلاف والافتراق
بين الإسلام وبين العَلمانية والحداثة

١ - الاختلاف الأول : اختلاف النظرة إلى الكون والحياة والإنسان [(١)]

لقد قامت العَلمانية وابنتها الحداثة بمصطلحاتها المختلفة على الأساس الذي نشأتا عليه في تاريخهما، والذي تدل عليه الكلمتان العربيتان : عَلْم وعَلمانية، والإنجليزية : Secular, Secularism هاتان الكلمتان تدلان على عزل الدين كله وتصوراته ومناهجه وأخلاقه ومبادئه عن الحياة في جميع ميادينها، وحصر التصور في الدنيا وحدها دون التصوّر للدار الآخرة.

من هذا التصور الدنيوي ينبع فكر العَلمانية والحداثة، ومناهجها، ومبادئها، وقوانينها، وتصورهما للكون والحياة والإنسان. وهذا هو أساس الاختلاف :

النظرة إلى الانسان في الإسلام غير النظرة إلى الإنسان في العَلمانية.

التصوّر للكون في الإسلام غير التصور للكون في العَلمانية.

التصور للحياة في الإسلام غير التصوّر للحياة في العَلمانية.

ولكن الإنسان هو الإنسان، والكون هو الكون، والحياة هي الحياة. والله وحده، لا إله إلا هو، خالق الكون والإنسان وواهب الحياة. إذا أنكرنا هذا التصور وخرجنا عنه، لم يَعُدْ هناك لقاء بينه وبين أي تصور آخر. والتصور العَلماني يختلف كليّة عن تصور الإسلام لهذه القضايا، فلا لقاء بين الإسلام والعَلمانية، ولا لقاء بين منهج يقوم كله على الدين، ومنهج يقوم كله على عزل الدين.

---

(١) تقويم نظرية الحداثة وموقف الأدب الإسلامي منها -للمؤلف- (ط: ٢) (ص: ٩٣-١٠٥).

الإسـلام دين الأنبياء والمرسلين جميعاً منذ نـوح عليه السـلام حتى النبيّ والرسـول الخاتم محمدﷺ. وهـو الدين الذي يقبلـه الله ولايقبل ديناً سواه، ومن يبتغ دينـاً آخر غير دين الإسلام فهو من الخاسرين.

الإسلام، كما جاء بـه النبي الخاتم محمدﷺ وحياً من عند الله، يعـرضه منهاج الله -قرآنا وسنة ولغة عربية-. والقرآن الكريم جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه.

جاء الإسـلام بهذه النظرة الشـاملة للكـون والحياة والإنسـان لينظم حيـاة الإنسان كلها: ابتـداء من حياة الفرد إلى حياة الأسرة والأرحـام والأمّة كلها والبشرية جمعـاء. وجاء لينظم الميادين كلهـا: الاجتماعية والاقتصاديـة والسياسيـة وشؤون الدولـة والحكم. وجاء الإسلام ليُنَظِّم عـلاقة الشعوب بعضهـا ببعض، سواء في الحرب والسلم. وجـاء الإسلام ليربط الدنيـا بالآخرة، وليبيّن للنـاس مصيرهم الحق الذي لا مجال للفرار منـه. إنه الموت والبعث والحساب ثم الجنة أو النار.

جاء الإسـلام ليعرض الحق من عند الله، وليقـرِّر معاني الحرّية والإخـاء والمساواة، وميزان العـدل والأمن، على أُسس ربّانية مُفَصَّلة، هي الحق في ميـزان الله. إن منهاج الله هو الحق الذي لا باطل معه:

﴿إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنـه لكتاب عزيز* لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]

وكذلك:

﴿وإنه لتنـزيل رب العالمين*نـزل به الـروح الأمين*على قلبك لتكون من المنذرين* بلسان عربيّ مبين* وإنه لفي زبُر الأولين﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٦]

إنه منهج شـامل لجميع شؤون الحيـاة البشرية. بعث الله أنبياءه ورسلـه بهذا الدين ليجفّف منـابع الكفـر في الأرض، بـالكلمــة الطيبـة، وبـالكلمـة الغليظـة، وبـالسلم وبالقتـال. ولكل أسلوب من هذه الأساليب فقهـه في الإسلام ومرحلته ووسـائله. ولكن الإسلام لايمكن أن يترك الكفـر في الأرض يمتد، لأن الإسلام يـرى أن الإنسان مصيره إلى

جنة أو نـار، وأن الكافـر مصيره إلى النار، فكيف تتفق رحمة الله بعبـاده إذا أذن في شريعته أن ينتشر الكفـر في الأرض. قد يمتـدّ الكفر في الأرض نتيجـة فتنـة في الناس وابتـلاء من الله، ولكنّ شرع الله ودينـه لايمكن أن يـرضى بـالكفـر ولا الشرك، ولا مـا يعين عليهما أو يؤدي إليهما:

﴿إن تكفروا فإن الله غنيٌّ عنكم ولايرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ولا تزر وازرة وزر أخرى ثمّ إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور﴾ [الزمر: ٧]

وكذلك:

﴿إن الله لايغفر أن يُشرَكَ به ويغفر مـا دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً﴾ [النساء: ٤٨]

وكذلك:

﴿إن الدين عنـد الله الإسلام وما اختلف الـذين أوتوا الكتاب إلا من بعـد ما جاءهم العلم بغيـاً بينهم ومن يكفر بآيـات الله فإن الله سريع الحساب﴾
[آل عمران: ١٩]

وكذلك:

﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾
[آل عمران: ٨٥]

إذن هذا هـو الإسلام بـامتداده وشمـوله. وتلك هي العَلمانيّـة على طرف منـاقض للإسلام.

الإسلام يحكم في أمـور الدنيـا، والعَلمانية لا تريـد للدين أن يحكم فيهـا. الإسلام يقرر قواعد السيـاسة والاقتصاد، والعَلمانية تقرر قواعد مختلفة ولا تـريد للدّين أن يتدخل في السياسـة والاقتصاد إلا بمقـدار ما يحتاج المجـرمون في الأرض من استغـلال الدين من أجل تأمين أطماعهم.

والإسلام يقرّر قواعد التربية ونظريتها، والعَلمانية تقرر قواعد أخرى ولاتريد للدين أن يتدخل.

الإسلام يحرّم الخمر والزنا والفواحش، والعَلمانية تبيح ذلك كله وتشجع عليه بكل الوسائل الممكنة، ولا تريد للدين أن يتدخل.

الإسلام له قضاؤه الحق في كل أمور الناس وشؤون معاشهم، والعَلمانية تضع قواعد بشرية في القضاء ولا تريد للدين أن يتدخل.

وقس على ذلك سائر شؤون الحياة. فكيف يمكن أن تلتقي أهداف الإسلام ونهجه ومقاصده مع العلمانية؟

يقول أحد المسلمين في أحد المؤتمرات الإسلامية: والإسلام يحرّم الخمر ولكن قوانين «الغرب» لاتفرضه. وتعدّد الزوجات تمنعه قوانين الغرب ولكن الإسلام لايفرضه. إنه يقول هذا بصدد إثبات أن الإسلام والعَلمانية لايتعارضان. عجيب هذا القول حين يصوغ القضية في مغالطات لفظية. فالإسلام يحرّم الخمر وقوانين الغرب تُبيحه. ألا يوجد فرق بين التحريم والإباحة؟! والغرب يحرّم تعدد الزوجات والإسلام يبيحه بشروطه، ألا يوجد فرق كذلك بين التحريم والإباحة؟! فلو أن مسلماً أراد أن يتزوج بامرأة ثانية في الغرب وفق دينه، فقوانين الغرب تمنعه وتعاقبه إذا فعل ذلك. ألا يوجد في هذا تعارض.

ويؤكد داعية آخر في مؤتمر إسلامي في الغرب على عدم تعارض العَلمانية مع مقاصد الشريعة الإسلامية. فكيف غاب عن بال هذا الداعيةأن من مقاصد الإسلام وشريعته تجفيف منابع الكفر في الأرض، ومن مقاصده أن تكون كلمة الله هي العُلْيا، ومن مقاصده نشر الدعوة الإسلامية لتتولى الدولة المسلمة والأمة كلها هذه المسؤولية، ومن مقاصد الإسلام الجهاد في سبيل الله، فهل هذه كلها مقاصد العَلمانية؟

ويقول آخر: «. . . وأعتبر أن الهيئة التمثيلية لايمكن إلا أن تعمل من أجل إسلام متفتح ومنسجم مع المجتمع، وفيٍّ لمصادره الأولى، مندمج مع النسيج الثقافي والديني

للمجتمع العَلماني هناك !

عجيب هذا التناقض! إن الاندماج مع النسيج الثقافي والديني الغربي يفرض حتما عدم الوفاء لمصادر الإسلام الأولى. فالاندماج مع النسيج هو اندماج كلي! وهو، كما يطلب الداعية المسلم اندماج مع النسيج الديني الغربي والنسيج الثقافي الغربي! إنه تناقض عجيب وتحوير للإسلام وباب فتنة واسع وتنازل كبير.

لقد اختلط الأمر على بعض المسملين في الغرب، وعلى بعض من يتصدَّوْن لشؤون الدعوة. لقد أخذ هؤلاء يلتقطون أي كلمة من باحث غربي غير مسلم ليثبتوا صحة دعواهم من أنه لاتعارض بين الإسلام والعَلمانية، ولإخفاء وجه العَلمانية القبيح.

ينقلون عن باحثة غربية أنها تقول: «لا يتعلق الأمر بمواجهَة الإسلام والعَلمانية فتلك إشكالية خاطئة ونقاش وهمي لأنه لايوجد تعارض بين الإسلام والعلمانية. . . .» يأخذون هذا الكلام عن امرأة غير مسلمة، فتختلط الأمور حتى تصبح تحريفاً في دين الله.

كان أحرى بهؤلاء المسلمين أن يقولوا إن الإسلام يعلّم أبناءه كيف يتعاملون مع أي مجتمع غير مسلم إذا اضطروا للإقامة فيه، دون أن يضطروا إلى التحريف والتبديل في دين الله.

ولقد أجبت عن هذه القضية في محاضرة حولها، ثم في كتاب بعنوان: «التعامل مع مجتمع غير مسلم من خلال الانتماء الصادق إلى الإسلام»، ثمّ برسالة نصحت بها نصحاً خالصاً لله أكشف به الحقائق مع البيّنة والحجة.

٢ - الاختلاف الثاني: الإيمان والتوحيد هما الحقيقة الكبرى في الكون والحياة في ميزان الإسلام:

كثيرون يلجأون إلى المغالطة وتحوير الألفاظ والتعبيرات، لدفع قضية خاطئة ونشرها بين الناس. فيعتبرون أن ما تدّعيه العَلمانية من حرّية للأديان يتفق مع الإسلام. وهذه مغالطة كبيرة واسعة. حين تدعو العَلمانية إلى حرّية التدين، فإنها تعتبر الدين

قضية فردية خاصة بين الإنسان الذي يؤمن بإله أو آلهة. والإسلام يختلف عن ذلك ويرفض هذه النظرة، لأنه يعتبر أن الإيمان والتوحيد أخطر قضية في حياة البشرية كلها، وأنها مسؤولية كل مسلم، ومسؤلية الأمة ومسؤولية الدولة، بل مسؤولية كل إنسان. ولذلك كان من أول واجبات الخليفة أو الإمام أو ولي الأمر هو حماية الدين ونشره والدعوة إليه لتكون كلمة الله هي العليا. ومن أجل هذا الهدف العظيم فُرِض الجهاد في سبيل الله، وعرّفه محمدﷺ في حديثه الشريف الذي جاء فيه: «. . . . من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»(١).

والفرق الثاني هو أن العَلمانية حين تترك الدين للأفراد، فإنها تنظم المجتمع من حيث العادات والقوانين بطريقة تفرض على الإنسان أن يخالف دينه، أو تدفعه وتغريه بذلك. إن العَلمانية تبيح للمرأة أن تكشف مفاتنها وعوراتها للناس عامة. وتبيح لها أن تمارس الفاحشة برغبتها، وتبيح لها كثيراً من الفتنة والفسَاد.

والعَلمانية تفرض النظام الربويّ في الاقتصاد كله. وهو نظام يخالف الإسلام، فيُجبَر المسلم على أن يخالف دينه ويتعامل بالربا. وكذلك تفرض على الانسان الملتزم بدين أن يخالف دينه في مجالات أخرى متعددة كالتربية والتعليم والسياسة والإعلام وغير ذلك.

فأين إذن حرّية الدين التي تدّعيها العَلمانية؟!

وأمر أخر خطير هو أن العَلمانية مع محاربتها الواضحة للدين، فإنها تستغلّ رجال الدين بالإكراه والإغراء لتحقيق مآرب شيطانية إجرامية. فالدول العَلمانية هي التي تُغذّي الحركات التنصيرية في الأرض بالمال والتوجيه والأجهزة والرجال، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، لتكون هذه الحركات ورجالها وأجهزتها في خدمة المجرمين المعتدين، وخدمة السلطة الحاكمة، وليكونوا الممهّدين لزحف الجيوش المعتدية على الشعوب لنهب خيراتها وثرواتها.

والعَلمانية تستغل رجال الدين بالإكراه والإغراء ليسرقوا جهود الناس وعرقهم، ولتصب ثمار تلك الجهود في جيوب الطبقة المجرمة في العالم الرأسمالي أو الشيوعي.

---

(١)رواه أحمد والشيخان عن أبي موسى. صحيح الجامع الصغير وزيادته: (ج: ٥)، (ص: ٣٢٨) (حديث: ٦٢٩٣).

والإسلام يحارب الظلم بكل الوسائل. إنه يحارب الظلم في كل ميدان ويرسي العدل على قواعد ربّانية، تنبع كلها من قضية الإيمان والتوحيد، الحقيقة الكبرى في الكون كله، والقضية الأخطر في حياة كل إنسان وفي حياة البشرية كلها.

إن النظرة إلى هذه القضية هي أهم اختلاف وأخطره بين الإسلام والعلمانية.

فحين يعتبر الإسلام أن قضية الإيمان والتوحيد هي الحقيقة الكبرى في الكون والحياة، والقضية الأكثر خطورة في حياة كل إنسان وحياة البشرية كلها، فإنه بناء على هذا التصور لايمكن أن يتركها قضية مهملة في واقع الأمة وواقع البشرية وواقع كل إنسان، تحت شعار حرِّية الأديان.

إذا كانت هذه القضية هي الحقيقة الكبرى وهي القضية الأخطر، فإنها ستنال إذن العناية الأولى والجهد الأكبر في ميدان الدعوة والبلاغ والإعلام، وميدان التربية والبناء، وميدان التشريع والقوانين، وميدان العلاقات بين الأفراد والشعوب، وميدان التعاون أو الصراع، وميدان السياسة والاقتصاد، وميدان الحياة الاجتماعية وعاداتها وأعرافها وقوانينها، وسائر ميادين الحياة.

وعلى هذه الحقيقة الكبرى يقوم الدين الإسلامي كله، ومنها يضع تشريعاته التفصيلية لكل الميادين التي سبق ذكرها، تشريعات ربانية تتعارض وتصطدم مع قوانين العَلمانية النابعة عن تصور بشري محدود يعزل الدين كله، ويسقط قضية الإيمان والتوحيد من حسابه.

كيف يُعقَل أن تُترَك أخطرُ قضية في حياة الإنسان والبشرية، قضيةً مهملةً في واقع الأُمة، تُحصَرُ في العلاقة الفردية بين الإنسان وربّه، وهي القضية التي تنظم شؤون البشرية كلها في ميادينها كلها؟! كيف يُعقل أن تُحصَر هذا الحصر وهي القضية الكبرى والأخطر في الكون والحياة؟! كيف يُعقَل أن تُترَك وتؤخذ قضايا أُخرى أقلُّ شأناً بكثير، فتصبح هذه القضايا الجزئية هي موضع اهتمام الأُمّة والدولة وموضع النشاط والتوجيه؟!.

إن هذا الفرق والاختلاف بين العَلمانية والإسلام خطير وكبير!

إن هذه القضية الأخطر والحقيقة الكبرى، هي قضية الفطرة التي فطر الله الناس عليها، الفطرة التي يجب أن ترعاها الأُمة والدولة والقوانين والتشريع لتكفل حمايتها من أن تنحرف، ولترعاها حتى تستقيم!

إن هذه الحقيقة الكبرى والقضية الأخطر تقوم على تصور واضح جليّ لمعنى الربوبية والألوهية لله سبحانه وتعالى، وعلى معنى واضح جليّ لعبودية الإنسان لله وحده لاشريك له.

ومن هذه القضية الكبرى ينبع معنى الولاء في حياة الإنسان، ليكون ولاؤه الأول لله وحده، وليكون عهده الأول لله وحده، وليكون حبّه الأكبر لله ولرسوله، ومن هذا الولاء الأول والعهد الأول والحب الأكبر ينبع كل ولاء آخر فى الحياة الدنيا، وكل عهد وكل حب.

ومن هذه القضية تنبع التكاليف الأساسية للإنسان. إنها قضية تكاليف والتزام، ومسؤولية وحساب، وعهد وأمانة.

أين العَلمانيّة من هذا كله، وكيف يمكن للإسلام أن يلتقي مع العَلمانية وهي تنكر هذا الولاء الأول والعهد الأول والحب الأكبر، وتنكر مايتتج عنها من ولاء وعهد وحب مرتبط بها في الحياة الدنيا؟ كيف يمكن للإسلام أن يلتقى مع العَلمانية وهي تستبدل بهذا الولاء والعهد والحب ولاءات جديدة جاهلية وثنية إلحادية، ولاءات للقومية مقطوعة عن هذه الحقيقة الكبرى، وللوطن مقطوعة عن هذه الحقيقة الكبرى، ولأوثان شتى، وتستبدل بها عهوداً وثنية وحبّا جاهلياً مفسداً للبشرية كلها؟!

إن الذي يدّعي عدم وجود تعارض بين الإسلام والعلمانية جاهل بالإسلام، أو جاهل بالإسلام والعَلمانية، يتبع الهوى، ولايتبع الحق والإيمان والتوحيد ومنهاج الله!.

الإنسان في منهاج الله مستخلف في الأرض، يحمل أمانة عليه الوفاء بها، هي محور العبادة التي خلقه الله لأجلها، وهي محور عمارة الأرض بحضارة الإيمان التي أمر الله الإنسان أن يقوم بها، من خلال الابتلاء والتمحيص، والعَلمانيّة تمنع الإنسان من القيام

بواجب الخلافة وأداء الأمانة والوفاء بالعبادة، فكيف يلتقي الإسلام مع العَلمانية؟!

٣ - الاختلاف الثالث : مصادر المعرفة :(١)

تعتبر العَلمانية، وكذلك الحداثة، أن مصدر المعرفة والعلم ليس غيبياً، ولا خارجاً عن نطاق الإنسان وعالمه. وتعتبر الإنسان هـو مصدر المعايير. وتعتبر أن المعارف القديمة تحوّلت بسبب ثباتها إلى معتقدات، ولكنهـا يجب أن تنزاح وتتحـول كما يتحول الإنتـاج، وكما تتبدل العلاقات، على نحو يفرض الصراع مع المعتقدات.

أما الإسـلام فيعتبر أول مصادر المعـرفة هو مـاعلّمهُ الله سبحـانه وتعـالى لآدم عليه السلام وهو في الجنـة، وما يسّره الله للإنسان في الحيـاة الدنيا، وجميع المصادر مـرتبطة بالله سبحانه وتعالى :

﴿... وعلّم آدم الأسماء كلّها.... ﴾ [البقرة : ٣١]

﴿... ولايحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء...﴾ [البقرة: ٢٥٥]

﴿... ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم...﴾ [البقرة: ٢٨٢]

ولكن علم المعرفة (Epistemology) لدى العَلمانية يرفض هذا التصور.

ومن المصادر أيضاً الفطرة التي فطر الله الناس عليها :

﴿ فاقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الله الناس عليها﴾

[الروم: ٣٠]

ومن المصادر أيضاً الوحي والنبوة:

﴿... وإنه لتنزيل ربِّ العالمين*نـزل به الروح الأمين*على قلبك لتكون من المنذرين*بلسان عربي مبين*وإنه لفي زبر الأولين﴾ [الشعراء : ١٩٢-١٩٦]

ومن مصـادر العلم والمعـرفـة في نظـر الإسلام اتصـال الشعـوب وتـرابط الأجيـال

(١) المصدر السابق: (ص: ١٠٦-١١٣).

والعصور على أساس من التقوى:

﴿يـاأيها الناس إنـا خلقناكم من ذكـر وأُنثى وجعلناكم شعـوباً وقبـائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ [الحجرات: ١٣]

ومصدر آخر هو النظر في السموات والأرض ومافيهما من آيات بيّنات:

﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لأيات لأولي الألباب ▪ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١]

وكذلك:

﴿ألم تـروا أن الله سخـر لكم ما في السمـوات والأرض وأسبغ عليكم نعمـه ظاهـرة وباطنة ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولاهـدى ولا كتاب منير﴾ [لقمان: ٢٠]

وآيات أخرى كثيرة توضح لنا أهمية هذا المصدر على أساس من الإيمان والتوحيد.

ومصدر آخر هو السير في الأرض والنظر في مصائر الأمم والشعوب:

﴿أولم يسيروا في الأرض فينظـروا كيف كـان عاقبـة الـذين من قبلهم...﴾ [الروم: ٩]

إن العَلمانية تنكر معظم مصـادر المعرفة هذه. إنها تنكر الغيب والـوحي والنبوة وما يرتبط بها، وتنكر أن تكون مصدراً رئيساً من مصادر العلم والمعرفة.

وحين أنكـرت العَلمانيـة مصادر الغيـب هذه، حـاولت أن تفسِّر الكـون كلـه من خلال نظرة محدودة وقدرة محدودة وزمن محدود ومكان محدود.

إنها حـاولت أن تفهم «المطلق» كما تسميه هي من خـلال «المحدود»، من خـلال الضعف والعجز والهوى، أو من خلال الكبر والغـرور وخداع النفس، فضلّت وأضلّت! فكيف يلتقى الإسلام الحق مع باطل العَلمانيّة وعجزها وضلالها؟

٤ - الاختلاف الرابع : اختلاف التصور لنهج النموّ والتطور :[١]

إن العَلمانية أخذت بمذهب داروين ومن دار في فلكـه في التصور للنمو والتطور . والحداثة ابنـة العَلمانية تدّعي لنفسها البحث عـن الجديد ، والرغبة في النمـو والتطور من خلال النظرة المادية المعزولة عن الدار الآخرة .

إن الإسلام يـدعو إلى النمـو والتطور على أسـاس الإيمان والتوحيـد ، وعلى أساس اتصال العصور والأجيال ، واتصال المعـارف والجهود ، واتصال الماضي بالحاضر والتطلع إلى المستقبل في منهج متصل متكامل لاينقطع .

والعَلمانية والحداثة تقطع الماضي كما تـدّعى ، وتفصله عن الحاضر ، وتلغي الدين واللغة والتراث . ولكنها تناقض نفسها فتأخذ من الماضي وثنيته وكفره وإلحاده وأساطيره .

والنمـو والتطـور في نظر الإسـلام يحافظ على الجذور والسـاق . كيف لا ؟ ! وهي جذور الإيمان والتوحيد . والعَلمانية والحداثة تقطع الجذور والساق ، وتهدم ، وتُدَمِّر ! .

والإسلام يبني نهج النمو والتطور على الأسس التالية :

أ - الفطرة الثابتة في الإنسان .

ب - السنن الربانية الثابتة في الكون والحياة .

جـ - التفكير والتدبر .

د - السعي في الأرض والحياة والآفاق سعياً يقوده الإيمان والتوحيد .

هـ - الممارسة الإيمانية التي يصوغها الإيمان والتوحيد .

و - تعارف الشعوب واتصال الأجيال .

ز - قيام الأمة المسلمة الواحدة التي ترعى ذلك كله .

ح - النظـر في آيات الله في الكـون والخشـوع بين يـدي الله ليهدي الله القلـوب إلى الحق .

(١) المرجع السابق: (ص: ١١٤ - ١٤٦).

د - اجتماع هذه القواعد كلها معاً متناسقة مترابطة في المنهاج الربّاني ، وممارسته بتكامله وتناسقه ، لا أجزاءاً متفرقة .

إن العلمانية تنكر قواعد النمو والتطور هذه . إنها تريد أن تجتث الجذور وتقطع الساق والأغصان ، ثمّ تتوَهّم أنها ستأتي بشيء جديد .

٥ - الاختلاف الخامس : النظرة إلى الماضي والتراث :(١)

العَلمانية تريد أن تقطع الصلة مع الماضي ، ومع التراث ، إلا تراث الوثنية اليونانية بخاصة ، ووثنية الأساطير بالذات . والإسلام يصل العصور كلها ، الماضي والحاضر والمستقبل ، ويحفظ التراث الذي ينقّيه الإسلام من شوائبه ويظل نقيّاً طاهراً مرتبطاً بمنهاج الله ، وليكون التراث بهذه الصفة أحد العوامل التي تصل الماضي بالحاضر ، ليبنيا المستقبل ، وليقرّا فرصة النموّ والتطور .

والإسلام يرفض الأساطير الوثنية والخرافات ، والظنّ والوهم ، ويأخذ بالحق والحقائق . إن الإسلام يدخل إلى أعماق الكون بالعلم الحق من عند الله ، حتى لايظل الإنسان أسير الوهم والظنون التي تحملها العلمانية من خلال تصورها للكون والحياة .

العَلمانية لاتحمل إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ، لايمكن أن تقوم عليه وحده حقائق الكون والحياة ، لأن العَلمانية غافلة عن الآخرة ، عن الغيب ، عن الحق الأكبر :

﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ [الروم : ٧]

ويردُّ الإسلام على العَلمانية ويقول :

﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لَهم أنه الحق أو لم يكفِ بربّك أنه على كلّ شيء شهيد ﴾ [فصلت : ٥٣]

ماضي الأمة المسلمة يحمل رسالة الإسلام كلها ، يحمل رسالة الأنبياء والمرسلين ، يحمل رسالة الله إلى عبادة . ويحمل تاريخ الأمة المسلمة وهي تجاهد في سبيل الله ، ويحمل

(١) المصدر السابق : (ص: ١٤٧ - ١٦٢).

آيات بيّنات وعبراً وعظات من مصائر الشعوب ، والصراع بين الحق والباطل ؟ ليكون زاداً ضرورياً غنياً للإنسان على درب الحياة وهو يتطلع إلى المستقبل على طريق ممتد إلى الجنة .

والعَلمانية تريد أن تزيل هذا كله ، فكيف يلتقي الإسلام مع العلمانية ؟!

٦ - الاختلاف السادس : النظرة إلى اللغة :(١)

﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾ [الروم : ٢٢]

والعَلمانية وابنتها الحداثة تريد تحطيم اللغة وتجريد الكلمات من معانيها ، فشتان بين النظرتين .

ولذلك اختلف دور اللغة في التصور الإسلامي عن دورها في التصور العَلماني .

ومن هنا يختلف دور الكلمة والتعبير والأدب بصورة عامة . ويصبح الأدب في الإسلام سلاحاً من أسلحة الإسلام ، وحجة من حجج البلاغ والبيان والدعوة . اختلف الأدب في الإسلام اختلافاً واسعاً عن الأدب في العَلمانية والحداثة ، اختلافاً فصّلناه في كتابيّ الحداثة اللذيْن أشرنا إليهما ، وفي كتاب « الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته » ، وكتاب « النقد الأدبي المعاصر بين الهدم والبناء » .

واختلف كذلك النقد (النصح) الأدبي بين الإسلام والعلمانية فهو في العلمانية نقد بين تجريح وتقطيع ، وأهواء ورغبات ، يحاول أصحابها صياغتها على شكل قواعد وقوانين . وفي الإسلام النقد نصح وتوجيه وبناء .

٧ - الاختلاف السابع : الجمال بعامة ، والجمال الفني بخاصة :(٢)

الإسلام يرى الجمال نابعاً في الكون كله من التصور الحقّ الذي يعرضه حديث الرسول ﷺ :

(١) المصدر السابق : (ص : ١٦٣ - ١٨١) .
(٢) المصدر الصابق : (ص ١٨٢ - ١٩٨) .

فعن جابـر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنـه قال : « **إن الله تعالى جميل يحب الجمال ويحب معالي الأخلاق ويكره سفسافها** » [أخرجه البيهقي] (1)

والجمال في الإسلام ممتد في الكون كله ، وفي الحياة الإيمانية ، وفي عطاء المؤمن وأدبه .

إن الجمال ممتد من الآخـرة إلى الدنيـا . وفي الدنيا آيـات بينات تـدّل على الله خالق الكـون كلـه ورب العـالمين . والجمال في الأدب في الإسـلام ينبع من فطـرة المؤمن والقـوى العاملة فيها : الإيمان والتوحيد ، النية الصادقـة ، العلم والزاد ، الفكر الطاهر ، العاطفة الصادقة ، الخبرة والتجارب ، الموهبة المؤمنة .

وفي هذه الفطـرة يكون الزاد العظيم الـذي يروي عطاء المؤمن كلـه وعطاءه الأدبيّ : الـزاد من الإيمان والتوحيـد ، والـزاد من منهاج الله ، والـزاد من الـواقع الذي يفهمـه من خلال منهاج الله .

أمـا العَلمانية فترى الجمال في الشهـوة العـابـرة ، وفي جسد المرأة العـاري أو جسـد الرجل العاري ، كما تعـرضه ميادين عواصم أوروبا ، وخاصـة باريس وروما ، وغيرهما . وترى الجمال في الفاحشة ، وفي العدوان ، والظلـم ، ونهب ثروات الشعوب .

العَلمانية حولت أسمى معاني الجمال وهـو الحب ، حولته إلى أرخص المعانى وأرذلها وأحطَها ، في الحب الشهواني اللا إنساني ، حب الجنس .

مات في العَلمانية حبّ الأسرة ، صلة الأرحـام ، حبّ الطهارة ، الذي ينبع كله من الحب الأول للمؤمن - حبّه الأكبر لله ولرسوله .

مـات جوهـر الجمال في العَلمانيـة وجـوهر الحب ، وتحوّل ذلك إلى شعـارات تخدّر النـاس ، حتى يتسنّـى للمجـرمين أن يمضـوا في شهـواتهم ونهبهـم وأطماعهم . والنـاس غافلون في خدر يساقون كالقطعان في لهيب الشهوات والخمر والمخدرات .

(1) البيهقي : شعب الإيمان . صحيح الجامع وزيادته : (ج : ٢) - (ص : ١٠٥) (حديث : ١٧٣٩) .

فكيف يلتقي الجمال في الإسلام مع هـذا القبح في العَلمانية . فشتّان مـابين الإسلام وجلاله ونوره وبين العَلمانيّة وظلامها !

٨ - اختلافات أخرى هامة :

هناك أختلافات أخرى ناتجة كلها عن الاختلافـات السابقة التي ذكرناها ، ولكنها تـؤثر تأثيراً واسعـاً في حيـاة الإنسـان . على رأس هذه الاختـلافـات الاقتصاد . ولأهميتـه سنجعل لـه فصلاً خـاصاً هـو الفصل الخامس الـذي يلي هذا الفصل . وسنشير فيـه إلى اختلافـات أُخرى نابعة عن الاقتصـاد ومرتبطة به . وكـذلك السياسة وأسسها وأسـاليبها تختلف في الإسلام عما هي في العَلمانيـة . إنها في العَلمانية مصـالح ماديـة وصراع عليها ، وغدر وخـداع ومؤامـرات تحوكها الأهـواء والشهوات ، أمـا في الإسلام فهي وفـاء وصدق وذكـاء ، وقـوة وعلم ، ينبع كلـه من منهـاج الله الحق . فكيف تلتقي سيـاسـة الإسـلام وسياسة العَلمانية .

ولقد سبق أن تحدثنـا عن السياسيـة في الإسلام وفي العَلمانيـة في فصل سابق ، وفي كتاب «**الصحوة الإسلامية إلى أين ؟**» . ولكن هذا الموضوع يحتاج إلى دراسات متواصلة تنبع من منهاج الله ومن الواقع الذي نفهمه من خلال منهاج الله .

الفصل الخامس

اختلاف الاقتصاد بين الإسلام والرأسمالية

لقد وضع الإسلام الأسس الكفيلة لقيام نظام اقتصادي غير ربويّ يُحقّق مصلحة الناس في واقعهم المادي في الحياة الدنيا ، ويعين على نجاتهم في الدار الأخرى . لانستطيع أن نطرق جميع الأسس الاقتصادية في الإسلام ولكننا نورد هنا الآيات المتعلقة بالربا من سورة البقرة :

﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون * الذين يأكلون الربا لايقومون إلا كما يقوم الذي يتخبّطه الشيطان من المسّ ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرّم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ماسلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لايحبّ كلّ كفار أثيم * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون * يـاأيها الذين آمنو اتقوا الله وذروا مابقى من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله * وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لاتظلمون ولا تظلمون * وإن كان ذو عُسرةٍ فنظرةٌ إلى ميسرة وأن تصدّقوا خير لكم إن كنتم تعلمون * واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثمّ توفّى كل نفس ماكسبت وهم لايظلمون ﴾ . [البقرة : ٢٧٥ - ٢٨١]

وعن عبدالله بن مسعود عن النبي ﷺ قال : **« لعن الله آكل الربا وموكله وشاهده وكاتبه »** (١)

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته : (ط : ٣) - حديث رقم (٤٩٧٠) وقال : رواه الطبراني في الكبير .

إن هذا التحريم للربا هو أشدّ أنواع التحريم التي وردت في كتاب الله . وتأكّد التحريم في آيات أخرى ، وكذلك في الأحاديث النبوية ، نذكر منها هنا حديثين شريفين :

فعن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال : « **لعن الله الربا ، وآكله ، وموكله وكاتبه ، وشاهده وهم يعلمون ، والواصلة ، والمستوصلة ، والواشمة ، والمستوشمة ، والنامصة والمنمّصة** »(١)

وكذلك في خطبة الرسول ﷺ في حجة الوداع ، حيث قال : « **ألا وإن كل ربا في الجاهلية موضوع عنكم كله ، لكم رؤوس أموالكم لا تَظْلِمون ولاتُظلمون . وأول ربا موضوع هو ربا العباس بن عبدالمطلب موضوع كله** » [رواه ابن أبي حاتم](١)

ولم يكن تحريم الربا في رسالة محمد ﷺ فقط ، وإنما كان التحريم في الإسلام في رسالة جميع الأنبياء وخاصة في رسالة موسى ورسالة عيسى عليهما السلام ، حيث أشار القرآن الكريم إلى ذلك :

﴿ **وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليما** ﴾ [النساء : ١٦١]

إن هذا التحريم للربا وامتداد التحريم قروناً طويلة جداً مع الأنبياء والرسل ، لدليل واضح على شدة خطورة الربا وشدة إفساده في الحياة البشرية ، وفساد النظام الاقتصادي القائم على الربا .

لقد مارس المسلمون أيام النبوة الخاتمة ، وماتلاها من عصور ، نظاماً اقتصادياً خالياً من الربا في واقعهم البشري . والمسلمون مكلفون بممارسة نفس النظام بقواعده العامة في كل واقع جديد ، على أن يضعوا تفصيلات النظام من منهاج الله ومن حاجة الواقع الجديد الذي يُفهَم من خلال منهاج الله .

والربا هو صورة من صور أكل أموال الناس بالباطل . فالتحريم من حيث الأساس هو تحريم لأكل أموال الناس بالباطل في جميع صوره وأشكاله .

---

(١) ابن كثير في تفسير آيات الربا .

والنظام الرأسمالي والشيوعي صورتان مفزعتان لأكل أموال الناس بالباطل . فقد دخلت انكلترا الهند متسللة بالحركات التنصيرية والشركات التجارية ، ثم احتلتها عسكريا . فنهبت الهند وكنوزها وخيراتها وشعبها ، وما خرجت من الهند إلا وقد تركت الشعب فقيراً ممزّقاً ، والبلاد متأخرة متخلفة . وقس على ذلك سائر الدول الرأسمالية التي دخلت أقطار العالم الإسلامي الغنيّة في ثرواتها وخيراتها ، فما تركتها إلا وهي فقيرة ممزّقة متخلفة . لقد أكلت الدول الرأسمالية أموال العالم الإسلامي بالباطل أكلاً حراماً ، وأنشأت النظام الرأسمالي فيه على نفس الأُسس من الظلم والعدوان ونهب الثروات وأكل المال الحرام ، حتى أصبح العالم الإسلامي يسمىّ العالم الثالث المتخلف .

ولم يأكل العالم الرأسمالي أموال العالم الإسلامي وحده بالباطل ، بل أكل أموال شعوبه بالباطل أيضاً ، حتى تكوّنت طبقات على أُسس غير عادلة ولا أمينة ، وحتى كثرت البطالة وتوالت الأزمات الاقتصادية ، وتنافست الدول الرأسمالية في صراع محموم من أجل أكل الأموال بالباطل . وأقامت هذه الدول الرأسمالية مؤسساتها على نفس الأسس من أكل المال بالباطل ، مهما اختلفت أسماؤها وأشكالها وأنظمتها .

وقد وصف القرآن الكريم لنا هذا النشاط الماليّ الحرام يقوم به كثير من الأحبار والرهبان وصفاً جلياً :

﴿ ياأيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضّة ولاينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم * يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ماكنزتم لأنفسكم فذوقوا ماكنتم تكنزون ﴾

[التوبة : ٣٤ ، ٣٥] .

وهكذا بيّن الله سبحانه وتعالى أساس التعامل الحرام بالمال . إنه أكل أموال الناس بالباطل ، والربا باب من أبوابه ، أو أنه يجمع الأبواب كلها . وبيّن الإسلام أبواب الكسب الحلال وحثّ عليها ، وبيّن أبواب الكسب الحرام وما يحرم من البيوع فنهى عن ذلك كله .

وارتبط أكل المال بالباطل في الآية السابقة بكنز الذهب والفضّة ، وبعدم إنفاقها في سبيل الله . فجعل الإسلام للكسب الحلال شروطاً وقواعد ، وجعل للإنفاق الحقّ شروطاً وقواعد . وذلك كله لصلاح الإنسان على الأرض ، وصلاح الشعوب كلها إذا التزمت وتعاونت على ممارسة قواعد الإيمان .

فالنظام الرأسمالي ومؤسساته لا يقع المال الحرام فيه من باب واحد ، ولكن من أبواب متعددة تجمعها كلمة « **أكل أموال الناس بالباطل** » « **وكنز الأموال وعدم إنفاقها في سبيل الله** » . فأصبحت المؤسسات المالية الرأسمالية تجمع الحرام من ناحيتين : من أكل أموال الناس بالباطل من جميع أبوابه وسبله الحرام ، ومن الإنفاق في غير سبيل الله ، من الإنفاق على الصدّ عن سبيل الله ، والإنفاق على الفتنة والفساد والكبائر كلها ، حتى أصبح هذا النظام ومؤسساته معجوناً بالربا والحرام عجناً .

ولقد غزا هذا النظام الشعوب كلها وغزا العالم الإسلامي ، يقوده علوم وتقنية ، ونظم إدارية متطورة تحميه وتحمي رجاله المتحكمين ، وهيئات ومؤسسات تعمل ليل نهار ، لتوفّر هذه العلوم والتقنية والإدارة والمؤسسات وسائل نهب الشعوب ، ووسائل الكسب الحرام والإنفاق الحرام ، ويحمي هذا النظام الاقتصادي سياسة ونظام سياسي وقوة عسكرية نامية مدمرة .

وكان أهم آثار ذلك انتشار الأزمات الاقتصادية وانتشار البطالة ، وانتشار الفتنة والفساد والجرائم ، والحروب التي لاتكاد تتوقف ، والمؤامرات في جوف الليل وفي وضح النهار ، حتى ظهر الفساد في البَرّ والبّحر والجو .

وغزا هذا كله العالم الإسلاميّ كالطوفان . والمسلمون متفرّقون متخلّفون أنهكهم الصراع بينهم حتى استفاد عدوهم من ذلك . وامتدت المؤسسات الماليّة الرأسمالية إلى العالم الإسلامي ، واضطرب المسلمون وحاروا كيف يتعاملون مع هذه المؤسسات ، وصدرت فتاوى هنا وفتاوى هناك ، فتاوى يناقض بعضها بعضاً .

وأول ملاحظة لنا على ذلك هو أنه كانت تؤخذ القضية الجزئية الواحدة معزولة عن نظامها الكلي ، فلا تبدو الصورة عندئذ على حقيقتها ، ولاتبرز الجريمة في هذه الجزئية أو

تلك بعد أن عُزِلت ثم زُخْرِفت بوسائل شتى من وسائل التجميل لإزالة القبح الكبير المتخفِّي . وقد لايبدو وجه « الحرام » في هذه الجزئية بعد عزلها وإخفاء ارتباطها بالنظام الكلّي الذي نَبَعَتْ منه وحملت معها منه أشكالاً متعددة من الحرام » ! .

لذلك اضطرب الرأي حول «الفائدة » التي تقدمها المؤسسات المالية . ولقد كان الرأي الأول أن يضع المسلم ماله فيها في «الحساب الجاري» الذي لا تُؤخذ معه الفائدة التي تُعْتَبَر حراماً ومالاً خبيثاً . وصارت القناعة لدى عامة الناس أنهم إن فعلوا ذلك تجنَّبوا الحرام ، وأنَّ تعاملهم مع المؤسسة المالية أصبح حلالاً لا إثم فيه ولا معصية . وغاب عن بال هؤلاء أنه لافرق في عمل المؤسات المالية مع الأموال بين حساب جارٍ وحساب غير جارٍ إلا في الدفاتر أو في بعضها . أما الأموال عامة فتدخل في نشاط المؤسسة دون تفريق ، ويكون لهذا الحساب « فائدة » ، ولذلك الحساب « فائدة » . والفرق الوحيد أن « المودِع » تَبرَّع بالفائدة عملياً للمؤسسة ويُعْتَبَرُ ماله المودَع قد دخل في المعاملات التي استحقت «الفائدة » . فإن كانت الفائدة حراماً فقد دخل في الحرام كمن وضع ماله في حساب الفائدة ، لأن حديث الرسول ﷺ جعل الإثم واللعنة على آكل الربا وموكله وشاهده وكاتبه . والمودِعُ شاهد على الأقل ، وإذا ادّعى الجهل فهذا جهل لايُعذَر فيه ، لأنه أمر عام عليه أن يستوضح قبل التورّط . وغاب عن بال هؤلاء ، أنهم إذا اعتبروا الفائدة » رباً حراماً ، فلا يكون الإثم متوقفاً على قبض الفائدة وتسلمها ، ولكن الإثم يبتدىء بالتعامل مع مؤسسة هو يعتبرها ربويّة .

ورأي آخر يقول إن أخذ « الفائدة » ، وهي رباً في نظره ومال خبيث ، أفضل من أن يتركها للبنك . ولكن لا يُنْفِقُها على نفسه وأهله ، بل يتصدّق بها ، وليس له أجر على ذلك من عند الله ، لأنها مال خبيث ، وليس له إلا رأس ماله يبقى طيباً لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ ... **فلكم رؤوس أموالكم لا تَظلِمون ولا تُظلَمون** ﴾ .

ونعتقد أن هذا الرأي وقع في أخطاء . أولها أنه ليس لأحد من الخلق أن يطلق الأجر من عند الله أو يمنعه ، فالله وحده يجزي كما يشاء من يشاء على ميزان عادل وحكمة بالغة لايحيط بها الناس . فلا حاجة للتدخّل في هذا الأمر . وثانيها أنه إذا كانت

«الفائدة» رباً ومالاً حراماً خبيثاً فلا يعني هذا أن رأس المال يظلّ على طهارته ، ولا يعني أن للناس رؤوس أموالهم حلالاً . ذلك لأن الله سبحانه وتعالى اشترط في نصّ القرآن لجواز أخذ رأس المال الذي يعمل في الربا ، اشترط أن يتوقف التعامل بالربا فوراً وأن يتوب المسلم توبة صادقة فلا يعود إلى الربا . فقد جاء النصّ في القرآن الكريم ﴿ .. **فإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لاتَظلمون ولا تُظلمون** ﴾ . فالشرط هنا « فإن تبتم » ! أي إذا توقفتم عن التعامل بالربا . أما إذا كان رأس المال مستمراً في تعامله بالربا ، ولم تقع التوبة ، فإن رأس المال لايكون طاهراً وقد عُجِن بالربا عجناً واستمَّر فيه .

والخطر من مثل هذا الرأي أو ذاك هو أن الناس تُقبل على التعامل مع مؤسسة يرون هم أنفسهم أنها ربوية ، ويظنّون أنهم بسلوكهم هذا قد حَلّ لهم التعامل مع المؤسسة الربويَّة . ثم يعتاد الناس ذلك ويألفونه ، ويدعمونه ويصبحون قوة له ، وتتهاون العزائم عن السعي إلى الحل الأمثل . وتصبح هذه الآراء أقرب للتخدير منها إلى التوعية . وإن إقامة النظام الاقتصادي الإسلامي البديل يفرض ممارسة منهاج الله بكامله في الواقع البشري ، ممارسة تقدّم النظام الاقتصاديّ الإسلاميّ البديل ليحلّ محل النظام الرأسمالي ، والنظام الإداريّ الإسلامي البديل ، والنظام الاجتماعي الإسلامي البديل ، والنظام السياسي الإسلامي البديل والعسكريّ الإسلامي ، وهكذا في مختلف شؤون الحياة ذلك لأنه يتعذّر تطبيق جانب من الإسلام وإهمال الجوانب الأخرى . إن نجاح الممارسة الإيمانية لأيّ جانب من الإسلام في حياة الإنسان أو الأُمة يفرض ضرورة الممارسة الإيمانية لسائر الجوانب دون إغفال أي جزء من الإسلام . إن الإسلام منهاج ربّاني متكامل مترابط متناسق يعمل بكل أَجزائه معاً . ﴿ ... **أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردّون إلى أشدّ العذاب وما الله بغافل عما تعملون** ﴾ [البقرة : ٨٥]

وكذلك :

﴿ **وقل إني أنا النذير المبين * كما أنزلنا على المقتسمين * الذين جعلوا القرآن عضين * فوربك لنسألنّهم أجمعين * عما كانوا يعملون** ﴾ [الحجر: ٨٩ - ٩٣]

إن محاولات التوفيق بين الإسلام والديانات الأُخرى التي خرجت منها العَلمانية ، أو التوفيق بين الإسلام والعَلمانية ، جهود ضائعـة ، خير منها أن تُبْذَلَ الجهود لإقامة دين الله - الإسلام - في الأرض كلها ، من أجل سعادة الإنسان والشعوب كلها .

في واقع الشعوب اليـوم مؤسسات ربويـة واضحة ، ومؤسسات تخلط الـربا بغيره ، فيفسد العمل كله . وتواجه الشعوب اليوم هذا النظام الاقتصادي العالميّ الربَوي ، النظام الـذي أقامـه أهل الكتاب والعَلمانيـون واليهود بخـاصة ، والنظـام العالمي يفـرض بالقـوة وبكل الوسائل نظـامه الاقتصاديّ ، دون أن يكون هنالك بديل يحل محلـه . فكانت نتيجة المواجهـة الاستسـلام والعجـز ومحاولات البحث عن مخرج بـآراء ونظـريـات متنـاقضـة متضاربـة ، أو ردود فعل ارتجالية تعزل ميدانـاً عن ميدان ، وقضية عن قضيـة ، فيفقد كل ميدان قوى تسانده ، وتفقد كل قضية قوى تساندها .

إن بلوغ الحل الأمثل لايمكن تحقيقه في واقعنا اليـوم بين يوم وليلة . ولكنه فرض على المسلمين أن يسعـوا إليه . وإن بلـوغـه يتطلب جهوداً واعيـة حقيقيّـة ، ونهجاً وتخطيطـاً ، وتعاوناً وبذلاً .

ولايستطيع الفـرد المسلم أن يجابه هـذا الواقع وحـده . ولكن كل مسلم يستطيع أن ينهض إلى مسـؤولياتـه التي وضعها الله أمـانة في عنقـه وفرضهـا عليه حتى تجتمع الجهـود وتصبّ كلها في مجرى واحد .

وخلال ذلك قد يجد المسلم الفرد أو الجماعـة أو الأمة أنفسهم أمام واقع ، يضطرون فيه إلى التعامل مع مؤسسات ربـوية . فتصبح القضية هي التعامل تحت ضغط الضرورة ، مع الإقرار بأن التعامل حرام لايجوز إلا للضرورة ، ومع واجب القيـام بالمسؤوليات الشرعية التي أمر الله بها ، والتي تسعى بتكاتفها إلى بلوغ الحل الأمثل .

إن تساؤل المسلم عن التعامل مع المؤسسات الربـوية أَحلال أم حرام ، وفي الوقت نفسه لايـوفي المسؤوليات التي كلفـه الله بها ، ولا يوفي الأمـانة والعهد مع الله ، هـو تساؤل عاجز يعطل مسيرة المؤمنين إلى الحل الأمثل .

والضرورة تعتبر ضرورة آنيّة مـادامت الجهود متكاتفـة من أجل رفعها . والضرورة في هذه الحالة قد تأخـذ عِدة أَشكال : ضرورة فردية يكون الفـرد المسلم مسؤولاً عنها ومحاسباً

عليها بين يـدي الله، وعليه هو أن يُقدرّهـا ويقدّر مدى أهميتها وضغطهـا عليه. وضرورة قـانونيـة قطريـة لايملك الفـرد المسلم دفعاً لها، وضرورة دوليـة لمن يتعرّض لها. والنظـام الرأسمالي اليوم ممتد في الأرض تـدعمه القوى العَلمانية وتغذّيه وتحميه، وتفرضـه حيناً بالقوة والقهر، وحيناً بالفتنة والتضليل.

وحين حرّم الإسلام أكل أمـوال الناس بالباطل، وحـرّم الربا، فإنه فـرض الزكاة في المال، تؤخذ من الأغنياء وتردّ على الفقراء، وضع نظاماً ماليا متكاملاً يكفل حق المسلم في المال والرعاية والعمل والسعي، وبنى جيـلاً مؤمناً قوّياً يحمل رسالـة الله إلى الناس كافّة، ويوفي بعهده مع الله، وينهض للتكاليف كلها، ليحمي نهجه ودينه.

وحين يطبـّق نظام الإسلام في الكسب وفي الإنفاق بجميع جوانبه تطبيقياً إيمانياً في أمّة مؤمنة، فإن مظاهر الظلم الاجتماعي تختفي إلا بمقدار ما يخالف الناس منهاج الله.

ولو أن الأغنياء كانوا يؤدّون مـافرض الله عليهم من زكاة وصدقات، لما كنت تجد في الأرض جوعى ومحتاجين ومظلومين. فحين أعلن مؤتمر التغذية الذي عقد في روما مؤخراً أن عدد الجوعى (٨٤٠) مليـوناً من البشر، فإن هذا يعني أن هنالك عـدداً من المتخمين أخذوا حقوق غيرهم فأُتخموا وجاع الآخرون، وهذا الظلم لايقع إلا في جو عَلماني ونظام رأسمالي.

وهـذه صـورة مـوجـزة عـن الاختـلاف في الاقتصـاد بين الإسـلام وبين العَلمانيـة. وهـذا الاختلاف يشير في الوقت نفسـه إلى خلافات واسعة أخرى بين الإسلام والعَلمانيـة. فهناك اختلاف في النظرية السياسيـة، فالعلمانية تبني السياسة على المصالح المادية وحـدها، والإسلام يضع أسساً أخرى تكفل للبشرية تعاونها وتكفل حماية حقوق الشعوب كلها وتمنع الظلم والعدوان.

وينشأ خـلاف آخر هام في الحيـاة الاجتماعية وتنظيم المجتمع ابتداء من حيـاة الفرد إلى الأسرة إلى الأُمة كلها. ونكتفي هنا بالإشارة إلى هذا الاختلاف الأساسي، حيث لامجال للتفصيل هنا، والتفصيل يحتاج إلى كتاب خاص.

ومن هـذه الاختلافـات كلها ينشـأ اختلاف كبير بين حقـوق الإنسان في العَلمانيـة وبينها في الإسلام، كما سنفصل في أبواب مقبلة.

الباب الثاني

تسلُّل العَلمانية إلى العالم الإسلامي

الفصل الأول

أهم العوامل الداخلية

التي مهدت لتسلل العَلمانية إلى العالم الإسلامي

١ - أهم العوامل :

اشتد شأن العَلمانية في أوروبا، وامتدت إلى أمريكا، وإلى بقاع أخرى من العالم، تدعمها قوى الدول الكبرى وإعلامها وجيوشها.

ولكن الظاهرة المهمة هي تسرّب العَلمانية بأثوابها المختلفة إلى العالم الإسلامي.

لاعجب أن تمتد العَلمانية في عالم ينتسب إلى النصرانية أو اليهودية، أما أن تدخل العالم الإسلامي فذلك شيء يُفترض أن يكون بعيداً. ولكنه بكل أسف لم يكن بعيداً، فقد دخلت العَلمانية العالم الإسلامي وامتدت فيه. فكيف كان ذلك؟!

حين مرّت أوروبا بعصورها المختلفة: عصر الظلمات (العصور الوسطى)، عصر النهْضَة، عصر الإصلاح، عصر التنوير، العصر الحديث، كان العالم الإسلامي يمرّ بعصور أو مراحل أُخرى مختلفة عن أوروبا، شهد خلالها العالم الاسلامي تغيّرات كثيرة.

لقد امتد الإسلام إلى معظم أنحاء العالم شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً، واحتكّ بمعظم شعوب الأرض، ودخل في صراع مع شعوب، وسِلْم مع شعوب أُخرى. ولكن الإسلام استطاع أن يقدم خيراً وصلاحاً، وعلماً وحضارة، حيثما حلَّ، وكيفما كان وضعه من قوة أو ضعف.

لقد استمرّ عداء الكافرين والمشركين وأهل الكتاب للإسلام منذ أَن ابتعث الله سبحانه وتعالى محمداً ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين. وامتد عداؤهم في مكة حتى أخذ شكل الإيذاء المباشر، تم التآمر والكيد على قتله. وبعد الهجرة إلى المدينة المنوّرة نظم المدينة وعلاقات القبائل جميعها في الكتاب الذي كتبه. وعامل الجميع معاملة بلغت غاية السموّ بالعدل والحق والأمن. وتمتع بذلك اليهود المقيمون في المدينة. فما رعوا حرمة

عهد وميثاق وخانوا الرسول ﷺ، وتتابعت خيانتهم ونقضهم لعهودهم. وكان أَشدَّ ذلك خطراً نقض بني قريظة عهدهم مع الرسول ﷺ، وانضمامهم إلى الأحزاب الذين أحاطوا بالمدينة لحرب المسلمين، فأذلهم الله جميعاً وردّهم خائبين. ودخل المسلمون في حرب مع فارس المعتدية، والرومان المعتدين، الذين كفروا برسالة محمدﷺ، وصدّوا عن سبيل الله، وجمّعوا الجموع لقتال المسلمين. وامتد الصراع مع الباطل حتى يومنا هذا. وما كان المسلمون يُهزَمون في أيّ جولة إلا عندما يتخلّون عن الدعوة الإسلامية، ويغرقون في زهوة الدنيا وزينتها.

كيف يُهزَم المسلمون إذا كانوا صادقين مع الله، حاملين رسالته، أوفياء بالعهد، قائمين بالأمانة؟! كيف يُهزَمون وقد وعدهم الله بالنصر إن صدقوا وأَوفوا، وعدهم بالنصر في الحياة الدنيا وفي الآخرة:

﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾

[غافر: ٥١]

وكذلك:

﴿... وعداً عليه حقاً في التوارة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾ [التوبة: ١١١]

فإذن لايصيب المسلمين الخذلان إلا لخلل فيهم، وفي مدى تقصيرهم بواجب الدعوة إلى الله ورسوله، ومدى إخلالهم بأداء الأمانة، أو إخلالهم بالوفاء بالعهد مع الله. وباستعراض التاريخ نرى هذه الحقيقة جلية كلّ الجلاء. لذلك كانت الهزيمة الفاجعة في الأندلس، والهزيمة الفاجعة في الهند، والهزيمة الفاجعة بسقوط الخلافة، والهزيمة الفاجعة في فلسطين، وعدّد بعد ذلك ماشئت من الهزائم لترى آيات الله بيّنات صادقة.

وبدأ الخلل يدبّ في واقع المسلمين مع الأيام، ويزداد الخلل ويتسع، ويشتد كيد أعداء الله ويمتد، ويقوى المكر وتتجدّد أساليبه.

لقد أخذ أعداء الله في غزوهم للعالم الإسلامي بكل الوسائل المتجددة النامية ، بين مراوغة وبين وحشية. فكان الغزو فكرياً وثقافياً تحمله وسائل الإعلام والحركات التنصيرية والمستشرقون والشركات التجارية ورجال الأعمال والصناعة ، يُمَهِّد هؤلاء كلهم في مرحلة من المراحل للغزو العسكري الإجرامي. ويمتد هذا الغزو المتصل قروناً طويلة حتى يومنا هذا[(١)]. لقد كان هذا الغزو يحمل عناداً وإصراراً وتعاوناً بين مختلف القوى من أعداء الله .

ولقد بيّنا رأينا في أسباب هذا الغزو في أكثر من كتاب ، وفي أسباب هذا العداء والإصرار. وموجز ذلك أن هؤلاء معتدون مجرمون لهم أطماع واسعة في الأرض كلها ، وفي العالم الإسلامي. وقد وجدوا أن الإسلام ، كما أُنزِل على محمدﷺ ، هو العقيدة الوحيدة التى لاتقبل المساومة على نصرة الحق ومقاومة الباطل والظلم والفساد والعدوان ، وأن الله ابتعث هذه الأمة المسلمة ، حاملة رسالة الله ، لتحقّق العدل والأمن والحق في الأرض على أساس من منهاج الله ، وعلى أساس من الإيمان والتوحيد. وأن هذه الأمة الممتدة مع التاريخ منذ نوح عليه السلام حتى محمد ﷺ خاتم الأنبياء والرسل هي أمة واحدة على مرّ العصور، وأنها خير أُمة أُخرجَت للناس بكمال الرسالة بالنبيِّ الخاتم محمد ﷺ ، مادامت هذه الأمة وفيّة لرسالتها وأمانتها :

﴿ كنتم خير أُمة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾
[آل عمران : ١١٠]

ومادامت هذه الخصائص الإيمانية متوافرة في الأمة ، فإن وعد الله بالنصر يتأكد في آية بعد آية :

﴿لن يضرّوكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثمّ لايُنصَرون ۞

---

(١) تراجع الكتب التالية من أجل تفصيلات أوسع : «التعامل مع مجتمع غير مسلم من خلال الانتماء الصادق إلى الإسلام». «الصحوة الإسلامية إلى أين؟» «أضواء على طريق النجاة » للمؤلف .

ضربت عليهم الذلة أينما ثُقفوا إلا بحبلٍ من الله وحبل من الناس وباؤوا بغضب من الله وضُرِبت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حقٍّ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ [آل عمران : ١١١ ، ١١٢]

أما إذا أخذت الخصائص الإيمانيّة الربانية تغيب عن واقع الأمة، فإن ابتلاء الله يتحقّق وعقابه ينزل عدلاً منه سبحانه وتعالى، فإنه لايظلم أبداً.

ولحكمة يعلمها الله جاءت فترة أخذت الخصائص الإيمانية تضعف فيها وتغيب شيئاً فشيئاً عن واقع الأمّة. ومع كل ضعف في هذه الخصائص الإيمانية أو غياب لها، تدخل فتنة وتقوى، وتقع هزيمة وتشتد.

وأصبح واقع الأمة المسلمة فيه من الضعف مايهيىء الظروف لاستقبال الفتنة التي يطلع بها أعداء الله في غزوهم المستمر. فأصبح جسد الأمة فيه من الوهن مايسمح للجراثيم أن تدخل فيه لتجد مجالاً واسعاً لها.

ونعتقد أن أعداء الله، وهم يغزون العالم الإسلامي، كانوا يخططون تخطيطاً دقيقاً مستفيدين من جميع تجاربهم مع المسلمين من خلال تاريخ طويل. لقد بحثوا عن مصدر قوة هذه الأمة فخططوا لكي يجرّدوها منه، فتضعف فتسقط لقمة سائغة في أفواههم الشرسة، أو هكذا حسبوا.

لقد عرفوا أن إيمان المسلمين الصادق بالله سبحانه وتعالى، وعلمهم بكتاب الله وسنة نبيّه محمد ﷺ كما جاء بها الوحي الأمين بلسان عربيّ مبين، هو مصدر القوة ومنبعها، إذن فليتجه المكر والكيد لضرب الأُمة في مصادر قوتها هذه. وانطلق التخطيط والمكر والكيد:

﴿وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال* فلاتحسبنّ الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام﴾ [ابراهيم : ٤٦ ، ٤٧]

٢ - أهم معالم المكر والخداع والتخطيط :

ويمكن أن نوجز القضايا التي كانت أساسية في مكرهم وتخطيطهم المتعدد

الجوانب، القضـايـا التي تفتح لهم ثغرات ثم أبـوابـاً واسعـة يتـدفّقـون منهـا إلى العـالم الإسلامي، القضايا التي اعتمدوا عليها وبنوا عليها، في نقاط محدّدة.

ولكن لابدّ أن نشير إلى أن هـؤلاء الأعداء مهما أتقنوا مكرهم، فإن مكـرهم فيه خلل دائم. ذلك بأنهم ينسون أن الله هو ربُّ الكـون وهو الذي يدبّر الأمـر كله. إنهم ألغوا من مخططاتهم الأُلـوهية والقدرة الـربّانية التي ستفاجئهم وتنـزل بهم العقوبة والبـلاء كما نزل بأشياعهم من قبل.

(أ)

الحرب على اللغة العربيّة وإبعاد المسلمين عنها

لقد أدرك أعـداء الله أن لفهم الكتاب والسنة وتـدبّرهما قاعـدتين أَساسيّتين تنطلق منهما سائر القـواعد. هاتان القـاعدتان هما: صفـاء الإيمان والتوحيد، واللغة العـربية. فهما مفتاحا الفهم والتدبر. وأدركوا كـذلك أن اللغة العربية كانت اللغة الأولى لكل مسلم مهما كـان جنسه أو كـانت أَرضه. وأدركـوا أن اللغة العـربية كـانت إحدى الـروابط التي تربط هذه الأمة المسلمة وتحفظ وحدتها وقوتها. ومن أهم الأسباب الجامعة لها.

إنها لغة الوحي والنبوة، ولغة القرآن والسنـة، ولغة العبادة، إنها اللغة التي اختارها الله سبحانه وتعالى لرسالته الخاتمة ودينـه، فلم تعد لغة العرب وحدهم، ولكنها أصبحت لغة الـرسالة الـربانيّة ولغـة أُمة الإسلام. فـوضعوا غـاية جهودهم لعـزل المسلم عن لغته العـربية وتـوهين صلته بها. فنشروا اللغـات العـامية ولهجـاتها، ونشروا اللغات الأجنبيـة وآدابها وتاريخها. وبلغـوا في ذلك مبلغاً واسعاً. ونشروا كذلك اللغات القـومية في كل بلد من بلاد الإسلام.

وإذا نظـرنا في واقعنـا اليوم نجـد أن اللغـات الأجنبية والعـامية أصبحت هي لغـة الحديث اليومـي في كثير من أَقطار العالم الإسـلامي. وأصبح كثير من المسلمين المتعلمين لايكـادون يُحسنـون استخـدام اللغـة العـربيـة الصحيحـة. وتمتلىء المجـلات والصحف والإذاعات بأخطاء لغوية كثيرة.

ويبرز أُدباء مسلمون يَنهَلون من علوم مختلفة، ويتقنون الإنجليزية أو الفرنسية، ويصوغون بهذه أو بتلك أدبهم الإسلامي، أو يصوغونه باللغة القومية. فبذلوا جهوداً كبيرة ووقتاً طويلاً ليتقنوا لغات أهل الكتاب، وعجزوا عن بذل الجهد لدراسة لغة دينهم وقرآنهم وعباداتهم. وكثيراً ما تجد لدى هؤلاء نوعاً من الانحراف في التصور أو الفكر الناتج عن عدم دراسة الكتاب والسنة باللغة العربية.

وتجد كذلك أناساً من غير العرب يحفظون القرآن الكريم كله باللغة العربية دون أن يعرفوا اللغة العربية، ودون أن يستطيعوا تدبّر كتاب الله كما أمرهم الله.

وتجد من العرب أنفسهم اليوم من لايحسن لغته العربية. وقد يحسن اللغات الأجنبية أكثر بكثير من لغته، وقد تصبح اللغة الأجنبية هي لغة الحديث في بيته مع زوجته وأطفاله، وفي عمله ووظيفته. فلا الشعور القومي أفاد بتوفير الحافز لاحترام لغته، ولا الحافز الدينيّ أثاره. وإذا طفت الأرض لرأيت معظم الأقوام يتعصبون للغتهم تعصّباً مبالغاً فيه. ولو حدّثت بعضهم بغير لغتهم لما أجابك. وقد لاتجد هذه الحماسة إلى اللغة العربية عند بعض العرب المسلمين.

وإذا دخلت الفنادق الكبيرة والمطاعم والشركات في كثير من بقاع العالم الإسلامي لوجدت اللغة الأجنبية هي الأولى، ولو تكلمت باللغة العربية لظهرت كأنك مستهجن وغريب وأنت في بلدك، أو لاعتبروك من مستوى متدنٍّ.

إن انحسار اللغة العربية في العالم الإسلامي مظهر من مظاهر الغزو الذي تحدثنا عنه، ومظهر من مظاهر تسرّب العَلمانية إلى العالم الإسلامي، تسرّباً جعل من بعض أبناء هذه الأمة دعاة إلى العَلمانية، ودعاة إلى فتن كثيرة في الأُمة وفي فكرها وخلقها ولغتها. وقد ظهر أناس يدعون لتغيير أحرف اللغة العربية وإلى تغيير قواعدها وأدبها وشعرها لتبتعد اللغة العربية بذلك عن لغة القرآن وأسلوبه، فيتعذّر على الأجيال الناشئة فهم القرآن الكريم.

وإن الكيد الذي خططوا به لضرب اللغة العربية في العالم الإسلامي كان كيداً كبيراً،

حتى أن تركيا أَلغت الأحرف العربية واللغة العربية، ودار الصراع حولها في أَقطار أُخرى.

إن اللغة العربية تدخل اليوم معركة كبيرة جداً هي جزء من معركة الإسلام. ولقد ساعد احتلالُ أعداء الله للبلاد الإسلامية على توهين اللغة العربية وعزلها عن المسلمين. لقد اشتركتُ في مؤتمرات إسلامية تُعقد في بعض دول الغرب، يقيمها دعاة مسلمون من أصل عربيّ، ففوجئت حين رأيت اللغة الأجنبية هي اللغة الرسمية للمؤتمر، فيها تصدر القرارات والتوصيات، وبها يصدر برنامج المؤتمر، وبها يتحدث الدعاة المسلمون العرب. ولقد نصحت مشافهة وكتابة قدر ما أَستطيع. ولكن المفاجأة الأُخرى أن الدعاة المسلمين العرب الذين يُدعَونَ إلى مثل هذه المؤتمرات، ويرون ما رأيت، يغادرون دون أن تقدَّم نصيحة أو يُقترَحَ علاج أو يُبيّن رأي. ودون أن يتعاون الجميع على دراسة هذه القضية ووضع أسلم الحلول والعلاج لها.

لقد كان من أخطر نتائج انحسار اللغة العربيّة كما عرضناه، أن ساعد هذا الانحسار على عزل المسلم عن منهاج الله، عن الكتاب والسنّة. ولذلك كان الهدف الأول لأعداء الله عزل المسلم عن لغة القرآن والسنة، فإذا تم هذا لهم سهل عليهم متابعة التخطيط والمكر لعزل المسلم عن منهاج الله.

فعزل اللغة العربية وتوهين منزلتها هي الخطوة الأُولى في مكر طويل وضعوا خططه ومضوا في تنفيذه!

لقد كان من بين وسائلهم هو إشعار المسلم بأن اللغة العربية ليست شرطاً في الدين والإيمان. فيمكن أن يكون الإنسان مسلماً دون أن يعرف اللغة العربية. وصاغوا هذه الفكرة صياغة مزخرفة توحي بالمنطق والقبول. ولاشك أن الإنسان يمكن أن يكون مسلماً قبل أن يعرف العربية، ويبدأ إسلامه بالشهادتين. ولكن المغالطة كانت في أن المسلم عليه مسؤوليات وواجبات وله حقوق فصَّلها الله سبحانه وتعالى في الكتاب والسنة باللغة العربية. فلا يقبل من المسلم أن يقول الشهادتين ثم يقف عندهما دون أَن ينهض إلى التكاليف الربانية التي أمره الله بها: من أداء الشعائر، ودراسة القرآن والسنة وتدبرهما، والنهوض إلى تبليغ رسالة الله إلى الناس، وإلى سائر التكاليف الربانية المفصلة

من منهاج الله. فمن منهاج الله يأخذ المسلم التكاليف المنوطة به، واللغة العربية هي مفتاح ذلك وهي لغة الشعائر والطاعات.

ولندرك حقيقة منزلة اللغة العربية في الإسلام، ومايجب أن تكون عليه في قلب كل مسلم، يجب أن نعود إلى كتاب الله فنرى هذه المنزلة، ونرى كيف أن الله سبحانه وتعالى يحدد هذه المنزلة. ونأخذ هنا قبسات من القرآن الكريم ليعود المسلم إلى القرآن ليجد الصورة كاملة:

﴿ إنا أنزلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون ﴾ [يوسف: ٢]

وكذلك:

﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذين يلحدون إليه أعجميٌ وهذا لسان عربيّ مبين﴾ [النحل: ١٠٣]

﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين* نزل به الروح الأمين* على قلبك لتكون من المنذرين* بلسان عربيّ مبين﴾ [الشعراء: ١٩٢- ١٩٥]

وكذلك:

﴿ ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصّلت آياته أأعجميّ وعربيّ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لايؤمنون في آذانهم وقرٌ وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد﴾ [فصلت: ٤٤]

وكذلك:

﴿ وكذلك أنزلناه حكماً عربيّاً ولئن اتبعت أهواءهم بعدما جاءك من العلم مالك من الله من وليٍّ ولا واق﴾ [الرعد: ٣٧]

وكذلك:

﴿كتاب فُصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون﴾ [فصلت: ٣]

وكذلك:

﴿ومن قبله كتـاب موسى إمامـاً ورحمة وهذا كتاب مصـدّق لساناً عـربياً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين﴾ [الأحقاف : ١٢]

وتتوالى الآيات الكـريمة تؤكد منزلـة اللغة العربية في دين الله، في الـرسالة الخاتمة، وتلحّ على ذلك إلحاحاً شديداً.

وجاء القرآن الكريـم لساناً عربيّاً ليس للعرب وحدهـم وإنها جاء للعالمين، للناس كافـة. فكانت اللغة العربيـة هي اللغة اختارهـا الله ليكون بها البلاغ في الرسـالة الخاتمة، بلاغاً للبشرية كلها؛ واستمع إلى آيات الله تؤكد هذه الحقيقة:

﴿ومـا أرسلنـاك إلا كـافـة للنـاس بشيراً ونـذيـراً ولكـن أكثـر النـاس لايعلمون﴾[سبأ: ٢٨]

وكذلك:

﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [الأنبياء : ١٠٧]

وكذلك:

﴿قل يـا أيّها النـاس إني رسـول الله إليكم جميعـاً الـذي له ملك السمـوات والأرض لا إله إلا هـو يحي ويميت فآمنوا بـالله ورسوله النبيّ الأمي الـذي يؤمن بالله وكلماته واتّبعوه لعلكم تهتدون﴾ [الأعراف: ١٥٨]

وكذلك:

﴿هذا بلاغ للناس ولِيُنذَروا به وليعلموا أنما هـو إله واحد وليذَّكَّر أولوا الألباب﴾ [إبراهيم : ٥٢]

هذه هي اللغة العربيـة التي اختارها الله سبحانه وتعالى لتكـون لغة رسالته الخاتمة، لغة الوحي والقرآن والنبوة والعبادة.

وعندمـا انطلقت فتوحات الإسلام وامتـدت في الأرض، دخلت شعوب كثيرة غير عربية دين الإسـلام، فما احتاج أحد أن يأمرهم بـأن يتعلموا لغة القرآن، بل أقبلـوا بحافز إيمانيّ على اللغة العربيّة حتى صـارت هي لغتهم ولغة أدبهم وفكرهم، ونبغ منهم علماء في

اللغة العربية وشعراء وأدباء ومفكرون.

كل مسلم، حين يصدق إيمانه، ويعرف دينه، ويرجو الله والدار الآخرة، فإنه يُقبل على اللغة العربية إقبال إيمان ويقين وشوق. وحين يضعف الإيمان أو يختل العلم بالقرآن والسنة، تتفتح ثغرات أمام الاعداء ليوهنوا من شأن اللغة العربية في نفوس المسلمين.

ولقد دخلت اللغة العربية صراعاً طويلاً وحرباً ضروساً، وظلت صامدة قويّة، وستظل كذلك لأن الله سبحانه وتعالى تعهّد بحفظها حين تعهد بحفظ الذكر الذي أنزله على محمد ﷺ.

﴿إنا نحن نزّلنا الذكر و إنَّا له لحافظون﴾ [الحجر: ٩]

(ب)

التخطيط والكيد لعزل المسلم عن الكتاب والسنة

لقد وضع أعداء الله مخططات كثيرة تهدف إلى عزل المسلم عن الكتاب والسنة، بعد أن أدركوا أنهما مصدر قوة الأمة المسلمة وآية انتصارها وعزّها، وقاعدة نموّها وتطورها.

إنهم أدركوا أن منهاج الله هو أساس حضارة المسلمين الإيمانية، الحضارة التي امتدت في الأرض فملأتها نوراً وعلماً، وخلقاً وأمناً، الحضارة التي لم ترفع شعارات تخدِّر الناس بها، ولكنها رفعت الشعارات لتوقظ الغافلين، ولتنزل الشعارات حيّة في واقع الإنسان، في واقع الشعوب لتوقظها لتنهض إلى أمانتها.

ولكن المجرمين في الأرض لايريدون هذه اليقظة الحقيقية، لأنها ستقف أمام أطماعهم وعدوانهم، وأمام نهبهم لثروات الشعوب وإبقائها في فقر وجهل.

لقد أدركوا أن هذا القرآن نور وحياة للمؤمنين. فإذا أفاق الناس وأضاءت لهم الدرب، وامتلأت خطاهم حياة وقوة، فعندئذ تتعطل برامج المجرمين العدوانية الظالمة، وتُسَدُّ الأَبواب أمام أطماعهم.

فليس لهم إلا أن يخططوا بمكر وفتنة لعزل المسلمين عن منهاج الله -قرآنا وسنة ولغة عربية-، حتى يتيسّر لهم المضيّ في العدوان والأطماع والظلم.

ولم يكن التخطيط لهذه القضية معزولاً عن التخطيط لأي قضية أخرى. كانوا يمكرون ويكيدون ويخططون على جميع الأصعدة والميادين في وقت واحد. وكانوا يستخدمون شتى الأساليب كذلك: أساليب الإعلام، ومناهج التربية في البلاد التي يحتلونها، والاقتصاد، والتأثير النفسي، ونشر الإشاعات التي يحولونها إلى مبادىء وفكر.

وما زال هذا المكر ممتداً حتى يومنا هذا، متجدداً في أساليبه. وقد تجد اليوم من يطرح قضايا جدلية تصدّ عن دراسة منهاج الله. قد تجد من يقول لايشترط على المسلم أن يدرس القرآن، ثمَّ يجادل في ذلك جدالاً طويلاً.

وقد تجد من يقول إن دراسة القرآن خاصة بالعلماء ولايجوز لغيرهم أن يتلو القرآن أو يتدبره. وقد تجد من يقول إن القرآن صعب لانستطيع فهمه فلا داعي لتلاوته. وقد تجد من يأمر بالتلاوة دون التدبر. وهكذا دعوات كثيرة وإشاعات أكثر تصد عن دراسة الكتاب والسنة وتدبرهما، وطائفة تقول لا حاجة لنا بالسنة فحسبنا القرآن. وآخرون يثيرون الشبهات حول السنة. وهكذا تجد مسلسلاً طويلاً لا نستطيع حصره هنا وبيان تفصيلاته، مسلسلاً يصدّ عن دراسة الكتاب والسنة وتدبرهما.

لقد جاءت مرحلة في التاريخ الإسلامي كان فيها الأميون والجهلاء كثيرين، فكان اعتمادهم على فهم الإسلام على العلماء، دون أن يشعروا أن من واجبهم أن ينهضوا لينهلوا من منهاج الله كلٌّ قدر ووسعه الذي وهبه الله. ولم تُبْذَلْ جهود جادة لرفع الجهل وتيسير سبل تدبّر منهاج الله للناس تدبّراً منهجياً.

ولقد قامت حركات تحت شعارات إسلامية كثيرة في العالم الإسلامي، منها ما كان منحرفاً واضح الانحراف، ومنها ما كان سلبياً، ولكن غلبت الشعارات على النهج أو غاب النهج، ومنها ما يبذل الجهد الصادق إن شاء الله. ولكن في جميع الحالات لم يكن لمنهاج الله الدور الذي كان له في دعوة محمد ﷺ.

وظهرت مؤلفات وكتب كثيرة، منها الجاد ومنها المضطرب. وأخذت تحتل هذه «الكتب البشرية» دوراً رئيساً في فهم المسلم لدينه، فضعفت صلة المسلم بالقرآن والسنة إلا من رحم الله. لقد كان يُفرض أن يكون أهم دور للكتاب البشريّ أن يدفع المسلم دفعاً

إلى منهاج الله ، وأن يوفر له النهج والخطة .

لقد تعاونت عوامل كثيرة ساهمت في عزل المسلم عن منهاج الله ؛ بالإضافة إلى عزله عن اللغة العربية عزلاً ساهم في بعده عن منهاج الله .

لقد فتح هذا الخلل ثغرات واسعة يدلف منها العدو أو يتدّفق بحشوده ، ليؤذي ويفسد . وأصبح الملايين من المسلمين لايعرفون دينهم ، وملايين لاتعرف إلا كلمات تلتقطها من هنا ومن هناك ، وقليلون جدّوا في دراسة منهاج الله .

فتكوَّن في الأمة قطاع كبير جداً لايحمل صدره علماً من القرآن والسنة . وأصبح هذا القطاع الواسع في العالم الإسلامي ساحة واسعة لأعداء الله يصبون فيهم سمومهم ، فيحملون هذه السموم تحت شعار الإسلام ، أو ينفضون أيديهم من الإسلام كله .

وأصبحت الأَفكار عن الإسلام متضاربة متناقضة بين المسلمين وماظهر فيهم من أحزاب وتكتلات في هذا الجو من اضطراب العلم باللغة العربية وبمنهاج الله .

يضاف إلى ذلك الحركات الهدّامة الضالة التي ظهرت في التاريخ الإسلامي ، فقد فتحت كذلك لأعداء الله أبواباً واسعة يدخلون منها ليفسدوا إفساداً كبيراً .

ولقد ساهم أعداء الله مساهمةً واسعة في تكوين حركات متعدِّدة تساهم في تمزيق الأُمة وفي إبعاد المسلم عن الكتاب والسنّة ، ومنها ما كان خاضعاً كل الخضوع لأعداء الله ينفّذ مخططاتهم في الأمة .

ولقد أدّى تهوين اللغة العربية وجهل المسلمين بها ، إلى المساهمة في جهل المسلم بالكتاب والسنة ، وعدم القدرة على تدبرهما ودراستهما دراسة جادّة .

وهذا الابتعاد عن اللغة العربية وعن منهاج الله أوجد لدى الكثيرين خللاً في الإيمان والتوحيد ، وخللاً في التصور لهما ، وخللاً في البذل من أجلهما . فكانت المشكلة الثالثة في واقع المسلمين هي الخلل في التصور الإيماني وفي الدعوة إليه .

ومن أجل معالجة مظاهر الخلل هذه نرى أن العمل الإسلاميّ يجب أن يأخذ الصورة المنهجية من خلال الدراسات الجادة والمناهج التطبيقية والنماذج العلمية .

وبالنسبة لمسؤوليات المسلم نُذَكِّر بأن من بين هذه المسؤوليات الدراسة المنهجية والتدبّر الجاد والبذل المتواصل من أجل ذلك.

ويمكن أن نوجز هذه المسؤولية المتعلقة بدراسة منهاج الله قرآنا وسنّة بالنقاط التالية:

١ - أن يدرس كلّ مسلم القرآن والسنة ويتدبرهما من خلال دراسة منهجيّة محدّدة، لتصبح هذه الدراسة صحبة عمر وحياة لاتتوقف حتى يلقى المسلم ربّه.

٢ - أن تكون هذه الدراسة وهذا التدبّر من كلٍّ قدرَ وسعة الذي وهبه الله له والذي سيحاسبه الله عليه يوم القيامة.

٣ - أن يصاحب هذه الدراسةَ دراسةُ اللغة العربية دراسة منهجية.

٤ - أن يصاحب هذه الدراسةَ دراسةُ الواقع دراسة منهجيّة من خلال القرآن والسنة.

[redacted] - أن تكون هذه الدراسة المنهجيّة جادّة، يقوم بها المسلم بعزم وقوة، وشوق ويقين.

٦ - أن يرافق هذه الدراسة المنهجية والصحبة الممتدة تدريبٌ منهجي على ممارسة منهاج الله في واقع الحياة.

٧ - أن يرافق ذلك كله ممارسة إيمانيّة لمنهاج الله مع جميع خصائص الممارسة الإيمانية لتكون عملاً صالحاً.

٨ - أن يظلّ هذا الجهد نامياً مستمراً، يدفع الأجيال المؤمنة إلى ميدان الحياة، يأخذه جيل عن جيل لتتواصل الأجيال المؤمنة، حتى تظلّ مدرسة الدعوة ماضية أبد الدهر امتداداً لمدرسة النبوّة، يصوغها منهاج الله(١).

---

(١) تراجع الكتب التالية من أجل تفصيلات أوسع عن الدراسة المنهجية، وعن النهج العام للدعوة الإسلامية ونظريتها العامة: دور المنهاج الربّاني في الدعوة الإسلامية، منهج المؤمن بين العلم والتطبيق [redacted] منهج لقاء المؤمنين، النظرية العامة في الدعوة الإسلامية نهج الدعوة وخطة التربية والبناء.

(جـ)

العمل على غرس الخلل في التصور الإيماني ونشره[1]

من خلال الصراع الطويل للإسلام مع أعداء الله ظهر الوهن في القضيتين السابقتين : اللغة العربية ، والكتاب والسنة . ولقد كان من أخطر نتائج هذا الوهن أن ساهم في اضطراب التصور الإيماني الذي يعرضه منهاج الله . إن كتاب الله نبع غنيّ يروي القلوب والصدور بالإيمان والتوحيد . وإنه المصدر الأول الذي يحافظ علي إيمان المسلم وينميه ويغذيه . وإن انقطاع المسلم عن دراسة منهاج الله وتدبّره ، كمثل انقطاع الشجرة عن الريّ اللازم لها .

لقد تعاونت عوامل كثيرة كلها أدت إلى اضطراب التصّور الإيمانيّ والتوحيد لدى كثيرين من الناس ، يمكن أن نوجزها بنقاط كما يلي :

١ - الغزو الفكري والثقافي الذي قام به الغرب في غزوه للعالم الإسلامي . وكان يحمل هذا الفكر الجيوش والإعلام والحركات التنصيرية والمستشرقون ورجال السياسة والفنانون والأدباء ورجال الفكر والشركات التجارية .

٢ - الغزو العسكري الذي احتل معظم أقطار العالم الإسلامي وسيطر على مقدراتها سنين طويلة ، استطاع خلالها أن يغرس مايشاء من أفكار ومبادىء وأخلاق ، وأن يوجد فئات من الأمة تعينه على ضلاله وفساده ، وأن ينشىء فيها المؤسسات التي تتبنّى نهجه المفسد المنحرف .

٣ - الفتن والفساد والانحلال الذي كان ينشره الغزاة في دار المسلمين ، والزنا والخمر والمخدرات ، ونزول المرأة إلى ميادين يهيج فيها الفجور والفتنة .

٤ - قيام حركات تحمل شعار الإسلام وتدعو إلى الانحراف عن الإسلام ، يُغذيها

(١) تراجع الكتب التالية من أجل تفصيلات أوسع عن هذا الخلل : التوحيد وواقعنا المعاصر، الحقيقة الكبرى في الكون والحياة ، النيّة في الإسلام وبعدها الإنساني ، الولاء بين منهاج الله والواقع ، الحوافز الإيمانيّة بين المبادرة والالتزام ، الخشوع .

الغرب وأعوانه.

- انتشار نوادي الفتنة والفجور في العالم الإسلامي تحت أسماء مختلفة توفر لها التغطية اللازمة.

وكل عامل من هذه العوامل يحتاج إلى دراسة مفصَّلة ليس مكانها في هذا البحث.

● ● ●

إن هذه العوامل الرئيسة الثلاثة جعلت المجتمعات في معظم العالم الإسلامي مهيّأة لاستقبال العَلمانية وقبولها. لقد أضعفت فيها مقاومتها الذاتيّة ومناعتها. وأكثر من ذلك، فلقد أوجدت في الأمة عَلمانية نابعة من ذاتها.

ولم ينحصر الخطر على المسلمين المقيمين في العالم الإسلامي، ولكنه امتدّ إلى المسلمين المقيمين في ديار العَلمانية، حيث ضعفت مقاومة بعضهم، وانهارت لدى آخرين.

ولقد أصبح عدد غير قليل من المسلمين المقمين في الغرب ينادون بالعَلمانية ويدعون لها بحوافز مختلفة: فمن باعث التقية والخوف، أو من باعث الفتنة التي دخلت القلوب، أو من باعث اللِّين والضعف.

ولكن غاب عن بال المجرمين في الأرض الذين ينشرون الفتنة والفساد والعَلمانية بأشكالها المختلفة، وغاب عن بال من سقطوا في فتنتها أن الدين لله، وأن الله ناصر دينه ومعزُه، ولن يخلف الله وعده.

﴿**فلا تحسبنّ الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام**﴾[إبراهيم: ٤٧]

إنما هي فترة ابتلاء وتمحيص، لتقوم الحجة على الضعفاء والمنافقين، وتقوم الحجة للصادقين الصابرين. وستظل في الأرض طائفة صادقة ظاهرة، ثابتة على دين الله، لاتُبدّل ولا تضعف ولاتهون:

فعن جابر بن عبدالله عن الرسول ﷺ أنه قال: «**لاتزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق، ظاهرين إلى يوم القيامة**» [رواه مسلم][(١)]

(١) مسلم: ٣٣/ ٥٣/ ١٩٢٠.

وعن عقبة بن عامر : «**لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله ظاهرين لعدوهم، لايضرّهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك. . .**»

[رواه مسلم][1]

ويظل المؤمنون الصادقون في بشرى من الله، قلوبهم مطمئنة، ونفوسهم صابرة مستبشرة، أنظارهم معلّقة في الجنة تطرق أبوابها باليقين والعمل الصالح ونشر الخير والصلاح على أساس من منهاج الله.

فليس الخوف على مستقبل الإسلام. إنما الخوف على أنفسنا من الساعة، ومن يوم الحساب، حين تكون القضية ويكون السؤال والحساب: ماذا فعلتم أيها المسلمون لنصرة دينكم؟!

أيها الناس، أيها الدعاة، أيها المسلمون! لاتخافوا على الإسلام فإن الإسلام سينتصر! ولكن خافوا على أنفسكم من ساعة الحساب! خافوا على أنفسكم وأنتم تُهزَمون! خافوا على أنفسكم حين تسألون لماذا هُزِمتهم؟! وكيف ضاعت بلادكم؟! وماذا قدّمتم وبذلتم؟! وهل عذرتم أنفسكم؟!

لاتخافوا على الإسلام فإنه سينتصر لاريب في ذلك، ولكن خافوا من فتنة مقبلة كالليل المدلهم.

﴿واتقوا فتنة لاتصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب﴾
[الأنفال: ٢٥]

﴿وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثمّ لاتنصرون* واتبعوا أحسن ماأنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لاتشعرون* أن تقول نفس ياحسرتىٰ على مافرّطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين* أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين* أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرّة فأكون من المحسنين* بلى قد جاءتك آياتي فكذّبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين* ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين﴾ [الزمر: ٥٤- ٦٠]

(١) مسلم: ٣٣/ ٥٣/ ١٩٢٤.

ثم أخذت العوامل الداخليّة تتوالد لتمهّد لأعداء الله احتلال معظم أقطار العالم الإسلامي. فإذا العالم الإسلاميّ ممزّق قطعاً قطعاً، وشيعاً وأحزاباً، وعصبيات جاهلية هائجة ثائرة.

وسقطت الخلافة الإسلامية، فزاد الجرح عمقاً والنزيف دماً، ومازال الدم يتدفّق!

لقد كان من أخطر نتائج الخلل في القضايا الثلاث التي سبق ذكرها: اللغة العربية، منهاج الله، الإيمان والتوحيد، أن ظهر خلل في قضية رابعَة هامة، هي الخلل في فهم الواقع.

ذلك أن المسلم، مع ضعف لغته العربية، وضعف صلته بمنهاج الله، والخلل في التصوّر لقضية الإيمان والتوحيد، لم يعد قادراً على ردّ الأُمور إلى منهاج الله، ولا على ردّ الواقع وأحداثه، وإنما أصبح يأخذ التصوّر الذي تلقيه العَلمانيّة إليه بوسائل مختلفة. فطائفة تنظر إلى الواقع من خلال النظرة المادية الشيوعية، وطائفة من خلال النظرة المادية الرأسمالية، وآخرون من خلال الأهواء والمصالح، فاضطربت الرؤية وتضاربت الآراء والتصورات، مما زاد الفتنة لهيباً والتصدّع تصدُّعاً.

لذلك نطرح من خلال النظرية العامة للدعوة الإسلامية الركنين الرئيسين وهما:

المنهاج الرباني والواقع. ويقوم هذان الركنان على **القاعدة الصلبة، قاعدة الإيمان والتوحيد**.

ونحدّد جميع مشكلات الواقع من خلال **قضايا أربع رئيسة: الخلل في التصور لقضية الإيمان والتوحيد وفي الجهد المبذول لها، والخلل في تدبّر منهاج الله، والخلل في فهم الواقع من خلال منهاج الله، والخلل في الممارسة الإيمانية**.

ثمّ تتحوّل هذه المشكلات أو القضايا الأربع الرئيسة لدى الداعية الصادق إلى أسس أربعة: صدق الإيمان والتوحيد، صدق العلم بمنهاج الله، وعي الواقع من خلال منهاج الله، سلامة الممارسة الإيمانية.

وتصبح هذه الأسس الأربعة معاً هي العنصر الأول من عناصر التنفيذ في ميدان

الواقع . ويكون العنصر الثـاني هو التخطيط العام للدعـوة الإسلامية، ثم التخطيط لكل ميـدان تنزلـه الدعـوة، ثم الإدارة، ثم ميـزان المؤمن، ثم المؤسسات الإيمانيـة، ثُمَّ عنصر التقويـم الدوري[1] ، وأخيراً عنصر النمـوّ والتطور للجهـد البشريّ على أسـاس الإيمان والتوحيد ومنهاج الله .

(١) يراجع كتاب : «النظريـة العامة للدعوة الإسلامية - نهج الدعـوة وخطة التربية والبناء»، وكتاب : «بناء الأمـة المسلمة الواحدة والنظـرية العامة للـدعوة الإسلامية»، للمـؤلف . من أجل تفصيلات أوسع عن النظرية العامة .

الفصل الثاني

موجـــز
لمظاهــر تســلل العَلمانيــة
إلى العـــالـــم الإســـلامـــي

لقد رأينا أن أهم العوامل التي مهدت لدخول العَلمانية إلى العالم الإسلامي : ضعف اللغة العربية في العالم الإسلامي، هجر كثير من المسلمين للكتاب والسنة، الخلل في التصور الإيماني، ثم تمزّق العالم الإسلامي، سقوط الخلافة . . . !

فالأسباب والعوامل الثلاثة الرئيسة لم ينحصر أثرها في فتح الأبواب للغزو الغربي، وللعَلمانية ومايتبع ذلك، ولكنها كانت سبباً أوجد بذور العَلمانية في الواقع الإسلامي.

العَلمانية أساسها كما بيّنا هو الانصراف إلى الدنيا، وعزل الأخرة وتصوراتها عن ميادين الحياة المختلفة. إذا كانت العَلمانية كذلك فقد ظهر من قلب العالم الإسلامي عناصر عَلمانية من أهله وشعوبه.

إنها سنة الله في الحياة أن يظل هنالك ثلاث فئات في أي مجتمع له رسالة. فئة المؤمنين الصادقين، وفئة الضعفاء، وفئة المنافقين. والله يهدي من يشاء ويضلّ من يشاء، على حكمة بالغة وسنن ماضية وقدر غالب.

ومن بين هذه الفئات، ومن خلال تفاعلها مع الأحداث الداخلية والخارجية، يُقبل أناس على الدنيا بقلوبهم وعقولهم وطاقاتهم، ويذرون الأخرة ولايحسبون لها حساباً. فإذا واتتهم الفرصة تساندوا وبرزوا وأعلنوا عن أنفسهم في نهج دنيوي لا ديني عَلماني.

إذن تظهر العَلمانية بين أفراد أَول الأمر، نتيجة لما اقترفوا من آثام ومعاص، ثم تمضي عليهم سنة الله، فيُقبِلون على الدنيا ويُفتَنون بها، ويُدبرون عن الآخرة وتصوّراتها، حتى يصبح كلُ عملهم للدنيا دون أن يعملوا حساباً للآخرة.

وقد تزيد هذه الطائفة العَلمانية في مرحلة من مراحل الواقع، فتنمو وتشتد ويقوى أمرها، وقد تنقص في مرحلة أُخرى ويضعف شأنها.

ومع الغزو الغربيّ المستمر للعالم الإسلامي ترسّخت العوامل الثلاثة الرئيسة التي سبق ذكرها لتجعل العالم الإسلامي مُهيَّأً لاستقبال هذه العلل والأمراض، يدفعها إليه أعداؤه، فتجد فيه رجالاً يتلقّفونها تلقّفاً وينطلقون بها دعوة عَلمانيّة ونشاطاً علمانياً، كما سنرى في الفصول المقبلة.

لقد خرجت معظم الدول الإسلامية من مرحلة الاحتلال إلى ما يسمى بالاستقلال، وهي تحمل عبئاً كبيراً من المشكلات الاقتصادية والاجتماعية والعلاقات السياسية وبناء القوة العسكرية وغير ذلك.

وخرجت بعد احتلال طويل قام به العالم الغربي، مزّق خلاله العالم الإسلاميّ إلى دول صغيرة ضعيفة، متنافرة متناثرة. وخرجت وقد غرست فيها بذور العَلمانية ورعتها حتى نمت، وقد انحسر دور الإسلام في كثير منها.

لقد ظهرت حركات كثيرة في العالم الإسلامي، وخاصة في القرن التاسع عشر تحمل بريق الوطنية والإقليمية والقومية وزخارفها، وتبتعد بها عن الإسلام، ويزداد الابتعاد مع الأيام.

ولقد كان من أهم آثار هذه الحركات أن مهّدت للقوى الأجنبية وجيوشها أن تحتل أقطار العالم الإسلامي وتمزّقه وتوهنه، وتبعده عن لغته، ودينه، وتاريخه.

ونها كذلك النشاط النصراني تتزعمه الدول الأوروبية، ثم انضمت إلى هذا النشاط الولايات المتحدة الأمريكية فيما بعد. فزاد هذا النشاط من تمزيق الأمة وفرقتها ونشْرِ الفتن فيها. وانضمّ هذا النشاط إلى النشاط اليهودي الصهيوني بعد أن التقت مصالح الطرفين.

وأقام النشاط النصراني بدعم من الدول الغربية وبتوجيه منه مؤسساتٍ كثيرةً مثل المستشفيات والمدارس والمشاغل والملاجىء، ومؤسسات تحت شعار الخدمات الإنسانية، عملت كلها لإفساد الأمة وتهيئة الجو لنفوذ الدول الأجنبية.

وأمكن للدول الغربية أن تغرس الروح الطائفية بين شعب لبنان، وأن تثير

الصراع، حتى أمكن لها أن تجعل من لبنان بلد الصراع الطائفي بعد أن كان قلعة من قلاع الإسلام، لينطلق النشاط النصراني منه إلى أقطار شتى من العالم الإسلامي. لقد أثاروا الحرب الداخلية في لبنان، فاستغلوها ليطلبوا الحق في حماية المسيحيين فيها، وليمتد النفود الأجنبي ونفوذ قناصل الدول الأجنبية فيها، ويزداد ضعف دولة الخلافة الإسلامية وهي تتعرّض لخطرين يتهددانها في وقت واحد: خطر داخلي تمده وتغذيه الدول الأجنبية، معتمدة على النصارى وعلى اليهود وعلى أصحاب المصالح. وخطر خارجيّ من روسيا ومن دول أوروبا و أمريكا.

التآمر على الخلافة الإسلامية امتد زمنا طويلاً زاد عن الستة قرون. وما كان لهذا التآمر أن ينجح أخيراً لولا الوهن الداخلي الذي كان مبعثه العوامل الثلاثة الرئيسة التي عرضناها، والتي أدت إلى الانصراف عن شؤون الدعوة الإسلامية في الأرض وإعلاء كلمة الله، إلى الانغماس في الدنيا والالتفات إلى حضارة الغرب المادية النامية.

لقد استطاعت الدول الأجنبية، مستعينة بالنصارى في بلاد الشام خاصة، وباليهود وبيهود الدونمة الذين دخلوا الإسلام ظاهرياً، وبالضعفاء من المسلمين وأصحاب المصالح، استطاعت أن تنشر القومية التركية وعصبيتها بين الأتراك، والقومية العربية وعصبيتها بين العرب، مما وفّر أسباب الصراع الداخليّ الذي لم يستفد منه المسلمون عرباً أو أتراكاً، وإنما استفادت منه الدول الأجنبية وحدها.

كان الغرب يزداد قوة ونفوذاً، وتنمو صناعته وتطوره العلمي والمادي، حتى أصبح الكثيرون ممن اطلعوا على حضارة الغرب المادية العَلمانية يرونها المثل الذي يُحتذى، وما دروا أن فيها السمّ القاتل للأمة المسلمة. وأصبح الكثيرون ينادون «بالمعاصرة»، وأخذ هذا النداء اتجاهات مختلفة.

ابتعث محمد علي والي مصر بعض المصريين إلى فرنسا فعادوا مبهورين بالحضارة الغربية. كان من هؤلاء رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٣م)، وطه حسين وآخرون، عادوا يحملون بذور العَلمانية ويحاول بعضهم تغليفها بغلاف إسلامي. وذهبت بعثات مماثلة من تونس وعادت بمثل ما عاد غيرها. وذهبت بعثات من أقطار أخرى.

وتكونت في دار الخلافة الإسلامية وفي بعض أقطارهـا الممتدة حركات علنيّة وسرية تعمل على إسقاط الخلافة وبث فكرة العروبـة معزولة عن الإسلام، وتحرير المرأة ومساواتها بـالرجل، وعـزل الـدين عن السياسـة وشـؤون الدولـة، ونشر القـوانين الوضعيـة، ونشر النوادي الليلية، والاختلاط، وحرّية الفرد خاصة في ميدان الجنس.

وقامت معاهد تعليمية على أساس قوميّ لا دينيّ، وأساس عَلْمانيّ، وأساس تنصيري.

وامتدت الماسـونية في العالم الإسـلامي، وفتحت لها مراكـز في كل بلد، وانطلقت تنشر الفساد والفتنـة تحت شعار الأُخـوة الإنسانيـة، وتورّط في الـدخول فيهـا كثيرون من المسلمين عـامـة، ومن علمائهم مثل جمال الـدين الأفغـاني ومحمد عبـده، وكـان اليهـود والصهيونية وراء الماسونية وفيها وأمامها.

وانتشر الغناء المفسد والرقص والحفـلات الماجنة في الطبقات الشعبية وفي الطبقات الغنيّة والطبقات الحاكمة.

وتوافرت في واقع المسلمين جميع الأسباب لاستقبال العَلمانيّة فكراً ونهجاً وسلوكاً.

وسقطت الخلافة الإسلاميـة وانتهى أمرها من الأرض بعد قـرون طويلة من الصراع المستمر الذي لم يتوقف مع الغرب، من أجل تحقيق هذا الهدف، وقد حقّقه.

وتمزّق العالم الإسلامي قطعاً متناثرة، واحتلت الدول الأوروبية أجزاء كثيرة منه.

ولكن هـذا كلـه لم يشفِ صـدور أعداء الله، فما زالـت الغارة مستمـرّة على العـالم الإسلامي تزداد ضراوة ووحشية مع تغيير في بعض الأساليب والشعارات.

وكان اليهود والحركة الصهيونيـة ومؤسساتها المختلفة مع كل خطوة من أجل الحرب ضد الإسلام والمسلمين.

هذه نظرات سريعة، وجولة خاطفـة حول أهم مظاهر الوهن في العالم الإسلامي، وأهم مظاهر المؤامرة عليه.

ونرى أن نعرض مـوجزاً سريعاً لأحداث المؤامرة التـاريخية على الإسلام والمسلمين،

حتى ترتبط الأحداث بعضها ببعض ويرتبط الماضي بالحاضر.

ابتدأت المعركة ضدّ الإسلام منذ اللحظة الأولى التي بَعثَ الله فيها محمداً ﷺ برسالة الإسلام الخاتمة. وتحرك كفّار قريش ومشركوها ضد هذه الدعوة الربانية، ولم يتركوا وسيلة للصدّ عن سبيل الله إلا أخذوا بها، حتى الاغتيال فقد عزموا عليه. فنجّى الله رسوله محمداً ﷺ منهم، وأوحى إليه بالهجرة إلى المدينة المنوّرة.

واستمرّ الصراع، ولم تهدأ قريش، وأخذت تؤلب القبائل على النبوة الخاتمة، وردّ الله كيدها إلى نحرها. ودخلت في معارك مع المسلمين، ودخلت قبائل أُخرى في معارك مع المسلمين.

ثم التقت الأحزاب وهم قريش، وبعض القبائل، ويهود بني قريظة الذين كانوا على عهد وميثاق مع محمد ﷺ، فنقضوا العهد وانضموا إلى الأحزاب. وهزمهم الله جميعاً ونصر عبده وأعزّ جنده وهزم الأحزاب وحده.

وامتدت معركة الأحزاب في التاريخ لتأخذ صورة مختلفة، لم تكن تخرج هذه الصورة عن التقاء أحزاب أو قبائل أو دول في تكتل لتحارب الإسلام. واتسع ميدان الصراع حتى دخله الفرس والروم فهزمهم الله وأعز دينه بجنوده الصادقين الذين كانوا يقاتلون ويجاهدون في سبيل الله وهم أُمة واحدة وصفّ كالبنيان المرصوص. وامتدّ الإسلام في الأرض ينشر النور والخير والصلاح للناس كافة. ودخلت في الإسلام شعوب مختلفة.

وهاجت أوروبا وماجت لما حققه الإسلام من نصر وامتداد، ولما أغلق أمام المجرمين الظالمين المعتدين من أبواب. وطاش صواب المجرمين الطامعين من ملوك أوروبا وأمرائها. . وأخذوا يهيّجون الشعوب الأوروبية باسم النصرانية من أجل احتلال بيت المقدس. وقامت الحروب الصليبية تحت شعار الدين النصراني ليخفوا بهذا الشعار حقيقة أطماع العدوان ونهب الثروات في العالم الإسلامي.

وامتدت الحروب الصليبية من ١٠٩٦م إلى ١٢٠٤م، في أربع حملات كبيرة يقودها

ملوك أوروبا، ارتكبوا خلالها أبشع الجرائم من قتل وحرق للأطفال والنساء مما تستحي منه الوحوش، وعملوا مجزرة في المسجد الأقصى ومجازر في القدس سالت منها الدماء في الطرقات، وامتلأت بالجثث. وردّ الله كيد الصليبيين في نحورهم وعادت القدس إلى الأمة المسلمة في السابع عشر من رجب سنة ٥٨٣هـ الموافقة لسنة ١١٨٧م. ورأى الصليبيون الفرق العظيم بين حضارتهم الوحشية المجرمة المتفلتة وبين حضارة الإسلام في مستوى إنسانيّ عال من التعامل في السلم والحرب.

وأجرى النصارى مذابح ومجازر في المسلمين في الأندلس تقشعر من هولها الأبدان، بعد أن كان المسلمون مثلاً أعلى في التسامح الإنساني خلال حكمهم للأندلس الذي امتدّ من (٩٢هـ إلى ٨٩٨هـ) الموافقة (٧١١م- ١٤٩٢م) . وسقطت الأندلس ليس بسبب قوة النصارى، ولكن لأن المسلمين شغلتهم الدنيا وزينتها، فتنازعوها، وتركوا أمر الدعوة الإسلامية ونشرها في الأرض لإنقاذ البشرية.

وظلّت شهية المجرمين في أوروبا مفتوحة على خيرات الشرق، وزادها انفتاحاً وطمعاً رحلات ماركو بولو الإيطالي الذي اتجه إلى الصين، وعاد يتحدث عن الشرق وخيراته.

فتحركت البرتغال وفرنسا وهولندا والإنجليز في غارة واسعة على العالم الإسلامي مع مطلع القرن السادس عشر. وسقطت ملاقا بيد البرتغال سنة ١٥١٥م وأعلن قائد الحملة نواياه ونوايا أوروبا في خطابه لجنوده: طرد المسلمين وإخماد النار المحمدية إلى الأبد، والاستيلاء على التجارة التي كان يتحكم فيها المسلمون. . . . ! ورأت أوروبا أن هذه المعركة تسهل سقوط القدس في أيديهم، وسقوط القاهرة ومكة. هكذا امتدت الأطماع تحت ستار الدين.

وتمضي دول أوروبا في غارتها الوحشية على العالم الإسلامي. فتحتل فرنسا في القرن التاسع عشر: الجزائر وتونس والسنغال والنيجر وساحل العاج. ويحتل البريطانيون: الهند والسند والملايو وعدن، ويقيمون الحماية على البحرين ومسقط وعمان والكويت، ويحتلّون مصر والسودان. وتحتل روسيا: القوقاز وطشقند وسمرقند وبخارى وأوزبكستان

وخوكند وغيرها. وتحتل إيطاليا: ليبيا وأرتيريا. وتحتل هولندا: أندونيسيا والقسم الجنوبي من جزيرة بورنو، أما القسم الشمالي فاحتلته انجلترا.

وتحرّكت الجمعيات التنصيرية في جميع أقطار العالم الإسلامي، ووصلت إلى أواسط أفريقيا.

ومع نهاية القرن التاسع عشر أصبح العالم الإسلامي، ومابقى من دار الخلافة محاصراً محاصرة كاملة. وأصبحت الدولة العثمانية ضعيفة تزداد مشكلاتها المالية والعسكرية مع الأيام.

وجاء وعد بلفور، الوعد الإنجليزي لليهود بإقامة وطن قومي لهم في فلسطين، وجاءت معاهدة سايكس بيكو لاقتسام بلاد الشام والعراق وغيرهما بين إنكلترا وفرنسا.

وأخطر من هذا كانت المؤامرة الداخلية في قلب الدولة العثمانية، يقوم بها النصارى واليهود والمنافقون من المسلمين بإشراف وتوجيه الدول الأوروبية، وبخاصة فرنسا وانكلترا وأمريكا، والقناصل والسفراء. أضف إلى ذلك الحركات التنصيرية والمؤسسات اليهودية.

ودخلت العَلمانيّة العالم الإسلامي من أوسع أبوابه، وأخذت تنشط وتنمو حتى أصبح لها منابر تدوي منها أفكارها ومفاسدها. والمؤسف أنه أصبح في بعض ديار المسلمين منابر تنطلق منها كلمة الكفر الواضحة الصريحة، وأصبح الاعتراض عليها جريمة وإساءة لحرّية الفكر المزيّفة.

الاعتراض على كلمة الكفر جريمة، أما الهجوم على الإسلام والطعن فيه في بعض بلاد المسلمين هو باب من أبواب حرّية الفكر.

سقطت القدس في أيدي اليهود، والمسلمون يتلفتون كيف ينجدون المسجد الأقصى. وهذا يهرع لأمريكا، وذاك يهرع إلى فرنسا أو انكلترا، أو أوروبا كلها، أو روسيا والمسلمون يتلفتون وهم ممزّقون!

---

(١) يراجع كتاب «الصحوة الإسلامية إلى أين» للمؤلف - (ط: ٣) الفصل الأول الباب الثالث: «الواقع الدولي وسنن الله الثابتة» من أجل دراسة أوسع عن سنن الله الثابتة.

أيها المسلمون تـوجّهوا إلى الله واصـدقوا التوجـه والعهد، وأوفوا بـالأمانـة والعهد، فعسى الله أن يرحمنا!

لقد ظهـرت جهود صـادقة إن شـاء الله ولكنها متفـرّقة، فكـان أثرهـا غير كافٍ. وظهرت حركات متعددة تستأنف مسيرة الدعوة الإسلاميّة خلال هذا التاريخ الطويل من المآسي والفواجع، سنتعرض إلى ذكرها في الصفحات المقبلة.

الفصل الثالث

أهم الأحداث التي دفعت العَلمانية إلى العالم الإسلامي

لقد كان النشاط الغربي الأوروبي من أجل إسقاط الخلافة الإسلامية، ومن أجل تأمين مصالحه المادية وأطماعه العدوانية، ممتداً على مساحة العالم الإسلامي، نشيطاً في كلّ أقطاره، جامعاً لكل الوسائل والأساليب التي يتميز بها كيد العدوان ومكر المفسدين.

ولقد وقعت أحداث أثَّرت في واقع المسلمين، وساعدت على دخول العَلمانية إلى معظم أنحاء العالم الإسلامي.

إن أهم الأحداث وأخطرها كان التآمر المستمرُّ من الدول الأوروبية على الدولة العثمانية. لقد بلغ عدد المشاريع والمخططات التي وضعتها أوروبا في تآمرها على الدولة العثمانية مائة مشروع خلال ستمائة وخمسين سنة تقريباً، بين سنتي (١٢٨١م- ١٩١٣م). ولقد اشترك في إعداد هذه المؤامرات الممتدة البابا في روما مع تبدّله، ملوك دول أوروبا جميعها، أمراء مناطق متعددة، رهبان وقساوسة ورجال دين متعددون، أدباء ومفكرون، شعراء وعلماء. هذا بالإضافة لقناصل الدول الأوروبية في داخل الدول العثمانية، رهبان ورجال دين آوتهم دار الخلافة وأحسنت معاملتهم فقابلوا ذلك بالغدر والخيانة.

لقد كتب عن هذه المشاريع المئة الوزير الروماني ت. ج. دجوفارا. كتب كتابه بهذا العنوان: «مئة مشروع لتقسيم تركيا». وكتبه بالفرنسية وظهرت الطبعة الأولى له في باريس سنة ١٩١٤م[١].

---

(١) عرض الأمير شكيب أرسلان هذا الكتاب في تعليقه على كتاب: «حاضر العالم الإسلامي» لمؤلفه لوتروب ستودارد. وقد عرض الأستاذ محمد العبدة هذه المشاريع المئة في كتابه: «تعليق على التعصب الأوروبي أم التعصب الإسلامي».

إن هذا التآمر الذي استمر هذه القرون الطويلة ليكشف زيف الادعاءات التي يُدَوِّي بها العالم الغربي من التسامح وحقوق الإنسان وحرية الأديان. إنه حقد أسود يتفجر على شكل مؤامرات وحروب، وغدر ومكر. ولقد بيّنا أهم أسباب هذا الحقد في أكثر من كتاب. ولكننا هنا نوجز الفكرة الرئيسة التي نعرضها، وهي أن هذه الدول تمثل مطامع إجرامية في قلب العالم الإسلامي الواسع وفي غيره. وهذه المطامع تدفع إلى الظلم والعدوان والإفساد. والإسلام الذي جاء به الأنبياء والرسل والذين خُتِموا بمحمد ﷺ، يأبى المساومة على الحق، ويأبى أن يُقرَّ ظلماً أو باطلاً.

ونذكر فيما يلي أهم الأحداث التي فتحت أبواب العالم الإسلامي أمام الدول الأوروبية وأمام العَلمانية :

١ - حرب القرم بين الدولة العثمانية وروسيا سنة ١٨٥٣م :

ونأخذ بعد ذلك عدواناً آخر أخذ صورة الحرب والصراع. إنها حرب القرم بين روسيا والدولة العثمانية سنة ١٨٥٣م. وقد سببت هذه الحرب أزمات مالية شديدة للدولة، فتراكمت الديون على الدولة بسبب كثرة الإنفاق على الحرب. ولقد انكشف إفلاس الدولة سنة ١٨٧٥م، مما أدى إلى خلع السلطان من ناحية، وإلى قيام إدارة دولية للإشراف على قضية هذه الديون وأمر سدادها. وتولى السلطان عبدالحميد الحكم سنة ١٨٧٦م والدولة منهارة ونفود الأجانب اشتدَّ ونما، ونفذت بذلك الدول الأجنبية إلى ساحة الجماهير، لتحرّك النزعات الطائفيّة، وتغذّي النصارى الذين توثقت صلاتهم بالدول الأجنبية، وخاصة في بلاد الشام. ونالت الدول الأجنبية امتيازات كثيرة بعد ذلك.

٢ - استقلال لبنان عن مركز الخلافة نصرانياً وامتداد النفوذ الفرنسي والبريطاني :

ولبنان مرَّ بأحداث كثيرة. ولما ضعف شأن الدولة العثمانية، وبدأت الدول الأوربية تتصل بالأقليات وأصحاب المصالح، وطّدت فرنسا علاقتها مع المارونيين، ووثقت إنكلترا علاقاتها مع الدروز، وتحرّكت الفتنة في لبنان نتيجة لتنافس فرنسا وانجلترا، ووقعت اضطرابات دموية سنة ١٢٦١هـ، وتجددت سنة ١٢٧٧هـ، وأرسلت فرنسا ستة آلاف جندي للتدخل، فوجدت الدولة قد فضّت المنازعات. ولكن الدول

الأوروبية، بحجة حماية الطوائف المسيحية، اتفقت مع السلطان على منح جبل لبنان نظاماً إدارياً خاصاً يحكمه نصرانيّ يعينه مجلس يمثل الطوائف المختلفة، وامتد نفوذ الدول الأجنبية في لبنان وغيرها على أثر ذلك امتداداً كبيراً.

وأصبحت الدولة العثمانية تضعف بصورة سريعة، وتواجه هزائم في مواقع كثيرة، وتضعف قبضتها على أقطار العالم الإسلاميّ الذي كان مجتمعاً على اسم الخلافة وأهميّتها الإسلامية.

ولم تكن لبنان هي البلد الوحيد الذي نال استقلاله أو شبه الاستقلال عن مركز الخلافة وسقط تحت النفوذ الأجنبي، أو حافظ على استقلاله. فبلدان أُخرى أخذت تتفلت هنا وهناك.

فمصر انفصلت عملياً عن مركز الخلافة بعد تمكن محمد علي فيها ودعم الدول الأجنبية له ضد الدولة العثمانية. واحتلت فرنسا بعض أقطار شمال أفريقيا وليبيا كذلك، وُهزمت الدولة العثمانية في شرق أوروبا، وأخذت تتراجع.

وسقط السلطان عبدالحميد سنة ١٩٠٩م وأُسِر، بعد سيطرة الاتحاديين، ثم تولت حركة الاتحاديين العَلمانيين السلطة سنة ١٩١٦م، وأُعلن انتهاء الخلافة الإسلامية رسميا سنة ١٩٢٤م، وأعلن مصطفى كمال أتاتورك تركيا دولة عَلمانية، وغيّرت الأحرف العربية إلى الأحرف الأجنبية، ومنعت الأذان ومنعت مظاهر الدّين كلها وطاردت دعاته وعلماءه.

وكان اليهود من أهم القوى التي عملت على تحطيم الخلافة الإسلامية. فيهود الدونمة الذين دخلوا الإسلام ظاهرياً مع نيّة التآمر على الإسلام كانوا من أهم العناصر التي اشتركت في إثارة الفتن في دار الخلافة. ولقد استطاعوا التسلل إلى مراكز هامة في الجيش والتعليم والدولة. وكانوا أعضاء أساسيين في جمعية الاتحاد والترقي أو الاتحاديين.

وكذلك تسلل اليهود إلى فلسطين مع أوائل القرن التاسع عشر، وأقاموا مستعمرات فيها، بناء على خطط مدروسة، حتى تحوّلت هذه المستعمرات إلى قلاع محصنة أقامت دولة لليهود في فلسطين.

ولكن المعركة لم تنتهِ، وسنن الله ماضية، وحكمته غالبة.

٣ - الحملة الفرنسية على مصر :

والحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابوليون بونابرت سنة ١٧٩٨م، أي بعد تسع سنوات من إعلان الثورة الفرنسية شعارات : الحرية والإخاء والمساواة . فجاءت الحملة لتطوي هذه الشعارات وتلجأ إلى الغدر والكذب . دخل نابليون مصر بعد هزيمة المماليك في أمبابة مدّعياً حبه للإسلام، ثمّ بدأ ينشر ويثبت القوانين الفرنسّية الوضعية بدلاً من شريعة الإسلام . وكان مع نابليون بعثة علميّة بعثت الفرعونية وآثارها، وأثارت النعرة الفرعونية التي أخذت تبرز لدى بعض الشعراء فيما بعد، وبعض الأدباء والكتاب ووسائل الإعلام . وكان يرافق الحملة نساء ساقطات ينشرن الفتنة والفاحشة والانحلال .

وأخطر من ذلك كله أو مثيله في الخطر، نداؤه الذي أعلنه بعد احتلاله مصر ليهود العالم كي يعودوا إلى فلسطين .

ولكن نابليون اضطر لمغادرة مصر مع رجال حَـمْلَتِـهِ بسبب المقاومة التي تلقّاها من المسلمين أبناء مصر المسلمة، ولكنه ترك الحملة العلمية تتابع خطتها الصليبية، وترك رجالاً ادّعوا أنهم دخلوا الإسلام . ومضت هذه البقية تعمل على تحقيق بعض أهداف الحملة الفرنسية التى فشلت ثم انسحبت، وتركت خلفها سليمان باشا الفرنساوي الذي سبق أن أعلن إسلامه! وغادرت الحملة الفرنسية سنة ١٨٠٢م .

٤ - محمد على : (١٨٠٥- ١٨٤٩م) في مصر :

أرسلته الدولة العثمانية والياً على مصر سنة ١٨٠٥م . هل كان اختياره اختياراً حرّاً تقوم به الدولة على أساس من مصلحتها؟! نَشُكُّ في ذلك . لأنه بعد تسلُّمه ولاية مصر ، تبنَّته فرنسا وأنشأت له جيشا مجهّزاً مدرباً بإشراف سليمان باشا الفرنساوي، وأنشأت له أسطولاً بحرياً وأنشأت القناطر الخيرية، وأمدته بأسباب للقوة كثيرة . ثم انقلب على الخليفة في استانبول . ودخل معه في حرب لم ينقذ الخليفة من الهزيمة فيها إلا تدخل بريطانيا المنافسة لفرنسا . ولكن بريطانيا وافقت على منحه الاستقلال عن الخليفة للمضيّ في خطة حرب الإسلام . وتابع محمد علي بعد ذلك مهمة تغريب مصر وإدخال العَلمانية إليها .

فبدأ بإرسال الشباب إلى فرنسا وهم في سنّ الاكتساب والتأثُّر لا التأثير. ومع كل كل مجموعة إمام. ومع إحدى المجموعات كان رفاعة رافع الطهطاوى إماماً لهم في صلاتهم، ولكنه عاد إماماً في العَلمانية ومتابعة جهود الدول الأوروبية في إفساد العالم الإسلامي. عاد يدعو إلى تحرير المرأة ومساواتها بالرجال في دنيا الاختلاط ومايتبعه من فتنة وفساد، وعاد يدعو إلى السفور والرقص، رقص المرأة مع الرجل، ويدافع عن هذه الدعوات على أنها لاتخالف الإسلام أو أن الإسلام لا يعارضها، إذ لابد من غطاء إسلامي. رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١م- ١٨٧٣م) من أوائل دعاة العَلمانية في مصر.

لقد تابع محمد علي مهمة الحملة الفرنسية في تغريب الأمة، ونشط في ذلك نشاطاً كبيراً، وخلفه أولاده عباس، وسعيد، وإسماعيل. وإسماعيل هو الذي قال: سأجعل من مصر قطعة من أوروبا. وكان النفوذ الفرنسي هو المؤثر خلال هذه الفترة. ولما جاء توفيق إلى السلطة بدأ الانجليز يتدخلون قليلاً في شؤون مصر، حتى كان احتلالهم العسكري لمصر سنة ١٨٨٢م.

لقد جاءت الحملة الفرنسية في وقت مازالت مصر تحمل الروح الإسلامية، فقاومت الحملة الفرنسية حتى انسحبت وتركت بعض قواها المخفية. ولكن لما جاء الإنجليز كانت العَلمانية قد سرت في الأُمة، والقدرة على المقاومة قد ضعُفت، وأسلوب الاحتلال قد اختلف.

٥ - الاحتلال البريطاني لمصر:

وكان اللورد كرومر أول معتمد بريطاني في مصر. جاء القسيس دنلوب ليَضَع معه سياسة التعليم في مصر، ليجعل من النصرانية وحضارتها العَلمانية أساس الحياة العامة والعلاقات، بأسلوب إنجليزي ماكر، لايستفزّ الناس ولكن يخدِّرهم حتى يلينوا وحتى تتفتّح الأبواب أمامه. فتح كرومر أو دنلوب أو كلاهما مدارس جديدة لا تعلم القرآن، وجعل العمل فيها وسيلة للرزق، ومن يتخرّج منها يكون له المركز والعمل والمكانة الاجتماعية. ومن يتخرّج منها يكون قد خرج من الإسلام تقريباً، أو خرج جاهلاً كامل الجهالة بدينه، يسهل دفعه إلى كل أجواء العَلمانية بيسر توفره وسائل الإغراء المختلفة. أما

خرِّيج الأزهر الذى يقضي سنوات طويلة فلا يجد الاحترام ولا الرزق ولا المركز . وتُرِكَ الأزهر ورجاله يضمرون تدريجياً. وكانت مناهج تلك المدارس تقتل اللغة العربية أكثر مما كانت مقتولة، ومناهج الدين كذلك خطط لها لإضعاف الدين في النفوس أو إزالته منها. ومدرس اللغة العربية ومدرس الدين هما أقل الناس شأناً وراتباً ومركزاً. ومادة التاريخ تشوه التاريخ الإسلامي وتحذف منه عظمة الرسالة التي كان يحملها. ولم تعد قضية الإيمان والتوحيد هدف التعليم، ولا كان هدفه إزالة الشرك. فظهر الانحراف عن حقيقة التصور للإيمان والتوحيد وعن جوهره وامتد الانحراف في الأمة، حتى أصبح المسلم جاهلاً بلغته، جاهلاً بقرآنه، لايعرف جوهر الإيمان، ولايعرف الصورة المشرقة عن تاريخه الإسلامي.

وأنشئت «مدرسة المعلمين العليا» لتتابع نشر السموم القاتلة، ونشْر العلمانية، وغَرْس الصورة السوداء عن الإسلام وتاريخه.

وعن طريق الإعلام ونشر الكتب والقصص امتدت العلمانية أيضاً بغزارة وقوة، لتحطيم التصور الإيماني والأخلاق الإسلامية وأعرافها. وانتشرت المسرحيات وقامت المسارح باسم الفنّ والأدب، وتعدّدت وجوه الفنّ وأساليبه لتنشر كلها الفكر العَلماني وأخلاقه. وساهمت الصحافة التي أسسها النصارى الذين قدموا من لبنان، وكأنهم انتقلوا إلى مصر بمهمّة مدروسة وخطة محدودة من أجل حرب الإسلام، ونشر العَلمانية: دار الأهرام لآل تقلا، ودار الهلال لآل زيدان، ودار المقطم لآل صروف. لعلهم انتقلوا إلى القاهرة، لتكون القاهرة منطلق العَلمانية وأفكارها في العالم الإسلامي، دون أن يمنع هذا من قيام نشاط عَلمانيّ خاص بكل قطر آخر.

وظهر رجال العَلمانية في مصر يعلنونها صريحة صاخبة، يكافحون من أجلها. فهذا قاسم أمين (١٨٦٥ - ١٩٠٨م) شاب يعود من فرنسا ولهيب المرأة في دمه، يعود لتكون قضيّته الأولى تحرير المرأة على النمط الغربي لتكون شعلة الفتنة في المجتمع الإسلامي ولتساهم في انحرافه عن الإسلام. وهذا أحمد لطفي السيّد (١٨٧٢م-١٩٦٣م) من دعاة القومية ومن أنصار حزب الأمة الذي يميل للغرب ويرى

فيه المثل الـذي يُحْتَذَى، ومن دعـاة التحرر والعَلمانيـة. وجاء طـه حسين وسلامـة موسى وعلي عبدالرازق ومنصور فهمي وغيرهم.

ولكن كـان من دعاة التعـاون مع الغـرب والدعـاة إلى التـوفيق بين حضارة الغـرب والإسلام بعض رجـال الإسلام. وكان من بين هؤلاء محمد عبده (١٨٤٩م- ١٩٠٥م)، جمال الديـن الأفغاني (١٨٣٨م- ١٨٩٧م)، علي مبـارك (١٨٢٤م- ١٨٩٣م)، عبدالله النـديم (١٨٤٥م- ١٨٩٦م) وربما حاول رفـاعـة الطهطاوى التـوفيق قبل هـؤلاء، ولكن محاولـة التـوفيق محاولة فـاشلـة مـؤذيـة لأنها تؤدي إلى الانحـراف عن الإسـلام في أحسن حالاتها، أو إلى نصرة العَلمانية والفتنة والفسَاد في معظم الأحوال.

لقـد حاول محمـد عبـده التقريب فـوقع في مغـالطات كبيرة. فقـد ألف في بيروت الجمعيـة السياسيـة الدينيـة السـرّية للتقـريب بين الأديان السماويـة، وتعاون مع قـوات الاحتـلال حتى كان صـديقـاً لكرومـر المعتمد البريطـاني على مصر، وصـديقاً لمن عُـرِف بالتعاون مع الإنجليز من رجال مصر، ودعـوته إلى الإصلاح الداخلي قبل إزالة الاحتلال، حتى إنه حـاول تسويغ الاحتلال، وأفتى بالتعـاون مع الكفار وهم أقوياء، وأفتى بإبـاحة الفوائد، ونفى حقيقة السحر، وتأويل الجن بأنهم الميكـروبات، وطير الأبابيل بالبعوض، إلى غير ذلك من أبواب الفتنة. وقـد دخل الحركة الماسونية وحـاول تسويغ ذلك بأساليب ومسوّغات متضاربة.

إنها فتنة كبيرة يقودها رجال عُرفوا بأنهم مسلمون. فكان ضررهم بهذه المواقف أشدّ وأعنف وأبعد خطراً، وأكثـر انحرافاً. ولقد أوهنت هـذه المواقف منه ومن غيره القدرة على مقاومة الاحتلال. فقد فشلت ثـورة أحمد عرابي التي قامت سنة ١٨٨٢م، وفشلت كذلك ثورة مصر سنـة ١٩١٩م. وأحمد عرابي (١٨٣٩م- ١٩١١م) كان في ثـورته نزعـة إقليمية قومية. ولو كانت حركة إسلامية خالصة لله سبحانه وتعالى لتحقّق النصر على يديها.

لقد وهنت قـوى العالم الإسلامي، أو أنها أخـذت بالوهن. فنـابليون لم يستمر طـويلاً في مصر، ولكن الاحتلال البريطاني امتدّ حتى أثخنَ الأمة بالجراح والفتنة والفساد.

والسؤال الـذي يجب أن نطرحه هو كيف بـرز هؤلاء وكيف قُدِّمـوا للناس على أنهم علماء وأنهم صـالحون وأنهم عبـاقرة؟! لانشك أنهم أصحـاب وسع وطـاقـة أفرغـوهـا في الضـلال، ولكنه الإعـلام الـذي كـان يمسك به البريطـانيـون والصحافـة التى أسسهـا النصارى، إنه الإعلام الذي أبرز هؤلاء!

لقـد صبّتْ جهود الـذين حـاولـوا التوفيقَ في عمليـات «تلفيق»، دعمت الحركـة العَلمانية أكثر مما دعمتها الجهود المباشرة أو مثلها.

مع أواخـر القـرن التـاسع عشر ظهر الصراع بين «الأصـالـة» وبين «المعـاصرة»، والأصالة كلمة عـامة كانت تعني الرجوع إلى التراث والدين، والمعـاصرة كانت تعني اتباع سَننِ الغرب والحياة العصرية العَلمانية.

واشتد الصراع بعد ذلـك بين محاولة التوفيق بين الأصالـة والمعاصرة، وبين العَلمانيّة التي كشَّرت عن نـابها، حتى ظهر انتصـار العَلمانيـة ولو مـؤقتـاً في نهاية الـربع الأول من القرن العشرين. ولقـد جاء الـدستور المصريّ سنـة ١٩٢٣م عَلمانياً، وأصبحت المعـاهد علمانية، وضعف الأزهر وجُمّد حتى لايؤدي رسالته [(١)].

٦ - في بلاد الشام:

لاشك أن المعركة كانت رهيبة ضد الإسلام والمسلمين ومازالت كذلك حتى اليوم. ولقد دخلت أوروبـا هذه الحرب بكل قواهـا ونشطت في جميع أنحاء العالم الإسـلامي بلداً بلداً، لاتترك بلـداً دون أن تمدَّ جرائمهـا وفسادهـا وعَلمانيّتها إليـه، من خـلال مخططات ومناهج مدروسة، وقوى نامية يملكونها، ومن خلال وهن المسلمين.

والظاهرة التي تلفت النظر أن نصارى بلاد الشـام التي كانت بلداً واحداً ثمّ مُزِّقت قطعـا، كـانوا أول من رفع لـواء القـوميـة بأشكالها المختلفـة، ولـواء الثورة ضد الـدولـة العثمانية، ولواء التحرر والعَلمانية. وقد دعمتهم الـدول الأوروبية وسفاراتها في قلب الدولة العثمانية دعماً كبيراً متواصلاً.

---

(١) زكريا فايد: العلمانية النشأة والأثر: (ص: ١٠١).

ولقد رأينا ماحدث في لبنان بسبب تدخل فرنسا وانجلترا وما أشعلا من فتنة داخلية وصدام دموي حتى استقل جبل لبنان تحت حكم رجل نصراني يعينه مجلس يمثل طوائف الشعب.

ومن بلاد الشام انطلقت أناشيد العَلمانية، أناشيد التمزّق والابتعاد عن الدين في مسلسل طويل مازلنا نعيشه حتى اليوم.

لقد كان التنازل الأول هو التنازل عن الإسلام الذي يجمع الأمة، تنازلاً يتبنى العروبة والقومية العربية معزولة عن الإسلام. وكان هذا التنازل أخطر تنازل في حياة الأمة لأنه فتح أبواب التنازلات السريعة بعد ذلك. فاسمع هذا النشيد:

بلاد العرب أوطاني
من الشام لبغدان

ومن نجد إلى يمن
إلى مصر فتطوان

فلا حدٌّ يباعِدُنا
ولا دينٌ يفرّقنا

لسان الضادّ يجمعنا
بغسّان وعدنان

وانطلقت الهتافات تدوّي بها الحناجر والصحافة والنوادي والساحات. لقد كان تنازلاً رهيباً! كيف استقبلته الجماهير وكيف رضيتْ به وردّدته؟!.

ومضى مسلسل التنازل حتى تحوّل النشيد السابق من إعزاز العروبة كلها إلى تمجيد سوريا وحدها:

أنت سوريا بلادي
أنت عنوان الفخامةَ

واستمر مسلسل التنازل حتى مزّقت بلاد الشام إلى سورية والأردن وفلسطين ولبنان. ثم اغتُصِبت فلسطين وقامت فيها دولة لليهود. وكنا ننادي بتحرير فلسطين كلها، ثم امتد مسلسل التنازل إلى قطعة هنا وقطعة هناك..... ![1].

ولقد أسست أول جمعيّة عَلمانية في البلاد العربية في سوريا سنة ١٨٤٢م، وأصبح اسمها «الجمعية السورية لاكتساب العلوم والفنون». لقد قام بتأسيسها ناصف اليازجي وبطرس البستاني بدعم من منصِّرين أمريكيين. وكانت هذه الجمعية تحت إشراف ورعاية السفراء والقناصل الأجانب وكبار الموظفين الأتراك[2].

وأسس بعض السوريين «جمعية حفظ حقوق الملّة العربية» سنة ١٨٨١م[2]. وكان من أوائل من دعا إلى «العروبة» والقومية العربية معزولة عن الدين، عَلمانيّة الفكر والاتجاه: بطرس البستانى (١٨١٩م- ١٨٨٣م) وسليم البستاني (١٨٥٦م- ١٩٢٥م)، وأديب إسحق (١٨٥٦م- ١٨٨٥م)، وفرح أنطون (١٨٧٤م- ١٩٢٢م)[2].

وكان من أول من دعا إلى تحرير المرأة على النمط العَلماني: فارس الشدياق، وبطرس البستاني، وفرنسيس مَرّاش (١٨٣٦م- ١٨٧٣م)، ونجيب حدّاد (١٨٦٧م- ١٨٩٩م)[2].

ولقد أنشأ أول مدرسة عربيّة على أساس قوميّ لا دينيّ عَلماني سنة ١٨٦٣م بطرس البستاني وناصف اليازجي (١٨٠٠م- ١٨٧١م)[2].

ودعا لويس صابونجي(١٨٤٣م- ١٩٢٨م) إلى خلافة روحية مفصولة عن السلطة الزمنية، على أن تكون عربيّة وتحت حماية الإنجليز.

ومن المؤسف أن يكون موقف النصارى من الأمة التي رعتهم وأحسنت إليهم، والدين الإسلامي الذي أنصفهم، على هذا النحو من الغدر وموالاة الأجانب من إنكليز وفرنسيين وأمريكان وغيرهم. فقد ساعد نصارى لبنان الصليبيين على دخول بلد

(١) يراجع كتاب على أبواب القدس للمؤلف - الفصل الثالث مسلسل التنازل- الباب الثالث، (ص: ٢٢٧-٢٤٣)، من أجل تفصيلات أوسع عن مسلسل التنازل في قضية فلسطين.

(٢) زكريا فايد: العلمانية النشأة والأثر في الشرق والغرب (ص: ١١٤-١١٦).

المسلمين وقدّموا لهم كلّ عون. وكذلك فعل نصارى مصر مع الصليبيين أثناء حملتهم على دمياط، وساعدوا نابليون على غزو مصر وعلى استقرار حكمه سنوات، وكوّن «المعلّم يعقوب» جيشاً من الأقباط حارب به مع الفرنسيين ضد المسلمين، وشارك في القضاء على ثورة المسلمين في القاهرة ضد الحملة الفرنسية، وانقضّ النصارى على جيش أحمد عرابي أثناء مقاومته للإنجليز سنة ١٨٨٢م(١). وللنصارى في سوريا مواقف كثيرة مشابهة، وللمعاهد النصرانية والمستشفيات ارتباط مع الدول الأجنبية كبير، وكذلك سائر مؤسساتهم ومراكزهم وربما أفرادهم.

وإنه لمن العجيب حقّاً أن ينسى النصارى أن الله جعلهم في ذمة المسلمين، فلا يجوز إيذاء ذمّي بغير حق. وجعل من واجب الدولة حمايتهم وحماية معابدهم وأعراضهم وأموالهم، وأعفاهم من الزكاة الخاصة بالمسلمين، واكتفى منهم بما هو أقل من الزكاة، «بالجزية» التي هي «جزاء» حماية المسلمين لهم، ولا يكلفون بالجهاد كما يكلف المسلم. وحسبهم أن الإسلام جعل الإيمان بالأنبياء والمرسلين والكتب المنزلة جزءاً من الإيمان الحق. وكيف ينسون عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين دخل القدس وأبى أن يصلي في كنيسة القيامة؟! وكيف ينسون وصية عمر بن الخطاب لما دنا أجله يوصي الخليفة بعده بأهل الذمّة؟! وكيف ينسون المعاهدة التي عقدها عمر رضي الله عنه مع نصارى القدس يؤمنهم على أموالهم وأنفسهم وكنائسهم؟! تاريخ الإسلام مليء بالسماحة والعدل مع جميع الأديان بعامة ومع والنصارى بخاصة، في مختلف البلاد التي حكمها كالأندلس وغيرها.

كيف ينسى النصارى هذا كله ويوالون أعداء الله الذين ينتسبون إلى النصرانية انتساباً لايحمل الالتزام والصدق، وإنما الغدر والخيانة والعدوان والظلم؟! ولقد سلكت الدول الأوروبية مناهج متقاربة خلال عدوانها واحتلالها لبلدان العالم الإسلامي. ففي فلسطين ترى مناهج التعليم تخضع لنفس السياسة التي رسمها دنلوب في مصر. فلا القرآن الكريم ولا السنة ولا التاريخ الإسلامي ولا اللغة العربية كانت تلقى أيّ عناية. ومادة الدين كانت غير ذات بال، وحصة الدين أو درسه كان يطويه الإهمال

(١) زكريا فايد: العلمانية النشأة والأثر - (ص: ٩٣).

واللامبالاة. وفي الدراسة الثانوية العالية كانت حصة الدين ساعة في الأسبوع، في كتاب نـــــور اليقين، يقرأ كل طالب صفحة أو أقل أو أكثر، والمدرس جالس ينصت، وباقي الطلاب في غفوة.

ليس العتب هنا على الإنجليز وحدهم، ولكنه عتب شديد على أساتذة الدين المسلمين الذين لم يدركوا أنهم يحملون رسالة وأمانة.

وكذلك كانت الصحافة والإذاعة ووسائل الإعلام. وكان التوظيف من نصيب النصارى يلقون العناية والتكريم والترقية، ويُضَيَّق على المسلمين. وَتُنْشَر كتب الفساد والفتنة والأدب الغربي وفكر الغرب ومذاهبه العَلمانية.

وفي فلسطين ومعاهدها خلال فترة الانتداب كنت تجد العناية والتركيز على اللغة الإنجليزية والتاريخ الإنجليزي والأدب الإنجليزي بتفصيل واسع جداً. وكنت تجد العناية البالغة في تاريخ اليونان والرومان بتفصيل واسع، وتاريخ أوروبا عامة. وكنت تجد العناية البالغة في تدريس اللغة اللاتينية لطلاب قسم الآداب في الكلية العربية في القدس والكلية الرشيدية.

كانت المعاهد تُخرّج أجيالاً عَلمانية إلا من رحم الله. ولكن بعض البيوت والأسر كانت تحرص على تزويد أبنائها بزاد من القرآن والسنة ومن الإيمان والتوحيد.

والمعاهد التنصيرية المختلفة والنشاط التنصيري كله كان يستغل التعليم والمستشفيات و«الخدمات الإنسانية» اللاإنسانية من أجل التنصير الذي كان يهدف إلى إخراج المسلم عن دينه سواء أدخل النصرانية أم لم يدخل. وبصورة عامة تورط عدد قليل من المسلمين في بلاد الشام فدخلوا النصرانية، ولكن الأعداد الكبيرة تخلّت عن دينها حتى جهلته علماً وممارسة. وكان التركيز دائماً على إفساد القضايا الثلاث التي عرضناها، في قلوب الناشئة وغير الناشئة: اللغة العربية، القرآن والسنة، الإيمان.

وكانت مصيبة فلسطين أكبر من غيرها. فبالإضافة إلى غرس الاتجاه العلماني، ونشر الأفكار الشيوعية وغض الطرف عن أحزابها وصحافتها، فقد أدخل الانتداب البريطانيّ اليهود من أَنحاء الأرض إلى فلسطين، تحت ادعاء إقامة وطن قومي لهم على

أساس وعد بلفور الإنجليزي. وهؤلاء اليهود الذين جاءوا من روسيا وأوروبا وأمريكا ليس لهم علاقة تاريخية ولا دينية في فلسطين. فهم في جميع الأحوال ليسوا من بني إسرائيل. فإن ادعى اليهود كذباً أن الله أعطى بني إسرائيل وعداً بفلسطين، ادعاءً تنفيه بعض طوائفهم وينفيه الإسلام والإنجيل، فإن هؤلاء اليهود ليسوا من بني إسرائيل، فلا علاقة لهم بهذا الوعد المفترى كذباً على الله.

ولكن المجرمين في الأرض التقت مصالحهم على حرب الإسلام، وكان إقامة دولة لليهود في فلسطين يُمثل خطوة كبيرة في هذه الحرب، يُمثل قاعدة لهم ليمدوا نفوذهم في العالم الإسلامي كله.

لقد كانت إقامة دولة اليهود في فلسطين من أكبر الجرائم التي ارتكبتها العَلمانيّة في تاريخها المليء بالجرائم والآثام والفواجع[١].

٧ - وفي تونس[٢]:

قام خير الدين التونسي (١٨٢٥م- ١٨٩٠م) في تونس بمثل ماقام به رفاعة الطهطاوي في مصر، وفي نفس الفترة أيضاً، ليحاول التوفيق بين عَلمانية الغرب وبين الإسلام، بحجة أخذ ما ينقصنا عن الغرب. لقد كان هذا الاتجاه مضلِّلاً خادعاً. فالذي كان يحتاجه المسلمون لايستطيع الطهطاوي ولا خير الدين توفيره بتلك الأساليب والمغالطات.

إن الذي كنا نحتاجه الصناعة والعلوم المتعلقة بها. ولم نكن بحاجة إلى ما يُسمَّى «بالعلوم الإنسانية» التي تصطدم مباشرة مع التصور الإيماني. لقد كانت محاولة التوفيق سقطة كبيرة. فالعلوم الإنسانية العَلمانية عند الغرب تصطدم مع الإسلام بشكل واضح جليّ.

وماذا كانت نتائج هذه المحاولات؟! لقد كانت النتائج أننا لم نأخذ ما كنا بحاجة إليه، فقد حجبه الغرب عنّا إلا بالقدر الذي لايسمح لنا بالنهوض، ودفع إلينا من خلال

---

(١) تراجع ملحمة فلسطين، ملحمة الاقصى، على أبواب القدس، فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع، للمؤلف، من أجل تفصيلات أوسع عن قضية فلسطين.
(٢) زكريا فايد: العَلمانية النشأة والأثر (ص: ٩٣).

الشعارات الفتنة والفساد والجرائم، والجنس الملتهب المتفلّت، والربا في الاقتصاد، والفساد في الأُمة. لقد كانت النتيجة: تمزيق العالم الإسلامي، وتنحية الإسلام عن شؤون الأمة، دخول العَلمانية بكل شرورها ومفاسدها.

ولقد تابع زميلاه: سليم بوحاجب (١٨٢٧م- ١٩٢٤م)، ومحمد بيرم الخامس (١٨٤٠م-١٨٨٩م) جهوده وضلاله.

ولقد أرسل باي تونس سنة ١٨٨٢م مجموعة من خريجي المدرسة الصادقة إلى فرنسا. عادوا كما عاد غيرهم ممن ابتعثتهم مصر وغيرها. فأسسوا صحيفة «الحاضرة» سنة ١٨٨٨م، ثم أصدر عبدالرحمن الصناديلي صحيفة الزهراء سنة ١٨٩٠م.

وأسس «بشير صغار» سنة ١٩٠٥م جمعية عَلمانية باسم «جمعية خريجي الصادقة» لنشر الثقافة الفرنسية والتعليم الأوروبي. وأسست مجموعة من خريجي جامعة الزيتونة الإسلامية سنة ١٨٩٦م «جمعية الخلدونية التنويرية». وكان على رأس تلك المجموعة سليم بوحاجب.. وكانت هذه الجمعيات والصحف والرجال يدعون إلى العَلمانية تحت مسمى مضلل آخر هو التنوير. وسارت العَلمانيّة في تونس حتى استقرّت، وحتى أصبحت نظام الدولة كلها. ولابد أن نشير هنا إلى أنه حين تستقرّ العَلمانية مع شعاراتها من حرّية الأديان وغير ذلك، فإنك تظل تشمّ رائحة النصرانية في البلد المسلم، ليس في القوانين الوضعية وحدها، ولكن في العادات الاجتماعية والاحتفالات.

ومابين سنتي ١٨٨٨م و ١٩٠٩م ظهر في تونس حوالي (٤٥) صحيفة ومجلة، بالإضافة إلى ماكان يصلها من صحف مصر ومجلاتها، لتتعاون كلها في ترسيخ العَلمانيّة.

٨ - وفي إيران [(١)]:

أخذت تتسرّب العلمانية إلى إيران بالأسلوب نفسه الذي تسرّبت به إلى كل من تركيا ومصر... بدأت العلمانية عن طريق الدعوة إلى إصلاح الجيش.

ولقد سبق أن أصيبت إيران بهزائم متعددة خسرت بها القوقاز، والقرغيز، وأرمينية

(١) المصدر السابق: (ص: ١٠٨-١٠٩).

التي خرجت منها سنة ١٨١٣م. فأخذت تحاول إدخال النظم الحديثة في الجيش. واستدعت بعثة عسكرية من إنجلترا وفرنسا للعمل كخبراء في الجيش لتدريب القوات الإيرانية على التطورات الحديثة. وشاء الله لها أن تدخل في نزاع مع روسيا فتهزم فيه.

وأصبحت إيران تتعرّض لخطرين: الروس من الشمال والإنجليز من الجنوب بعد امتدادهم في منطقة الخليج الإسلامي، يضاف إلى ذلك خطر البعثات الأجنبية في الداخل. فقام الشاه ناصر الدين الذي حكم من ١٨٣٤م حتى عام ١٨٤٨م فاستعان بالأوروبيين. فدخلوا إيران وتدخّلوا في شؤون البلاد. وعن طريق هؤلاء امتد الانتشار العَلماني ونما حتى بلغ ذروته ونهايته في عصر «الشاه مظفر الدين» سنة ١٩١٧م.

وهذه سُنّة من سنن الله في الحياة الدنيا، فحين يستعين الضعيف غير المتمسك بدينه وإيمانه ودعوته بأعداء دينه لينهض صناعياً وعسكرياً، فإن أعداء دينه لن يسمحوا له بالوصول إلى مبتغاه. ولكنهم ينفثون سمومهم، ويمدون نفوذهم، ويحتلون البلاد عسكرياً إن أمكن لهم ذلك.

٩ - وفي أفغانستان (١):

لقد بدأ التحول في المجتمع الأفغاني منطلقاً من نفس الرغبة التى نشأت لدى بعض المسؤولين أو بعض فئات الشعب من أنه لابد من إدخال الحضارة الغربية إلى البلاد لتنهض البلاد.

ولم يكن ليتولد هذا الشعور في أفغانستان وغيرها لولا الخلل في التصوّر للإيمان والتوحيد، والجهل الواسع بالكتاب والسنة، وبداهة باللغة العربية.

ولذلك لم يكن هؤلاء الحكام في أفغانستان أو إيران أو غيرها يستطيعون أن يَزِنُوا الأمور بميزان الإسلام والكتاب والسنة. فحين أدخلوا السيارات ومدّوا الطرقات وأدخلوا التعليم، أدخلوا مع هذا كله الخبراء الطامعين المفسدين، فغرس هؤلاء الروح القومية ليعزلوا أفغانستان عن عالمها الإسلامي، كما فعلوا مع أي دولة أُخرى. وبرز التحول مع حبيب الله خان (١٩٠١م- ١٩١٩م)، وأمان الله خان (١٩١٩م- ١٩٢٩م) الذي أعلن

(١) تراجع ملحمة الجهاد الأفغاني للمؤلف من أجل تفصيلات أوسع.

دستوراً للبلاد على أساس هذا التحول . وزار أمان الله خان أوروبا وطاف بعض بلدانها، ودفع حركة التغريب دفعاً قوياً حتى قامت الحرب الأهلية .

وامتد التحول إلى العَلمانية في عهد نادر خان وعهد ظاهر شاه كذلك، واستمر التحول . ولقد ساعد على هذا التحول وجود أحزاب شيوعية تدين بالولاء لروسيا . ومن أجل إفساد الأُمة التقى الاتحاد السوفياتي والغرب في أفغانستان . واتخذوا جميعاً قضية حجاب المرأة المسلمة منطلقاً للمعركة بين الإسلام والعَلمانية .

فقام ظاهر شاه في مؤتمر شعبي فداس حجاب المرأة وأعلن انتهاء ما كان يسميه «الظلام»، دون أن يدري أنه هو الذي كان في ظلام دامس . وحين رفض أهل قندهار نزع الحجاب سيّر لهم جيشاً بقيادة خان محمد، وقتل عدداً كبيراً من أهل قندهار . وجاء ظاهر شاه بابن عمه، وزوّج اخته محمد داود ، الرجل الموغل في العَلمانية ، ليكون عوناً له في تحويل البلاد . وكان محمد داود صديقاً للشيوعيين، فاندسوا من خلاله في بلاط الحكم خلال السنوات العشر التي ظل فيها رئيساً للوزارة . فانسلَّ قادة الأحزاب الشيوعية : نور محمد تراقي، بابراك كارمل، وحفظ الله أمين . وأخذت أفغانستان تموج في بحر من الفتن حتى قامت الحركة الأخيرة بهجوم الاتحاد السوفياتي على أفغانستان . فهب الجهاد ضدهم حتى انسحب الاتحاد السوفياتي . ثم دب الخلاف المحزن بين المجاهدين ومازال مستمراً حتى الآن .

١٠ - وفي الهند (١) :

لقد دخل الإسلام إلى الهند مع الدعاة في عهد مبكر من انطلاقة الدعوة الإسلامية التي كان يقودها محمد ﷺ . ثم ترسّخ وجود الإسلام مع فتوح محمد بن القاسم الذي ابتدأ جولاته سنة ٩١هـ (٧١٠م) . وقام حكم الإسلام في الهند . ثم قامت الدولة الغزنوية ثم الغورية، ثم عهد المماليك، ثم بدأ زحف المغول . ثم كان عهد السادات، ثم حكمت أُسرة لودي، ثم الدولة الإسلامية في كجرات، ثم سلاطين مالوا، إلى أن

(١) تراجع ملحمة الإسلام في الهند للمؤلف من أجل تفصيلات أوسع .

أسس دولة المغـول ظهير الدين محمد بابـر، التي امتد حكمها من سنة ٩٣٢هـ حتى سنة ١٢٧٤هـ، (١٥٢٦م- ١٨٥٨م).

وخلال حكم المغول بـدأ الإنجليز يتسللون إلى الهند عن طريق شركـة الهند الشرقية والحركات التنصيرية والتنافس بين الإنجليز والفرنسيين والهولنديين وغيرهم.

ومن خـلال هـذه الأسـاليب، ومن خـلال غفوة المسلمين في الهنـد وخـارجهـا، وتخلِّيهم عن مسؤوليـة الدعوة الإسـلامية، تسللت العَلمانية إلى الهنـد، ثم أخذت تترسخ بالقوة العسكرية حين أقبلت الجيوش البريطانية بعُدَّتها وعددها.

قـاوم المسلمـون الاحتـلال، وهبَّ الملك المسلم العظيم «فتح علي خـان» المسمى «بسلطان تيبـو» سنة ١٢١٣هـ (١٧٩٩م)، يقاوم الاحتـلال في حرب عنيفـة، ارتكب الإنجليز فيها أَبشع الجرائم، وسقط سلطان تيبـو صريعا في ٤ مايو ١٧٩٩م. ووقف القـائد البريطاني عند جثمانه وقـال: «اليوم الهند لنـا» وقال غاندي عن السلطـان تيبو: «لا نعرف أعظم منـه في شهداء الوطن والأُمة». واحتلَّ الإنجليز الهند وقضوا على ثوراتها سنة ١٨٥٧م.

ولقـد امتـلأت الهنـد بعلماء المسلمين المجاهـدين. وكـان من أبـرز هـؤلاء العـالم المجاهد الإمام أحمد عرفان (١٢٠١ هـ - ١٢٤٦هـ). فقد هبّ الإمام أحمد عرفان وتنقّل في مـدن الهنـد ومقـاطعـاتها، ويـدعو إلى صـدق الإيمان والتـوحيـد، وإلى إزالـة البـدع والخرافات حتى جمع القلوب على محبته. وقد انتقل إلى الجهاد ضِدَّ السيخ، وأقام دولة في البنجاب، فأثار أَعـداء الله بعض القبائل عليه، فاضطر إلى مغـادرة بيشاور، واصطدم مع جيش السيخ فاستشهد هو وكبار أصحابه في معركة بوادي بالاكوت سنة ١٢٤٦هـ.

ولكن حرب التحـرير استمـرت حتى خرج الانجليز من الهنـد بعد أن قسمـوها، ونشروا الفسـاد والعَلمانية فيهـا، سنـة ١٩٤٧م، وبعـد أن أبرم مجلـس العموم البريطـاني قانون استقلال الهند، وذلك بإنشاء دولتين مستقلتين: الهند وباكستان.

ودخلت العَلمانية إلى الهند عن طريق الشركـات التجارية والحركات التنصيرية التي كان هدفها الأول إخراج المسلم عن دينه ولـو لم يصبح نصرانيا، وهدفها الثاني أن تمهد مع

الشركات التجارية الطـريق للجيوش الزاحفة لتحقِّق هذه الجيوش مـن الفتنة والفسـاد مالم تستطع الشركات والحركات أن تحققه .

وإذا تتبعنا أحـداث العالم الإسلامي نجـد أن الغرب أخذ يـزحف على جميع أقطار العـالم الإسلامي زحفـاً جـديداً مع القـرن التـاسع عشر، على نهج جديـد يجمع الخبرة من تجاربه السابقة .

وهكذا أخـذت العَلمانية تمتـد في العالم الإسلاميّ ، وحققت نجـاحاً ملحـوظاً فيما زرعته من فتنة هنا وهناك .

ولكن العالم الإسلاميّ لم يقابل هذا الزحف الغربيّ بالاستسلام أو الرضا ، بالرغم مما كـان فيه من تخلّف ، وإنما قـاوم مقاومـة شديـدة امتدت في جميع أقطـار العالم الإسـلامي تقريباً ، ولكن بجهود متفرّقـة . أي أن المسلمين لم يجابهوا هذا الزحف على أساس أنهم أمّة واحدة وصفّ متراص ، مما سهل على الغرب أن يتناول كل قطر وحده .

ومهما تنـافست الدول المعتـدية الغـربيّـة فيما بينها على الغنـائم وعلى ثروات العـالم الإسلامي ، إلا أن التعاون على إفساد العالم الإسلامي وتمزيقه كان أمراً ظاهراً .

فإنجلترا مثـلاً ، حين احتلت مصر وأَرادت تصفيـة الأثــر الفـرنسيّ ، فعلت ذلك باستثناء ما تركتـه فرنسا من مراكز تفسد الأمة . فقد حافظت عليها بـريطانيا لتتعاون قوى الإفساد كلها على أهدافها المشتركة .

الفصل الرابع

المسلمون
في مواجهة العَلمانيّة ودولها المعتدية
من خلال تاريخ طويل

بالرغم من ضعف المسلمين الشديد خلال القرنين الأخيرين خاصة، فإنهم لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام هذه الغارة الإجرامية المجنونة على العالم الإسلامي. الغارة التي تولى كبرها الغرب النصرانيّ العَلماني، وروسيا والاتحاد السوفياتي، واليهود والصهيونية.

مهما ساءت أحوال المسلمين، ومهما تفرَّقوا وتمزّقوا، ومهما وهنوا أو ضعفوا، فستظل هناك أبد الدهر طائفة صابرة ظافرة، قائمة على الحق، على دين الله، أول نصرها تمسّكها بدين الله تمسّكاً لا يعتوره شرك ولا هوى باطل ولا نزوع إلى الدنيا.

إنها الطائفة الظاهرة التي بَشَّرَت بها أحاديث رسول الله ﷺ، تحمل الخصائص الإيمانيّة الربّانية التي فصّلها منهاج الله، لاتُساوم على حقٍّ، ولاترضى بالباطل ولا بالظلم.

فعن جابر بن سمرة عن النبيّ ﷺ أنه قال: **«لم يبرح هذا الدين قائماً يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة»** [رواه مسلم](1)

وعن جابر بن عبدالله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول **«لا تزال طائفة من أُمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة»** [رواه مسلم](2)

وعن ثوبان عن النبي ﷺ أنه قال: **«لا تزال طائفة من أُمتي ظاهرين على الحق، لايضرُّهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»** [رواه مسلم](3)

ويأتي هذا الحديث بروايات تبلغ العشر في صحيح الجامع الصغير وزيادته. ومع

(١، ٢، ٣) مسلم: ٣٣/ ٥٣/ ١٩٢٢، ١٩٢٣، ١٩٢٠/.

كل رواية فائدة. ومن مجموع هذه الروايات نخرج بخصائص واضحة لهذه الطائفة الظاهرة:

١ - إنها ممتدّة مع الزمن لاتنقطع ولا تتوقف، حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجّال، أو حتى تقوم الساعة.

٢ - إنها قائمة بأمر الله.

٣ - إنها ظاهرة على الحق، تجاهد في سبيل الله من أجل الحق الذي لاباطل معه.

٤ - إنها منصورة ظاهرة، لايضرّها من خالفها ولا من ناوأها.

ومن هذه الخصائص نرى أنها طائفة ملتزمة بمنهاج الله إيماناً وعلماً وممارسة. لاتتعارض شعاراتها مع ممارساتها، واعية لدربها، صابرة، لا تُغَيّر في أمر الدين ولا تُبَدِّل، ثابتة على الحق الذي بيّنه منهاج الله، لا تقاتل تحت راية جاهلية، ولا تنحرف إلى عصبية جاهلية، ولايكون تجمعها تحت رابطة قومية أو إقليمية، رابطتها الإيمان والإسلام.

وإذا راجعنا التاريخ الإسلامي فإننا نجد أن هذه الطائفة ممتدّة في التاريخ، قد لايراها بعضهم من خلال عجاج الفتن وظلام الأهواء.

إنها النّواة التي يتجمع حولها الصادقون كلما اشتد الصراع وحمي أُوار القتال.

وإن طغيان الكافرين والمجرمين لايمكن أن يزيل هذه الطائفة من الأرض أبداً. إنها أمر الله وقضاؤه وقدره، مهما علا أمر المجرمين في الأرض ومهما اشتدَّ.

﴿لا يغرنّك تقلب الذين كفروا في البلاد* متاع قليل ثم مأواهم جهنّم وبئس المهاد﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧]

ولكنها فترات ابتلاء وتمحيص، تطول أو تقصر على حكمة لله بالغة. فلا خوف أبداً على مستقبل الإسلام، فإنه دين الله، ينصره حين يشاء كيف يشاء بجنود لله صادقين. ولكن الخوف علينا، علينا نحن المسلمين الذين نمرّ في هذا الابتلاء، أنصبر ونصدق الله لنكون من هذه الفئة الظاهرة، أم نضعف ونستسلم ونتنازل، ونبدِّل راية براية، ونهجاً بنهج، فتكون الحجة يوم القيامة علينا لالنا، إن نحن ضعفنا؟!.

كثيرون يتحدثون من أرائك الراحة والغفوة عن الإسلام والخوف على مستقبله، ومنهم من يتخذ الشعار بأن هذا الدين لله ولا بد أن ينصره، سبباً للراحة وادعاءً للاطمئنان، ومسوّغاً للمضيّ في الغفوة أو الاسترخاء. ويغيب عن بالهم أن قضيّتهم التي سيُسألون عنها هي: ماذا قدَّموا هم لنصرة دين الله ؟ سيُسألون عن عملهم وبذلهم الذي كلفهم الله به وأمرهم به.

إن المسؤوليّة على كل مسلم في الأرض يدَّعي أنه ينتسب إلى الإسلام. وسيُحاسَب كلّ مسلم على مابذل وقدّم، وكيف بذل وقدّم، وكيف كانت نيته، وأين كان ولاؤه الأول، لله وحده لاشريك له، أم لأوثان يزيّنها له الشيطان؟! فالأمر جلي:

﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾
[آل عمران: ٢٠٠]

وكذلك:

﴿... وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون﴾ [البقرة: ٤٠]

وكذلك:

﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويُثَبّت أقدامكم﴾ [محمد: ٧]

وكذلك:

﴿وما جعله الله إلا بُشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم﴾ [الأنفال: ١٠]

وكذلك:

﴿... وليُبْلِيَ المؤمنين منه بلاءً حسناً﴾ [الأنفال: ١٧]

﴿ولنبلوَنّكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوَ أخباركم﴾
[محمد: ٣١]

إنه الابتلاء والتمحيص، أو العقاب والعذاب:

﴿واتقوا فتنة لاتصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب﴾
[الأنفال: ٢٥]

هـذا هــو العقـاب والعــذاب الـذي يَعمّ الجميع: الصــالحين والطـالحين، لأن الصالحين رأَوا المنكر والفساد فلم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر، أو صمتوا أو رضُوا.

ولو أنَّ الصالحين قـاموا لينهوا عن السوء، لكانت الفتنة تأخـذ أهل السوء الظالمين وحدهم:

﴿وإذ قالت أُمة منهم لِمَ تعظـون قوماً الله مهلكهم أو معذّبهم عذابـاً شديداً قـالوا معـذرةً إلى ربكم ولعلّهم يتّقـون* فلمّا نسُـوا ما ذُكّـروا بـه أَنجيْنا الـذين ينهـون عن السوء وأخـذنـا الذيـن ظلموا بعـذاب بئيس بما كـانوا يفسقـون﴾
[الأعراف: ١٦٤، ١٦٥]

من العرض السـابق لتاريخ العَلمانية نـدرك أن العَلمانية ظهرت في العـالم الإسلامي على صور متعددة. ولعلّ أَول وجـه كالح عرفه العالم الإسلامي لصـورة من صور العَلمانيّة كان في بعض مظـاهر الانحـراف في البلاد الإسلاميـة. ولقد تصـدّى لذلك بعض علماء المسلمين في عدد من الأقطار الإسلامية.

وكـــانت دعـوة الإمـــام محمـد بن عبـــدالــوهـاب بن سليمان التميمي النجــدي (١١١٥هـ-١٢٠٦هـ) الموافقة (١٧٠٣م- ١٧٩٢م) من بـواكير الحركات الإسـلامية في العصـور الحديثـة. وقد جهـر الإمـام محمـد بن عبـدالوهـاب بـدعـوته سنـة ١١٤٣هـ (١٧٣٠م) وانتقل من حريمـلاء إلى العيينة ثم إلى الدرعيـة. دعا إلى التوحيـد الصافي على أسـاس من الكتاب والسنـة، وإلى نبذ البـدع وجميع أنواع الانحـراف عن دين الله. وقبل دعـوته أمير الـدرعية محمـد بن سعود فـآزره. ثم أخـذت الدعـوة تنتشر من خلال تأييـد ومقـاومـة، وامتدت دعـوتـه إلى أقطـار كثيرة. ثم تـوالت الحركـات الإسلاميـة في العـالم الإسلامي، تحاول جهـدها أن تقف في وجـه الغزو الفكري والغـزو العسكري الـذي كان آخذاً بالامتداد والتوسع، كما ذكرنا في صفحات سابقة، وكما سنذكر بعد قليل.

ووجه آخـر كالح من وجـوه العَلمانية وصـورها هو الغـزو العسكري المبـاشر للعالم الإسلامي الذي عرضنا موجزاً سريعاً له في فصول سابقة. وقد تصدى لهذا الغزو المسلمون

بكل مايملكون من طاقة وقدرة.

ولعل من بواكير هذه المقاومة في العصور الحديثة مقاومة عبدالقادر بن محي الدين الجزائري (١٢٢٢هـ - ١٣٠٠هـ)، الموافقة « ١٨٠٧م- ١٨٨٣م)، حين تصدى للفرنسيين مدة خمسة عشر عاماً من ١٨٣٢م حتى ١٨٤٧م.

والحركة السنوسية في ليبيا يقودها أحمد شريف السنوسي ضد الإيطاليين الغزاة. وأحمد شريف السنوسي (١٢٨٤هـ - ١٣٥١هـ) استمر في قيادة الثورة من منطقة إلى منطقة. وامتدت الثورة في ليبيا إلى مابعد الحرب العالمية الأولى حين هُزمت الدولة العثمانية. وتنازل أحمد السنوسي لابن عمه محمد إدريس السنوسي الذي هزم الإيطاليين في معارك كثيرة ليقود الحركة السنوسية. فأعطى محمد إدريس القيادة في برقة لعمر المختار. فهزم عمر المختار الإيطاليين في مواقع كثيرة حتى أُسِر وأُعدم سنة ١٣٥٠هـ وعمره ٧٥ سنة. وقد قدَّم عمر المختار نموذجاً رائعاً لبطولات الإيمان في معاركه التي خاضها، وعند إعدامه كذلك. وامتدت الثورة السنوسية في ليبيا من ١٩١٢م إلى ١٩١٧م.

وفي تونس انطلقت الثورة ضد احتلال الفرنسيين سنة ١٢٩٨هـ (١٨٨١م) إلى سنة ١٣٠٠هـ (١٨٨٣م). وكان اليهود المقيمون في تونس عوناً للغزاة الفرنسيين ضد الأمة التي أحسنت إليهم زمناً طويلاً. وحدثت انتفاضة سنة ١٣٢٩هـ (١٩١١م) ولكن الفرنسيين قضوا عليها.

وفي السودان كانت مقاومة الاحتلال الانجليزي قوية ابتداء من جمعية اللواء الأبيض، إلى مظاهرات طلاب المدرسة الحربية، إلى مقتل حاكم السودان البريطاني. وتولّى الإنجليز فصل السودان عن مصر . ونجحوا في ذلك بعد مقاومة من الشعب السوداني والمصري . و قامت الثورة المهدية سنة ١٢٩٩هـ (١٨٨١م). وامتدت الى سنة ١٣١٦هـ (١٨٩٨م).

ولقد تحدثنا عن المقاومة المصرية ضد الحملة الفرنسية سابقاً. حيث قامت ثورتان في القاهرة بين ١٧٩٨م الى ١٨٠١م، دفعت نابليون وجيشه إلى الانسحاب. ثم مقاومة

الاحتلال البريطاني، ثم ثورة أحمد عرابي سنة ١٨٨٢م، ثم الثورة المصرية سنة ١٩١٩م، ثم القتال ضد الإنجليز في أوائل الخمسينات يقوده الإخوان المسلمون، حتى خرج الانجليز من مصر بعد أن رسخوا جذوراً للعَلمانية.

وفي الهند قاوم المسلمون الإنجليز الذين اتخذوا أشد الوسائل إجراماً ضدَّ المسلمين. واستمر الصراع حتى خرج الإنجليز بعد أن قسّموا البلاد وأفسدوا العباد.

وقد سبق أن أشرنا إلى جهاد المسلمين في الهند، وما قام به السلطان المجاهد تيبو والإمام المجاهد أحمد عرفان حتى امتلأت أرض الهند بدماء المسلمين في جهاد طويل. فعسى الله أن يتقبّل قتلى المسلمين في الهند وفي سائر دار الإسلام شهداء عنده.

هذه لمحة سريعة موجزة نهدف منها إلى إبراز الحقيقة الهامة، وهي أن المسلمين بالرغم من ضعفهم قاوموا الاحتلال الأجنبي بقدر مايستطيعون، وقدموا الضحايا والشهداء. ولكن الغرب بصفة عامة استطاع أن يُدخِل العَلمانيّة إلى كثير من أقطار العالم الإسلامي.

وبالإضافة إلى المقاومة العسكرية للاحتلال الغربي، فقد قامت حركات إسلامية لتصلح واقع الأمة ولتصدّ طوفان العلمانية. فالحركة السنوسية لم تكن حركة جهادية قتالية فحسب ولكنها حاولت إعادة الأمة إلى جوهر الإسلام. وكذلك حاولت الحركة المهدية.

قامت جميع أشكال المقاومة باسم الإسلام وتحت شعاره في كثير من المواقع. ثم أخذت النزعات القومية تظهر وتطغى على الروح الإسلامية أو تختلط بها. ومن أطول فترات الصراع ضد الاحتلال الأجنبي كان في فلسطين حيث جابهت فلسطين عدوين في وقت واحد: الإنجليز واليهود من خلال دعم دولي وحماية دولية. ومع أن دولة اليهود قامت في فلسطين، لكننا نرى أن الصراع لم ينتهِ، وأن القضية أوسع مدى مما يحسبها كثيرون. ابتدأت المقاومة منذ بداية الانتداب البريطاني وكانت الثورة الأولى سنة ١٩١٩م، ثم سنة ١٩٢٠م، ثم سنة ١٩٢١م، ثم سنة ١٩٢٢م، وامتدت الأحداث حتى سنة ١٩٢٨م، فقامت ثورة ١٩٢٩م لتمتد إلى ثورة سنة ١٩٣٦م، ثمّ ١٩٤٧م-١٩٤٨م، وامتد الصراع حتى اليوم، ولكنّ دولة اليهود قامت إلى حين.

إن الملاحظة الأولى التي نبديها على هذه المقاومة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي أنها كانت معزولة بعضها عن بعض. وكان كل قطر يعالج مشكلاته وحده أمام صفّ دوليّ متعاون في قضية غزو العالم الإسلامي.

والملاحظة الثانية هي أن واقع المسلمين عامة كان يغلبه الجهل والوهن، مما سهل حدوث انحرافات عن النهج الإيماني المتميّز، النهج الذي وعد الله عباده المؤمنين بالنصر إذا التزموه وصدقوا البذل فيه دون انحراف.

ولا ننسى المقاومة العنيفة التي أبداها الأفغانيون ضد الإنجليز والروس زمناً غير قصير حتى دخل الاتحاد السوفياتي أفغانستان مؤخراً وقام الجهاد الأفغاني.

لم نقصد بهذا العرض السريع أن نقدّم تاريخاً مفصلاً. فذلك خارج عن موضوع البحث، ولكنا أردنا أن نبيّن أن روح المقاومة متوافرة وممتدة في جميع أنحاء العالم الإسلامي بلداً بلداً، وممتدة مع الزمن كذلك، بالرغم من عوامل التفكك والوهن.

وإننا نعتبر أن الحركات الإسلامية التي قامت في القرن التاسع عشر كانت أولاً لمجابهة الاحتلال، وللجهاد في سبيل الله لطرد المجرم المعتدي عن دار الإسلام. كما أن بعض هذه الحركات شملت النشاط الدعوي والتربوي أو بعضاً منه من خلال مسيرتها.

وفي القرن العشرين ظهرت حركات إسلامية كان حافزها الأول مجابهة ماتعانيه الأمة من جهل وانحراف وبدع، وكذلك التمهيد والإعداد لتحرير البلاد، ولمجابهة ما أدخلته العَلمانية من انحراف في الفكر والممارسة.

لقد سبق أن تحدثنا عن «الحركة الوهَّابية» التي قامت في وقت مبكر نسبياً من تاريخنا الحديث، وعن امتدادها في العالم الإسلامي ونهجها القائم على الكتاب والسنة. ثم قامت حركات إسلامية من أجل الدعوة والإعداد وإصلاح واقع الأُمة في أَقطار أُخرى متعددة. فقامت حركة الإخوان المسلمين منطلقة من مصر، وحركة حزب التحرير منطلقة من فلسطين، وجماعة التبليغ منطلقة من الهند، والجماعة الإسلامية من الهند كذلك، وحركات متعددة تحت شعار السلفية. وقامت حركات إسلامية أخرى في الساحة لتساهم في إصلاح واقع الأمة.

ليس الهدف هنا إيراد تاريخ الحركات الإسلامية، ولكن الهدف إبراز موقف المسلمين من العَلمانية سواء أكانت العَلمانية غزواً واحتلالاً عسكريا يحمل أفكارها ومناهجها، أم كانت تسللا خفياً، أم غزواً فكرياً وثقافياً.

ولقد بذلت هذه الحركات الإسلامية جهدها واجتهادها من أجل مجابهة العَلمانية، كما بذلت الحركات الجهادية جهدها واجتهادها في مقاومة الاحتلال.

لقد حاربت الحركة الوهابيّة الانحرافات عن الإيمان والتوحيد والبدع في الجزيرة العربيّة وأزالتها، وأرست قاعدة لنشر رسالة التوحيد والانطلاق بها. ثم أخذت تظهر بعد ذلك تحدّيات جديدة للدعوة الإسلامية في واقع المسلمين. فبرز الزحف العلمانيّ الشديد، والزحف العسكري، زحفٌ أخذ يغزو العالم الإسلامي ويُغَذّي البدع، ويضع العقبات تلو العقبات أمام العمل الإسلامي، حتى امتدت الفتنة. وكان هذا هو التحدّي الأول.

أما التحدّي الثاني فقد كان ما وقع بين الحركات الإسلامية من خلافات وصراع وتنافس على السمعة والسبق إليها. وكانت كل حركة تعتبر نفسها هي وحدها الحركة الصحيحة. وغاب التعاون والتناصح، وسُدّت الآذان عن النصيحة، كأن كل حركة اعتبرت نفسها لا تخطيء ولا تَزِلُّ، حتى اشتدّ النقد وتعالت أصواته. ومن أجل ذلك نقدّم الدراسات المنهجيّة الجادة، والنصيحة القوية والواضحة، والمنهج الذي ندعو إليه: نظريّة، ومنهاجاً تطبيقيّاً، ونماذج عملية.

وبصورة عامة فقد كان هنالك أخطاء حقيقية، سواء انتبه لها أبناء الحركات الإسلامية أو لم ينتبهوا. فإنه يمكن الاستدلال على الأخطاء من الواقع الذي يمرّ به المسلمون اليوم. ويبدو أن معظم الحركات الإسلامية لاتقف بين حين وآخر مع نفسها لتقوّم مسيرتها وتبحث عن أخطائها لتعالجها. إن عملية التقويم الدوري كانت غائبة كما يبدو، كما كان التناصح غائباً.

وأخذت النزعة الإقليمية تغلب على بعض الحركات الإسلامية أو بعض أفرادها، وأحيانا في فكرها ومناهجها. فقد تجد الشعار إسلامياً ولكنك تجد التكتل إقليمياً والعاطفة إقليمية، حتى لم تعد الأخوة الإيمانية التي أمر الله بها هي رابطة المسلمين

العملية. وأخذت تنمو العصبيات الحزبيّة بـالإضافة إلى سائر العصبيات تعمل عملها في تفرقة المسلمين.

يضـاف إلى هـذا غيـاب النهج والتخطيط الـذي يستطيع أن يجابـه تخطيط العـدو الذي يريد المسلمـون مجابهته. وبذلك لم يعد العمل منهجياً سـواء في الكتابة أو التربية أو السياسة أو الاقتصاد. وأصبحت أعداد كبيرة من أبنـاء الحركات الإسلامية لايعكفون على دراسة الكتاب والسنّة دراسـة منهجية، ولايبذلون الجهد الصادق لـذلك، وقد لا يقيمون لهذا الأمر أهميته.

لقد فتح هذا الواقع ثغرات أمكـن للعَلمانية أن تتسلل منها إلى عقول وقلوب بعض المسلمين، وهم لايشعرون بالخطأ الذي وقعوا فيه.

فلقد وجـدنا دعاة يقـولون إنه لا فرق بين العَلمانيـة ومقصود الشريعة الإسـلامية. وكأنّهم نسـوا أن الشريعـة الإسلاميـة تـريد أن تمنـع الكفر والإلحاد، والعَلمانيـة تمد الشرك والإلحاد وتفتح لـه الساحـات. الإسلام حكم و دولـة ومنهج كـامل للحياة، والعلمانيّـة لاتسمح للـدين بأن يحكم أو يتـدخل في شؤون الـدولـة. العَلمانيـة تقوم في كل أنشطتهـا وقوانينها ومناهجها على أساس عزل الدنيا عن الآخرة.

والإسلام يجعل الـدنيا ممرّاً للآخـرة، ويقدم تصوراً للكون والحيـاة والإنسان مختلفاً كل الاختلاف عن تصور العلمانية. لقد عرضنا بعض أوجه الاختلاف في فصل سابق.

وتجد داعيـة آخر يقـول يجب أن نتعـامل من خـلال إسلام مُنفتح، وفيّ لمصـادره الأولى، ويندمج مع النسيج الثقافي والـديني الغربي. عجيب أن يقول المسلم هذا القول في بلـد يدَّعي أنه عَلمانيّ، لا دينيّ، ثم يأتي المسلم ليطلب الاندماج مع نسيج الدين الغربي النصراني.

وداعيـة آخـر يضع جهــده كلـه في الـدعـايـة عن «الـــديمقـراطيـة»، وفي بـلاد الديمقراطية، حيث واجبه الأول، أن يدعـو للإسلام في أرض الديمقراطية. وإلا فليعلن عن نفسه أنه داعية ديمقراطيّ وليس داعية مسلماً.

إن من أهم أسبـاب هذه الهزيمة النفسيـة مايجده المسلم مـن فوارق كبيرة في الإدارة وبعض مظـاهر الحريـة وبعض الحقوق المادية لـلإنسان، بين واقع الغـرب وواقع بعض أقطـار المسلمين، حتى أصبحت جملة تتردّد كثيراً بكل أسف على ألسنـة بعض الدعـاة،

حين يقولون إنهم يمارسون إسلامهم في الغرب أفضل مما يمارسونه في بلدهم الإسلامي. لقد غالوا كثيراً. ولو قالوا إنهم يجدون حرّية أكثر مما يجدونه في بلادهم من خلال الحرّية المتفلتة في الغرب، لكان القول أقرب للصدق.

لو رجعنا في بعض البلدان الإسلامية إلى ماقبل خمسين سنة مثلاً، لوجدنا أن هنالك جبهتين تتصارعان في المجتمع: جبهة إسلامية وجبهة علمانية. وكان الرأي العام والسلوك العام يلتفّ حول الإسلام. فلا تجد فتاة سافرة ولا تجد إباحة للفجور. . . . . ! وكانت العَلمانية مختبئة في جحورها لاتجرؤ على الإعلان عن هويتها إلا لماماً. ومضت السنون، وهذه الجبهة تبذل وتعمل لتحقيق مبادئها، وتلك الجبهة تعمل لتحقيق مبادئها! فماذا كانت النتائج اليوم؟! لقد أصبح للعَلمانية منابر تدوّي، ورأي عام يؤيد، وصحف ومجلات، وانحسرت موجة الجبهة الإسلامية، فلا البدع تغيرت، ولا النفوس تغيّرت، ولا البلاد تحررت.

هنالك خلل في واقعنا، إذا لم ندرسه ونعالجه، فإن الفواجع ستزداد وتمتد، ولن ينفع التلاوم عندئذ! (١).

ولكنّ الطائفة الظاهرة التي تحدثنا عنها في أول هذا الفصل من خلال الأحاديث الشريفة لاتزال ظاهرة على الحق، صادقة مع نفسها ومع ربّها ومع الناس، وفيّة بأمانتها.

إن الفُرقة بين المسلمين مهما اشتدت فلن تعطل حقيقة هذه الطائفة التي لم تحدّدها الأحاديث الشريفة بلون أو جنس، وإنما حدّدتها بخصائص تجلوها في الواقع. فلابد أن يكون هدف الداعية أن ينتمي إلى هذه الخصائص ليكون من الطائفة الظاهرة. والانتماء ليس انتماءً حزبياً ولاتكتّلاً إقليمياً ولاقوميا. إنه انتماء يحمل الخصائص الرّبانية فكراً وتصوّراً، ووعياً وعلماً، ونهجاً وسلوكاً.

ومن أجل تيسير لقاء المؤمنين الصادقين، وتيسير بناء المسلم ليتجه إلى الطائفة الظاهرة، وتيسير صفاء الإيمان وقوة العلم بمنهاج الله، نطرح من خلال مانقدمه من

---

(١) يراجع كتاب: الصحوة الإسلامية إلى أين؟ وكتاب واقع المسلمين أمراض وعلاج للمؤلف، من أجل تفصيلات أوسع.

كتب الدعوة المنهجية نهجاً مفصلاً ليكون، حسب مانرجو، قاعدة اللقاء.

ولا بد أن نُذكِّر بنقاط أساسية في الإيمان والتوحيد:

١ - أن يكون الولاء الأول لله، ومن هذا الولاء ينبع كل ولاء آخر في الحياة الدنيا.

٢ - أن يكون العهد الأول مع الله، ومن هذا العهد ينبع كل عهد آخر في الحياة الدنيا.

٣ - أن يكون الحب الأكبر لله ورسوله، ومن هذا الحب ينبع كل حب آخر في الحياة الدنيا.

ولتثبيت هذه الأُسس في النفوس وبنائها عليها، فإن مدرسة الإسلام هي المسؤولة عن ذلك، وإن منهاج الله -قرآناً وسنة ولغة عربية- هو الأساس لبناء هذه الأسس في النفوس مع سائر قواعد الإيمان والتوحيد، ليكون صفاء الإيمان والتوحيد هو قاعدة بناء العلم، وهو الأساس مع منهاج الله، لفهم الواقع وتقويمه. ويصبح صفاء الإيمان والتوحيد، والعلم بمنهاج الله، فهم الواقع وتقويمه أساساً لبناء النهج العمليّ والخُطة التطبيقية في واقعنا اليوم.

(١) زكريا فايد: العلمانية النشأة والأثر - (ص: ٩٣).

الباب الثالث

أهم نتائج العَلمانيـة وآثـارهـا
في حيـاة الإنسـان

الفصل الأول

أهم نتائج العَلمانيّـة وآثارها

تمهيــــــد :

لقـد كان للعَلمانيّـة آثـار واسعة ونتـائج كبيرة في الـواقع الأوروبي، والواقع الـدولي عامة، وواقع العـالم الإسلامي. لقد امتدت آثـارها إلى مختلف نواحي الأرض وإلى مختلف الشعوب، كما امتدّت آثارها زمناً طويلاً حتى يومنا هذا.

إن النفس البشريـة تميل إلى اللهو وتهوى الشهـوات إذا أفلت عنـانها، وتنضبط إذا وجدت مايضبطها. وصدق الشاعر حين قال:

والنفس كالطفــــل إن تهملْـــه شـــبَّ عــــلى
حُــــبّ الـــرضـــاع وإن تُفطِمْـــهُ يَنفَطِـــم

وخير ضابط لنفس الإنسـان هو الإيمان والتوحيـد وصفاؤهما، ومنهاج الله -قـرآناً وسنّة ولغـة عربيّة-، والبناء والتربيـة والإعداد على ذلك، والتدريب العملي على ممـارسة منهاج الله في الواقع.

ومن أهم مـا يُعين على الانضباط هو تـوافر الجوّ الإيماني والمجتمع المؤمـن والسلطة التي تحكم بما أنـزل الله. إنَّ هذا الجوّ الطـاهـر ضرورة أساسيـة للمؤمن، فهـو ييسِّر على المؤمن أُموراً كثيرة. وبغير هـذا الجوّ يجد المسلم معانـاة شديدة وامتحـاناً وتمحيصـاً له من الله، فعليـه أن يصبر ويمضي في الدعـوة الإسـلامية على مـراحلهـا التي حدَّدهـا الله ربُّ العالمين.

والعَلمانيّة تُفْقِد المسلم هذا الجو الضروريّ له ولإيمانـه. إنها تفْقده هذا الحق الرئيس وتجرِّده منه ومن سـائر وسائل الحماية. إنها تضعه في جـوّ يدفعه دفعاً إلى الفـاحشة والخمر والآثام والمعـاصي. إنها تدفعه بـالعري الممتـد في الساحات والشـوارع والحدائق وأماكن العمل، وبـوسائل الإعلام مـن صحف ومجلات وكتب وصور، وبـالتلفاز ومايحملـه من

برامج مفسدة، والشياطين الذين يموجون في الأرض من رجال ونساء.

ولما كانت العَلمانية ممتدّة في التاريخ البشري منذ قرون سابقة طويلة، فإنها جمعت أنصاراً لها من كل أرض، جمعت لها أنصاراً من شياطين الإنس والجن، وملكت من الوسائل والأساليب ما جعلها تبرز اليوم قوة حقيقية في الأرض، تتولاها الدول الكُبرى وتنميها وتنشرها باللين والإغراء، والقوة والبطش.

ولقد تولى قيادة هذا الاتجاه دول مختلفة في القرون السابقة، ولكن في هذا القرن تصدّرت الولايات المتحدة الأمريكية نشر العَلمانية في الأرض تحت شعار الديمقراطية وغيرها من الشعارات. ولحكمة أرادها الله جعل في يد هذه القيادات قوة علمية وعسكرية خلال القرون الأخيرة، وجعلها تنمو اليوم حتى بلغت شأناً مريعاً.

وهبط المسلمون إلى مرتبة متدنيّة في غفوة طالت وفتنة عمّت، وتمزّق وهوان، وهزائم متتالية. فاجتمعت قوة أهل الفتنة إلى ضعف أهل الحق، حتى أصبحت الفتنة ابتلاءً واسعاً شديداً، أو عقاباً من الله عادلاً ولكنه أليم.

لذلك أخذت آثار العلمانية تظهر قوية وتبرز في حياة الشعوب اليوم، وتمتد في الساحة والزمن.

ونودّ أن نوجز أهم آثار العَلمانية في الواقع اليوم كما نراها، وقد لانلمُّ بها كلها ولا نحيط بها جميعها، ولكننا نوجز ما نعتقد أنه الأهم، ليكون فيه عبرة لمن يريد أن يعتبر.

(١)

امتداد الظن والوهم وإنزاله منزلة العلم أوتسلله إلى ميادين كثيرة في الحياة

منذ أن انحرف الفكر اليوناني عن الإيمان والتوحيد ومعرفة الله سبحانه وتعالى، بدأ يظهر مايُسمّى بالفلسفة. وكان محور ما تدور عليه هذه الفلسفة محاولة فهم هذا الكون وهذه الحياة الدنيا والموت وما بعد الموت.

إن كلمة «فلسفة : Phylosophy» يونانية الأصل، تتألف من كلمتين هما :

فيلو: تعني أُحبُّ، وسوفيا : تعني الحكمة، باللغة اليونانية. فالكلمة في أصلها تعنى: أحبُّ الحكمة. والحكمة عند اليونان كان أساسها التفكير في الكون تفكيراً بشرياً محدوداً بقدرة الإنسان المحدودة، وبالزمن المحدود الذي يفكر فيه الإنسان بالنسبة للزمن الممتد في الخلق، وبالبقعة الضيّقة المحدودة في الأرض بالنسبة للكون الممتد الذي لانعرف منه إلا أقل القليل.

ويعرّف مجموعة من أساتذة الفلسفة في الجامعات السوفياتية الفلسفةَ بأنها: «مجموعة من النظرات الشاملة إلى العالم والطبيعة والإنسان. وهي ليست مجرد مجموعة من الآراء والتصوّرات عن العالم، وإنما هي منظومة لها، وهي نتيجة لتطبيق وجهة نظر محددة تطبيقاً واعياً على الواقع المحيط، ومجموعة من المبادىء. وهذه المبادىء تعبّر عن أيديولوجية هذه الطبقة الاجتماعية أو تلك وظروف حياتها ومصالحها»[1].

نحن نؤمن بأن الله بعث في كل أمة رسولاً يبلغهم رسالة الله ويذكرهم بأن لا يعبدوا إلا الله. ثمّ انحرفت الشعوب عن رسالة التوحيد، فتوالت الرسل حتى خُتِموا بمحمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين. نؤمن بذلك لأن الله بيّن لنا هذه الحقيقة في كتابه الكريم ولأنها في الفطرة السليمة للإنسان.

والشعب اليوناني لايخرج عن هذه القاعدة العظيمة. جاءته رسله وبلغوه رسالة التوحيد، ثم انحرف اليونانيون عن هذه الرسالة، كما انحرف غيرهم من الشعوب. ولولا أن الله تَعَهَّد بحفظ «الذكر» الذي أنزله على محمد ﷺ ليبقى دون تحريف، لولا هذا التعهد لأصاب المسلمين ما أصاب اليهود والنصارى من التحريف.

ومنذ أن انحرف اليونانيون عن رسالة التوحيد ووقعوا في ظلام الوثنيّة والشرك، بعد أن كانوا في نور الإيمان، منذ ذلك الوقت أخذ فلاسفتهم يحاولون فهم الكون والحياة بالقدرات البشرية المحدودة، يحاولون تفسير كون غير محدود بالنسبة لهم بقدرات محدودة، فأدخلهم الشيطان في ظلمات تلاها ظلمات:

﴿... والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات

(١) مجموعة من أساتذة الفلسفة السوفيت: كتاب المادية الديالكتيكية - ترجمة ثلاثة أساتذة - (ص: ٢).

أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ [البقرة: ٢٥٧]

وانطلقت الفلسفة اليونانية تتبنّى تصورات بشرية وتأملات وفرضيات لم يقم عليها برهان من علم أو تجربة. فكانت هذه التصورات كلها مبنية على الظن والوهم، يطلقون عليها أسماء، ويتوهمون بآلهة متعددة.

﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتّبعون الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهُدى﴾ [النجم: ٢٣]

وكذلك:

﴿وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لايُغني من الحق شيئاً﴾
[النجم: ٢٨]

وكذلك:

﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ [الروم: ٧]

وكذلك:

﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾
[الإسراء: ٨٥]

امتدت هذه الفلسفة، التي أودّ أن أسميها فلسفة الظن والوهم، إلى الرومان ثم امتدت إلى أوروبا، فكانت اساس العَلمانية اليوم: وهمٌ وظنٌّ وتخمين في ظلمات من فوقها ظلمات. ولكن العَلمانية هذه أنزلت هذا الظن منزلة الحقائق وأقامت عليه نظاماً للحياة. وأصبح الظنّ جزءاً من التفكير العَلماني في ميادين مختلفة في الحياة، في السياسة والأخلاق، ثم امتد إلى العلوم الطبيعية الكونية.

فهذا العالم «ستيفن هوكنج STephen W. Hawking» في كتابه الذي نال شهرة واسعة: «موجز تاريخ الزمنA Brief History of Time» أراد أن يبيّن كيف بدأ الكون وكيف سينتهي. وبالرغم من لجوئه الى المعادلات الرياضية، إلا أن ماتصوره لبداية

الكـــــون كان ظنّاً لايقوم على أساس حق، وما تصوره لنهاية الكون أيضاً كان ظناً. ومن الغريـب أن يسقط عالم مثلـه فيتّهم الإسلام اتهاماً يقـوم على الوهم والظـنّ دون أيّ جهدٍ لـدراسة أو تحقيق. فتراه يقـول في كتابـه المذكـور في الصفحة (٧): «لقـد دُرِسَ موضـوع تـاريخ بـدايـة الكـون قبل ذلك بـوقت طـويل. وعلى حسب علـوم الكونيـات ومـاتـراه الديانـات اليهودية والمسيحية والإسلام، فإن الكـون قد بدأ في وقت محدد في الماضي وقبل زمن ليس ببعيد» ثم يقول إن «القديس أوغستين St. Augustine» في كتابه «مدينة الله The city of God» قد قبل تاريخاً لبدء الكون بحدود خمسة آلاف سنة قبل مولد عيسى عليه السلام».

فإذا كـان الإنجيل أو التوارة أو بعـض رجال الـدين المسيحي أو اليهـودي تطرّقـوا لتاريخ بدء الكون، فإن الإسلام -قرآنـاً وسنة- لم يتطرّق لهذا التاريخ من قريب أو بعيد. وإنما تحدّث بعلم يقيني موحى بـه من عند الله عن بـداية خلق الكون وكيفيتـه وعن كيفية نهايته، دون تحديد تاريخ له.

فكيف أدخل هذا «العـالم» الإسلام في هذا الموضوع؟! لاشك أنـه ظنّ ووهم دفعه الجهل بالإسـلام. فلم يكلف نفسه البحث العلميّ الأمين ليـدرس ماذا يقـول الإسلام في القـرآن والسنة عن كيفيـة بدء الكـون ونهايته. ولـو فعل ذلك لاطلع على علم حق يقيني لاظن فيه ولاباطل.

وكـذلك كان شـأن «فوكـو يـاما» في كتـابـه نهاية التـاريخ والـرجل الأخير، حيث اعتبر الديمقراطية هي نهاية التاريخ من خلال منطق متناقض، وظن ووهم لايحمل علماً ولا حقائق.

ولعله من المفيد أن أورد آخـر فقرة في كتاب «هوكنج» الـذي أشرنا إليه قبل قليل. إنه يقول:

«وعلى كلّ حال، فـإننا لو اكتشفنـا نظريـة متكاملـة، فإن هذه النظـرية ستصبح مفهـومة بمبـدأ عام عـريض ميسَّر لكل إنسان، دون أن ينحصر الفهـم في عـدد قليل من العلماء. وعندئذ نستطيع كلنا: الفلاسفة والعلماء والناس العاديون، أن نشترك في مناقشة

حول قضية يطرحها السؤال التالي: لماذا نحن والعالم موجودون؟! وإذا وجدنا الإجابة لهذا السؤال فإن الإجابة ستمثل النصر النهائي للعقل البشريّ، وعندئذ سنعلم عقل الإله وماذا يريد».

ولو كلف هذا العالم ستيفن هوكنج نفسه عناء دراسة القرآن الكريم والسنة لوجد الإجابة اليقينية لتساؤلاته.

ولكن مقدم الكتاب «كارل ساجان» من جامعة كورنيل -إثاكا- نيويورك، يقول في ختام مقدّمته كلمة الكفر الصريح: «إن هذا كتاب عن الإله، . . . . أو ربما عن غياب الإله. كلمة الإله تملأ صفحات الكتاب. وينطلق هوكنج في محاولة ليجيب عن سؤال آنشتاين الشهير، هل كان للإله أي خيار في خلق الكون؟! وهوكنج يحاول، كما يذكر هو، أن يفهم عقل الإله. وهذا يجعل ثمرة الجهد بعيدة المنال: عالم لا حافّة له في الفراغ، ولا بداية ولا نهاية في الزمن، ولاشيء لخالق أن يعمله»[(١)].

نرى بوضوح أن هذا التفكير يقوم على الظن والوهم، والإبحار في ظلمات الجهل، والإصرار على البقاء على الجهل.

ليس للبشرية كلها مجال لمعرفة الغيب أبداً. إن الغيب لايعلمه إلا الله ، والله يعلّمنا عن طريق الوحي والرسل مايشاء عن الغيب بالقدر الذي يعلم الله أنه كافٍ لنا. وهذا العلم متوافر لهؤلاء العلماء، قريب منهم، في متناولهم، لو أرادوا أن يبحثوا بحثاً علمياً أميناً. فالبحث العلمي الأمين يفرض أن يرجعوا إلى كل مصدر يبين شيئاً مما يبحثون عنه.

وهكذا جعلت العَلمانيةُ الظنّ والوهم يتسلل إلى مختلف ميادين الحياة حتى تسلل إلى العلم ليبعث في النفوس الكبر والغرور، وليحجب الحقائق واليقين.

وحين يمتد الظن إلى الأخلاق وميدان التعامل، فإن الشرور ستنطلق، والتحاسد سيمتد، والأحقاد ستثور، والمؤامرات ستحاك. وحين تُرسّخ العَلمانية الظن في حياة الناس، فإنها ترسّخ بذلك الفتنة والفساد. فيصبح الفساد يصبُّ في حياة البشرية من قنوات عديدة: من الفاحشة، من الخمور، من المخدرات، ومن الكذب والافتراء، ومن

---

(١) هوكنج: «موجز تاريخ الزمن» (ص: ×).

الظنّ الذي يدفع الكذب وينمّيه، ويغذّي الظلم ويمدّ من ساحاته، وينزع الأمن والعدل.

لذلك جاء توجيه القرآن الكريم والسنة النبوية ينهى عن الظن، لحماية الناس، ولنشر الأمن، ولإقرار ميزان العدل:

﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظنّ إن بعض الظن إثم ولاتجسسوا ولايغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم﴾ [الحجرات: ١٢]

تلك هي العَلمانية وهذا هو الإسلام. تلك العَلمانيّة تقوم على الظن، والإسلام يقوم على الحق من عندالله، وعلى التبيّن والتثبُّت.

ولكننا لاننكر أن الأصل لدى جميع الأمم ومختلف العصور وجميع المذاهب أن تقوم الحقائق العلميّة على التثبّت والتجربة والتبيُّن. ولكن الذي نقصده هنا هو أن الظنّ والوهم الذي تقوم عليه نظرة العَلمانيّة إلى الكون والحياة، وما تبع ذلك من نظم وقوانين، هذا الظنّ أخذ يتسلل إلى نواحٍ علميّة كما عرضنا، وأنزله أهله منزلة العلم وما هو بالعلم.

(٢)

انحسار المبادىء والقيم الثابتة وظهور ردود الفعل في الفلسفة والفكر والسياسة والأدب

حين نعود إلى استعراض الحركات الفكرية التي ظهرت في أوروبا خلال القرون الماضية والعصور الخمسة التي عدّدناها، نجد أن كلّ حركة كانت تظهر كأنها ردّ فعل لحركة سابقة. إن إهمال التصور الديني كان ردّاً فعل للظلم الذي كانت تمارسه الكنيسة، وردّاً فعل للأفكار المصادمة للعلم والواقع. إن الحركة العَلمانية منذ أول ظهورها كانت ردّ فعل لاضطراب التصورات الكنسية وفشلها في حل مشكلات المجتمع. والحركة الميكيافيلية كانت رد فعل لممارسة الخداع والغش في أجواء الكنيسة. لقد أصبح الصراع في أوروبا خداعاً يصارعه خداع آخر. والحركة الإنسانية العَلمانية التي دعت إلى اعتماد الإنسان على نفسه كانت ردّ فعل لفشل الاعتماد على التصورات الكنسية.

والمذاهب الأدبية التي ابتدأت بالمذهب الكلاسيكي في أوروبا، كانت كذلك ردود فعل. فالمذهب الكلاسيكي الذي ساد في القرن السابع عشر كان عودة لإحلال فلسفة اليونان وآدابهم، بعد أن فشلت المعطيات الأخرى الدينية وغيرها في إشباع تطلعات الناس، وإزالة الحَيرة من نفوسهم. وجاءت الرومانسية ردّ فعل للمذهب الكلاسيكي الذي كان يعتمد على العقل وعلى الأقدمين، جاءت لتثور على ذلك وتتبنى العاطفة الشخصية تدفعها الفلسفة المثالية. ثم جاء المذهب الواقعي يصاحب الفلسفة الواقعية ويمثل ردّ فعل للرومانسية. وجاءت الرمزية بعد ذلك ردّ فعل للتيه الذي حملته المذاهب السابقة، ولتجعل من التيه رَمزاً للغموض، وكأن الإنسان الغربي يريد الفرار من واقعه. وكلما ساءت الأحوال واضطربت الأفكار الفكرية والفلسفية أغرق الناس في الرمزية والغموض والثورة. فجاءت الانطباعية ومـاتبعها من مذاهب الحداثة المتعددة، لتغرق في الرمز والغموض والثورة على الماضي كله. لقد زاد الاضطراب والرمز، والغموض والحيرة والاضطراب في أذهان الكثيرين، وكأن الفوضى الفكرّية والأدبية قد نمت وامتدت.

ولعل الحربين العالميّتين الأُولى والثانية اللتين قامتا في القرن العشرين، كانتا من أكثر ردود الفعل عنفاً وتدميراً. وكذلك الحروب الأُخرى التي ملأت القرن العشرين.

وكان قيام الاتحاد السوفياتي والحركة الشيوعية والنظرية الماركسية صورة واضحة لردة فعل عنيفة ضد الرأسمالية وديمقراطيتها، لتستبدل ظلماً جديداً بظلم قديم. فلقد كانت ردودُ الفعل في كثير من الأَحيان ردود فعل غير معقولة ضد أَوضاع وأفكار غير معقولة.

لقد شعر الكثيرون في أوروبا في القرن العشرين بظلام الفكر الذي يسود وينتشر، حتى أصبح من المبادىء المعلنة لدى بعض مذاهب الحداثة النزعة التحطيمية الغامرة، والتدمير الشامل. ولقد وجد بعض رجال الحداثة العَلمانية أن الانتحار أيسر السبل للتخلص مما هم فيه فانتحروا. وأما «مارينيتي»، زعيم الحركة «المستقبلية» في إيطاليا فقد أصدر كتابا سنة ١٩١٥ أسماه: «الحرب هي العلاج الوحيد للعالم». وقامت الحرب العالمية الأولى. وأصدر «أبولينير» سنة ١٩١٣م كتابه: «العداء المستقبلي للتراث».

وأصدرت الحركة المستقبلية بيانا ورد فيه: «.... إعطاء الشعراء الحق في رفد مفردات الناس بالكلمات المبتكرة وإعلان الكراهية غير المحدودة للّغة التي ورثناها». ومن قلب هذا التصور ابتكر «كوستاف كان» الشعر الحر كوسيلة لتحطيم اللغة. وروح النقمة كانت واسعة حتى قال: «رودولف كرتز» من «الحركة التعبيرية» عن مجلة أصدرها: «إن المجلة جاءت لتقوّض المجتمع القائم....». وقال «تزارا» عن الحركة «الدادائية» إنها يجب أن تبقى شاردة غير قابلة للتدقيق. إنها تموت إذا اتجهت إلى الجدّ والوضوح».

كل حركة أدبية كان وراءها أو معها فلسفة توجهها. ومن هذا العرض السريع الموجز لردود الفعل ندرك مقدار الفوضى والظلام الذي كان يعيشه الغرب، والاتحاد السوفياتي، ودوله بعد أن انهار الاتحاد السوفياتي وتفرّقت دوله، وهم بعيدون عن نور الإسلام، وهم يصدّون عن سبيل الله. وندرك كذلك مدى تقصير المسلمين في تبليغ رسالة الله إلى الناس ودعوتهم إلى دين الله الحق.

هؤلاء الذين يموتون على الكفر اليوم، ألا يتحمل مسؤوليتهم المستكبرون الذين زيَّنوا لهم الكفر ودفعوهم إليه؟! ألا يتحمل مسؤوليتهم الذين عرفوا الحق فغفلوا عن تبليغه، أو ناموا عنه، أو قصروا في أداء الأمانة التي خلقهم الله للوفاء بها؟!

لقد أصبحت ردود الفعل ظاهرة واضحة، بعد أن غابت القيم والمبادىء التي بناها الإنسان خلال آلاف السنين. لقد طُوِيت هذه المبادىء التي بناها الرسل والأنبياء في نواحٍ كثيرة من الأرض ونواحٍ كثيرة من الحياة، ولدى الكثرة الغالبة من البشر. وإن بقي شيء فبقيت الشعائر لدى بعض الناس، أو الشعارات لدى آخرين، أو العواطف والأماني لدى الكثيرين. وغاب العمل المنهجيّ من عند أهل الحق وغلبت الغفوة!

إن ردود الفعل كانت ولاتزال ظاهرة بيّنة في جوّ تتزاحم فيه المصالح المادية، ويثور الصراع عليها، وتُرتكب الجرائم من أجلها. لقد امتدت ردود الفعل إلى أجواء السياسة والاقتصاد، وغابت القيم والمبادىء، ولم يبق إلا زخارف وزينة كاذبة خادعة، من خلال تصورات محصورة في الدنيا وزينتها، معزولة عن الآخرة.

(٣)
النظـام الديمقراطي
وليـد العلمانيـة وحامـل شـرورها

لقد كـان النظام الديمقـراطي وليد العَلمانية. العَلمانية تصّـور للكون يأخذ بـالحياة الدنيا وحدها وبالمادة، والديمقراطية نظام سياسي وإداري.

ولقد جـاء النظام الديمقـراطي ليوفر درجة متفلتـة من الحرّية الفرديـة في ميادين، وحريـة موجهة في ميـادين أخرى، وحريـة مغلقة في بعضها. فـالحرية الفرديـة متفلتة في ميادين الخمر والفاحشة وغيرهما. وهي موجهة في حرّية الرأي، حين تسمح لك أن تبدي رأيك في بعض القضـايا من خـلال الإعلام أو من خـلال المظاهرات، ولكـن لا هذه ولا تلك ترتقي لمستوى صياغة القرار. إن صياغـة القرار تتخذ شكلين: شكلا ظاهرياً يخضع لأصوات ورفـع أصابع وغير ذلك من الإجـراءات الشكلية، وشكـلاً باطنياً حيـث يُتَّخذ القرار من القـوى المتحكمة التي بيدهـا زمام الأمور، والتي تملك القـدرة والخبرة في إخراج المسرحية مستكملة فصولها كلها.

في نظام الانتخـابات تصرف أمـوال طائلة كبيرة جـداً على تغطية نفقـات الدعـاية ومسيرة حركتهـا. وتكون الأمـة ومصالحهـا الحقيقية أحقَّ بهذه الأمـوال التي تهدر هدراً في مسالك غير نظيفة.

ونظام الانتخـابات، كما نـراه في الولايـات المتحدة الأمـريكية وغيرهـا، هو أقـرب مـايكـون لمهرجـان تعلن فيـه فضـائح المرشحين بصـورة متدنيـة، فضـائح تمس الشرف والبيوت والمال والعلاقـات. وحسبك ما نشره الإعلام الأمريكي مـن فضائح تمس «بوش» و«كلينتون»، كلُّ منهما يفضح الآخر على شاشات التلفزيون ووسائل الإعلام الأُخرى في حملة الانتخـابات بينهما. ولماذا كان المجتمع كلـه بجميع أجهزته ومـؤسساته سـاكتاً عن هذه الفضـائح، وظلت مطويّـة حتى جاء هـذا المهرجان؟! يضـاف إلى ذلك أن كثيراً من الـذين ينتخِبـون لايعرفـون معـرفة أمينـة الشخص الـذي ينتخبـونه. فمنهم مـن تسوقـه الدعايات، ومنهم من تسوقه التعليمات الحزبية، ومنهم من تدفعه الأموال.

والديمقـراطية، وهي الصورة السياسيـة والإدارية للعَلمانيّة، أو هي صورة ممـارسة الحكم وإدارته، تقـدّم من خلال مـؤسساتها وما تطـرحه من شعـارات مايكفي لتخـدير الشعوب تخديـراً كامـلاً، ثمّ توقظـه حين تحتاج منـه جهداً أو نشاطـاً. إنها تبلغ ذلك من خـلال طـوفـان الإعـلام، ومن خـلال لهيب الشهـوة الجنسيــة التي تشعلهـا العَلمانيـة والديمقـراطية ليل نهار، ومن خلال الخمـور والمخدرات، ومن خلال استغـلاله في عمل متواصل.

وكـذلك فإن الديمقـراطية لاتكـاد تترك لـلإنسان وقتـاً يتحرر فيـه من التخديـر، بالوسائل التي عـرفناها، ليفكر ويتأمل. إن الإنسان يجري لاهثاً مـن الصباح الباكر حتى المساء، ليعود منهكـاً لايكاد يتناول لقيمات أو ينظر إلى التلفـاز، أو يقلّب صحيفة، حتى يأخذه النوم. أما يوما الإجازة فإنهما يُستهلَكان بالخمور واللهو والسهر.

والإنسان في ظـل الديمقـراطية مربـوط بخيوط نـاعمة تحكم وضعـه المالي، حتى يكـون بيته وأثـاثه وسيـارته في كثير من الأحيـان رهينة النظـام الاقتصادي الـربوي الـذي يستغل قوانين التقسيط المحكمة الصياغة، ليظل على مدى طويل أسيراً لها.

وإن كانـت الديمقـراطية في العـالم الغربي تتميَّـز بشيء فهو النظـام الإداري الذي يسهّل الإجراءات على المواطن تسهيـلاً كبيراً، يسهلها على المواطن الـذي شغلته في معظم وقته، فيرضى بهذه التسهيـلات الحقيقية، فلا يعـود يسأل عن كامل حقوقـه التي شرعها الله له ونسيها هو، ولا عن مسؤولياته التي سيحاسَب عليها بين يدي الله.

والمسلم حين ينتقل من موطنه إلى العالم الغـربيّ يسحره النظام الإداري الذي يفتقد مثله في معظم اقطـار العالم الإسلامي، حيث تكـون التعقيدات الإدارية وصعـوباتها أهم مايستنفـذ وقته في كثير من الأحيـان. فيتأثر بما يـرى من سهولة ويسر لمعـاملاتـه في العالم الغربي، ويقارن ذلك بما يعانيه من صعوبات في عالمه العربي والإسلامي، ويتأثر بالتطور العلمي كذلك، فلا يعود يلتفت إلى المفـاسد وَأمواجها، ويحسب أن الديمقراطيـة توفر له

ما لا يوفّره الإسلام، فيقع في مغالطة كبيرة يجعل فيها مسؤولية تقصيره هو وأمثاله، ومسؤولية الفوضى الإدارية والتخلّف العلمي، على الإسلام، ويبرىء هو وغيره أنفسهم من المسؤولية، ويبرّئون الطغاة والمجرمين في الأرض، الذين أفسدوا في الأرض، وأفسدوا أقطارا شتى وشعوباً شتى، وعملوا كلّ جهودهم لتبقى هذه الشعوب متخلّفة غافية مخدّرة. إن المسؤولية كلها تقع على الغافلين أولاً ثمّ على المستكبرين الظالمين الطغاة.

ولكن سنة الله في الحياة ستمضي وينال الظالمون والغافلون العقابَ الحقَّ من الله، ويستبدل الله بالغافلين قوماً آخرين.

والديمقراطية فلسفتها العَلمانيّة تحجر على الدين في الكنائس ولا تريد له أن يتدخل في شؤون الدولة من تربية وتعليم، وسياسة واقتصاد، واجتماع وعلوم، وأدب وثقافة. ولكنها حين تحتاج الدين ليكوّن رجالهُ حركاتٍ تنصيريةً تغزو البلاد الأُخرى، لتكون هذه الحركاتُ ممهّدةً للغزو الثقافي والفكري والعسكري، شأنها في ذلك شأن الشركات التجارية، فإنها، أي الديمقراطية، تُخرج الدين من الحَجْر وتستغله لتوفر الفرصة للمجرمين كي يحققوا أطماعهم وعدوانهم ونهبهم لثروات الشعوب. وإنها تستغلّ كل شيء في سبيل هذا الهدف الأعلى لها.

يعتبر «فوكوياما» في كتابه: «نهاية التاريخ والرجل الأخير» أن الديمقراطية هي نهاية التاريخ التي تنتهي إليها الشعوب كلها، إذا بقيت أمريكا محافظة على عناصر بقاء الديمقراطية. لقد أغفل «فوكوياما» سنن الله في الحياة والكون، لأنه أعلن تجرده من فكرة الألوهية والدين، وتجرّد فكره وتصوراته كلها من ذلك، حتى اعتبر الإسلام خطراً حقيقياً على الديمقراطية.

نطمئن «فوكوياما» أن نهاية التاريخ البشري على الأرض يحدِّدها رب السموات والأرض، الله الذي لا إله إلا هو، وستكون النهاية هي تصفية الحساب مع المجرمين الذين أجرموا في الحياة الدنيا، ليلقيهم الله في جهنم جزاءً وفاقاً، وليُدْخلَ المؤمنين جنات النعيم. ويومها يرى «فوكوياما» هول جريمته فيما أعلنه من كفر صريح في كتابه المذكور،

وفيما دعا إليه، حتى إذا أراد التوبة لم تعد تنفعه التوبة[1].

الديمقراطية تحمل عوامل انهيارها في داخلها، وستنهار قبل نهاية التاريخ بكثير. ستمضي عليها سنن الله كما مضت على من قبلها، ويومئذ سيتلفّت المخدوعون والغافلون ليروا آيات الله البيّنات وسننه الماضية كيف تأخذ الظالمين المجرمين مهما امتدّ أمرهم حيناً من الزمن.

(٤)

ضياع حقوق الإنسان

بين الظلم والتخدير

من أهم الشعارات التي تطلقها الدول العَلمانيّة ومؤسساتها شعار حقوق الإنسان. ولا تكاد تجد شيئاً مسحوقاً في عصرنا الحالي مثل الإنسان، حيث تضيع حقوقه تحت زخارف الشعارات وبين مطارق القهر والظلم والعدوان، أو بين وسائل التخدير التى تطورت كثيراً على أيدي العَلمانية.

إذا أخذت أي دولة من الدول الكبرى التي تدّعي أنها حامية لحقوق الإنسان، وتتبعت مسيرتها، لوجدت أنها ارتكبت أقسى الجرائم في حَق الإنسان.

الاتحاد السوفياتي سابقاً وروسيا حالياً: سل صحارى سيبيريا كم من الملايين هلكوا فيها، وانظر كم من الشعوب أُذِلَّت وسُحِقَتْ سحقاً. وهذه روسيا اليوم انظر ماذا فعلت في الشيشان. فأين حقوق الإنسان؟

الولايات المتحدة الأمريكية: أخذت المسلمين من أفريقيا وساقتهم ليعملوا عبيداً في مزارعها في أمريكا. أبادوا سكان أمريكا الأصليين -الهنود الحمر-، ألقت القنابل الذرية على هيروشيما وناجازاكي -دعمت اليهود في اغتصاب فلسطين، وغير ذلك من المظالم الممتدة في تاريخها.

(١) يراجع كتاب التعامل مع مجتمع غير مسلم من خلال الانتماء الصادق إلى الإسلام-للمؤلف- من أجل تفصيلات أوسع عن كتاب «فوكوياما».

انكلترا ، فرنسا ، ايطاليا وغيرها : كم سحقت انكلترا حقوق الإنسان في فلسطين والهند وغيرهما ، وفرنسا في الجزائر وشمال أفريقيا ، وايطاليا في ليبيا ، وبلجيكا وهولندا وألمانيا . إنك لاتكاد تجد دولة لم تسحق حقوق الإنسان .

وما زال الإنسان يُسحق وتسحق حقوقه في ظل العَلمانية والديمقراطيّة والاشتراكية وغير ذلك من الشعارات . وحسبك أن هذه المبادىء أفقدت الإنسان حقّه الأول والأكبر وهو حماية فطرته التي فطره الله عليها . لقد دمّرت الحضارة العصرية فطرة الإنسان ، فاضطربت الموازين والمفاهيم ، وامتدت الجرائم . وسيكون لهذه القضية فصل خاص إن شاء الله .

إن العصر الحالي يكاد يكون عصر الجريمة ، فُقد فيه الأمن وشُوِّهت العدالة ، وتحجرّت الحرّية على تماثيل حجرية في أمريكا ، ونقوش على الجدران في فرنسا .

أصبحت الجريمة ترتكب علانية في الشوارع ، الحدائق ، البيوت ، المطاعم ، الملاهي ، الدوائر والمؤسسات .

أصبح خطف الأطفال أو النساء أمراً منتشراً ، لارتكاب جريمة اللواط وجريمة الزنا .

تمزّقت الأُسْرة . ففقد الابن حقّه في حنان الوالدين ورعايتهما ، وفقد الوالدان حقهما في بِرِّ أولادهما .

كيف تقوم للإنسان حقوق إذا أصبحت المادة والنظريات المادية والفلسفات المادية هي التى تحكم وتشرِّع .

وترد تفصيلات أوسع في الدراسة الخاصة بحقوق الإنسان . ولكننا هنا نوضح أن «حقوق الإنسان الوضعية» تولَّدت من العَلمانية وخرجت منها وسارت معها في تناقضاتها وموازينها المختلفة ومكاييلها المتفاوتة غير العادلة . وكأنها عادت بالبشرية آلاف السنين إلى الوراء ، إلى فسَاد مدين قوم شعيب :

﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يـٰقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ولا

تنقصوا المكيـال والميزان إني أراكم بخير وإني أخـاف عليكم عذاب يـوم محيط* ويـقوم أوفـوا المكيال والميزان بـالقسط ولاتبخسوا الناس أشيـاءهم ولاتعثوا في الأرض مفسدين* بقيّت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ﴾

[هود: ٨٤-٨٦]

هذه أسس في حقوق الإنسان ضيعها قوم شعيب، وضيّعتها العلمانية اليوم:

أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، ولا تنقصوا المكيال والميزان.

ولاتبخسوا الناس أشياءهم.

ولا تعثوا في الأرض مفسدين.

(٥)

التعامل بين الدول والشعوب على أساس المصالح المادية والتنافس عليها

لقد دفع التصور العَلماني الدولَ والشعوب إلى التنـافس المدمّر على المصالح الماديّة، وإلى الصراع المستمـر على الغنـائم. وأحسن أحـوال الصراع كـا ن يسمى «الحرب البـاردة»، وأرسى التصـور العَلماني قـاعـدة التعـامل بين الدّول والشعـوب على أسـاس المصـالح الماديـة وحدها.

ومن خلال هذه القاعدة للتعامل كان التنـافس والتآمر يمثلان طبيعة العلاقات في حـالات السلم المؤقت والعـلاقـات الـوديّـة. ومـن هـذا المنطلق دار الصراع بين الاتحاد السوفياتي والغرب سنين طويلة، استنفذت أموالاً وجهوداً طائلة، ودفعت كل دولة إلى أن تنافس الأخرى في ميادين التسلح بالـدرجة الأُولى خلال الحرب الباردة، حتى أصبح هذا التنافس يهدد الأمن العالمي. ولم تنفـرج الأزمة إلا بانهيار الاتحاد السـوفياتي ولكن ليستمر النهج العَلماني هنا وهناك ليهدّد عند هذه شعوباً ودولاً، وليهدد عند تلك شعوباً ودولاً.

إن «السياسة الميكيـافيلية» كانت سائدة في الساحة الـدولية، مهما رفعت شعارات

وزخارف. فلم يقتصر التنافس على الدولتين العظميين وإنما ساد بين الدول جميعها على قدر حجم المصالح ومستواها.

ومن هنا تبدو لنا عظمة الإسلام وبركة الإيمان والتوحيد، حين يُرسي الإسلام قاعدة أُخرى للتعامل بين الشعوب والدول، قاعدة تشرق من خلال تماسكها مع المنهاج الرباني. وتبيّن لنا سورة الحجرات هذه القاعدة العظيمة:

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ [الحجرات: ١٣]

ما أعظم الفرق بين هذه القاعدة الربانية المشرقة بالحق والخير وبين قاعدة التنافس على الدنيا وعرضها.

العَلمانية تعظم من شأن الدنيا وتلغي الآخرة من تصورها، والإسلام يُعظّم شأن الآخرة ويهوّن من شأن الدنيا ويوازن موازنة عادلة كريمة.

(٦)

غياب التصور الإيماني للاقتصاد

وسيطرة النظام الرأسمالي الربوي حتى اليوم، والنظام الشيوعي لفترة

مع الثورة الصناعية التي شهدتها أوروبا برزت الطبقة الرأسمالية من خلال التصور العَلماني في الصناعة والتجارة والسياسة وفي كل ميادين الحياة. ومع بروز الطبقة الرأسمالية ترسّخ النظام الرأسمالي للاقتصاد القائم على الربا. فتكدّس المال في جيوب، وفرغت منه جيوب، وظهرت طبقة المترفين الظالمين المعتدين. ولم يكن نظام الربا جديدا على الناس، ولا كان أمر الترف والظلم والعدوان جديداً كذلك. لقد اشتهر اليهود في التاريخ أنهم عُبّاد الربا، وأصحاب الاستغلال القذر للنشاط الاقتصادي.

لقد كان النظام الربوي الذي نشره اليهود في اقتصاد الجزيرة العربية من أهم المشكلات التي جابهها الإسلام. ومضت الدعوة الإسلامية في مراحل منهجية يقودها النبي الخاتم محمدﷺ يرعاه الوحي المتنزّل عليه، حتى قضى على الربا ونظامه قضاءً تاماً، وأعلن ذلك في خطبة حجة الوداع، ونزل الوحي الكريم آيات بيّنات تحرّم الربا تحريماً أبدياً.

واشتهر اليهود بالتعامل بالربا في أوروبا حتى أشار إلى ذلك الشاعر الانجليزي شيكسبير في مسرحية «تاجر البندقية» التي تعرض قصة التاجر اليهودي المرابي تشايلوك.

لقد كان من أهم آثار الثورة الصناعية والنظام الاقتصادي الربوي استغلال المرأة وإنزالها إلى ميدان العمل في المصانع وغيرها، لاستغلال أنوثتها، واستغلال جهدها بالثمن البخس، مما أثر كثيراً في النظام الاجتماعي وفي انحلال روابط الأسرة مع الأيام، وتفلّت الزوج والزوجة والأبناء والبنات، وانتشار الزنا واللواط ومفاسد الأخلاق، والخمور والمخدّرات. وهذا كله أدى إلى اتساع الجريمة اتساعاً مذهلاً في مختلف طبقات الشعب، تحت شعار «الحرّية الفردية»، و«مساواة المرأة بالرجل».

لقد أصبحت «الحرية الفردية» في هذه المجتمعات مصدراً من مصادر تخدير

الشعوب، كما أصبح النظام الاقتصادي الرأسمالي يمسك بعنق الإنسان فيه ويشدُّه برباط من حرير، يستطيع أن يخنقه في أي وقت يشاء، من خلال شركات التأمين والتقسيط وغير ذلك من الوسائل التي تتم في حماية القانون.

لقد أصبحت الشركات والنصوص القانونية والنظام الاجتماعي ومناهج التربية ووسائل الإعلام والنظام الإداري، لقد أصبحت هذه كلها تضع الإنسان تحت سيطرة قاهرة ظالمة مجرمة، يتمّ إجرامها حيناً بأيدي ناعمة وحيناً بأقسى أنواع الوحشية، تتخلى عن الرحمة وتسحق الإنسان وتسحق الشعوب.

ولقد كانت ردّة الفعل لمظالم النظام الرأسمالي عنيفة، ردة فعل حملت النظرية المادية الجدلية والمادية التاريخية لتنادي بديكتاتورية الطبقة العاملة «البروليتاريا»، النظرية التي انطلق بها أصحابها إلى الثورة الروسية وقيام الاتحاد السوفياتي، ليستبدل بظلم الرأسمالية ظلماً أشد. ونكتفي هنا بالإشارة إلى دور اليهود في الثورة ضد القيصرية ونفوذهم في الاتحاد السوفياتي، بالإضافة إلى نموّ نفوذهم في بلدان النظام الرأسمالي، كما سنتحدّث عنه فيما بعد، وشاركوا كذلك في تحطيم الاتحاد السوفياتي عند سقوطه.

بقيت البشرية خلال هذه القرون تخضع لهذين النظامين الاقتصاديين، يمرّان بأزمات اقتصادية بعد أزمات، أزمات يتحمل لهيب نارها الشعوب وحدها، ولا يتحملها الذين كانوا السبب في حدوثها. وغاب حكم الإسلام، ولم يتقدّم المسلمون بنظام اقتصادي غير ربوي جديد، ليحلّ محل هذين النظامين. وأنّى لهم أن يفعلوا ذلك وقد وهنت القوى فيهم شيئاً فشيئاً، حتى امتدت غارة الغرب على العالم الإسلامي فزادته ضعفاً وتمزيقاً.

ولقد قام للنظام الاقتصادي الرأسمالي مؤسسات مالية ممتدّة في الأرض، يزداد نفوذها وامتدادها مع الأيام، ويزداد امتصاصها لخيرات الشعوب وجهود الأفراد.

لقد أرسى الإسلام قواعد النظام الاقتصادي غير الربويّ في خطوطه العامة، لتقوم الأُمة المسلمة في وضع تفصيلات الممارسة الإيمانية لهذه الأسس والقواعد. ولكنّ هذا

لايتسنّى أبداً إلا بتطبيق منهاج الله في جميع ميادين الحياة: التربوية والسياسية والاجتماعية والعلمية والاقتصادية والعسكرية ، في الأمور الكبيرة والصغيرة، وفي علاقات الشعوب بعضها ببعض، وفي الأسرة والبيت، وفي الشارع، وفي الإدارة والتجارة، وفي المؤسسات والمعاهد، وغير ذلك.

لابد من هذا، لأن الاقتصاد الإسلامي مبنيّ على صفاء الإيمان والتوحيد، والإيمان باليوم الأخر، الإيمان الذي تنبع منه أسس كل نشاط وقواعده ومناهجه، لتتكامل كلها، ويدعم بعضها بعضاً.

لايمكن أن يلتقي النظام الاقتصاديّ الإسلامي مع نظام المجرمين ومع جوٍّ عَلمانيّ لايؤمن بالآخرة، أو يترك الإيمان بها لهوى الأفراد، ويشجع كلّ ماهو فساد مادي، وفجور خلقي.

إن مصحلة كل إنسان ، ومصلحة البشرية كلها، في الدنيا نفسها، وكذلك في الآخرة، هو في النظام المتكامل المترابط المتناسق، النظام الذي بيّنه الله لعباده في المنهاج الربانيّ فضلاً من الله ونعمة. فالذين يريدون سعادة الدنيا وثوابها فهي عند الله لا عند غيره، فليطلبوها من الله وحده لينالوها، وبغير ذلك لن ينالوا هذه السعادة الدنيوية أبداً، ولا السعادة في الدار الآخرة:

﴿من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعاً بصيراً﴾
[النساء: ١٣٤]

وكذلك :

﴿إنّما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً إن الذين تعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه تُرجَعون﴾
[العنكبوت: ١٧]

ولقد سبق أن تحدثنا في الفصل الخامس من الباب الأول عن الاختلاف الهام في ميدان الاقتصاد بين الإسلام والعَلمانية.

(٧)

استغلال التطور العلمي لحماية المصالح المادية وفتنة الناس

لقد أخذت «العلوم التطبيقية ونظرياتها» تنمو في حياة البشرية. وقد أعطاها الإسلام دفعة قوية وهو يدعو أبناءه إلى تدبّر آيات الله في الكون كله.

لقد كان الباعث على البحث العلمي عند المسلمين إيمانيّا، يدفعه القرآن والسنّة، ليكون هذا البحث عبادة لله وطاعة. وكذلك كان استخدام هذه العلوم في معظم أحيانها إيمانياً، يخضع لمنهج ربّاني يفصّله منهاج الله. وقد يقع خطأ هنا أو هناك في البحث أو التطبيق، أو يقع انحراف، إلا أن المنهج العام كان إيمانياً غنيّاً بالنظرة الإنسانية الشاملة، يحمل الخير للناس في عامة أمره.

وقد بنى الغرب في كثير من أبحاثه العلمية نشاطه على ما وصل إليه من المسلمين. وهذه سنّة الله في حياة الإنسان ونشاطه العلمي، حيث تنطلق كل أمة وتستفيد من حيث وصلت الأمة السابقة، لتساهم الأمم كلها ببناء الصرح العلمي، وإن كان هناك اختلاف بين أمة وأمة فهو في النية والباعث من ناحية، وفي طريقة استخدام العلوم من ناحية أخرى.

ومع القرن السادس عشر بدأت تشهد أوروبا نشاطها العلميَّ الذي أخذت الكنيسة تحاربه. ولكن هذا النشاط مضى نامياً حتى جاء القرن التاسع عشر فإذا هو يشهد ما يشبه الانفجار في انطلاق الدراسات والأبحاث والنظريات في ميادين شتى، واستمر نموه إلى مانشهده نحن اليوم في القرن العشرين.

ولقد شهدت الأمم المختلفة نمواً علمياً فيها، بغض النظر عن المعتقدات والمذاهب. لقد فتح الله أبواب العلوم للإنسان، للناس كافة، ابتلاء منه سبحانه وتعالى لعباده وتمحيصاً لهم:

﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات والأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾
[لقمان: ٢٠]

وكذلك :

﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون﴾
[يونس : ١٠١]

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنه الحق أو لم يكف بربّك أنه على كل شيء شهيد﴾ [فصلت : ٥٣]

وكذلك :

﴿كُلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً﴾
[الإسراء : ٢٠]

وترى سنة الابتلاء في آيات كثيرة نأخذ منها قبسات هنا :

﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير* الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور﴾ [الملك : ١، ٢]

وكذلك :

﴿إنّا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾
[الكهف : ٧]

لذلك لانستطيع أن نستدلّ بنمو العلم والإمكانات والصناعة على سلامة المعتقد. إنها سنن ربانية وحكمة لله بالغة. فقد أعطى الله «عاداً» قوة مادية كبيرة، وتطورت اليابان في ظل معتقد وثني، والاتحاد السوفياتي في ظل الإلحاد، وبعض الدول الأوروبية بين العَلمانية والنصرانية، وازدهرت العلوم في ظل الإسلام قروناً طويلة. وهذا ماتشير إليه الآيات الكريمة من سورة الزخرف:

﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون* ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون

وزخرفاً وإن كلُّ ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين﴾

[الزخرف: ٣٣-٣٥]

ولقد كان «العلم» باب فتنة للناس في بعض عصور التاريخ، حتى ظن بعضهم أنهم يملكون بالعلم مقدّرات الأمور، فيفرحون بما لديهم من العلم حتى يفاجئهم عذاب الله فيأخذهم بغته، فلا يقبل منهم توبة ولا أوبة. واستمع إلى آيات الله تصور لنا هذا الموقف:

﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبيّنات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ماكانوا به يستهزِئون* فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين* فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون﴾ [غافر: ٨٢ - ٨٥]

إن هذا الغرور والكبر المبنيّين على الوهم والظن هو أبرز نتائج العَلمانية. إن هذا الغرور طغى حتى دفع بعدد غير قليل من العلماء إلى الكفر الصريح، وإنكار الغيب، وإنكار وجود الله -سبحانه وتعالى عما يقولون.

ومن خلال هذا الكبر والغرور، والكفر الصريح أو الشرك، ساء استخدام العلوم في كثير من الميادين، حين انفصلت العلوم عن الإيمان والتوحيد، وانعزلت عن الدار الآخرة وارتبطت بالدنيا.

فأصبح العلم يُستخدم لصناعة الأسلحة المدمّرة التي تهلك الطفل والشّيخ والمرأة، وتحصد الألوف أو مئات الألوف. بل تجمّع من الأسلحة النووية مايكفي لتدمير الحياة على الأرض عشرات المرات! فأي جنون أكبر من هذا الجنون؟!

وعندما انتشر مرض الإيدز لم يستخدموا العلم ليهتدوا إلى الطريقة الصحيحة لمعالجته بإيقاف الفاحشة وتنظيم الحياة الجنسية بالزواج، بل استمرت الفاحشة تنمو وتتسع وتغذيها وسائل الإعلام والمجرمون في الأرض، وانصرفوا ليبحثوا عن علاج مادي كيماوي. ولقد بيّن الله لعباده العلاج الحق من هذا المرض وسائر الأمراض الجنسية:

﴿ولا تقربوا الزِّنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً﴾ [الإسراء: ٣٢]

السبيل الذي يتبعونه في الغرب اليوم هو سبيل العَلمانية المبنيّ على حرّية الفرد التي تشيع الفاحشة والزنا واللواط وغير ذلك. وأما سبيل الإيمان فهو ما تعرضه الآية الكريمة من سورة الإسراء: «ولاتقربوا الزنى...».

إلقاء القنابل الذرية على ناجازاكي وهيروشيما عمل إجرامي تدفعه العَلمانية من خلال تصوارتها اللادينية. جرائم الصرب الذين يتخفّون وراء النصرانيّة وهم كافرون بها بسبب جرائمهم، وهي جرائم تطلقها العَلمانية في الأرض كلها.

استخدام العلوم لصناعة الأسلحة البيولوجية نهج عَلماني مهما تخفّى أصحابه وراء شعارات وزخارف.

استخدام العلوم لعمليات القتل الجماعي وللاغتيال وللسرقات ولأي باب من أبواب الشر والفساد هو منطلق عَلمانيّ، ملأ الأرض اليوم فزعاً وجرائم وأمراضاً.

والإسلام يفرض على أبنائه ألا يستخدم العلم إلا للخير والصلاح وفي سبيل الله ونصرة الحق، بوسائل تخضع لمنهاج الله.

لقد كادت العَلمانية تقود العالم إلى الدمار بالعلم الذي منّ الله به على الإنسان.

لقد دفع التصور العَلمانيّ الدول والشعوب إلى التنافس المدمّر على المصالح المادية، والنزاع الدائم على الغنائم. وجعل التصَورُ العَلمانيُّ المصالح المادية وحدها هي أساس التعامل بين الأفراد وبين الشعوب.

وإلغاء الأسلحة النووية والبيولوجية وحده لايصلح حال البشرّية، ولايرفع الظلم، ولا يستقرّ به العدل. إن الذي تحتاجه البشرية من أجل سعادتها الحقيقية ومن أجل الأمن والعدل هو نهج متكامل يضبط النشاط في جميع ميادين الحياة. إنه المنهاج الربّاني، إنه دين الله الذي بعث به أنبياءه ورسله جميعهم الذين خُتِموا بمحمد ﷺ إنه الإسلام!

(٨)

الحروب الممتدّة وصراع المصالح المادية

لقد كانت الحروب وكثرتها من أبرز ظواهر العَلمانية. في القرن العشرين وحده عرف العالم أكثر من (١٣٢) حرباً كان عدد ضحاياها أكثر من (١٢٠) مليوناً من القتلى عدا المشوَّهين والمرضى والأَيتام والثكالى. أَضف إلى ذلك حروب القرن التاسع عشر والثامن عشر وما قبل ذلك، لترى مسلسلاً رهيباً من الحروب لم يكن من سبب لها إلا امتداد الأطماع المادية وتضارب المصالح الدنيوية وانفلات الزمام، وانفلات الأهواء والشهوات.

لم يشهد تاريخ البشرية مثل فتوحات الإسلام، حملت معها رسالة الله للناس عدلاً وأمناً وحرّية صادقة، وعبقرية تنظيم وإدارة نامية، وسماحة في التعامل مع الشعوب، واستقراراً دفع النمو والتطور. أما الحروب الأخرى فقد نزعت الاستقرار عن كثير من الشعوب ونزعت الأمن والعدل ونشرت فساد الأخلاق وأمدت الفاحشة بدعم قانوني، وساعدت الحروب على تقليص النظرة للآخرة، وامتداد النظرة الدنيوية. فأعطت بذلك دعماً للعَلمانية من ناحية، وأخذت هي دعماً من العلمانية من ناحية أخرى.

ليس من أهداف هذا البحث تعداد الحروب وتاريخها، فهي مفصَّلة في كتب التاريخ، ولكن الذي يهمنا في هذا البحث التأكيد على دور التصوّر العَلمانيّ في إلهاب الحروب في الأرض، ليعود هذا التصوّر يتغذّى منها بضلال بعد ضلال.

وكان من بين الحروب حروب دينيّة، لم تكن تهدف إلى نشر رسالة الله بين الناس، مثلما كانت تهدف الفتوحات الإسلامية، ولكنها كانت صراعاً بين مذاهب متضاربة متطاحنة، جعلت الناس تزداد ميلاً إلى العَلمانية، وتزداد نفوراً من الكنيسة والدِّين.

ولقد كشفت هذه الحروب شراسة الأطماع المادية وشراسة الصراع عليها. ولقد دفعت شراسة هذه الحروب تنمية صناعة الأَسلحة المدمرة حتى وصلت إلى السلاح النووي، وحتى تكدّس هذا السلاح بصورة رئيسة في أمريكا والاتحاد السوفياتي سابقاً. ثم

أخذ يمتد في عدد من الدول كان من أهمها دول أوروبا، ودولة اليهود والهند وكوريا الشمالية وغيرها. ثم أخذت أمريكا تحاول حصر السلاح النووي ومنع انتشاره ومنع صناعته. ولكنها هي والاتحاد السوفياتي ظلاّ يحتفظان بنسبة كبيرة من مخزون السلاح.

لقد بلغ مخزون السلاح النووي مايكفي لتدمير الكرة الأرضية كلها مرات ومرّات، واندفعت الدولتان الكُبْرَيان في صناعة الأسلحة المدمرة هذه دون أن يكون لأيّ منهما ضابط أو كابح يكبح جماح أطماعهما. حتى أدركتا حقيقة الخطر الرهيب على البشرية كلها، فأخذتا تضيّقان على الدول الصغيرة. أما دولة اليهود التي تمتلك السلاح النووى فتتم التغطية عليها، مما جعل سياسة السلاح سياسة متناقضة تدفعها الأهواء دون توافر ميزان عادل أمين يخضع له الجميع، فظلت المصالح المادية هي العامل الرئيس الذي يوجه هذه السياسة.

حين أصبح التصور دنيوياً عَلمانياً معزولاً عن الآخرة، لم يعد هنالك عجب من أن تثور الأهواء والمصالح، وتنطلق الحروب، وتتطور صناعة الأسلحة المدمّرة، فَيُسْحَق الإنسان تحت جميع الشعارات المزخرفة زخرفة كاذبة.

أما الفتوحات الإسلامية فقد اختلفت في منحاها وأهدافها وقوانينها عن تلك الحروب العَلمانية. إنها حملت رسالة الله إلى الناس، ووفرت لهم العدل والأمن والحرية، ذلك لأنها نابعة من تصور إيمانيّ يربط الدنيا بالآخرة.

(٩)
قيام المؤسسات الدوليّة
التي تدعم وتحمي مصالح المعتدين المجرمين

لقد تطورت أطماع المجرمين الظالمين المعتدين في الأرض، وتضاربت العلاقات وتشابكت، وامتدت المظالم واتسع العدوان، حتى رأى قادة هذه الدول والفئات الظالمة ضرورة إيجاد منظمات دولية يتحكم فيها العدد القليل في استغلال العدد الكبير تحت

شعارات القانون الدولي الذي بنته المصالح والمطامع . فقامت عصبة الأمم التي تحولت إلى هيئة الأمم المتحدة ومجالسها ولجانها.

وقامت السوق الأوروبية المشتركة، وقام حلف الأطلنطي في أوروبا الغربية وحلف وارسو في أوروبا الشرقية.

وقامت منظمات وهيئات ولجان كثيرة. فمن هيئات رعاية الطفولة، إلى هيئات حقوق الإنسان، إلى رعاية الأمومة. والغريب أنّه لم تقم هيئات ولا لجان لرعاية الأُبوّة، كأن الأبوة لاتستحق الرعاية ولا التكريم.

والأغرب من ذلك أن تقوم لجان لرعاية الأمومة في الوقت الذي جعلت فيه العَلمانية من المرأة سلعة تضيع في متاهات العمل والوظائف والجنس، لاتكاد تفرغ فيه لأمومة أو طفولة أو أي رعاية.

كيف تُرعى «الأمومة» إذا كانت الأُسرة قد تقطعت حبالها وتفرقت أهواؤها، والزوج يبحث عن خليلات خارج بيت الزوجية، والزوجة تبحث عن عُشاق لها خارج بيت الزوجية، والأطفال لايكادون يرون والديهم إلا لحظات الطعام إن توفّرت؟! والقانون والنظام يشجع ذلك ويحميه! هذه اللجان دليل واضح على أنها لاتقصد حقيقة الوفاء لشعاراتها، إذ لا مكان لتحقيق هذه الشعارات، ولكن الشعارات تؤدّي دوراً آخر، هو دور التخدير والتمويه، وتوفير الفرصة للتغطية على جرائم القائمين على هذه اللجان.

لقد يسّرت هذه اللجان ومايُرافقها من إعلان ودعاية الفرصة للمجرمين ليمضوا في جرائمهم، والفرصة للتغطية عليها.

أين حقوق الإنسان في ظل لجان حقوق الإنسان؟! لقد مُسِخت حقوق الإنسان في أجواء هذه المنظمات العالمية حتى تحوّلت إلى المطالبة بالإفراج عن سجين، أو حماية رجل فاسق معارض لدولته، وتركت الجرائم الواسعة في إبادة الآلاف المؤلفة من الرجال والنِّساء والأَطفال.

أين حقوق الإنسان في عمليات الإبادة في المسلمين في الأندلس تقودها محاكم التفتيش، أو في الحروب الصليبية والمجازر التي أدارها الصليبيون في القدس؟!!

أين حقوق الإنسان في البوسنة والهرسك وعمليات الإبادة للمسلمين فيها تحت سمع وبصر الدول الكبرى والصغرى والمنظمات الدولية، وتحت سمع وبصر بطرس غالي الأمين العام للأمم المتحدة الذي لم يرَ ضرورة التحرّك لوقف عمليات الإبادة في المسلمين في البوسنة والهرسك ولا في غيرها، ولكن قرّر سرعة تحرك قوات الأمم المتحدة لحماية الكروات الكاثوليك؟!

أين حقوق الإنسان حين رأى الأمين العام لهيئة الأمم المتحدة عدم تطبيق قرارات الأُمم المتحدة التي صدرت ضد إسرائيل وضد جرائمها؟!

أين حقوق الإنسان حين أُلقي الشعب الفلسطيني خارج أرضه -أرض فلسطين-، وحُمِلت مئات الألوف ثم الملايين من اليهود الروس والألمان وغيرهم من اليهود الذين لا علاقة لهم بفلسطين لامن حيث التاريخ ولا من حيث الدين، حُمِلَ هؤلاء الغرباء المعتدون إلى فلسطين، لتحميهم المنظمات الدولية؟!

كلّ يوم تُنتَهَك حقوق الإنسان في الأرض كلها، ولايتحرّك أحد لحمايتها، مادام المستكبرون - كما سمّاهم الله في محكم كتابه، مترفين في ملذاتهم، متخمين على موائدهم؟!

أين حقوق الإنسان والحرية والأمن والعدالة والأخلاق حين يعلن مؤتمر روما الدولي لمكافحة الجوع في العالم أن عدد الجوعى (٨٤٠) مليون جائع، وأن الدول ستسعى لتخفيض العدد إلى النصف مع حلول عام ٢٠١٥م. وحين وصف وزير الزراعة الأمريكي «دان جليكمان» وجبة العشاء التي كان قد تناولها قبل قليل من بدء الحوار معه على هامش المؤتمر، قال: كانت وجبة العشاء مؤلفة من أربع مراحل، من أطيب المأكولات الإيطالية التي حفلت بها أيام المؤتمر الخمسة، الذي انعقد تحت شعار: الغذاء للجميع! ولكن شهدت هذه الأيام الخمسة موت (١٧٥) ألف إنسان جوعاً حسب أرقام

المنظمة العالمية. إلا أن المؤتمر حين أعلن عدد الجوعى لم يعلن معه عدد المتخمين!

وإذا كان مؤتمر روما الدولي لمكافحة الجوع درس هذه القضية، قضية الجوعى، ودرس أسباب ذلك وكيفية المعالجة، فإنه أغفل السبب الحقيقي لوجود هؤلاء الجوعى وأغفل الطريقة المثلى لحلّ هذه المشكلة. لقد أغفل أو تغافل ذكر السبب الرئيس وهو وجود عدد من المتخمين الذين أكلوا أكثر من حقهم حتى أتخموا، وحتى أكلوا حقوق غيرهم فبات غيرهم جائعاً، واغفلوا طريقة الحل المثلى وهي إرجاع الحقوق إلى أصحابها!

وخلاصة القول أن المنظمات الدولية قامت لتأمين الحماية لمصالح المجرمين المعتدين الظالمين، من خلال العَلمانية وفكرها وقواعدها، ولم تقم لجمع البشرية على أصدق قيم ومثل، وعلى توفير الأمن والعدل.

أين العدل، والأرض تموج بالظلم أيتها المنظمات الدولية؟!

أين الأمن، والخوف يسود العالم كله مما يمتلكه العالم من سلاح مدمّر، ومما يموج فيه من مجرمين وطغاة ووحوش؟!

ولولا الطغاةُ المجرمون وظلمهم: لما كنتَ تلقي في الورى متسوّلا[1].

(١٠)

امتداد الحرب على الإسلام

مع العَلمانية امتدت الحرب على الإسلام وديار الإسلام والمسلمين. وأخذت الحرب صورة مكشوفة وصورة مخفية في الدسائس والمؤامرات.

لقد استنفذ الغرب طاقات كثيرة في حربه ضد الإسلام حرباً طويلة ممتدة قروناً طويلة دون أن تتوقف إلى يومنا هذا.

وفي هذه الحرب انهارت كل معاني الإنسانية التي يدّعيها الغرب بمذاهبه المختلفة، وانهارت القيم وجميع معاني العدل والحق والأمن والحرّية والمساواة.

(١) من قصيدة «زخرف وحقيقة» للمؤلف.

ولن نستعرض هنــا تفصيلات هذه الحرب، فإنها تحتاج إلى مجلّـدات. ولكننا نشير هنا إشارات سريعة لبعض ملامحها للتذكير بشرور العَلمانية وأخطارها وآثارها.

أعلن أكثر من كاتب ومفكر ومسـؤول أن الإسلام عدو يجب محاربته. ولا ننكر أن الإسلام عدوّ للظلـم والفساد والعدوان والإلحاد، وأن الإسلام جاء ليجفف منـابع الكفر في الأرض وليقرّ الإيمان والتوحيد، والأمن، والعدل، وحقوق الإنسان التي منحها الله له، والمسؤوليات التي أمره الله بالقيام بها.

والحرب ضد الإسـلام اليوم امتـداد للحرب التـي ابتدأت منـذ نوح عليـه السلام، وتجدّدت مع كل نبيّ ورسول، وانطلقت مع بعث محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين.

ولكن العَلمانيّة الحديثة طورت أساليب الحرب، وجمعت العُدّة والعدد وألقتها كلها في الميدان:

الغزو الفكري والثقافي والإعلامي.

حركات التنصير والمستشرقين.

الشركات التجارية.

العيون والجواسيس.

إشاعة الفاحشة والزنا واللواط والخمر والمخدرات.

إطلاق حرية المرأة والدعوة إلى مساواتها بالرجل في ميدان الفاحشة وغيره.

إقامـة المؤسسات التي تحمـل لافتة ظاهـرية كـالعلم والديـن وتقوم بتهديـم الأمّة حقيقة. كالمستشفيات والمدارس وأماكن العبادة.

محاربة اللغة العربية وتغذية العامية واللّغات الأجنبية.

عزل المسلم عن القرآن والسنة، وعن تاريخه.

تمزيق العالم الإسلامي .

إثارة الفتن بين كل بلدين ومحاولة إشعال الحروب بينها لتوهين قواها .

الغزو العسكري الذي يتخذ من كل ماسبق تمهيداً لحركته وانطلاقه بالأسلحة المدمرة المبيدة .

وهذه كلها تعمل من خلال مؤسسات ومراكز منتشرة في الأرض ، تخطّط وتنفّذ ، وتمدّها الدولة بكل عون ماديّ ومعنوي . ثم تدّعي الدول العَلمانية أنها توفّر حرية الأديان ، أو أنها ليست ضدّ الدّين . الحرب على الإسلام مستمرّة تقودها العَلمانيّة وتزيدها ضراوة .

هذه لمحة سريعة عن الحرب ضد الإسلام ، تحتاج إلى دراسات مستمرّة موسعة ، قدّمنا بعضها في كتب أخرى ، ونعرض بعضاً منها في فصول أخرى من هذا الكتاب ، وتمضي الدراسات الجادّة إن شاء الله مع جهود المؤمنين العاملين الباذلين .

● ● ●

وهنالك ظاهرة فريدة وأثر طارىء من آثار العَلمانية ، هو بروز النشاط اليهودي وانطلاقته على صورة مؤسسات سرّية وعلنية ، ثمّ نموّه ليبرز مع أواخر القرن التاسع عشر على صورة الحركة الصهيونية العَلمانية .

ويكون من أبرز نتائج هذا النشاط انقلاب في العلاقة التاريخيّة بين اليهود والنصارى ، ليُستَبْدَل بالعداء والصراع القديم تعاون عَلماني واسع .

هذا الموضوع سنجعل له باباً خاصاً في الصفحات التالية ، فإلى باب : التعاون النصراني اليهودي ، أسبابه ونتائجه :

(١١, ١٢, ١٣)

قضـــايا أخـــرى متعـــددة

(١١) التعاون النصراني اليهودي

(١٢) ظهور الصهيونية ومؤسساتها

(١٣) قيام دولة لليهود في أرض فلسطين المغتصبة بين الدعم الدولي والأمريكي

لقد ظهرت قضايـا خطيرة من نتائج العلمانية وآثارها، كان لها أبعـد الأثر في الواقع الدوليّ عامة والواقع الإسلامي. وإذا لم يستيقظ المسلمون فإن خطر هذه القضايا المذكورة أعلاه سيشتد ويكبر ويزداد تركيزه على العالم الإسلامي.

لذلك جعلنا لهذه القضايا المذكورة أعلاه بابا خاصاً هو الباب الرابع بعنوان:

«اليهــــود»

هـــم الطائفـــة التي كفـــرت من بـــني إسرائيـــل

الفصل الثاني

حجـــاب المـــــرأة المسلـمـة والعَلمانيـــــة

تثور في فرنسا منذ عدة سنـوات قضية حجاب المرأة المسلمة . وقد نشأت هذه القضية على أثر فصل طالبة مسلمة من مدرستها في فرنسا لأنها تضع الحجاب الشرعي الإسلامي .

وتحرّك المسلمـون في فرنسـا لمعالجة هـذه المشكلة على جميع مستـويات المسـؤولين . وصـدر قرار من إحـدى الجهات بأن الحجـاب الشرعي لايخالف القـوانين الفرنسيـة وظن المسلمـون أن القضية فـرجت . وإذا بالقـرار لاينفّـذ ، وتحال القضية إلى مستـويات عليـا لاستصدار قرار من البرلمان الفرنسي أو من رئيس الجمهوريّة بمنع الحجاب .

عنـدما قـامت «المشكلة» هـذه في فرنسـا أفردت مجلـة "Le Point" الفرنسيـة في عددهـا (١١٤٧) تسع صفحات للتحريض ضـد الحجاب[١] . وكان من بين مـاقالته : «إن الحجـاب يمثل زحف الإسـلام على المدارس الفرنسيـة ، وإن هـذا الـزحف جرثـومـة مدمّرة»!

وفي الـوقت نفسـه يسمح للراهبـات النصرانيـات ولنساء السيـخ ولليهود بلبـاس الرأس الخاص بدينهم ، وينطبق على هؤلاء المبدأ المزعـوم في العَلمانيّة -مبدأ حرية الأديان . أما إذا كانت القضية تتعلق بالإسلام ، فإن هذا المبدأ يختفي .

قضية الحجـاب للمرأة المسلمة تخيف القـوى العلمانية كلهـا . كيف يُسْمَح للمرأة بالـزنا والفجور كجـزء من حرّيتها الشخصيـة ، ولايسمح للمرأة المسلمة بـالحجاب ، أين الحرية الشخصية؟!

(١) الحياة : العدد ١١٦١٦ تاريخ ٥/ ٧/ ١٤١٥هـ (٧/ ١٢/ ١٩٩٤م) .

وفي تركيا أطلق رئيس الوزراء أربكان حرّية الحجاب للتركيات في الجامعات والمؤسسات. فثارت ثائرة الجيش التركي العَلماني ووجه تحذيراً إلى رئيس الوزراء نجم الدين أربكان رئيس الحكومة الائتلافية، وأصدر رئيس الوزراء السابق بولنت أجاويد تحذيراً من انقلاب عسكري. ونقل الجيش تحذيره إلى الرئيس سليمان ديمربيل عبر رئيس الأركان المشتركة، الجنرال إسماعيل حقي قارادايي(١).

وفي ثورة سنة ١٩١٩م في مصر، ملأت المظاهرات شوارع المدن المصرية ضد المحتل البريطاني، تهتف ضده وتطلب جلاءه. وكان من بين هذه المظاهرات، مظاهرة نسائية تقودها «صفية هانم» زوجة الزعيم المصرى سعد زغلول. وتجمع النساء أمام ثكنات قصر النيل، وهتفن بسقوط الاحتلال البريطاني وطالبن بجلاء البريطانيين. ثم خلعن كلهن الحجاب، ورمينه على الأرض وأشعلن فيه النار!(٢).

ماهي القضية؟! ما علاقة الحجاب بالمطالبة بجلاء الإنجليز وبالمظاهرة؟! لقد دخلت العَلمانية النفوس والصدور، وأصبح من أبناء أمتنا من يوفّر على العدو جهده ووقته، ويسهّل عليه الأمر. لقد كان نزع الحجاب بهذا الأسلوب ترسيخاً لبقاء الإنجليز، وحرباً على الإسلام.

وفي أفغانستان! فتن بعض حكامها بالفساد الغربي. وأخذت هذه الفتنة تبرز مع حبيب الله خان (١٩٠١م- ١٩١٩م) ثم أمان الله خان (١٩١٩م- ١٩٢٩م)، ثم ظاهر شاه الذي بدأ بالحرب العلنية ضد الإسلام مبتدئاً بالقضية ذاتها، قضية الحجاب. ففي مؤتمر شعبي عام داس ظاهر شاه حجاب المرأة المسلمة أمام الجميع، وأعلن انتهاء ماسماه بالظلام!

وعندما رفض أهل قندهار نزع الحجاب سيّر لهم جيشاً بقيادة خان محمد، فقتل من أهل قندهار العدد الكبير. أمن أجل نزع الحجاب يُقتَل الناس؟!

وفي إحدى مدارس العالم العربي، تجتمع الطالبات في ساحة المدرسة صباح ذات

(١) الشرق الأوسط: السبت ٢٣/ ٩/ ١٤١٧هـ، ١/ ٢/ ١٩٩٧م، السنة (١٩)، العدد (٦٦٤٠).
(٢) محمد قطب: واقعنا المعاصر (ص: ٢٥٨).

يوم من أيام سنة ١٩٥٤م- ١٩٥٥م، فيَنْزَعْن الحجابَ ويَدُسْنَه ويُمزّقْنه! والسؤال: من الذي يعمل في الظلام بصمت فيغيّر عقول الطالبات وقلوبهن؟!

وزعيم في بلد مسلم يصرّح مستهزئاً بالحجاب ويقول: أضروري أن تسير المرأة كالخيمة؟! وفي بلدان أخرى يُمنَع الحجاب على الطالبات في المدارس، وتعتدي بعض النساء المدرّبات على المحجبات في الشوارع لينزعن عنهنّ حجابهنّ! وتسنّ القوانين من أجل ذلك في بلاد إسلامية.

ويلتقي زعيم مع مجموعة من الفتيات المحجبات. فيعطيهنّ درساً في الأخلاق محوره نزع الحجاب عنهنّ ليُصبحن متحضّرات. وما كدن يخرجن من اللقاء حتى يقبل أحد الزبانية على إحدى الفتيات فينزع عنها الحجاب أمام الناس!

ماهذا الجنون وما قضية الحجاب ؟!

ألهذا الحدّ يبلغ الخوف والهلع والفزع في قلوب هؤلاء المجرمين من حجاب المرأة المسلمة؟!

لو لم يكونوا مجرمين مافزعوا أبداً! ولكنهم يخشون هذا الشعار الذي يرمز إلى الثبات على الحق والاعتصام بحبل الله، وعدم الاستسلام للباطل، ولا التنازل عن الحق ولا قبول المساومة.

إن فزع المجرمين المعتدين الظالمين من الإسلام، الدّين الذي يرونه حائلاً بينهم وبين أطماعهم العُدْوانيّة، وشهواتهم الإجرامية. فقد تعاملوا معه أكثر من أربعة عشر قرناً فوجدوه صلب العود، قويّ العزيمة، شديداً على الظالمين رحيماً بالمؤمنين.

وسيظل قول الله سبحانه وتعالى ماضياً أبد الدهر:

﴿... كَبُرَ على المشركين ما تدعوهم إليه....﴾ [الشورى: ١٣]

لاشك أنهم جبناء!

إن هذه المواقف تملأ قلوب المؤمنين طمأنينة وقوة وثباتاً، حين يرون الجبناء يفزعون

(١) مجموعة من أساتذة الفلسفة السوفيت: كتاب المادية الديالكتيكية - ترجمة ثلاثة أساتذة - (ص: ٢).

من الحجاب، فيعلمون أن هؤلاء المجرمين جبناء، لم تستطع الأسلحة الفتاكة التي يملكونها، ولا الجيوش الهادرة التي يبنونها، ولا حشد المنافقين أن ينزع من قلوبهم الخوف من المؤمنين العزّل، من الفتاة المؤمنة المحجَّبة التقية!

وعادت مجلة Le Point الفرنسية تطرح الموضوع من جديد في عددها ١٢٦٤ بتاريخ ٧/ ١٢/ ١٩٩٦م تحت عنوان: «الحجاب في مواجهة الجمهورية الفرنسية»(١). وذكرت «أن قضايا الحجاب تثير حفيظة كثير من المدرسين الفرنسيين الذين عبّروا عن امتعاضهم من التساهل المبالغ فيه من الحكومة تجاه قضايا الحجاب. والحكومة عاكفة الآن على صياغة قانون جديد قد ينال رضا أعضاء هيئة التدريس. وذكرت المجلة قصة نائبة رئيس بلدية «كالويرا يكوير» مع سيدة مسلمة ومحاولتها إقناع السيدة المسلمة بمنع ابنتها ذات التسع سنين من وضع الحجاب داخل قاعدة الدرس. وذكرت المجلة كيف أن المرأة الفرنسية أصيبت بالذهول وهي تفقد حجتها أمام قوة منطق السيدة المسلمة ومرافقتها.

ومما ذكرته المجلة أن منشور «بايرو»(٢) الذي صدر في شهر أيلول سبتمبر ١٩٩٤م نجح في تخفيض عدد المحجبات في المدارس من عدة آلاف إلى عدة مئات، أصبح الآن متجاوزاً لأن رئيس مجلس الدولة بادر إلى تسفيهه، ثم صدرت عن محاكم «نانسي» و «ستراسبورغ» سنة ١٩٩٥م عدة أحكام تقرُّ المحجبات وتلوم مديري المدارس الذين طردوا الطالبات. وأدانت محكمة نانسي الحكومة وأمرت بتعويض مادي مقداره خمسون ألف فرنك فرنسي لأسرة الطالبة التي فصلت. وحتى شهر أكتوبر سنة ١٩٩٦م تم إلغاء ٥٥٪ من قرارات الطرد.

لقد كشفت قضايا الحجاب في فرنسا أموراً كثيرة يجب الوقوف عندها:

(١) من مقال نشرته جريدة المحجة المغربية العدد (٦٣) تاريخ ا رمضان ١٤١٧هـ (١٠ يناير ١٩٧٧م) ترجمة أبي اسماعيل (بتصرف).

(٢) منشور بايرو: مذكرة وزارية أصدرها وزير التعليم الفرنسي «فرانسوا بايرو» تحظر ارتداء الحجاب في المدارس الثانوية باعتباره منافياً لعلمانية الدولة كما ذكر المقال المنشور في المحجة.

أولاً: التناقض بين ماتدعيه العَلمانية وحقوق الإنسان الوضعية من شعار حرية التديّن، وبين التطبيق العملي. وهذا التناقض أبرز بشكل واضح التناقض بين التصور الحقيقي للعلمانية وفكرها وموقفها من الإسلام وبين نصوص بعض القوانين الوضعية. هذا التناقض أدى إلى تضارب وجهات النظر لدى المسؤولين في فرنسا كما رأينا. ولكن الصحافة الفرنسية في خطها العام كانت ضدّ الحجاب الشرعي للمرأة المسلمة، وكذلك موجة الرأي العام الفرنسية كانت ضد الحجاب، مع وجود بعض المؤيدين لحق المرأة المسلمة في الحجاب.

ثانيا: التناقض في تطبيق المبدأ الواحد بين مختلف الديانات. فهنالك تساهل مع النصارى واليهود، وهناك تعقُّبٌ جنوني ضد الإسلام والمسلمين.

ثالثا: لم تتناول الصحافة في العالم الإسلاميّ هذه القضيّة تناولاً كافياً ليبرز أمام فرنسا غضبة العالم الإسلامي، وكذلك القوى العاملة في المجتمعات الإسلامية لم تتخذ خطوات تبرز غضبة المسلمين بسبب هذه المعاملة المهينة الظالمة.

رابعا: وكان بالإمكان استغلال هذه الحادثة على صعيد دولي لكشف عظمة الإسلام وعدالته وثبات تشريعاته في مصلحة الإنسان، ومن ثم الدّعوة الجادة إلى الله ورسوله وإلى الإيمان والتوحيد، بدلاً من الدعوات إلى تقارب بين الحق والباطل.

خامسا: ولكن كان مما يضعف موقف المسلمين في فرنسا أثناء مناقشة هذه القضية مع المسؤولين الفرنسيين هو أن القانون ضد الحجاب موجود في بلدان تنتسب إلى الإسلام، وأن هذه القوانين مطبقة بحزم وقوة فيها.

سادساً: كشفت هذه القضية عن إمكانية الحوار وإبداء الرأي والمناقشة في البلدان الغربية، والاعتماد على قوانين البلد نفسه بصورة لايجدها المسلم متوافرة في كثير من أقطار العالم الإسلامي. وهذه الظاهرة سببت فتنة في قلوب عدد من المسلمين وهم يقارنون بين مايجدونه في الغرب ومايجدونه في بلادهم المنتسبة إلى الإسلام.

ومع أننا لانقرّ هذه الفتنة، ولاتلك المقارنة، لأننا نقارن واقع الغرب وقوانينه مع

رسالة الإسلام وتشريعاته، لا مع واقع العالم الإسلامي، وندعو الواقع الإسلامي ليرتفع إلى مستوى رسالة الإسلام، فإننا في الوقت نفسه نقارن واقع العالم الإسلامي، وأي واقع آخر في العالم، مع الإسلام، حين نردّ كلَّ واقع إلى الكتاب والسنة.

وحين نرفض العَلمانية في الغرب والشرق، فإننا نرفضها في الوقت نفسه في العالم الإسلامي.

إن العَلمانية والديمقراطية صبّت كثيراً من التخدير في عروق الناس ودمائهم، حين غَشّت على أبصارهم بالشهوات والأهواء، حتى لايروا الدار الآخرة ولايفكروا فيها، وحصرت أفكارهم في الدنيا ومصالحهم فيها، وما عادوا يذكرون الموت إلا أنه حدث طبيعي تنتهي الحياة معه، ولا حياة بعده.

إن هذا الخدر جعل الناس ترضى بالعرض الرخيص الذي يُلقى لهم من المجرمين الظالمين الذين تصبُّ في جيوبهم وخزائنهم ثمرات جهد الناس وعرقهم وبلائهم.

ولكن بعض المسلمين لايجدون حتى هذا العرض الرخيص في بلادهم، فيفرون إلى أرض العَلمانية ليجابهوا خطراً جديداً يهدّد إيمانهم، وفتنة عارمة ملتهبة صارخة بالجنس والخمور والشهوات!

وهذه هي المحنة والفتنة وإنه ابتلاء من الله عظيم شديد، فعسى الله أن ينزل رحمته على عباده الصابرين ويمدّهم بالعون من لدنه، إنه نعم المولى ونعم النصير.

ومع أن قضية الحجاب استغرقت عدداً من السنين في فرنسا، ومع أنه دار حوار وجدال حولها، ونشط بعض المسلمين من أجلها، إلا أننا نخشى أن لايكون الغرب قد عرف حقيقة الحجاب الشرعي للمرأة المسلمة، ونخشى أن يكون ظنّ الغرب أن الحجاب هو قطعة قماش توضع على الرأس فحسب.

نخشى ذلك، ونخشى أن لايكون قد عُرف معنى الحجاب كله وحكمته، وأنه حجب الفتنة كلها بلباس المرأة كله لابقطعة قماش على الرأس، وبإيمانها وسلوكها، وبفكرها وعلمها. وكان من الواجب أن تكون هذه القضية مدخلاً للدعوة الإسلاميّة الواضحة الجادة. وكان يجب أن يعرف الغرب أن الحجاب جزء من تشريع ربانيّ لايحلّ التنازل عنه كما لايحلّ التنازل عن غيره.

فما قيمة الثبات على حجاب الرأس، إذا كان المسلم يتنازل عن شيء أخطر من الحجاب في ميزان الإسلام.

ماقيمة خوض معركة من أجل الحجاب وحده، وفي الوقت نفسه يبين بعضهم من خلال معركة الحجاب «أنه لاتعارض بين العَلمانية ومقصود الشريعة الإسلامية»، ويعلن آخرون «أنه لابد من إسلام منفتح يندمج فيه المسلم مع النسيج الثقافي والديني الغربي»، ثم تتوالى المحاضرات والإعلانات عن حسنات العَلمانية ويشارك فيها دعاة كثيرون.

إن الفتنة في المعتقد، في الإيمان والتوحيد، وفي حقيقة تصوره وفكره وممارسته أخطر بكثير من قضية الحجاب وحدها.

إن الذي لايدرك الفرق بين العَلمانية والإسلام، عليه أن لا يتحدث بإسم الإسلام، ولا أن يجعل من قضية الحجاب والضجة حولها شغلاً شاغلاً عن أخطار أكبر، ومسوّغاً لفتنة أشد.

وأخيراً، إن الحجاب الشرعي تشريع ربّاني ثابت في القرآن والسنة، ولكن الصليب الذي يتمسك به النصارى يبرأ منه عيسى والأنبياء كلهم، وهو من ديانة القرون الوسطى، وكذلك لباس الرأس عند اليهود يبرأ منه موسى وهو من ديانة عصور التحريف.

فيكف يُحترم مظهر من مظاهر الدين عند النصارى وعند اليهود بحجة أن هذا جزء من معتقدهم، وهو في الحقيقة افتراء وتحريف، وليس لدى النصارى نصّ من عيسى عليه السلام، ولا عند اليهود نصّ من موسى عليه السلام، ولايُحترم جزء من دين وإيمان ثابت بالنصوص القطعية.

إن المسلم حيثما كان قويٌّ بتمسكه بالكتاب والسنة كما جاء بهما محمد ﷺ بلسان عربي مبين. إن المسلم قوي بإيمانه وعلمه وممارسته الصادقة الأمينة، فإن فقد شيئاً من ذلك فإنه يفقد شيئاً من قوته، ولذلك نعرف من هنا سبب ضعف المسلمين وسبب هزائمهم.

ومهما حـاول المسلم أن يـرضي هـؤلاء بتنـازلـه عن شيء مـن دينـه، فإنـه لن يبلغ إرضـاءهم أبـداً حتى يكفـر أو يتنصَّـــر أو يتبع اليهـود، وفي جميع الحالات سيكـون أول ضحايا هـؤلاء، لأنهم كانوا أولاً يكرهونه ويحقـدون عليه وقد يحترمونه، وأمـا بعد التنازل فإنهم سيكـرهونـه ويحقدون عليـه ويحتقرونـه. إنهم كانـوا لايثقون بـه أولاً لأنهم يكرهـونه ويحقدون عليه، وأما بعد التنازل فإنهم لايثقون به لأنهم يحتقرونه.

وانظـر إلى التـاريخ، فلقـد كـان المسـاومــون والمتنـازلـون والمسـارعـون فيهم أول ضحاياهم، يرمونهم كما تُرْمى الجيفة النتنة، أو يقتلونهم ويخفونهم بألف وسيلة.

هؤلاء المتنـازلون يخسرون الـدنيا والآخـرة. والمسلـم الثابت على دينـه بإيمانـه وعلمه وممارسته، فإنه هو القويّ الذي يكسب الدنيا بطهارتها والآخرة بنعيمها.

الباب الرابع

اليهود

هم الطائفة التي كفرت من بني إسرائيل

الفصل الأول

موجـــز

لأصل اليهود وتاريخهم وطبائعهم

١ - أصل اليهود ولغتهم، والاختلاف حول تاريخ كتابة التوارة وتحريفها:

لايوجد خلاف اليوم بين العلماء على أن التوارة -العهد القديم- كُتِبت بعد موسى عليه السلام بعدة قرون، وخاصة الأسفار الستة الأولى التي تُنسَب الخمسة الأُولى منها إلى موسى عليه السلام.

ولا خلاف بين العلماء على أن التوراة بأسفارها المختلفة لم تكتب في عهد واحد، وإنما في أزمان مختلفة. فمنها ماكتب بين عامي (٨٥٠ق.م-٧٦٠ق.م)، في حين أنها تتحدث عن أمور تقول نصوصها إنها وقعت قبل (٢٠٠٠) سنة من ميلاد عيسى عليه السلام. ومنها ماكتب حوالى سنة ٦٢٠ق.م، ومنها ما كتب في عصور أُخرى.

ولا يوجد خلاف كذلك حول وجود نصوص متناقضة، وأخرى تقرب من الأساطير، وأن أساليب الكتابة مختلفة، وأنه وقع فيها تصحيح وتغيير، بالإضافة إلى القصص الكثيرة عن داود وسليمان وغيرهما من الأنبياء، القصص التي لاتليق بمقام النبوة ولا يتفق بعضها مع الحقائق التاريخية. وروايات عن خلق الكون تتناقض مع الحقائق العلمية. ومع ماورد في كتاب الله -القرآن الكريم.

ويوجد خلاف بين المؤرخين حول أصل اليهود. فمنهم من ينسبهم إلى الكلدان، ومنهم من يخرجهم من الساميين ويعتبرهم من الآريين مثل العالم الفرنسي «أدولف لودس : A. Lods». أما المصادر اليهودية فتزعم أن أصلهم بلاد الكلدان. وكذلك يختلف بعض العلماء حول لغتهم الأصلية.

ويرى كثير من العلماء استحالة الاعتماد من الوجهة التاريخية على كل ماورد في الأسفار من القصص والروايات عن العهود السابقة للقرن السادس قبل الميلاد.

وتتناقض المعلومات كذلك حول مجيئهم إلى فلسطين وإقامتهم فيها مع الشعوب الأخرى المقيمة في فلسطين[١].

وتصف التوراة نزوح اليهود إلى مصر وخروجهم منها بإيجاز شديد، لايتناسب مع طول الفترة التي يذكرون أنهم أقاموها في مصر وهي أربعمئة وثلاثون عاماً، وأربعون عاماً في صحراء سيناء، تحركوا بعدها إلى فلسطين.

٢ - اليهود في فلسطين :

ودام غزو اليهود لفلسطين مدة لم يتمكنوا خلالها من احتلال غير أَربع مقاطعات جبلية بسبب قوة مقاومة السكان الأصليين. وبعض النصوص تشير إلى أنهم كانوا يعيشون مع الكنعانيين، وبعضها يشير إلى أن بعض قبائلهم كانت تخضع للكنعانيين. ويرى بعض النقاد أن حكام فلسطين كانوا يستخدمون العبرانيين لمصالحهم الخاصة. ومن فحوى بعض القصص في سفر القضاة يتبيّن أن اليهود لم يتمكنوا من تثبيت أنفسهم في المناطق التي زعموا احتلالها، وأنهم كانوا معرّضين دائماً لخطر الطرد والتهجير منها[٢].

وعهد القضاة هو العهد من موت يوشع عليه السلام إلى قيام دولة لليهود في جزء من فلسطين. ويمتد هذا العهد ثلاثة قرون ونصف، عاش اليهود خلالها في المقاطعات الأربع دون أن يكون بينهم أي ارتباط لوجود السيطرة الكنعانية التي تعيق اتصال مناطق اليهود بعضها ببعض. فعادوا إلى الحياة القبلية، حيث تستقل كل عشيرة بشؤونها، وتختار «آلهتها»، وتتبع هواها. واختلط اليهود مع سكان البلاد الأَصليين، واقتبسوا عاداتهم وعباداتهم. ثم أخذ اليهود يحاولون جمع أنفسهم لما شعروا بأن السكان الأصليين لم يعودوا يرغبون بهم، لسوء سلوكهم وفسادهم. فكانت كل منطقة تختار واحداً منها يحكمها.وكانوا يسمونه قاضياً أو حاكماً[٣].

من هذا التاريخ الموجز نستطيع أن ندرك أن التوراة لم تُبيّن المهمة الرئيسة التي أُمروا

---

(١)س. ناجي: المفسدون في الأرض - العربي للاعلان والنشر والطباعة -دمشق- (ط: ٢) سنة ١٩٧٣م. (ص: ٩-٣٤).

(٢) المصدر السابق: (ص: ٣٤). (٣) المصدر السابق: (ص: ٣٥).

أن يحملوها في طريقهم إلى فلسطين، ولم تبيّن حقيقة رسالة موسى عليه السلام، وأن رسالته كانت الإسلام، ودعوته كانت إلى دين الله الواحد وهو الإسلام. ولم تبيِّن التوراة مابيّنه القرآن الكريم من أن بقاءهم في صحراء سيناء كان عقوبة من الله لهم، حيث كتب الله عليهم أن يتيهوا في الأرض أربعين سنة، لأنهم كانوا فاسقين.

والقضية الأُخرى التي تنكشف من القصص هي أنهم تخلّوا عن دعوة الناس إلى الإسلام، الدعوة التي انطلق بها موسى عليه السلام، والتي دخل بها نبيّ الله يوشع عليه السلام إلى فلسطين. ذلك أن اليهود انحرفوا في فلسطين عن دينهم الذي جاء به موسى، دين الإسلام، وأخذ الانحراف يزداد مع الأيام، وبرز هذا الانحراف أكثر مابرز في التحريف والتبديل والحذف الذي أدخلوه في التوارة، وكذلك في السلوك المنحرف الشائن الذي اتبعوه من غدر وتآمر وخداع.

ولقد ازداد الانحراف فيهم كثيراً، حتى بعث الله فيهم أنبياء ورسلاً كثيرين يدعونهم إلى دين الله، دين الإسلام. وتوالى فيهم الأنبياء وتوالى فيهم الانحراف حتى قتلوا أنبياءهم.

وبعد عهد القضاة يبدو أنه قام لليهود دولتان على جزء من أرض فلسطين، دولة «يهودا» ودولة «إسرائيل»، يدور بينهما التنافس والصراع، ويدور الصراع كذلك بين اليهود وبين الشعوب الأصلية الفلسطينيين والكنعانيين. وكأن اليهود تخلّوا عن مَهمَّتهم الحقيقية من دعوة النّاس إلى دين الله الذي جاء به موسى عليه السلام، ودعوتهم إلى الاستقامة عليه. فشغل اليهود بالصراع على الدنيا والتنافس عليها.

فبعث الله طالوت ملكاً عليهم يقودهم إلى الجهاد في سبيل الله. فنكص الكثيرون من اليهود، من بني إسرائيل، وثبتت فئة قليلة مع طالوت، فقاتل بها جالوتَ ونصره الله على جالوت، وقتل داود جالوتَ، وآتى الله داودَ الملكَ والحكمة بعد طالوت، وحكم داود عليه السلام بالإسلام، ووحّد دولتي اليهود. وورث سليمان عليه السلام أمر الدعوة الإسلامية وأمر الملك بعد داود عليه السلام، حتى توفي سليمان عليه السلام سنة ٩٣٥ ق.م. فعاد الانقسام إلى دولة اليهود، وعاد الانحراف. وبهذا الانقسام، كما يقول «ولدس»، «تبدأ

النهاية، حيث قُضِي على الفترة الذهبية القصيرة التي مازال اليهود يتغنّون بها».

فيبدأ صراع اليهود مع الفلسطينيين صراع دنيا، لاصراع رسالة ودعوة. ويمتد نفوذ الفلسطينيين، وتمتد الحرب سجالاً قروناً عديدة. ويمتد تآمر الدولتين الواحدة على الأُخرى، وتستعين هذه أو تلك ضد الأُخرى بأعدائها في محاولة من كل منهما القضاء على الأُخرى، وأصبحت الدولتان بعد الانقسام ولاية تابعة حينا لمصر وحينا لآشور، المنتصرة من الدولتين الكبيرتين اللتين كانتا تتنازعان السيطرة على ربوع هذه المنطقة. بالإضافة إلى الكلدان.

وبدأت محن اليهود تتوالى نتيجة لتآمرهم وغدرهم وتقلبهم حيناً مع هؤلاء وحيناً مع هؤلاء.

فتمرّدت إسرائيل على آشور سنة ٧٢١ق.م فقام ملك آشور، «تجلت فلاصر»، باجتياحها وتدمير عاصمتها، وإجلاء أهلها إلى مابين النهرين.

ثم أعلنت «يهودا» عصيانها على دولة الكلدان التي جاءت بعد أشور وخلفتها، فقام «بختنصر» الكلداني فزحف عليها، ودمّر القدس، ودمَّر معبدهم وأزال آثاره من الوجود، ونفى أهلها إلى بابل. وكان هذا السبي البابلي سنة (٥٨٧ ق.م).

وأما الشعوب الأخرى أصحاب فلسطين فقد بقوا فيها.

نلاحظ من هذا العرض الموجز نقاطاً هامة:

١ - وجود اليهود في فلسطين كان وجوداً طارئاً. وكان يقيم في فلسطين شعوب أخرى امتدت إقامتهم زمناً طويلاً أكثر من أقامة اليهود بكثير، وامتدت إقامة بعضهم حتى اليوم.

٢ - جاءوا أولاً باسم الإسلام. فباسم الإسلام تحرَّك موسى عليه السلام من مصر، وباسم الإسلام دخل يوشع بن نون عليه السلام فلسطين. ولكن اليهود انحرفوا عن رسالتهم وحرّفوا فيها، فتوالى الأنبياء فيهم ليعيدوهم إلى الدين الحق، توالوا فيهم وهم في فلسطين وكذلك حين السبي لشدة انحرافهم وفسادهم.

٣ - الفترة التي دان فيها اليهود في فلسطين لحكم الدين هي فترة قصيرة وباقي المدة شُغلوا بعلاقات دنيوية مع شعوب فلسطين بين حرب وسلم. وإقامة اليهود في فلسطين امتدت إلى فترة قصيرة بالنسبة لإقامة الشعوب الأُخرى.

٤ - نتيجة غدرهم ومؤامراتهم اجتاحتهم أولاً آشور ثم الكلدانيون ودمروا معبدهم تدميراً كاملاً، وأُخِذوا سبياً إلى بابل. ثم أخذت تتوالى عليهم النكبات مع توالي غدرهم وخيانتهم، وتحريفهم للدّين، وفسادهم الخلقي والتجاري، وفساد علاقاتهم.

٥ - لم تكن إقامة اليهود في فلسطين مرتبطة بالإسلام، أو حتى بدينهم الذي حرّفوه، إلا فترة قصيرة جداً. أما باقي مدة إقامتهم في فلسطين فقد ارتبطت بمصالح وعلاقات دنيوية.

٣ - اليهود في المنفى ومابعد المنفى:

بالرغم من معاملة الكلدانيين لليهود في المنفى معاملة حسنة، إلا أن اليهود أخذوا يتصلون بفارس ويتآمرون معها ضد الكلدانيين، وساعدوا «كوروش» عن طريق فتاة يهودية جميلة تزوجها كوروش. فأذن لليهود بالعودة. فعاد الفقراء والضعفاء، وبقي أصحاب الأموال ورجال الأعمال [1].

من هنا بدأت فكرة العودة إلى فلسطين، يستغلها تجّار الدنيا وتجّار الدين ويثيرون الحنين إليها. ولكن لم يكونوا يدّعون ملكيّتهم لها، أو حقاً كما يدّعون اليوم. لقد استغل اليهود هذه الفكرة في المنفى ليجمعوا المال ويستدرّوا العطف، وليحرّفوا دين الله ويستغلوه لمصالح دنيوية، وللإفساد في الأرض.

واشتد انحرافهم عن رسالة موسى عليه السلام في هذه الفترة. وكانوا كما وصفهم القرآن الكريم: ﴿... **وأُشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم**...﴾[البقرة: ٩٣]. ونمت أطماع رجال الدين ورجال السلطة والحكم، وأخذوا يضعون تصورات محرَّفة عما جاء به

(١) المرجع السابق: (ص: ٧٣).

موسى عليه السلام، يدّعون أنها من التوارة ويـدسّونها فيها ويعلنونها. وأهم ما أعلنوه من تحريف وفتنة يمكن إيجازه بنقاط سريعة:

١ - أنهم شعب الله المختار: وهو تحريف خبيث لنصوص قد تكون وردت في التوراة، كما هي واردة في القرآن، تفيد أن الله اختارهم في تلك الفترة التي بُعث فيها موسى عليه السلام ليحملوا رسالة الإسلام. كما كان الله قد اختار رسلاً آخرين وشعوباً أُخرى من ذريّة نوح عليه السلام قبل موسى عليه السلام، وشعوباً أخرى بعد ذلك للمهمة ذاتها.

٢ - جميع الأنبياء والمرسلين كانوا يُرْسَلون إلى أقوامهم قبل النبيّ الخاتم محمد ﷺ الذي بُعِث للعالمين. ولكنّ اليهود بدأوا يروّجون دعوتهم ورغبتهم بالاستيلاء على العالم، كأن رسالة موسى كانت للعالمين. وهذا تحريف كبير.

٣ - ادّعاء حنينهم إلى فلسطين ليتطور مع الزمن، ويحوّله «تجّارهم» إلى ادعاء حقوق لهم في فلسطين لا أَصل لها. فهم أقل الشعوب إقامة في فلسطين، وهم قد تخلّوا عن رسالتهم وشُغِلوا في معظم فترة إقامتهم بصراعات دنيوية مع أَصحاب الأَرض، أَو بعلاقات سلم ومصالح دنيوية.

٤ - حذفوا اسم محمد ﷺ من التوراة، وقد كان اسمه في التوراة والإنجيل بشرى من الله للمؤمنين. فأخفوا اسمه ونبوّته.

وتابع اليهود في المنفى أو في فلسطين أو حيثما كانوا مؤامراتهم وخياناتهم. فلما رأوا أن اسكندر المكدوني اليوناني انتصر على الفرس، أخذوا يتآمرون مع اليونان ضد الفرس الذين أحسنوا إليهم، كما ساهموا في الثورة المصرية ضد الفرس.

ثم تآمروا مع الرومان ضد اليونان، حين أخذ الرومان يظهرون على مسرح السياسة الدولية. فاتصلوا بهم سرّاً وتآمروا معهم ضد اليونان. فلما شعر اليونان بذلك زحفوا على اليهود وقتلوا كل من وقف في وجههم، ونهبوا معبدهم، وأقاموا على مدخل معبدهم تمثالاً «لزيوس».

ثمّ بدأوا يتآمرون ضد الرومان مرة بعد مرة، حتى جاء «طيطس» القائد الروماني ابن الامبراطور «فاسباسيان» سنة (٧٠م)، فدخل القدس ودمّر سورها، ودمّر معبد اليهود، حتى جعلها قاعاً صفصفاً، وسبى أهلها وأمر ببيعهم في سوق النخاسة. واستمر اليهود في تآمرهم وغدرهم حتى حمل عليهم «هادريان» الامبراطور الروماني وأدّبهم وقضى على ثورتهم سنة (٧٣م).

وكان النصارى يعينون الرومان ضد اليهود لشدة غدر اليهود، ولشدة إيذاء اليهود للنصارى. وكان اليهود يحرّضون الرومان ضد النصارى كلما تحسنت العلاقات بين اليهود والرومان، حتى أعدم الامبراطور «ديوكليتيان» عدداً كبيراً من النصارى، كان من بينهم البابا كايوس والبابا مارسلينوس، وذلك إرضاءً لليهود المرابين الذين كانوا أصدقاءه[1].

وهكذا امتد فساد اليهود في الأرض: في فلسطين، في بابل، فارس، اليونان، الرومان وغيرهم، حتى أصبح الفساد والإفساد سمة مميزة لهم، وحتى عُرِفوا بالربا، واستغلال فتياتهم للوصول إلى مآربهم، والنشاط المالي والإعلامي الفاسد، واستدرار شفقة الشعوب وعطفهم والمتاجرة بهذه الشفقة والعطف.

وكذلك امتدّ العداء بين اليهود والنصارى، العداء الذي بدأ منذ بُعث عيسى عليه السلام، العداء الذي سنتحدث عنه في فصل آخر.

لقد غرس كبار رجال اليهود ورجال الأعمال وتجارهم في أجيال اليهود الحقدَ على شعوب الأرض، وغرسوا فيهم العصبيّة الجاهلية للعنصر اليهودي وإفساد فكرهم، وذلك عن طريق التربية للأجيال منذ نعومة أظفارهم، ليظل اليهودي يهودياً مهما ادّعى الانتساب إلى مذهب آخر أو قوم آخرين، وكذلك بما تحويه كتبهم من هذا التوجيه، حتى أصبحت عقائدهم قومية جاهلية.

يقول السيد «إدوارد درومونت Edward Drumont»: إنه كلما عُمِّدَ يهودي

(١) المصدر السابق: (ص: ٩٩-١١٠)

زاد عدد النصارى واحداً دون أن ينقص من عدد اليهود أحد. لأن اليهودي يظل يهودياً مهما غيّر مذهبه أو مظهره»[١].

إنهم يتعهّدون الأطفال منذ صغرهم في مناهج محددة تغرس كراهية غير اليهود الذين يسمونهم «الفجّار Goyims الجويم» ويتلقّى اليهوديُّ هذا التوجيه على يد كهنتهم، ثم من التوارة، ثم من التلمود، ثم من الكتاب المسمى «قبال: Cabale»، وغيره من الكتب والمؤسسات والجمعيات.

أما التلمود فيبدو انه بُدِئَ بكتابته في المنفى واستمر زمناً طويلاً. لقد كتبه رجال الدين اليهود على أساس أنه تفسير التوراة. وساهم في كتابته عدة آلاف من كهنة اليهود وانتهى في القرن الرابع للميلاد. وفيه قصص خرافي، ولاهوت، ومناقشات فلسفية، وعلم النفس، والقانون والتشريع، والتوجيه إلى المكر والخداع، والتسلح بالحقد والكراهية[٢]. وبصورة عامة فالتلمود توجيه لليهود إلى الفساد والإفساد، والعصبية الجاهلية والحقد على الشعوب. و «القبال Cabale» ألفه اليهودي الكاهن «موسى ليون Moise Léon» باللغة الكلدانية القديمة. ولكن المؤلف زعم أنه وجده في إحدى خزائن الكنيس القديم. وهناك كتب دينية أُخرى تظل تحمل نفس التوجيه من الإفساد[١].

٤ - قبسات من القرآن الكريم عن اليهود:

وباستعراض تاريخ اليهود منذ بُعث موسى عليه السلام بدين الإسلام، نجد أن فسادهم وفتنتهم ابتدأت تنكشف منذ ذلك الحين. فهم الذين قالوا لموسى عليه السلام:

﴿قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾ [المائدة: ٢٤]

وهم الذين قالوا لموسى أيضاً وهم متجهون إلى فلسطين خارجين من مصر:

(١) المرجع السابق: (ص: ٤٣١).
(٢) المرجع السابق: (ص: ١٠٨-١١٦).

﴿... قالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون﴾ [الأعراف : ١٣٨]

وهم الذين قال فيهم الله سبحانه وتعالى :

﴿إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين﴾ [الأعراف : ١٥٢]

وكذلك :

﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأُشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين﴾ [البقرة : ٩٣]

وكذلك :

﴿لتجدَنّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدنّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لايستكبرون﴾ [المائدة : ٨٢]

ويجدر بنا أن نتنبه لهذا التعبير الرباني الدقيق : **﴿.. الذين قالوا إنا نصارى..﴾**! إن هذا التعبير لايشمل أولئك الذين قالوا : إنا عَلمانيون!(١)

وكذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ثمّ قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجّر منه الأنهار وإن منها لما يشقّق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون * أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثمّ يحرّفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون * وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدّثونهم بما

---

(١) يُراجع كتاب : «الولاء بين منهاج الله والواقع» للمؤلف حول هذه الآية الكريمة .

فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون* أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون* ومنهم أميون لايعلمون الكتاب إلا أمانيّ وإن هم إلا يظنون* فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثمّ يقولون هذا من عندالله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾

[البقرة: ٧٤- ٧٩]

وكذلك :

﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى بن مريم البيّنات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذّبتم وفريقاً تقتلون* وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً مايؤمنون﴾ [البقرة: ٨٧ ، ٨٨]

وكذلك :

﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لايعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ [البقرة: ١١٣]

وكذلك :

﴿يا أيها الرسول لايحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سمّاعون للكذب سمّاعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرّفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يُرِدِ الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يُرِدِ الله أن يُطهِّر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم ■ سمّاعون للكذب أكّالون للسّحت فإن جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضرّوك شيئا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب

المقسطين* وكيْف يحكّمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين﴾ [المائدة: ٤١-٤٣]

وكذلك:

﴿قل هل أنبّئكم بشرّ من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبدالطاغوت أولئك شرٌّ مكاناً وأضلّ عن سواء السبيل* وإذا جاؤوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون* وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ماكانوا يعملون﴾ [المائدة: ٦٠-٦٢]

وكذلك:

﴿لولا ينهاهم الربّانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون* وقالت اليهود يد الله مغلولة غُلّت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدَنَّ كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فساداً والله لايحبّ المفسدين﴾ [المائدة: ٦٣، ٦٤]

وكذلك:

﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلاً كلما جاءهم رسول بما لاتهوى أنفسهم فريقاً كذّبوا وفريقاً يقتلون* وحسبوا ألاّ تكون فتنة فعموا وصموا ثم تاب الله عليهم ثمّ عموا وصموا كثير منهم والله بصير بما يعملون﴾ [المائدة: ٧٠، ٧١]

وكذلك:

﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك

بما عصوا وكانوا يعتدون* كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون* ترى كثيراً منهم يتولّون الذين كفروا لبئس ماقدّمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون﴾ [المائدة: ٧٨-٨٠]

وتتوالى الآيات الكريمة تفصّل الخبر اليقين عن اليهود وطباعهم وما أُشْرِبَتْ قلوبهم من غدر وخداع ومؤامرات وإفساد في الأرض كبير.

لقد قام بعض الباحثين الألمان وأساتذة الجامعات في ألمانيا بعمل دراسات حول نفسية اليهود وطباعهم. وطُلِبَ من مفتي فلسطين سماحة الحاج محمد أمين الحسيني رحمه الله أن يبيّن رأي الإسلام باليهود. فكوَّنَ لجنة من علماء المسلمين الذين كانوا حوله وأجروا دراسة عن اليهود من خلال القرآن الكريم. وقورنت الدراستان فكانتا متطابقتين في كثير من النقاط، ويبقى ماهو من عندالله أدقّ وأوفى.

٥ - مقتطفات مما قيل عن اليهود:

قال «أ. توسنيل A. Toussenel» مؤلف كتاب: «اليهود ملوك فترة» «Les Juifs Rois de l'Epoquex»:

«زعموا أن المصادر التاريخية تزخر بمعجزات أسلاف اليهود، فبحثت عنها في بطون الكتب والمصادر فلم أعثر فيها على أثر لتلك المعجزات، حتى إن كتاب التوراة الذي يعتبر مرجعاً، لايروي هو الآخر عنهم إلا كلَّ ما يخزي ويعيب. بدليل أنه يذكر أن «يهوى» كان يحرّض أتباعه على اغتراف مباذل الحياة، وإشباع الغرائز الحيوانية واحتقار القيم والمثل الأخلاقية، ويحضهم على تطبيق شريعة القتل العام عند المقدرة، وينسب لمشاهير أسلافهم اعتياد الخداع وبذل الأعراض في سبيل الكسب الحرام، ويتهم ملوكهم بالاعتداء على أموال أتباعهم واستباحة أعراضهم، ويَصِم نساءهم اللواتي لقّبْن بالقدّيسات بتعاطي الفسق والفجور مع أعداء قومهنّ. فأين هي إذن المعجزات التي يبحث عنها الناس وأين المناقب؟ أتراهم يعتبرون هذه الآثام والمخازي التي يندى لها الجبين هي من المناقب والمعجزات»[(١)].

(١) المرجع السابق: (صفحات: ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٦٢).

ومن أقوال القس لومان مؤلف كتاب : نابليون واليهود :

« كان على المسيحيين أن يزيلوا من الوجود منهاج أبالسة الجحيم اليهود ، المنهاج المسمَّى بالتلمود والشبيه بالصخرة الملساء التي تخفى تحتها وكر الثعابين ، قبل أن ترسخ تعاليمه السامة في عقول اليهود ، وتحوّلهم إلى أفاعٍ تتربّص الانقضاض على العالم كلما وجدت إلى ذلك سبيلاً »[١] .

● ● ●

من أقوال الصهيوني «ماكس نوردو Max Nordau » كما نشرتها صحيفة الشعب اليهودي الفرنسية :

« نحن لسنا ألماناً ولا إنكليزاً ولا إفرنسيين فهويّتنا معروفة ونحن يهود بكل صراحة ، فمعتقداتكم المسيحية ليست معتقداتنا ، نحن أمة خاصة ، ولقد أكدها لكم هرتزل ، فعليه نحن نرفض الانصهار»[٢] .

● ● ●

وكتبت صحيفة «جويش كرونيكل Jewish Chronicle» : في عددها الصادر في ٢٨ نيسان ١٩١١ تصريحاً للحاخام الأكبر «م . شندلر M. Schindler» : ظللت خمسين عاماً من أنصار الانصهار وكنت أعتقد بإمكانية توحيد اليهود والنصارى . ولكن تبيّن لي الآن أن البوتقة الأمريكية غير أهل لصهر يهوديّ واحد»[٣] .

● ● ●

وكتب لودفيك لوفيسون Ludvoig Lewison مؤلف كتاب اسرائيل :

اليهودي يظل يهوديا ، وانصهاره أو انسجامه مع الغير هو من الأمور المستحيلة . . .[٤] .

● ● ●

(١ ، ٢ ، ٣) المرجع السابق : (صفحات : ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٦٢) .
(٤) المرجع السابق : (ص : ٤٦٤) .

وكتب اليهودي «ج. وودسلوسكي J. Wadislawski» في جريدة «العالم اليهودي Jewish World» في ١/ ١/ ١٩٥٠ :

«لننزع أقنعتنا ولنقف موقف أسد يهوذا ولنغير أساليبنا القديمة ولنرمِ بعيداً بجنسياتنا المزيفة ولنعلن للعالم أننا يهود لا وطن لنا سوى فلسطين ولا نعترف بوطن سواها» [١].

● ● ●

«كتبت صحيفة دنيا اليهود: Universa Israelites» في ١٥/ آيار/ ١٩١٨م: يزعم بعض المغفلين أن الشريعة اليهودية ليست سوى رباط ديني مع العلم أنها كانت دائماً وأبداً رباطاً قوميا وعنصرياً محضاً، ولهذا تطالب اليهوديّة بحقوقها القومية التي تنبع من أصالتها العنصرية. . . »[٢].

● ● ●

من هذه المقتطفات ندرك بسهولة الدور اليهودي في نشر العَلمانية، بعد أن وضح أن رابطتهم الحقيقية قومية، وأن الدين الحقيقي الذي جاء به موسى عليه السلام قد انتهى دوره بينهم وتغيّرت تعاليمه، وأصبحت المصالح الدنيوية هي المحرك الأول. ومن ناحية أخرى ينكشف دورهم في نشر الفساد والفجور في الأرض بشتى الوسائل ومن بينها النساء.

ففي حديث رسول الله ﷺ عن أول فتنة بني إسرائيل وأنها كانت في النساء:

فعن أبي سعيد الخدري عن الرسول ﷺ أنه قال: **«الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون. فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»** [رواه مسلم][٣]

(١، ٢) المرجع السابق: (ص: ٤٦٤، ٤٦٥، ٤٦٦).

(٣) مسلم: ٤٨/ ٢٦/ ٢٧٤٢.

فالتحلل من الـدين ونشر الفساد والفتنة بالمال والنساء أسـاس من أسس العَلمانية أوغل فيه اليهود ونشطوا فيه .

وعن عبـدالله عن النبيّ ﷺ قـال : إن أول مـا دخل النقص علي بني إسرائيل كـان الرجل يلقى الرجل فيقـول ياهذا اتق الله ودع ماتصنع فإنـه لا يحلّ لك، ثم يلقاه من الغد فلايمنعـه ذلك أن يكون أكيله وشريبـه وقعيده، فلمّا فعلـوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال : لُعِنَ الذين كفـروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ... » الآيات وإلى آخر الحديث الشريف. [رواه أبو داود والترمذي][1]

وهكذا امتدت الفتنة في بني إسرائيل كما رأينا في الصفحات السابقة، وبرزت فيهم طباع التحلل من رسـالة عيسى عليه السـلام، والإقبال على الدنيا وعلى العـدوان والغدر والخيانة .

فالذين كفروا من بني إسرائيل هم اليهـود لأنهم كفروا بعيسى بن مريم عليه السلام وحاربوه وتآمروا عليه .

(١) أبـو داود : ٣١/ ١٧/ ٤٣٣٦ . الترمـذي : ٤٨/ ٣٠٥٠ وابن مـاجه في الفتـن باب الأمـر بـالمعـروف والنهي عن المنكر حديث ٤٠٠٦ .

الفصل الثاني

التعـــاون

النصراني اليهودي في العصر الحديث

لقد بدأ الصراع بين النصرانية واليهود منذ أن بُعث عيسى عليه السلام نبياً رسولاً من عند الله، يبلِّغ رسالة الإسلام إلى بني إسرائيل، بعد أن تفلّتوا من رسالة موسى عليه السلام، رسالة الإسلام ودينه، وبعد أن حرّفوا التوارة، وارتكبوا من المعاصي والآثام ماجلب سخط الله عليهم وغضبه، وما جلب اللعنة عليهم من داود عليه السلام.

اليهود اليوم هم الكفّار من بني إسرائيل، هم الطائفة التي كفرت بعيسى عليه السلام وبرسالته، والتي تآمرت على عيسى عليه السلام من أجل تدبير قتله. ولكن مكرهم خاب، ورفع الله عيسى عليه السلام إليه:

﴿فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلفٌ بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا* وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً* وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وماقتلوه وما صلبوه ولكن شبّه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظنّ وما قتلوه يقينا* بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيما﴾ [النساء: ١٥٥-١٥٨]

هكذا ابتدأ الصراع بين اليهود والنصارى. اليهود الذين كفروا بعيسى عليه السلام، فأصبحوا بميزان الله كافرين بالإسلام، كافرين بالله ودينه. وامتد الصراع مع الزمن، يحركه غدر اليهود وخيانتهم لمن يقيم اليهود بين ظهرانيهم.

لقد كشف تاريخ اليهود عن طبيعة محددة تقوم على الخداع والافتراء والغدر والخيانة. ولذلك لم يستطيعوا أن يتفاعلوا مع المجتمعات إلى مدى طويل. ومنهم من

اعتزلوا المجتمعات في أحياء خاصة فيهم لايسكنون مع غيرهم ، ولا غيرهم يساكنهم فيها .

كانت الضربة الأولى من نبوخذ نصّر سنة ٥٨٦ ق . م حين أزال دولة «يهودا» ونفى اليهود إلى بابل . وعاملهم الكلدانيون معاملة حسنة كريمة ، ولكنهم انقلبوا عليهم وحاولوا الثورة والغدر . وكذلك فعلوا مع فارس فيما بعد ، قابلوا الإحسان بالغدر والخيانة والمؤمرات المتتالية مستغلين النساء وجمالهنّ ، وأوقعوا بين فارس وبابل ، ثم اتفقوا مع اسكندر المكدوني ضد فارس . وأسوأ من ذلك أنهم كانوا يحرّفون في دينهم حسب مصالحهم . وهكذا يمضي تاريخ اليهود يتعاونون مع دولة ثم يخونونها بقلوب مليئة بالحقد . حتى كان التآمر الأكبر على نبيّ الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم عيسى عليه السلام .

امتد الصراع بين اليهود والنصرانية خلال تاريخهم كله أينما حلّو ا . وكان من أبرزها مؤامراتهم المتواصلة ضد رسول الله محمد ﷺ ، حتى أخزاهم الله وأذلهم ، بعد أن تلقّوا من الرسول محمد ﷺ حسن المعاملة وصدقها ، فما استطاعوا إلا أن يغدروا .

ولما وقع الصدام بين اليهود والرومان وقف النصارى على الحياد . فأغاظ هذا الموقف اليهود ، ومضوا في صراعهم مع النصارى ، وأخذوا يشتمونهم ، ويتوسلون إلى «يهوى» أن يبيد النصارى . وقامت المعارك بين الطرفين .

وحين كان النصارى يرغبون بالتعاون مع اليهود على أن يتوقفوا عن نشر ديانتهم اليهودية ، كان اليهود يرون في النصارى القدماء خوارج يستحقون أشد العقوبات ، ويرون في النصارى الأوروبيين كفّاراً وأعداءً لدينهم اليهودي . وكان المجلس الكهنوتي اليهودي (العدو التقليدي للكنيسة) يُلقن هذه الأفكار لليهود ، وينشر التعليمات المناوئة للكنيسة . ولما رأت الكنيسة أنه لافائدة من مهادنة اليهود من أجل تأمين مصالح دنيوية ، عزلت أَتباعها عن اليهود ، وأزالت معابد اليهود ، وأمرت بحرق التلمود ، حيثما كان للكنيسة سلطان[١] .

---

(١) المصدر السابق : (ص : ٤٠٤-٤٣١) .

ومضى الصراع يشتد بين الكنيسة واليهود. وأخذ اليهود يترقّبون الفرص ليغزوا هذا الميدان أو ذاك، وليجمّعوا أسباب القوة المادية ليحققوا أطماعهم وآمالهم على صمت خبيث.

لا نرى فيما فعله هتلر مع اليهود في ألمانيا إلا ردّة فعل لما ذاقته ألمانيا من خيانات اليهود وجرائمهم. وامتدت جرائمهم في بلدان أوروبا، وامتدت معها مذابح الشعوب والدول لهم: روسيا، إسبانيا، المجر، بولونيا، رومانيا، تركيا، قبرص، أمريكا، إيطاليا. وكذلك امتدت إلى الشرق الأقصى، وإلى العالم الإسلامي، وحسبك في العالم الإسلامي دورهم الكبير في إسقاط الخلافة الإسلامية، واغتصابهم لفلسطين.

كيف حدث هذا الانقلاب في تاريخ اليهود؟! كيف انقلب العداء المستحكم الطويل بين اليهود والنصارى في العصور الأخيرة، ولنقل في القرنين الأخيرين أو الثلاثة الأخيرة إلى تعاون؟! لانستطيع أن نحدّد لحظة معينة ثابتة حدث فيها هذا التحول، ذلك لأنه أخذ فترة مخاض ومحاولات، حتى أصبح تعاوناً واضحاً مكشوفاً.

لقد مهّد اليهود لهذه النتيجة بخطوات كثيرة مدروسة. فقد اعتنق عدد من اليهود النصرانية، واعتنقت أعداد منهم الإسلام. وما كان هؤلاء ولا هؤلاء صادقين في دخولهم في الدين الجديد. انهم دخلوا فيهما للفتنة والفساد والاستغلال أو دفع الأذى. ويبرز هذا الاتجاه بشكل واضح في إسبانيا، حينما عمدت إسبانيا إلى إرغام اليهود على اعتناق النصرانية قسْراً. فرضخ بعضهم للأمر الواقع، وتظاهروا بالنصرانية لِـجَنْيِ ثمرات هذا التظاهر لصالح اليهودية.

وسُمِّيتْ هذه الفئة من المرتدين بـ «الماران Marranes». وكانوا يمارسون طقوس النصرانية علانية وبكل وسائل التمويه، ويمارسون طقوسهم اليهودية سرّاً. وبهذا التوجيه كتب رئيس مجلس الكهنوت في استانبول إلى يهود إسبانيا[١]. وربما دخل اليهود ديانات أُخرى. ولايغيب عن بالنا «يهود الدونما» الذين دخلوا في الإسلام بنفس الأسلوب، ثم كانوا من أهم العوامل التي أُسقطت الخلافة الإسلامية.

---

(١)س - ناجي : المفسدون في الأرض (ص: ٤٢٦).

ولقـد أصبح بعض البـابـاوات في الكنيسة الكـاثـوليكيـة من أصل يهودي، أو أمّ يهودية. فيقول السيد «هيبيس P.Hepéss» في كتابه عن التوارة[1] :

"La Novelle Bible des peuples Martyres"

إن البابا «بي الحادي عشر Pie Xi» كان ينحدر من نسل السيـدة اليهودية «ليبمان Lipmann»، حبراً أعظم لسبعمائة مليون كاثوليكي، وأنه كان شديد الصلة مع كبير الحاخاميين في مـدينة ميلانو الـذي علمه العبرانية. ويـذكر هيبس أنه كان في الفـاتيكان خمسة كرادلة من أَصل يهودي.

إذن بدأ تسلل اليهـود إلى الديـانات والمذاهـب الأُخـرى، وإلى الأَحزاب السيـاسية والمذاهب الفكـريـة، وإلى الجنسيـات القـوميـة الأُخـرى. فعلـوا ذلك عن نهج وتخطيط استطاعوا بواسطته أن يكونوا أصحاب قوة ونفوذ بالرغم من عددهم القليل في العالم.

لم يكن من المتوقّع أن ينتهي الصراع الـرهيب بين النصارى واليهود، وأن ينقلب إلى تعاون واسع كبير. ولا يعقل أن يكون «الكتاب المقدّس» والعهـد القديم هو سبب اللقاء والتعاون للأسباب التالية :

١ - العـداء الممتد بين النصرانيـة واليهـود قرونـاً طويلـة، وكـان الكتاب المقـدس -العهد الجديد والعهد القديم- موجوداً، فلماذا استمرّ العداء؟!

٢ - إن منطلق العـداء هـو كفر طـائفـة من بني إسرائيل، وهي اليهـود، بعيسى عليه السلام، كما ورد في سورة الصف :

﴿... **فآمنت طـائفة من بني إسرائيل وكفرت طـائفة...**﴾ وهذا الكفـر مازال قائماً ممتـداً، فلا اليهـود أعلنوا إيمانهم بعيسى عليـه السلام، ولا النصـارى أصبحوا يهوداً ورجعوا إلى موسى عليه السلام وحده.

٣ - إن تاريخ العداء طويل مرَّ اليهود من خـلاله بمجازر ومآسي طويلة، وتحمّل

---

(١) المرجع السابق: (ص: ٤٢٩).

النصارى خيانـات من اليهود وغدراً، وأورث هذا كلـه حقداً. فكيف زال ذلك، مع بقاء كل فريق في موقعه.

- لقد مـرّت معنا بـالفصل السابق مقتطفـات مما قيل في اليهـود، منها ينكشف تمسكهم بيهوديتهم وعدم انصهارهم مع أي قوم أو دين وعدائهم للأقوام والأديان.

إذن لا يُعقَل أن يكون الـدين هو سبب اللقاء، فالـدين قديم والعداء قـديم ممتد، واللقاء جديد، إلا أن يكون استغلال الدين استغـلال نفاق وخداع عاملاً من العوامل! فما هو العامل الرئيس؟!

من العرض السابق نرى أن اليهود لم يكونـوا ملتزمين بدينهم المحرّف، إلا فئة قليلة تمسَّكت ببقيَّـة محرّفة من دين مـوسى عليـه السلام. ونـرى كذلك أن النصـارى لم يكونـوا ملتـزمين بـدين عيسى عليـه السـلام، ولا بـالـدين المحـرّف، بعـد أن حصروا الـدين في الكنـائس وأعلنـوا أنهم عَلمانيـون، لايتـدخل الـدين بشـؤون الأُمـة الفكـريـة والتربـويـة والسياسية والاقتصاديـة، إلا بمقدار ماتفيد التجارة بالديـن واستغلاله من أجل المصالح المادية. ولليهود مصالح مادية نمت مع الأيام، وللنصارى مثلها.

فلا مانع إذنْ من استغلال الـدين، الدين اليهودي أو الدين النصراني، من أجل مطـامع مشتركة، أو مصـالح أصبحت مشتركة، مصـالح دنيويـة اقتصاديـة وسياسيـة، لامانع من ذلك لدى هذا الفريق وذاك الفريق.

ولكن كيف يتمّ استغلال الدين، وكيف يقتنع الرأي العام هنا أو هناك بذلك؟!

ولتـوضيح الأمـر وتيسير تصـوره نـرى أن هنـالك طبقتين على الأقل في الـواقع اليهودي، والواقع النصراني. الطبقة الأولى هي طبقة أصحـاب المصالح المادية الدنيوية، الطبقـة العليا التي تمسك عمليـاً بزمـام المصالح على مستوى عالٍ. هـذه الطبقة تكـون مصـالحها الماديـة هي إلهـها المعبود، إلهـها الذي تبـذل كل جهـد وفكر وسعي لتحقيقـه وبلوغه. هـذه الطبقة لاتؤمن بقيم ثابتة، ولا بتصـوّرات عن الدار الآخرة، وعن الغيب،

(١) المرجع السابق: (ص: ٧٣).

وما بعد الموت . إنها تؤمن بالدنيا وحدها، ومن الدنيا المعزولة عن الآخرة ينبع الفكر والقانون والتصورات وغير ذلك . هذه الطبقة هي التي يسميها القرآن الكريم : المجرمين ، المترفين، المستكبرين ، إلى غير ذلك من الأسماء التي يكشف كل اسم عن طبيعة خاصة ونفسية خاصة . ولنأخذ بعض الأوصاف لطبيعتهم من خلال قبسات من القرآن الكريم :

﴿الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً أولئك في ضلال بعيد﴾ [إبراهيم : ٣]

﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون* وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذّبين﴾ [سبأ : ٣٤، ٣٥]

﴿وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين* قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين* وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾ [سبأ : ٣١-٣٣]

﴿وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدواً من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيراً﴾ [الفرقان : ٣١]

﴿... ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ [المائدة : ٤٥]

هذه هي الطبقة المجرمة في الأرض، في التاريخ البشري كله، تنبع مواقفها من مصالحها المادية ومن بُعدها عن الدين الحق :

﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أُلوا بقيّة ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم، واتبع الذين ظلموا ما أُترفوا فيه وكانوا مجرمين﴾

[هود: ١١٦]

أما الطبقة الثانية فهي عامّة الناس الذين يخضعون للكبراء الظالمين المجرمين. وهم الكثرة الغالبة في الأمة، يقودهم المجرمون إلى هلاكهم. هؤلاء كثير منهم لايعرف دينه، والقليل يتردّد على أماكن العبادة بين حين وآخر، والقليل القليل يتردّد بانتظام، والقليل القليل من يعرف دينه. هؤلاء غرس المجرمون في قلوبهم الحقد على الإسلام والمسلمين، من خلال التربية البيتية والمعاهد ووسائل الإعلام ومختلف الأنشطة. يضاف إلى إطلاق الشهوات فيهم، سواءً أكانت شهوات الجنس أم الخمر أم اللواط أم غير ذلك، ثم ربطتهم بنظام إداري واقتصاديّ يربطهم ربطاً بالطبقة المجرمة المستكبرة، حتى يسهل على الطبقة المجرمة توجيههم إلى الفساد و إشغالهم فيه وتخديرهم بمختلف وسائل التخدير.

وتلجأ الطبقة المجرمة إلى إشعال الحروب هنا وهناك، لتُشغِل الناس من ناحية، وتؤمِّن مصالحها المادية من ناحية أُخرى، وتتحكم بهؤلاء وهؤلاء من خلال الفتن والنزاع والشقاق، ومن خلال الفساد والإفساد.

وفي العصور الأخيرة سادت العَلمانية في أوروبا، وهُزمَت الكنيسة بمذاهبها المختلفة، وأصبح «رجال الدين» خاضعين لنفوذ الطبقة المجرمة الأولى في أوروبا وأمريكا والدول التي تدور في فلكها. وساد الكفر والإلحاد رسمياً في الاتحاد السوفياتي. وتحرّك اليهود في مختلف الأوساط ومختلف البلدان والقارات من خلال تخطيط محكم، ومن خلال جمعياتهم ومؤسساتهم، ليكونوا عَلمانيين مغرقين في العَلمانية، ومتديّنين بالشعارات وباستغلال الدين واستغلال العاطفة الدينية لقضاياهم. ولقد أصبح لليهود مصالح مادية حقيقية، استطاعوا من خلالها النفاذ إلى الطبقات المجرمة في العالم المنتسب للنصرانية، وإقامة علاقات متبادلة ومصالح متبادلة، علاقات ومصالح مادية، يتعاونون على تحقيقها من خلال مساومات طويلة. واستطاعوا النفاذ إلى قطاع غير قليل من الطبقة العامة، يستدرّون عطفهم وشفقتهم بوسائل الإعلام، مستغلين الأحداث القاسية التي كانت تقع عليهم، يكشفون قساوة الأحداث ويبالغون فيها مبالغة شديدة،

(١) المصدر السابق: (ص: ٩٩-١١٠)

ويخفون أسباب هذه القسوة التي تقع عليهم، يخفون أن سببها الرئيس هو خداعهم ومكرهم وتآمرهم على البلد الذي يعيشون فيه كما شرحنا سابقاً.

وأصبح هنالك مصالح مادية مشتركة بين اليهودية والنصرانية، ساعد على بنائها تسلل اليهود إلى جميع المذاهب النصرانية وكنائسها، وساعد كذلك تسلل اليهود إلى مراكز اقتصادية وسياسية واجتماعية في العالم المتنسب للنصرانية.

ولكن كان هنالك مصلحة كُبرى بين الطبقة المجرمة هنا والطبقة المجرمة هناك، بالإضافة إلى مصالح أُخرى مادية يمكن توجيهها كلها لخدمة المصلحة الكبرى.

هذه المصلحة الكبرى التي التقى عليها الطرفان هي عداء الإسلام والمسلمين، ومحاربتهم بمختلف الوسائل: إفساد مجتمعاتهم بنشر العَلمانية لتجريد المسلمين من مصدر قوتهم الحقيقية التي هي الإسلام، والإيمان الصادق والتوحيد الصافي، والعلم الصادق بمنهاج الله. وكذلك بنشر الفساد الخلقي والتشجيع عليه بشعارات فكرية مثل: مساواة المرأة بالرجل، وإطلاق الحرية الجنسية وأمثالها من الحريات المتفلتة، وكذلك بنشر الأفكار والمبادىء المتحللة الإلحادية أو القريبة منها، ونشر الفرقة والشقاق بين الشعب الواحد، وبين الشعوب الإسلامية المختلفة، وتمزيق العالم الإسلامي قطعاً متناثرة هنا وهناك، ودعم ذلك كله بقوى إعلامية هادرة كالطوفان، وبجيوش معتدية زاحفة كاسحة، وحركات تنصيريّة ممهّدة للجيوش ومعينة لها، وبمؤسسات يهودية صهيونية كالماسونية ونوادٍ متحلّلة فاسدة، ووسائل لاتكاد تدخل تحت حصر، ولكنها تستحقُّ دراسة مفصّلة ليس هذا مكانها، ولا ننسى كذلك الشركات التجارية التي لايقف نشاطها عند النشاط التجاري أو الصناعي، ولكنه يمتدّ إلى ميادين متشعبة تساهم كلها في تحقيق الهدف الكبير.

هذا الهدف الكبير جَمَعَ اليهوديةَ العَلمانية والنصرانيةَ العَلمانيةَ في صف واحد،

---

(١) المرجع السابق: (ص: ٤٣١).

(٢) المرجع السابق: (ص: ١٠٨-١١٦).

يحشد قواه وطاقاته لضرب العالم الإسلامي وتمزيقه وتفتيته وضرب المسلمين. وهم يحسبون أنهم بذلك يضربون الإسلام، جاهلين أن الإسلام هو دين الله، وأن الله ينصر دينه حين يشاء وكيف يشاء، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم، تمضي سننه القاهرة على الخلق كلهم، على حكمة بالغة نافذة.

وهنا يثور السؤال الهام: لماذا يكرهون الإسلام، ولماذا يغرسون كراهيته وكراهية المسلمين في أبنائهم؟ ولماذا يحشدون قواهم وأسلحتهم وفنونهم لمحاربة الإسلام؟! ما الذي يريدونه؟!

يجب أن نُذكّر أنفُسَنا بأن هؤلاء هم الطبقة المجرمة العَلمانية التي تعبد أولاً مصالحها المادية من دون الله، وأنها من أجل ذلك تضع القوانين والأفكار والبرامج والمناهج.

إن هؤلاء وجدوا من خلال خبرتهم الطويلة مع الإسلام والمسلمين، أن الإسلام الحق الذي جاء به محمد ﷺ وحياً من عند الله، هذا الإسلام هو العقيدة الوحيدة في الأرض التي لاتقبل المساومة على الحق، ولا تقبل باطلاً ولا تُقِرُّ ظلماً ولا فساداً في الأرض، وأن جنوده، إذا صدقوا الله في دينهم، فهم كذلك لا يُساومون على حق ولايرضون بباطل، ويعبدون الله في أمرهم كله.

وهؤلاء المجرمون أطماعهم واضحة وعدوانهم مكشوف وجرائمهم تملأ التاريخ. فكانت خلاصة تجربتهم أن الإسلام وجنوده الصادقين هم العقبة الكبيرة أمام أطماعهم، وهم الخطر الحقيقي على كل مصالح مادية ظالمة معتدية. فليس أمام المجرمين المعتدين الظالمين الذين يريدون نهب ثروات الشعوب إلا أن يسعوا جهدهم لإزالة هذه العقبة من أمامهم، ورفع هذا الخطر الذي يخيفهم ويرعبهم ليل نهار، ما داموا مصرّين على الظلم والعدوان والإجرام. وهذا هو محور قوله سبحانه وتعالى:

﴿شرع لكم من الدين ماوصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصيّنا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه كَبُرَ على المشركين

ماتدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب﴾ [الشورى : ١٣]

هذا هو الدين الحق ، دين جميع الأنبياء والمرسلين الذين ختموا بمحمد ﷺ، دين واحد، وربّ واحد هو الله الذي لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى كلها. لايرضى هذا الدين بالظلم والعدوان ونهب الثروات، ولايقرّ باطلاً ولا فساداً في الأرض.

لذلك جاء قوله سبحانه وتعالى : **﴿... كبر على المشركين ما تدعوهم إليه..﴾** ! نعم! كَبُرَ في الماضي، ويكبُرَ اليوم، وسيكبر غداً وفي المستقبل. ! سيكبر هذا الحق أمام الظالمين أبداً ما أقاموا على ظلمهم! ولايبقى أمامهم من خيار إلا أن يحاربوا هذا الدين الحقَّ وجنوده الصادقين:

﴿... ولايزالون يقاتلونكم حتى يردّوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حَبِطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ [البقرة: ٢١٧]

إذن هذا هو الدين الحق، دين الله الذي لايرضى الله بدين غيره !

وهذا الدين كَبُر على المشركين لأنه يقف حائلاً بينهم وبين أطماعهم الممتدة، وشهواتهم وعدوانهم، وظلمهم ونهبهم لثروات الشعوب!

فلا بد لهؤلاء أن يحاربوا الإسلام وأهله وأبناءه، لأن هؤلاء المشركين يُصرّون على الظلم والعدوان والفساد. والإسلام يمنع ذلك.

إنهم سيغرسون كراهية الإسلام والمسلمين في شعوبهم دون أن يبيّنوا لهم سبباً صادقاً حقيقياً لهذه الكراهية. إنهم يُخفُون عن شعوبهم ظلمهم وفسادهم، وعدوانهم وجرائمهم، يَدْعُونَهم للمشاركة فيها، أو يُقْنعونهم بذلك بالقومية وعاطفتها، والوطنية وسائر الشعارات الضالة، أو يُخدِّرونهم .

إنهم مجرمون معتدون! إنهم هم المعتدون لاغيرهم ، وهم الآثمون ، وهم لايرقبون في مؤمن عهداً، ولايرقبون لمؤمن ذمّة! واستمع لآيات الله تصفهم :

﴿كيف وإن يظهروا عليكم لايرقبوا فيكم إلاّ ولا ذمّة يرضونكم بأفواههم

وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون* اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فصدّوا عن سبيله إنهم ساء ماكانوا يعملون* لايـرقبون في مؤمن إلاّ ولا ذمّة وأولئك هم المعتدون﴾
[التوبة : ٨-١٠]

إنــه وصـف دقيق حق! وتمضي آيــات كثيرة تُفَصِّـل في أوصــافهم وجـــرائمهم وفسادهم.

فالحرب المعلنة على الإسلام والمسلمين أو الخفيّـة، هي أخطر قضيـة تلتقي عليها النصرانية واليهـودية في عصرنا الحاضر. والأطماع الدنيـوية الممتدة، والشهـوات الهائجة، والإصرار على العدوان ونهب الشعوب حافز رئيس للقاء على هذه القضية الكبرى.

من العرض الســابق نستنتج أن السبب الرئيس للقـاء النصرانية مع الصهيونيـة هو العَلمانيّـة التي أصبحت الديـن الحقيقي لكل منهما، بعد أن فصلـوا الـدنيا عن الآخـرة، وبعد أن وضعوا قوانينهم ومناهجهم على هذا الأساس.

والسبب الثاني هـو سبب مرتبط بالأول ونـابع منه. ذلك السبب هو قيـام مصالح مادية دنيوية مشتركة بينهما، مصالح نابعة من العَلمانية التي أصبحت تحكم كلاًّ منهما.

وسهّل عليهم تطـويعَ شعوبهم جهلُهـا بحقيقـة دينها، وجهلُهـا بحقيقة الإسـلام الذي نشأت على كراهيته.

ومن أهـم القضايـا التي التقوا عليها مـن خلال العوامل والأسبـاب السابقة الـذكر محاربة الإسلام والمسلمين، والمطامع الاقتصادية النابعة من أطماعهم الممتدة.

ومن أجل ذلك كلـه اتخذوا وسائل عـدة أهمها: استغلال الـدين ورجال الـدين، تسرّب اليهـود إلى مـراكز عـاليـة في الكنـائس النصرانيـة والدول المنتسبـة إلى النصرانيـة، وتسللهم إلى الهيئات الـدولية، وكذلك تخديـر الشعوب بكل الوسائل الممكنـة المتجددة. وأهـم وسـائل التخـدير الحرّيـة الفـردية المتفلتـة في الجنس ولهيبـه ووحـوله، وأمثـالـه من الموبقـات والمفـاسد. ومن أهـم وسائل التخـديـر إلهاب العـواطف الـوطنية والقـوميـة، وإشعال الخلافات بين الأحزاب لتستنفد الأوقات والجهود والأموال.

وإذا كانت محاربة الإسلام والمسلمين هي القضية الكبرى التي التقى عليها هؤلاء وهؤلاء، فإن أخطر قضية من قضايا هذه الحرب المسعورة هي قضية فلسطين، هي زرع دولة للصهيونية العالمية في قلب العالم الإسلامي. واستغلال الدين أسوأ استغلال من أجل ارتكاب أبشع جريمة عرفها التاريخ، إخراج أهل فلسطين من أرضهم وديارهم، وإحلال يهود قادمين من روسيا ودول أوروبا وأمريكا، ممن لا علاقة لهم بفلسطين لا من حيث التاريخ ولا القانون ولا الدين.

وعلى هذه القضية برز التعاون الدوليّ، وعلى دعم قيام الدولة الصهيونية العلمانية التقت النصرانية واليهودية من خلال عَلمانيتهما واستغلالهما لشعارات دينية كاذبة، هم أول من يعرف كذبها.

وإذا كانت إنكلترا وفرنسا أوّلَ من دعم هذه الجريمة وتزعّم كِبْرها، فإن القيادة آلت إلى أمريكا كما آلت القيادة في قضايا كثيرة أخرى اليوم. إن أمريكا الآن تتولى كِبر هذه الجريمة، وتمضي في دعم اليهود دعماً كبيراً، يكاد يكون لاحدود له.

ولنبيِّن سلامة هذا التصور يمكن أن نجد الأدلة فيما يرسمه نيكسون رئيس جمهورية أمريكا السابق في كتبه الثلاثة: **نصر بلا حرب، اغتنام الفرصة، ما وراء السلام**. فإنه يبين بوضوح موقف الولايات المتحدة الأمريكية وكذلك موقف الغرب عامة، من الإسلام، ومن فلسطين.

إن أساس تحديد النظرة والموقف هو المصالح المادية. ونيكسون في جميع كتبه يبرز هذه الحقيقة التي تقول إن مصلحة الولايات المتحدة هنا وهناك هي الأساس الأول. والمصلحة هي المصلحة الاقتصادية وماتفرضه المصلحة الاقتصادية من ضرورة السيطرة والنفوذ.

يقول نيكسون: «... ونحن إذا ما أردنا التدخل عسكرياً لحماية مصالحنا الحيوية علينا أن نوظف الأمم المتحدة لنا لا أن نكون أداة لها» ويقول: ... مع ذلك، لن يكون هذا المفهوم مقبولاً (أي توسيع ديمقراطية السوق الحرّة)، مالم تشترطه المصالح

(١) المرجع السابق: (صفحات: ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٦٢).

الأمريكية الخاصة. . . » ويقول: «نعلم جميعاً، وليس من شك في ذلك، أن المصالح الأمريكية الحيوية كانت وراء دخولنا الحرب العالمية الأولى والثانية وكذلك الحرب الباردة». ويقول: «. . . ولكنّ مصالحنا الحيوية توجب علينا أن نفعل. . . »(١) وتظل كلمة مصالح الولايات المتحدة، أو مصالحنا الحيوية، أو أمثالها تتكرر بشكل ملفت للنظر مثير للدهشة في كتابه: «ما وراء السلام» ويقول: «. . . وأن نتوخّى الحذر فلا ننظر لهذه الدولة أو تلك عدوة لنا إلا إذا تبنّت هذه الدولة أو تلك سياسات تهدّد المصالح الأمريكية».

أما الموقف من الإسلام فلندرسه من النصوص التالية التي يقولها نيكسون:

«إن الثوريين الشيوعيين والإسلاميين أعداء أيديولوجيون يتبنّون هدفاً مشتركاً. الرغبة في الحصول على السلطة، بغية فرض سيطرة ديكتاتورية تقوم على مُثُلِهم التى لاتحتمل. . . . إن رياح التغيير في العالم الثالث تكتسب قوة العاصفة، ونحن لانستطيع إيقافها، لكننا نستطيع أن نساعد في تغيير اتجاهها. . . »(٢).

وفي كتاب نيكسون: «الفرصة السانحة» يضع الفصل الخامس خاصاً بالعالم الإسلامي. ويقسم المسلمين فيه إلى: أُصوليين، ورجعيين، وتقدّميين. ويعلن العداء والحرب على الأُصوليين والرجعيين. ويرى التقدّميين هم الذين يمكن للولايات المتحدة أن تتعاون معهم لتأمين مصالحها هي. ويقسم هذا التقسيم على أساس الأحزاب والجماعات والأفراد والشعوب والدول، وهو يخفي شيئاً ويبدى شيئاً.

ونعتقد أن سبب هذا التصور هو فهمه الخاطىء للإسلام. ولو فهم الإسلام على حقيقته لعرف أن للإسلام ميزاناً واحداً ربانياً يزن الناس وينزلهم منازلهم. وأن هذا الميزان لايقسم المسلمين على هوى نيكسون. إن التقسيم الذي عرضه نيكسون نابع من تصوره لمصالح الولايات المتحدة الأمريكية في العالم الإسلامي. فالتقدّمي هو الديمقراطي الذي ينصرف إلى الدعوة إلى الديمقراطية بدلاً من الدعوة إلى الإسلام. ولذلك يقول نيكسون إن مفتاح سياستنا هو التعاون الاستراتيجي مع المسلمين التقدّميين فقط. لقد أصبح بين

(١) ريتشارد نيكسون: ماوراء السلام؟ - ترجمة مالك عباس (ص: ٤٦, ٤٧، ٧٩, ٨٣. . .).
(٢) ريتشارد نيكسون: حرب بلا نصر (ص٣٠٧, ٣٠٨).

المسلمين اليوم من يرى أن العَلمانية لاتختلف عن مقاصد الإسلام، وأصبح بينهم من يرى الديمقراطية من الإسلام أو الإسلام من الديمقراطية، وكذلك الحال مع الاشتراكية والحداثة وغيرها.

أما بالنسبة لقضية فلسطين ودولة اليهود، فالنظرة نابعة كذلك من مصالح الولايات المتحدة الأمريكية ومن التعاون الجديد بين اليهود والنصرانية يقول نيكسون:

«إن أكثر ما يهمنا في الشرق الأوسط هو البترول وإسرائيل...»(١)، ويقول: «... فعلينا المحافظة على إسرائيل...»(٢). ويقول: «على الولايات المتحدة الأمريكية أن تتخذ ما هو كفيل بأن يؤمن السلام لإسرائيل...».

وفي كتاب نيكسون «ماوراء السلام» يقول: «للولايات المتحدة أيضاً مصلحة كبرى في المحافظة على وجود إسرائيل وأمنها. فنحن وإسرائيل لسنا حليفين طبيعيين عاديين، بل إن لدينا التزاماً معها أسمى من أية اتفاقية أمنية. فقد أوضحت باقتضاب في اجتماع لزعماء الكونجرس في مطلع حرب ١٩٧٣م: «ليس لأي رئيس أمريكي أن يترك إسرائيل تغرق في الوحل... أما عمق التزامنا بها فيتجلّى في حقيقة تقديم أمريكا لإسرائيل منذ اعترافنا بها قبل خمس وأربعين سنة أربعين مليار دولار...»(٣).

مصادر كثيرة لا مجال هنا لذكرها أو للاقتباس منها تكشف عن حقيقة التحالف بين الصهيونية والعالم الغربي، مما يعيننا على فهم طبيعة هذا التعاون،

ويعيننا على إدراك أن هنالك مصالح كبرى لتلك الدول النصرانية العَلمانية تعتمد فيها على قيام دولة اليهود ووجودها واستمرارها مادامت هذه المصالح الكبرى تستدعي ذلك.

ويبقى السؤال الهام: ما هي هذه المصالح التي تفرض وجود إسرائيل ودعمها على هذا النحو الذي نراه؟!

قد يكون هناك مصالح متعددة، ولكن أكبرها وأخطرها هو الحرب المعلنة على الإسلام والمسلمين، من أجل حماية المصالح المادية، المصالح التي تبعثها العَلمانيّة بكل

---

(١) نيكسون: الفرصة السانحة - (ص: ١٥٢).
(٢) المصدر السابق: (ص: ١٥٨).
(٣) ما وراء السلام (ص: ١٤٨).

الفصل الثالث

قيام الحركة الصهيونية

الحركة الصهيونية حركة عَلمانية موغلة في العَلمانية. قد لانستطيع تحديد التاريخ الدقيق لنشأتها، ولكننا نستطيع أن نقول إنها الحركة التي جمعت خبرة الشعب اليهودي في الإفساد في الأرض خلال آلاف السنين، وخبرتهم في الإجرام والخديعة والغدر، وإنها الامتداد الطبيعي للمؤسسات اليهودية التي نشأت في تاريخهم.

لقد كان تاريخ اليهود صورة بشعة عن خيانتهم للمجتمع الذي يعيشون فيه، وعن نكثهم للعهود التي يعطونها، والغدر بكل مَن يأتمنهم أو يأمن لهم.

ومن خلال هذا التاريخ الطويل تجمعت الخبرة السوداء على صورة هذه الحركة الصهيونية. فلقد ذكر القرآن الكريم ضلالهم وفتنتهم منذ أيام موسى عليه السلام، وامتدَّ إلى أيام داود عليه السلام وَمنْ بعده من أنبياء الإسلام، حتى لُعِن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى عليهما السلام:

﴿لُعِن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون* كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ماكانوا يفعلون* ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ماقدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون﴾ [المائدة: ٧٨-٨٠]

لعنةٌ عليهم من الأنبياء وسخطٌ عليهم من الله. وامتدّ قصصهم في القرآن الكريم كثيراً، ليكون في قصصهم عبرة للمؤمنين على مدى الدهر، وليحذر المؤمنون اليهود ومكرهم، وليظلّوا على بيّنة. ويمضي حكم الله وبيانه حكماً ربانيا ماضياً هو الحق:

﴿لتجدنَّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ...﴾
[المائدة: ٨٢]

منذ أن بُعِثَ عِيسى عليه السلام لليهود، انقسموا إلى فريقين: فريق آمنوا بعيسى

عليه السلام، وهم الذين أصبحوا يُسَّمون بالنصارى أو المسيحيين، وفريق كفروا وظلّوا يُعرَفُون باليهود:

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين﴾

[الصف: ١٤]

وهكذا انطلق الصراع بين طائفة اليهود التي كفرت بعيسى عليه السلام، والتي امتدت في التاريخ لتُعرَف بالشعب اليهودي، وبين الطائفة التي آمنت بعيسى عليه السلام، والتي امتدت في التاريخ وانحرفت عن رسالة الإسلام التي جاء بها عيسى عليه السلام، والتي أصبحت تعرف بالنصارى.

وقد لاقى اليهود في تاريخهم كله عنتاً وإيذاءً وحرباً، ذلك كله بسبب الغدر والخيانة، والخداع والمؤامرات التي يحيكونها ضد من يعيشون بين ظهرانيهم. وامتد هذا الصراع بين اليهود والنصارى، وامتد الإيذاء باليهود زمناً طويلاً. ذاقوا العداء من معظم شعوب الأرض بسبب خياناتهم كما ذكرنا، وذاقوا ويلات هذا العداء ومآسيه في تاريخ طويل.

ونشر اليهود دعاية واسعة تجعل من هذا العداء عداءً للسامية، ليستدرُّوا بذلك عطف الشعوب، وليُخْفُوا الأسباب الحقيقية للعداء، ويُخفوا جرائمهم ومكرهم، وليقولوا إن العداء هو عداء للجنس الساميّ، وليس بسبب مؤامراتهم وكيدهم، فجعلوا بهذه الدعاية خصومهم هم المتهمين، وجعلوا من أنفسهم ضحايا بريئة لهذا العداء.

حتى نحاول فهم اليهود وسلوكهم، فلابدَّ أن نتعرف على هيئاتهم التي تكونت عبر التاريخ. ونحاول أن نذكر هنا بإيجاز أهم تلك الهيئات والمؤسسات والجمعيات والمراكز، لندرك كيف خرجت منها الحركة الصهيونية: (١)

(١) س. ناجي: المفسدون في الأرض: (ص: ٤٠٤-٤٢٢).

١ - المجلس الكهنـــوتي الأعلى Sanhedrin : وقد تكوّن في العهد الروماني، وادّعوا أنـه ينحدر من الـرجال السبعين الـذين لحقوا بمـوسى عليه السـلام عندمـا ذهب ليتلقى الكلمة من الله. زعمـوا هذا الـزعم ليكون لهذا المجلس سلطـة واسعة، وليخضع اليهود لـه خضوعـاً كامـلاً. وقد نجحت هـذه الفِرَيـة. واعترفت روما بسلطتـه مما زاد في قوته. وقـام هذا المجلس الكهنوتي بإكمال كتابـة التلمود وتوزيعه بـاعتباره المنهج الأساسي الذي يجب السير عليه.

٢ - هيئة الميشنـا Les Docteurs de Michna : أنشأها المجلـس الكهنوتي الأعلى لتثابر على كتابة التلمود وتساعده في الإشراف على شؤون الشعب اليهودي.

٣ - هيئـة الكهنة أو الكتـاب Les Scribes : ألحقت بهيئـة الميشنـا لتساعـد «حكماء» الميشنا في المناطق والأقاليم.

٤ - هيئـة الكحال السرّيـة Kohal : كوّنها المجلـس الكهنوتي الأعلى بعـد اتساع نفوذه واستقـرار أمره. وكان ذلك في أواخر القـرون الوسطى. وهذه الهيئة السريـة تتكون من الأثـريـاء والعلماء والكهنة والكتـاب والعمال ولأخصـائيين، والسيـاسيين من مختلف النزعات، ولكن أسماءهم تبقى مجهولـة، حتى ينكشف بعضهم مع الأيام مثل: روتشيلد Rothschild، فـاربـورغ Warburg، وسـانسـونSasson، ويعقـوب شيف chiff، وولف Wolf، ولوبLoeb.

٥ - مجلس «الهابورا Haburat» : وهو مجلس مختص بتوثيق الروابط بين اليهود. ولـه خمسة فـروع تضمُّ كافـة يهود العـالم، وهي: فرع أخـوة العلماء والمثقفين، وفرع أخـوة رجال الـدين، وفرع أُخوة الكـادحين، وفرع الأخوة العامـة، وأخيراً فرع أخوة أبنـاء العهد القـديم الذي أسس سنـة ١٨٤٣ في نيويـورك من قِبَل اثنى عشر يهوديـا من أبرز أعضـاء المحفل الماسوني.

هـذه أهم الهيئـات والتنظيمات اليهـوديـة. ولكـن اليهـود لم يكتفـوا بها، بل تـابع مجلسهم الكهنوتي الأعلى تكوين جمعيـات ترتبط بهيئة الكحال (Kohal) السرية وكان من أهم هذه الجمعيات مايلي:

١ – جمعيـة الماسون : التي استطـاعت منـذ القرون الـوسطى أن تسيطر على أكثـر الجمعيات المحليـة، والتي فتحت مراكـز لها في جميع أنحاء العالم، وكـان لها دور في الثورة الفرنسية وفي أنشطة سرّية سياسية واجتماعية في كثير من أنحاءالعالم .

٢ – جمعيات المثقفين الإنسـانيين: التي انتشرت في البلاد الأوروبيـة وهي مـرتبطة بجمعية الماسون.

٣ – المجلس النيابي اليهودي في انكلترا Jewish Board Debuties الذي يدير شؤون اليهود في انكلترا.

٤ – الكـونغرس اليهـودي فى أمريكـا American Jewish Gongress الذي يدير شؤون اليهود في أمريكا.

ولقـد نما نفود هـذه المجالس والجمعيـات حتى أصبحت كأنها دولة داخل دولـة، وكل واحدة منها تمثل اليهـود في بلدها، والدولة لاتتخذ أي إجراء بـالنسبة لليهود إلا عن طريق هذه الجمعيات.

٥ – جمعية حكماء صهيون , في روسيا. أسست سنـة ١٨٤٥م وكانت تحض اليهود على الهجرة إلى فلسطين.

٦ – جمعية النهليت Nihlistesوهي جمعيـة سرّية قـامت بأعمال إجراميـة كثيرة فى روسيا في عهد القيصر.

ولهم بـالإضافـة إلى كل ماسبق منظمات اقتصـادية أخـرى منتشرة في أكثر البـلاد، ومؤسسات تجارية كبيرة.

٧ – الاتحاد الإسرائيلى العـالمي Universal Israel Alliance يـرتبط تنظيما مع الهيئة السرّية «الكحال Kohal».

إن هذه التنظيمات والجمعيات جزء من الحقيقـة الكاملة. وهذه التنظيمات تكشف عن طبيعة خاصـة، ونفسية غير عادية، عُـرِفت في التاريخ كله بخصائص ثـابتة أهمها: الغدر، الخيـانة، الخداع، المؤامرات والدسـائس، الفساد الخلقي، الفاحشـة، استغلال النساء وجمالهن في تحقيق الدسائس والمؤامرات.

وحسبك وصف القرآن الكريم لهم، ووصف طبيعتهم الغادرة وصفاً استغرق آيات وسوراً كثيرة، ليكون في ذلك تحذير للعالمين من خطرهم. وقد أشار كثير من رجال الفكر في العالم إلى خطر اليهود وضرورة الحذر منهم ومن غدرهم ومؤامراتهم. وهذا رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية «بنجامين فرانلكين Benjamin Franklikn» (١٧٠٦-١٧٩٠م)، رجل الدولة، والعالِم، والكاتب المؤلف، وهو من أعظم رجال أمريكا، قال في خطبته سنة ١٧٨٩م عند وضع دستور أمريكا، يحذّر من خطر اليهود، ويكشف بعض صفاتهم. فكان من بين ما قاله:

«هنالك خطر عظيم يهدِّد الولايات المتحدة الأمريكية، ذلك الخطر العظيم هو خطر اليهود. أيها السادة في كلّ أرض حلّ بها اليهود أطاحوا بالمستوى الخلقي وأفسدوا الذمة التجارية... إني أحذركم أيها السادة! إنكم إن لم تبعدوا اليهود نهائياً فسوف يلعنكم أبناؤكم وأحفادكم في قبوركم....!»

لقد فسد الطبع اليهودي كثيراً. هنالك اختلاف حول أصلهم أساميون أم آراميون(١). وخلاف أوسع حول كتابة التوارة وأسفاره. ولكن الإجماع على أن التوارة التي بين أيدي الناس لم يكتبها موسى عليه السلام، ولاهي كتبت في عهده، وإنما كتبت في عصور لاحقة، وأن معلوماتها تحمل بعض التناقض ولاتثبت أمام التحقيق العلمي. إنها في جميع الأحوال كتابة بشر عن ذاكرتهم. فليست هي صحف موسى عليه السلام، ولا هي كلام الله.

واليهود، علماؤهم وكتابهم، يعلمون ذلك. ويعلمون أن التوارة محرّفة. وأصبح هنالك اليوم عدد غير قليل في العالم الغربي يناقش نصوص التوارة ويخضعها لدراسات توثيقية. وأصبحت هذه الدراسة تؤكد طبيعة التحريف والتغيير. وتجري الدراسات نفسها على الإنجيل كذلك، ووصل أصحابها إلى نتائج مشابهة. من بين هذه الدراسات كتاب «The Bible, The Qur'an and Science» تأليف «Dr. Maurice Bucaille» ويكشف فيه معظم التحريف في التوراة والانجيل ومصادمتها لحقائق العلم، ويكشف عظمة القرآن الكريم وتناسق ما اكتُشف من العلم معه.

---

(١) س. ناجي: المفسدون في الأرض (ص: ٩-١٤). (٢) المصدر السابق: (ص: ١٤-٢٦)

نتيجة للعداء التاريخي المستمر الذي لاقاه اليهود، فقد أصبح عندهم قضية هامة رئيسة تدور حول كيفية التخلص من هذا العداء، أو كيفية مجابهته.

لقد كان بناء الجمعيات والمؤسسات التي سبق ذكرها من أهم الوسائل التي اعتمدوها، والتي اعتمدوا تنميتها وتغذيتها وزيادتها حسب القضايا والميادين التي يخوضونها.

والدعاية الكاذبة التي نشروها ونجحوا فيها حين زعموا أن العداء الذي يلقونه هو عداء للسامية، فجعلوا الآخرين هم المتهمين، كما ذكرنا قبل قليل.

ثم رأوا أن يدخلوا بكل قواهم وجمعياتهم ومراكزهم ميادين الاقتصاد والإعلام، وميادين العلوم، والتربية، وسائر ميادين المجتمعات التي يقيمون فيها. وقد أصابوا بذلك نجاحاً ظاهراً.

وامتدت وسائل الغدر والكذب والخيانة في جميع الميادين التي دخلوها، وكذلك نشر الفساد الخلقي والفاحشة، وكذلك استغلال المرأة وجمالها في ميادين الفتنة والإفساد والمكر والخديعة.

ومن وسائلهم الدخول في الديانات الأُخرى دخول فَساد ونفاق لتأمين مصالح اليهود ونشاطهم السيّىء، والدخول في الأحزاب السياسية، والفكرية، وتوجيه ذلك بما يتفق ونهجهم ومصالحهم. ونأخذ مثلاً على ذلك مما فعل اليهود في ألمانيا وفرنسا وغيرهما، لنرى امتداد نشاطهم مع التاريخ، ولنرى امتداد نشاطهم في الأرض وفي مختلف الميادين، حتى أصبح نشاطهم دولياً عالمياً.

لقد نشطت «جمعية الإنسانيين» اليهودية في مستهل القرن السادس عشر، في عهد النهضة، وأخذت تنشر آراءها ومبادئها في ألمانيا وسائر أقطار أوروبا، واستفادت من ظهور الطباعة، فأصدرت مئات الكتب والنشرات الداعية إلى الإلحاد والإباحية، فأقبل الناس عليها بنهم زائد، ثم بادر اليهود من خلال ذلك بنشر الأفكار المنبثقة عن التوراة والتلمود المناوئة لتعاليم الكنيسة، فسادت الفوضى الفكرية والدينية في ألمانيا وغيرها.

وكانت الكنيسة ترزح تحت سيطرة المال اليهودي، وبعد أن استقرضت من المالي اليهودي الثريّ «يعقوب فوجر Jacob Fugger» أموالاً كثيرة، حتى أصبح هذا اليهوديّ يتحكم في مقدّرات الكنيسة المالية. وأخذت الكنيسة تصدر صكوك الغفران

مقابل مبالغ مالية تأخذها من الناس لتسدِّد ديونها.

لقد ساهمت هذه الظروف كلها بظهور حركة لوثر الإصلاحية، التي حاربت الكنيسة حرباً شديدة، واعترضت على بيع صكوك الغفران وعلى أخطاء الكنيسة الأخرى. واشتد النزاع بين لوثر والبابا «ليون العاشر « Leon» سنة ١٥١٥م. فأقام لوثر الكنيسة الألمانية مستقلة عن الكنيسة الكاثوليكية، وأصبحت الكنيسة الألمانية تابعة للحواريَّيْن: «بطرس وأوجستين Saint Peter et Saint Augustin»، فالتفّت بعض المقاطعات الألمانية حول الكنيسة الجديدة، ووقعت الحرب الدينية بين أنصار لوثر والملك «شارلكان charles Quint».

وجد اليهود في هذه الحرب فرصتهم الذهبية لتدمير الكنيسة القديمة عدوتهم التقليدية. وقدّموا الأموال للوثر بفوائد ماليّة مرهقة. وأصبح لوثر وحركته يدعمون اليهود في ألمانيا وغيرها. فطمع اليهود في الشعب الألماني واستغلّوه أسوأ استغلال، واستولوا على أكثر الصناعات، ووسعوا أعمالهم المصرفية وافتتحوا أسواق البورصة، وسيطروا على النقد، وزاد نشاطهم في نشر الانحلال الخلقي يعاونهم في ذلك الجمعية الإنسانية «اليهودية»، والحركة الماسونية اليهودية، كل ذلك تحت حماية لوثر وحركته، وانتشرت فلسفات التلمود المعادية للنصرانية وللكنيسة.

واستولى الأمراء الألمان على ممتلكات الكنيسة القديمة. ولما انتهت الحرب طالب اليهود بديونهم وفوائدها. فعجز الأمراء عن سدادها، فاضطروا للتخلّي لليهود عن هذه الممتلكات التي تساوي قيمتها عشرات أضعاف الديون.

ولما اكتشف لوثر خطأه الجسيم، حاول تعديله ودعا اليهود إلى اعتناق مذهبه الذي أيدوه. ولكنّ اليهود ردّوه خاسراً وسخروا منه ومن دعوته فأعلن لوثر رأيه فيهم وقال:

«أيقنت أن اليهود أُناس غلاظ الأكباد، انحرفوا عن شريعة موسى وزوّروا كتبه وأقواله. أما معابدهم فما هي إلا مواخير للفسق والفجور فيجب علينا إحراق كتبهم

(١) المصدر السابق: (ص: ٩٩-١١٠)

المزوّرة وتدمير معابدهم القـذرة. لننقذ شعبنا من خطرهم، فلو عاد مـوسى بنفسه للحياة لأمـر بحرقهـا وإزالتها من الـوجـود. واليهود لايهمهم إلا النهب والسلب، وهم وحـوش ضارية، وأفـاع سامة يجب مطاردتهم حيثما كانـوا والقضاء عليهم كما يُقضَى على الكلاب المسعورة» [(١)].

وفي مستهل القرن الثامن عشر جاء اليهـودي «موسى ماندلسون Moise Mandelson» من الـريف إلى بـرلين وأصبح من أكبر الأثـريـاء. فترجم التلمـود إلى الألمانيـة وحـوّره إلى مـايناسـب أغـراضـه لتخفيف عـداء اللـوثـريـة. وأخـذ يتعـاون مع «الماسـونيين» و «الإنسانيين»، ففتحوا نوادي أدبية ونوادٍ ليليـة يستغلون في هذه وتلك الفتيات اليهوديات الجميـلات مثل «هنـريت هيرز Henriette Hirz» التي اشتهـرت بجمالها وتهتكهـا مع مجموعـة من الفاسقات، لنشر أفكـار اليهود الانحـلالية ونشر الفساد والنفـاذ إلى أوساط كثيرة. وأصبحت ندوتها مـركزاً للماسونيـة ومنبع الأفكار الثوريـة المناوئة للدولـة الألمانية، وبـؤرة الخلاعة والتهتك، يـرتادهـا أشهر رجـالات أوروبا المنـاصرين لليهود، ليجتمعـوا بزعماء الماسـونية والصهيـونية، ويتـدارسوا المخططـات اليهوديـة الرامية إلى قلـب أوضاع أوروبا. حتى إن «ميرابو» خطيب الثـورة الفرنسية زارها قبيل الثورة الفـرنسية، وتدارس مع الماسون تفاصيل الثورة التي كـان اليهود عامة والماسونيون خاصـة يعملون لإشعالها. وعاد «ميرابو» إلى فـرنسا ليمتدح هذه المرأة المتهتكـة وليمدح اليهود. ولقـد كان ميرابو ماسـونياً خدم اليهود كثيراً ودفعه اليهود ورفعوه.

بقي الشعب الألماني حـذراً مـن اليهـود بعـد أن كشفهم «لـوثـر». ولكن بعـد أن انتصرت الثورة الفرنسيـة، واستغلها اليهود في فرنسا وحصلوا على مجالات واسعـة في فرنسا وحقوق سياسية كبيرة، هبّت صحافتهم تطـالب دول أوروبا كلها بأن تمنح اليهود الحقوق السياسية ذاتها.

ولما ظهـر نابليـون على مسرح السيـاسة الأوروبيـة، دعمـه اليهـود فانحـاز إليهم، وأفسح المجال أمام زعمائهم للنشاط الـواسع في بلدان كثيرة، وأصبحوا يتحكمون في شؤون

(١) المصدر السابق: (ص: ٢٧٢-٢٧٥).

نابليون المالية . ولما دخل ألمانيا أعطاهم الحقوق السياسية الكاملة ليكونوا مساوين لأهل البلاد، فأخذوا يفرضون إرادتهم ويستغلون الشعب الألماني وغيره من شعوب أوروبا . وامتد نفوذ اليهود في ألمانيا وفرنسا في ميادين الاقتصاد والعلوم السياسية وغير ذلك .

لقد استطاعوا من خلال بناء المصالح الاقتصادية والمالية، ومن خلال النشاط العلمي والأدبي والفكري، أن ينفذوا إلى قلب العالم المنتسب إلى النصرانية .

واستطاعوا من خلال تحريف التوراة وصياغة تعاليم التلمود أن يسهلوا على اليهودي اقتراف الجرائم واتباع أحط الوسائل لتنفيذ مآربهم .

فبالاضافة إلى تحريف كتبهم، ووضع كتب أُخرى كالتلمود، ثم التغيير والتبديل في التلمود عند الترجمة، بالإضافة إلى هذا وإلى كل ماسبق ذكره، فإنهم أرسوا في المجتمعات التي حلّوا فيها قواعد العَلمانية، من خلال العلوم والإعلام، والانحلال الخلقي، والخداع والمؤامرات، والنوادي الخلاعية والفكرية والأدبية .

ولكن مهما تبدّل من أوضاعهم في بعض بلدان أوروبا أو أمريكا، فإنهم ظلوا يستغلّون قضية الحنين إلى فلسطين استغلالاً واسعاً، وقضية معاداة السامية، وقضية ضرورة تجمعهم في أرض واحدة . لم يكونوا يصرّون أول الأمر على فلسطين، حتى التقت ادعاءاتهم الكاذبة مع مصلحة الدول الأوروبية العدوانية لإيجاد كيان يهودي في فلسطين، فأخذ النشاط يتركز بصورة رئيسة على الزحف إلى فلسطين والهجرة إليها لإقامة دولة لهم تحميهم وتدافع عنهم، وتكون قاعدة لانطلاق أوسع من أجل مطامع أوسع لجميع الأطراف المتعاونة .

اجتمعت العوامل السابق ذكرها من نهج وتخطيط ومؤسسات لتنطلق منها، من قلبها «الحركة الصهيونية العالمية : Zionism» التي تهدف إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين . وقد أفلحوا في ذلك ونجحوا حتى الآن .

والتسمية جاءت من اسم تلة في القدس تسمى «صهيون : Zion» وكانت هذه التلة قلعة وحصناً «لليبوسيين Jebusites» الذين كانوا يسكنون القدس . ثم جاء داود

عليه السلام فاحتلها باسم الإسلام، لتكون القدس بذلك مدينة إسلامية.

لقد كانت الحركة الصهيونية امتداداً للحركات السابقة، تحمل كلها الأهداف نفسها، وتنسّق فيما بينها لتحقيق هذا الهدف أو ذاك.

ومن أجل الاستيطان في فلسطين وإقامة دولة لليهود، قامت جمعيات ومنظمات أُخرى نذكر منها:

١ - الاتحاد الإسرائيلي العالمي: الذي سبق ذكره، والذي قام في باريس سنة ١٨٦٠م.

٢ - الاتحاد اليهودي الإنجليزي والذي سبق ذكره كذلك، والذي تأسس في لندن سنة ١٨٧١م.

٣ - جمعية محبي صهيون: تأسست سنة ١٨٩٠م، وقررت استيطان فلسطين وإحياء اللغة العبرية.

٤ - جمعية الاستعمار اليهودي في لندن: سنة ١٩٠٠م.

٥ - المؤتمر الصهيوني الأول في «بال» في سويسرا سنة ١٨٩٧م، بقيادة هرتزل.

٦ - المؤتمر الصهيوني سنة ١٩٠٥: قرر أن تكون فلسطين مكان تجمع اليهود وإقامة دولتهم.

٧ - الوكالة اليهودية سنة ١٨٩٧م.

٨ - الصندوق القومي اليهودي (كارن كايمت) سجل في لندن سنة ١٩٠٤م.

٩ - الصندوق التأسيسي اليهودي (الكارن هايسود).

١٠ - المصرف اليهودي للمستعمرات.

١١ - الشركة الإنجليزية الفلسطينية.

وشركات ومؤسسات أخرى، أخذت كلها تصب جهودها في مجرى واحد مستفيدة من إمكانات الاقتصاد والإعلام والعلوم في مختلف الاختصاصات.

يضاف إلى ذلك الرجال الأغنياء ورجال الأعمال والصناعة الذين برزوا في ميادينهم ومن أشهر أغنيائهم «إدموند رتشولد» اليهودي الفرنسي وآخرون. بالاضافة إلى المراكز

التجارية الموزعة فى مختلف انحاء العالم.

لقد اجتمعت هذه القوى كلها لتوفير استيطان اليهود في فلسطين وإقامة دولة لهم، وإخراج أهلها المسلمين منها، مع مطامع توسعية من الفرات إلى النيل. وما كان لهذه القوى وحدها أن تحقّق هذا الحلم العجيب الذي تحقّق بعضه حتى الآن، لولا التعاون بين اليهود والنصارى، بين الحركة الصهيونية والغرب بين أهل الكتاب والمشركين والكفار في جبهة واحدة ضد المسلمين. وقد اجتمعت هذه القوى كلها وتمّ اللقاء بينها لمآرب أخرى أوسع من قضية فلسطين والاستيطان بها، وإقامة دولة لليهود على أرضها. كانت المآرب أوسع من ذلك بكثير!

لقد قامت الحركة الصهيونية، وأخذت تنمو وترتب قواها وأجهزتها، حتى كان المؤتمر الصهيوني الرسمي الأول سنة ١٨٩٧م بقيادة «تيودور هرتزل Theodor Herzl» (١٨٦٠م- ١٩٠٤م)، بعد أن سبق أن أعلن عن الحركة الصهيونية في نشرة أو كتاب له بعنوان: «The Jewish State» ومن هذا المؤتمر انطلقت المنظمة الصهيونية العالمية. وُلِدَ هرتزل في بودابست - (النمسا- هنغاريا). وعندما قامت دولة اليهود في فلسطين نُقِلَتْ رُفاته إلى القدس.

وَنالت الحركة الصهيونية، ونال اليهود، دعماً دوليا من جميع أنحاء العالم ودوله. لقد أخذت تُعلِن عن مبادئها وأطماعها في فلسطين شيئاً فشيئا، دون أن تدّعي الإصرار علي إقامة دولة. بدأت بإعلان الرغبة في الهجرة، ثم في الاستيطان، ثمّ نمت مستعمراتها أو مستوطناتها في فلسطين تدريجيّاً حتى جاهرت بالتصميم على إقامة دولة في قسم من فلسطين، ثمّ في فلسطين كلها، ثم في الامتداد من النيل إلى الفرات.

وكان يقود الدعم المادي والمعنوي لهذه الجريمة أولاً فرنسا، ثمّ إنجلترا، ثم اتفقت دول أوروبا على ذلك. واليوم تقود أمريكا كبر هذه الجريمة مناقضة هي ودول أوروبا جميع القوانين الدولية العَلمانية، مناقضين جميعهم جميع حقوق الإنسان، ضاربين بكل القيم والأخلاق عرض الحائط، ورموا أصحاب البلاد الحقيقيين شتاتاً في الأرض. ولا ننسى كذلك الدعم السوفياتي والأحزاب الشيوعية.

من أقـدم المستعمـرات التي أقامهـا اليهـود في فلسطين من خـلال إخفاء حقيقـة النوايا، ومن خـلال دعم الدول الأوروبية وقناصلها في الدولـة العثمانية: «مكفاإسرائيل» سنـة ١٨٧٠م، «بتاح تكفـا» سنـة ١٨٧٨م، «ريشون لـزيـون» سنة ١٨٨٢م، «زكـرون يعقوب» و «روشبينـا» و «رحبوت» سنـة ١٨٧٠م. وامتدت المستعمـرات حتى أصبحت قلاعاً وحصوناً مكدَّسة بالأسلحة استعداداً لمعركة عسكرية وسياسية حاسمة.

أين كـان المسلمون خـلال هـذه السنوات الطـويلة، والتحـرّكـات المكشوفـة على الصعيد المحلي والعالمي؟!.

كـان الكثيرون في غفوة، وفي تمزّق! وكـان بعضهم منشغـلاً بأطماعـه الـدنيويـة، وآخـرون دخلت العَلمانيّة قلـوبهم فجرّدتهم من أي سـلاح للمقاومـة، وآخرون لم يعـودوا يشعـرون بمسؤوليتهم عن فلسطين، واعتبروهـا قضيّة تخصّ الشعب الفلسطيني وحـده، وقد يقدمون لهم بعض العون العاطفي والمادي.

لم تعـد قضيـة فلسطين قضية المسلمين إلا من حيث الشعـارات، مع تضـارب في المفاهيم والحجَّة.

أعتقد أن التـاريخ لم يشهد جـريمة أشـد من هذه الجريمـة، يتعاون على تنفيـذها العالم كلـه، يُلْقُون بِأصحاب الأرض الحقيقيين شتاتـاً في نواحي المعمورة، ويأتـون بأفواج من اليهود من روسيا وألمانيـا وانكلترا وأمريكا، ممن لا تربطهم بفلسطين أيّ رابطـة تاريخية أو قومية، أو حتى دينية. فمعظم اليهود الذين جاءوا إلى فلسطين عَلمانيين لايتمسكون بدين.

ولكن، كما هـو شأن العَلمانيّـة دائماً، فقـد استغلت الحركـة الصهيـونيـة العَلمانيـة العاطفةَ الدينيّة لتسوّغ الباطل وتدّعي به حقّاً كاذباً زوراً وبهتاناً.

ومهما أجـرم الآخـرون وأوغلـوا في الظلـم والعـدوان، فإن المسلمين في الأرض مسؤولـون محاسبون يـوم القيامة بين يـدي الله عن التفريط بأرض فلسطين المقـدّسة، التي وضعها الله أمانة في أعناق الأمة المسلمة إلى يوم القيامة!

(١) المرجع السابق: (صفحات: ٤٥٧ـ ٤٥٨، ٤٦٢).

اليهود الـذين قامـوا ينادون بحقهم في فلسطين هـم الكفّار من بنـي إسرائيل الذين كفروا بعيسى عليـه السلام، كما تبيّن لنـا الآية الكريمـة التي سبق ذكرهـا. وهـم المتّهمون بالتآمر لقتل عيسى عليه السلام:

﴿... فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة...﴾

هـؤلاء الكفار مـن بني إسرائيل لم يَعِدْهم الله بشيء إلا بنـار جهنم لمن يمـوت غير مسلم. لم يعدهم الله بـأرض ولا بدولة. وإن كـان في التوارة اليـوم نصوص تشير إلى شيء من الوعود، فهي نصـوص محرّفة يدرك كثير من اليهود والنصارى أنها محرّفـة، أو أنه وعد للمـؤمنين المسلمين الممتـدين في التـاريخ، الـذين يـؤمنـون بـالأنبيـاء والمرسلين كلهم، وبخـاتم الأنبيـاء والمرسلين محمـد ﷺ. إن الله سبحـانه وتعـالى يهب الإيمان والتـوحيـد، ويبعث الرسل والأنبياء، وقد جعل الأرض كلها حقّاً لعباده الصالحين المؤمنين.

إن الـوعد من عنـدا لله هـو نزول عيسـى عليه السـلام، ليكسر الصليب، وينشر الإسـلام ويقيم دولة الإسـلام. إن الوعـد من عند الله لم يكن لشعب دون شعب، ولكنـه وعد للمـؤمنين برسـالة الإسـلام، ورسالـة جميع الأنبياء والمرسلين الـذين خُتِمـوا بمحمد ﷺ. هؤلاء المؤمنون برسـالة الإسلام أمّة واحدة على مدى الدهر، ولهذه الأمـة وحدها كان وعد الله، والـذين يـؤمنون اليوم بـرسالـة محمد ﷺ، ويتبعـون النبيّ الأُمي الـذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، الذين يتبعون القرآن الكريم وسنّة النبيّ الخاتم ﷺ، هؤلاء اليوم هم امتداد الأمة المسلمة على مدى الدهر، ولهم وعد الله إن صدقوا الله وأوفوا بعهده.

وإذا رجعنا إلى التاريخ، نجد أن اليهـود هم أقل الشعوب إقامة في فلسطين. فلم تستمـر دولتهم إلا فترة قصيرة. وشعـوب أخـرى أقـامت في فلسطين مـدة أطـول بكثير. فـاليهود لاحق لهم في فلسطين من النـاحية التـاريخيـة أبداً. وبـذلك لايكون لليهـود حق تاريخي ولاحق ديني، ولكنه افتراء على التاريخ والبشريـة، وكذب على الله سبحانه وتعالى وعلى أنبيائه ورسله.

---

(١) تـراجع الكتبـالتاليـة للمـؤلف: «فلسطين بين المنهـاج الـرباني والـواقع»، «ملحمـة فلسطين»، «ملحمـة الأقصى»، «على أبـواب القـدس»، من أجل تفصيـلات أوسع عن حق الأمـة المسلمـة وبطلان ادعاء اليهود، والطريق إلى فلسطين.

إنه ادعاء باطل وجريمة كبرى وابتلاء كبير من الله سبحانه وتعالى وعقاب!

إنها إحدى جرائم العَلمانيّة مجتمعة بأثوابها المختلفة: الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية، الديمقراطية والدكتاتورية، والحداثة، والبنيوية وسائر مذاهبها الأدبية، والمذاهب الفكرية، والصهيونية.

إن الظاهرة الغريبة في قضية فلسطين وفي الحركة الصهيونية، هي الدعم الدولي العَلماني الذي نالته هذه وتلك. ولا أظن أن هنالك قضية أُخرى في التاريخ التقت عليها قوى أهل الكتاب والمشركين كما التقت على قضية فلسطين، إلا معركة الأحزاب حول المدينة المنوّرة.

إن هذه الظاهرة، وهذا الدعم الدولي الممتد والمستمر يحتاج إلى دراسة وافية لأخذ العبرة، وليستيقظ المسلمون!

الفصل الرابع

دولة اليهود
قامت بين الدعم الدولي وبين الدعم الأمريكي
لاغتصاب فلسطين المسلمة

لقد نشرت مجلة المجتمع في عددها (١٢٢٠) الصادر في ٢٥ جمادى الأولى سنة ١٤١٧هـ الموافق ٨/ ١٠/ ١٩٩٦م، مقالاً للدكتور مأمون فندي استاذ العلوم السياسية في جامعة جورج تاون في واشنطن، تحت عنوان: «بين الهنود الحمر والفلسطينيين - محاولة لفهم الجذور الثقافية للتأييد الأمريكي المطلق لإسرائيل».

لقد جعل الدكتور مأمون فندي أساس محاولته هو أن أصل الشعب الأمريكي من الجماعات المسيحية التي كانت تطلق على نفسها البيوريتانز، والتي هاجرت إلى أمريكا هاربة من «الفرعون الإنجليزي» ليواجهوا سكان البلاد الأصليين الهنود الحمر، كما هاجرت بنو إسرائيل من مصر هاربة من فرعون مصر إلى فلسطين.

فتصور هؤلاء البيوريتانز أنهم شعب الله المختار وأن أمريكا أرض الميعاد، وأن الهنود الحمر يشبهون الكنعانيين الذين يحثهم الإله على إبادتهم.. وأصبحت الذاكرة التاريخية للشعب الأمريكي تجعله يرى اليهود في صورة أجداده البيوريتانز.

إننا نختلف كل الاختلاف مع الدكتور مأمون في تحليله هذا. فهذا التحليل أقرب مايكون تسويغا للجرائم المرتكبة منه إلى التحليل الواقعي، وأقرب مايكون إلى إهمال العوامل الرئيسة المعقّدة المؤثرة في قضية فلسطين خلال الفترة الطويلة الماضية.

وهذا التصور أو الشعور ليس هو الأساس الذي قام عليه التكوين الحضاري لأمريكا. فالتكوين الحضاريّ لأمريكا له أسباب أعمق من ذلك سواء في الناحية النفسية والفكرية والاعتقادية والاقتصادية. وهذا التصوّر أخفى الدور الأوروبي والروسي.

من حيث التسلسل الزمني فإن الدعم الأمريكي لدولة اليهود على أرض فلسطين

جاء متأخراً بزخمه الذي نراه اليوم، عن زخم الدعم الفرنسي والإنجليزي والروسي الذي كان على درجات مختلفة من حيث الشدّة، حتى أخذ دعم دولة اليهود صورة دولية ممتدّة. ولاعجب أن تتزعّم أمريكا اليوم هذا الدعم بزخمه الأمريكي دون أن يغيب التنسيق مع سائر الأطراف، فأمريكا اليوم تتزعّم قضايا دوليّة متعدّدة وتفرض رأيها فرضاً على ضوء مصالحها الخاصة تحت شعارات الديمقراطية، والعَلمانية، وحقوق الإنسان المدَّعاة، والنظام العالميّ، وقوانين هيئة الأمم المتحدة، وغير ذلك من الشعارات. ولانزال نذكر التصريحات المتعاقبة لوزراء الخارجية لدول أوروبية ولرجال سياستها تقول مامعناه: «إن إسرائيل وجدت لتبقى»، وذلك مع نهاية الأربعينات وأوائل الخمسينات، ومع أول قيام دولة اليهود في فلسطين بصورة عدوانية ظالمة مخالفة كل قوانين العالم ولكل دياناته.

إن الكيان الحضاريّ لأمريكا قام على مظالم كثيرة وعدوان بعيد. لم يقف الظلم على محاولة إبادة شعب كامل، الهنود الحمر، وإنما امتدَّ إلى سرقة المسلمين من أفريقيا رجالاً ونساءً وأطفالاً، يقيّدونهم بالسلاسل الحديدية، مع الضرب المبرّح والاحتقار الكبير، يسوقونهم ليعملوا عبيداً في مزارع السادة الأمريكان(١). وامتد الظلم إلى إلقاء القنابل النووية على هيروشيما وناجازاكي في اليابان، وامتدت المظالم في تاريخ أسود طويل لايمكن لتمثال الحرّية الحجريّ أن يخفيه. ولم يكن الاتحاد السوفياتي ولا دول أوروبا أقل ظلماً وفساداً في الأرض.

والذين هاجروا إلى أمريكا لم يحملوا تصوراً واحداً مثل تصور البيوريتانز، وإنما حملت الهجرة نماذج شتى من الاتجاهات، وامتدت الهجرة لتنطلق من بلدان أخرى غير بريطانيا، وساهم الجميع في بناء الكيان الحضاري هنالك.

ولو استعرضنا علاقة اليهود مع النصاري منذ أن بُعث عيسى عليه السلام، لوجدنا أن عداء اليهود كان شديداً، ولوجدنا أن هذا العداء امتد مع التاريخ حتى أصبح متبادلاً. لقد أعمل النصارى المذابح الوحشية في اليهود في معظم دول أوروبا، وذلك نتيجة لخياناتهم المستمرة وتآمرهم ضد البلد الذي يعيشون فيه، خيانة تنبع من حقد

---

(١) يُقرأ كتاب: «الجذور Roots» لمؤلفه «Alex Haley» الزنجي الأمريكي الذي يشرح من خلاله القصة هول الجريمة.

متوارث عميق. ولايكشف لك هذا الحقد المتبادل الذي أخذ يتحوّل إلى حذر مثل خطاب رئيس الولايات المتحدة بنجامين فرانكلين عند وضع الدستور سنة ١٧٨٩م حيث جاء فيه: «هنالك خطر عظيم يتهدّد الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك الخطر العظيم هو خطر اليهود، . . . ففي كل أرض حلّ بها اليهود أطاحوا بالمستوى الخلقي فيها وأفسدوا الذمة التجارية ونشروا الفتن. . . فمنذ أكثر من ١٧٠٠ سنة وهم يتباكون على حظهم الأسيف (ليستدروا عطف الشعوب ويخفوا هول خياناتهم وجرائمهم).

«إنهم طفيليات لايعيش بعضهم على بعض. . . . . وإذا لم يُبْعد هؤلاء عن الولايات المتحدة الأمريكية بنصّ دستورها، فسيتدفقون إلى أن يحكموا شعبنا ويدمِّروه. . . حتى يظل اليهود في البيوتات المالية يفركون أيديهمَ مغتبطين. . . وإني أحذركم أيها السادة إن لم تبعدوا اليهود نهائياً فلسوف يلعنكم أبناؤكم وأحفادكم في قبورهم. . . . ولا أشك اليوم أن الأبناء والأحفاء في قبورهم يلعنون ويلعنون!» .

إن موقف أمريكا من دولة اليهود لايُعقَل أن يُفَسَّر بتصور محدود لهجرة فئة محدودة من انجلترا إلى أمريكا. إن قضية اليهود من أعقد القضايا في السياسة الدولية، وإنها تحتاج إلى تحليل عميق.

إن الذين هاجروا في القرن السابع عشر إلى أمريكا كانوا يحملون الفكر والتصور الذي كان منتشراً بين شعوب أوروبا ودولها، الفكر والتصور الذي يُكوِّن العامل المشترك الأول بينهم جميعاً.

إن التصور الذي حملوه معهم كان تصور العدوان والظلم واستباحة ثروات الشعوب وحرماتها، ونشر الحروب في الأرض كلها، والتنافس على الدنيا وأطماعها تنفاساً إجرامياً جشعاً. إنه التصور الذي أطلق دول أوروبا في الأرض، في جميع قاراتها، لنهب ثروات الشعوب في مختلف دول أفريقا ودول آسيا، وحرمان الشعوب أصحاب الأرض من ثرواتهم، وإبقائهم فقراء ضعفاء ممزّقين شيعاً وأحزاباً، حتى تتمزّق ديارهم قطعاً متناثرة تسهل السيطرة على كل منها، وليبقوا دولاً متخلفة تسمى دول العالم الثالث، ولتبقى سوقاً واسعة لإنتاجهم.

هذه الروح العدوانية الإجرامية التي اصطلح على تسميتها خطأ «بالاستعمار»، هي الروح التي كانت سائدة، والتي كانت تسيطر على عقول أولئك الذين هاجروا إلى أمريكا. إن هذه الروح العدوانية وما تحمل من تصورات وفكر هي التي كانت تصوغ العلاقات بينهم وبين أصحاب الأرض.

إنهم كانوا جميعهم يعلمون أنه لايوجد دين سماوي، ولو أصبح محرّفاً، يمكن أن يبيح هذه الجرائم الممتدة، وأعمال الإبادة العرقية، التي مازالت تتجدّد في التاريخ البشري.

وكما أن البيوريتانيين لم يكونوا الفئة الوحيدة التي هاجرت إلى أمريكا، ولا هي الفئة الوحيدة التي أرادت إبادة الهنود الحمر فيها، كذلك لم يكن الكنعانيون هم الوحيدين الذين اصطدم بهم اليهود. لقد دخل اليهود في صراع مع سكان فلسطين جميعهم. ولكنهم لم يفعلوا كما فعل المهاجرون إلى أمريكا بالهنود الحمر. وظل أهل فلسطين فيها لم يبادوا.

ومهما تكن بعض النصوص الدينية لدى اليهود، كما يدّعون، تدعوهم إلى إبادة الشعوب، فمن الثابت أن الله بعث الأنبياء والمرسلين إلى شعوبهم ليبلغوهم رسالة الله ودينه وليهدوهم لا ليبيدوهم. ولايمكن أن تكون إبادة الشعوب هدفاً من أهداف الدين، ولكنه هدف من أهداف الطمع والجشع والعدوان على الشعوب ونهب ثرواتها، وهدف من أهداف نصوص محرّفة في الدين.

وقد أعلنت أمريكا نفسَها دولة «عَلمانية» من خلال نشاطها ومواقفها . لايدخل الدين في نشاط الدولة السياسي والاقتصادي والتربوي والاجتماعي والعلمي وغيره. إنها عزلت الدين عن الحياة، وحصرته في الكنائس، إلا حين تحتاج الدينَ لأهدافها العدوانية على الشعوب، فإنها تُخرج الدين، كما تفعل دول أوروبا، من الكنائس، وتكوّن الحركات التنصيرية، لتكون هذه الحركات مع الشركات التجارية، مع قوافل الجاسوسية، ممهّدة للجيوش الزاحفة للعدوان والنهب والإبادة.

ولم يكن دعم أمريكا لدولة اليهود أو تزعمها لهذا الدعم، ولا كان دعم دول أوروبا

كذلك، هو الموقف الوحيد الملفت للنظر، الواقع في دائرة الشبهات أو في منطقة المحرّمات. فالمواقف الباطلة في السياسة الدولية أكثر من أن تحصر. فما هو المسوّغ لهذه المواقف كلها الممتدة على تاريخ طويل.

هنالك عامل مشترك رئيس يفسر الحالات كلها. جميع الدول وأمريكا بينها أو على رأسها، تعلن أن مصلحتها الخاصة هي فوق كل اعتبار. ومصلحتها الخاصة الأولى هي العدوان الظالم لنهب الشعوب وثرواتها، والاستئثار بالحصة الكبرى. إنها الروح العدوانية البعيدة عن أي تصوّر إنساني أو دين سماوي. إنها الدافع الذي أجرى المذابح في المسلمين في الأندلس، وكذلك في اليهود، والذي حرّك الإنجليز والفرنسيين والهولنديين والإسبان والبرتغال وايطاليا وسائر دول العالم النصراني، لتنطلق في الأرض، وفي العالم الإسلامي بخاصة، في غزوات ممتدة في التاريخ. إنها غزوات كانت تركّز على ما كان يسمّى بالمسألة الشرقية، وما أصبح يسمى بمنطقة الشرق الأوسط، وما يمكن أن يتغيّر مسّماه، إلا أنه يظل في جميع الحالات «العالم الإسلامي» الذي اجتمعت دول أوروبا على تمزيقه إربا بالرغم مما كان بينهم من نزاع حول اقتسام الغنائم والنفوذ. إن هذا هو الدافع الذي حرّك بعض دول أوروبا في الحروب الصليبية متخفّية تحت شعارات الدين الذي لايلتزمون منه بشيء، إلا لتسويغ العدوان والظلم ونهب الثروات. وهو العامل الذي دفع الصرب لارتكاب الجريمة الكبرى في البوسنة والهرسك، وهو العامل الذي يفسر مأساة المسلمين في كشمير والفليبين، وجنوب شرق آسيا، ودول أفريقيا ودول آسيا.

ولماذا هذا الحقد على الإسلام وأهله وداره؟! إن لهذا الحقد عاملين أولها الرغبة الجشعة في نهب ثروات العالم الإسلامي الغني. وثانيهما هو قناعتهم الحقيقية من أن الإسلام الذي جاء من عند الله لايقبل الظلم في الأرض، ولا العدوان، ولا يُساوَم على ذلك، وأن قوة الإسلام والمسلمين تظهر حين يكون المسلمون أمة واحدة متمسكة بدينها. فالطبقة العليا الظالمة في تلك الدول المعتدية لاتعبد إلا مَصْلَحتها، أعلنت عن ذلك

(١) س. ناجي: المفسدون في الأرض (ص: ٩-١٤). (٢) المصدر السابق: (ص: ١٤-٢٦)

صراحة. ومن أجل ذلك تغرس في نفوس الشعب وفي الرأي العام كراهية الإسلام والمسلمين. وتصل إلى ذلك بوسائل الإعلام وفي البيوت والمعاهد وغيرها من الوسائل.

أما الرأي العام في أمريكا وغيرها من الدول فلا تبنيه الذاكرة التاريخية كما يظنُّ بعضهم. إنما يبنيه طوفان الإعلام الهادر الممتد زمنا طويلاً، الإعلام الذي يثير ما يشاء من الذاكرة التاريخية وينشطه، ويدفن منها مايشاء. والذي يستغل الدين كلما دعت المصلحة المادية العَلمانية إلى ذلك، يستغله إستغلالاً متناقضاً، مخدِّراً أو مهيجاً.

والرأي العام في عالم الديمقراطية والعَلمانية ليس هو الذي يتخذ القرار الحاسم. فالقرار تتخذه دهاليز السياسة وقواها الخفيّة والعلنية، من خلال مؤسسات تنشط أو تهدأ حسب مايُراد لها. والرأي العام حين يتحرك فلا يتحرّك ذاتياً، ولكنه يتحرك بتوجيه تلك القوى الفاعلة المؤثرة. ألم يقنعوا الرأي العام بأن يغيب في خدر الفاحشة والجنس والخمور، والجري اللاهث وراء الحاجات المادية التي تتحكم تلك القوى بتوزيعها على اللاهثين المخدرين لتظلّ ممسكة برقابهم.

لا يُعقل أن نَعْزِلَ قضية فلسطين وما أصابها من مظالم وطغيان عن هذه الحقائق الممتدة بجذورها في واقع أمريكا وغيرها، ولا عن واقع السياسة الدولية والعلاقات المتشابكة المعقّدة المتناقضة، ولا عن تاريخ العالم الإسلامي كله مع تلك الدول الظالمة المعتدية.

إن «الصحوة الإسلامية» اليوم ليست انعكاساً لتصور بروتستاتي أو كاثوليكي أو أرثوذكسي أو يهودي. إن الصحوة الإسلامية التي نرجو أن تستكمل مقوماتها وشروطها، كانت نتيجة طبيعية لفعَّاليّة الإسلام التي لاتنقطع، ولقدرته الدائمة على تجديد الحياة في أبنائه، على سنن الله ماضية وحكمة بالغة وقدر غالب. ولايتعارض هذا مع توافر مثيرات وقوارع تطرق قلوب الغافلين لينهضوا ويتابعوا مسيرتهم في التاريخ البشري.

لاننكر أن الغرب أوجد في الأرض الإسلامية أناساً يتبنون نظرته للكون والحياة، ويبتعدون عن نظرة الإسلام. ولاننكر أن الغرب نجح في تمزيق العالم الإسلامي في لحظة غفا فيها المسلمون، ولا ننكر أن الغرب جعل الدماء تتدفق في العالم الإسلامي من المجازر

التي أدارها. فهذه القوارع لعبت دورها في توفير حـافز من الحوافز، حافز يظل يعمل على سنن لله ثابتة.

إن علاقـة اليهود مع النصارى امتـدت أكثر من ألف وتسعمائة سنة شهـدت عداء مستحكماً وحقداً متبادلاً ومجازر في اليهود رهيبة.

ولكن هـذه العـلاقة بـدأت تتغير اليـوم إلى تعـاون وثيق ملفت للنظـر. فكيف تمّ ذلك؟! ربما يوحي تقارب الإنجيل والتوراة بأنه السبب. وقـد يكون هذا سبباً لدى بعض فئات الرأي العام حسب التوجيـه الذي يصلهم. ولكن لو كان هو السبب الحقيقي فلماذا لم يظهر أثره إلا مع نهاية القرن التاسع عشر؟!

إن السبب الرئيس فيما نعتقد هو أن القـوى الكبرى المنتسبة إلى النصرانية تخلّت عن نصرانيتها وأعلنت نفسها علمانية لاتستخدم الدين إلا لمصـالحها المادية الدنيوية. والقوى المحركة اليهـودية تخلّت عمليا عن الدين وتصوراتـه إلا بمقدار مايخدم مصالحها الـدنيوية الماديـة. وتمثّلت هـذه القوى اليهـوديـة «بـالحركـة الصهيونيـة» التي أصبحت في حقيقـة ممارساتها عَلمانية تستخدم الدّين لتسويغ جريمتها في فلسطين، وفي غيرها.

من خلال النظرة العَلمانيـة الخفيّة أو العلنيّة لدى هـذين الطرفين، التقت المصالح المادية الدنيوية، ودارت المساومات حتى أخذت صورة تلمسها في الواقع التطبيقي.

عندما تخلّى كل طـرف منهما عن تصوراته الدينية الحقيقيـة، ومارسوا من الجرائم في الأرض مالايسمح بـه دين من أصل سماويّ، عنـد ذلك أصبح باب اللقـاء والتقارب على المصالح الدنيويـة مفتوحاً أمامهما، فتقاربا والتقت مصـالحهما، وبرز الـدعم لدولة اليهود من الـدول العَلمانية التى تنتسب اسميـا للنَّصرانية في أوروبـا وفي أمريكـا. وكانت فـرنسا تتولى كبر هـذه الجريمة في مرحلة، ثم تـولتها انكلترا على تنسيق مع جميع الفرقـاء، واليوم تتولى أمـريكا زعـامة هذا الـدعم لدولـة اليهود على أرض فلسطين المغتصبـة بالتنسيق مع سائر الدول.

ولاعجب في ذلك، فهي تتولى دعامة قضايا كثيرة في الساحة الدولية اليوم، ابتلاء منه سبحانه وتعالى لينكشف ضعف الضعفاء وتقوم الحجة عليهم، وينكشف طغيان الظالمين فيأتيهم العقاب من عند الله.

ولقد نقلت «روث بلاو» زوجة أحد كبار الحاخاميين في القدس في كتابها «حرّاس المدينة» بالفرنسية في الصفحة (٦١) عن التلمود: «إن الله استحلف الشعب اليهودي قبل أن ينفيهم من الأرض المقدّسة ثلاثة أيمان: ألا يعودوا إلى الأرض قبل عودة المسيح سواء أكانت العودة في جماعات أو بالقوة، ألا يتمرّدوا على شعوب العالم، ألا يحاولوا تقصير مدة الشتات. وأن الله قد جعل عقوبة من يخالف هذه الأيمان أن يبيح دماءهم كما أباح دماء الغزلان في الغابات. ... ، وأن الله سيسحق جميع الأمم التي تساعد اليهود على تمرّدهم»[(١)]. وكذلك وزع اليهود الأرثوذكس في مدينة مونسي الأمريكية من ولاية نيويورك وثيقة تقول إن الشعب اليهودي ودولة اسرائيل شيئان مختلفان ومتعارضان لأن الديانة اليهودية والتوارة قد حرّمت على الشعب اليهودي أن يكون لهم دولة قبل عودة المسيح.

نريد أن نخلص من ذلك إلى أن دولة اليهود في أرض فلسطين المغتصبة لم تقم على أساس من التوراة أو الإنجيل، وأن كل الادعاءات محرّفة أو باطلة، وأنها قامت على أساس المصالح العدوانية لدول عدوانية التقت مصالحها معّ الحركة الصهيونية» كما ذكرنا قبل قليل.

لليهود ادعاء باطل زخرفته الدعاية، وللمسلمين حق ثابت في فلسطين. إن فلسطين حق الأمة المسلمة على مدار التاريخ، دخلها الأنبياء المسلمون باسم الإسلام، ومن الأنبياء من ولد فيها وبُعِثَ باسم الإسلام. ولقد أُسري بخاتم الأنبياء ﷺ إليها باسم الإسلام، وعُرج به منها باسم الإسلام. وأمّ الأنبياء كلهم في المسجد الأقصى ليبرز أن الدين عند الله واحد هو الإسلام. وأن فلسطين لاتنتسب لدم أو عرق، وإنما تنتسب لدين ورسالة هي دين الإسلام ورسالته. وإن اعتقاد بعض اليهود، كما ذكرنا قبل قليل،

(١) د. معروف الدواليبي - مقالته في الشرق الأوسط العدد ٦٥٩٩ - الأحد ١٢ شعبان ١٤١٧هـ، ٢٢/١٢/١٩٩٦م السنة ١٩ - ص: ٦ الكتاب بالفرنسية Las Gardiens de [redacted] cite نشرته دار النشر الفرنسية في باريس "Flammarion" سنة ١٩٧٨م.

أنه لايجوز أن تقوم لليهود دولة حتى يأتي المسيح، هو اعتقاد مضطرب. إن الاعتقاد بعودة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام حق، ولكنه سيعود ليكسر الصليب وليُكذّب اليهود والنصارى بما أدخلوه من تحريف، وليقيم دولة الإسلام، يحكم بالإسلام، بدين الله الواحد الذي جاء به جميع المرسلين الذين خُتموا بمحمد ﷺ، الذي جاء كتابه القرآن الكريم مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه.

سينزل عيسى عليه السلام فيقتل الدجّال ويحكم بالإسلام. وما دعوى تلك الفئة اليهودية إلا تحريفاً لجزء من هذه القضية. فإذا أخذ الله على اليهود عهداً ألا يقيموا دولة لهم في فلسطين، فذلك مقبول بميزان منهاج الله ألا يكون لليهود دولة في فلسطين لاقبل نزول عيسى عليه السلام ولا بعده.

فإذا قامت لليهود دولة اليوم، فذلك ابتلاء من الله لليهود لتقوم الحجة عليهم بمعصية الله وبالعدوان والافتراء والظلم. وهو ابتلاء من الله ليقيم الحجة على المسلمين الذين غفلوا وغفوا عن واجباتهم الشرعية في حمل رسالة الإسلام في الأرض كلها، وفي حماية ديار المسلمين جميعها وفيها فلسطين، وفي حماية الأمة المسلمة الواحدة لتظل قائمة صَفاً كالبينان المرصوص.

إنه ابتلاء من الله شديد، فعسى أن يتقبّل الله منا كلمة النصح هذه، ننصح بها أنفسنا والمسلمين جميعاً.

إن اغتصاب فلسطين هو من أخطر آثار العَلمانية واضطراب حقوق الإنسان الوضعية، حيث تعدَّدت بهذه وتلك المكاييل والموازين، وغَلبت المصالح العدوانية على الحق والمنطق والعقل، وأفلت الزمام، وضاعتَ حقوق الإنسان وحقوق الشعوب، في لحظة غفا فيها المسلمون غفوة شديدة، أو خُدِّروا تخديراً شديداً، أو شُلَّتْ قواهم حتى هانوا.

الباب الخامس

حقوق الإنســـان

بين المسيرة الإيمانيـة والمسيرة الوضعية

تمهيـــد

نورد هنا موجزاً لما سبق عرضه في الفصل الأول من الباب الأول، للتذكير ولربط حقوق الإنسان الوضعية بجذورها التاريخية كما ربطنا بها العَلمانية.

إن الجذور العميقة الأولى للفكر الأوروبي، وكذلك لحقوق الإنسان، تعود إلى اليونان فكراً وفلسفة وأدباً. واليونان مثلهم مثل سائر الأمم في الأرض جاءهم رسل من عند الله يبلغونهم رسالة التوحيد، ثم انحرفوا بها كما انحرفت شعوب أُخرى [(١)] وانتقل الفكر اليوناني إلى الرومان بوثنيّته وانحرافه، وطغيان الناحية المادية، والنزعة الوطنية الجاهلية، ومضت الحضارة الرومانية تنمو على هذه الأسس، تدعمها القوة العسكرية المكتسحة، فامتد النهج الوثني مع الإمبراطورية الرومانية. ولما جاءت النصرانية إلى أوروبا خلال السطوة الرومانية، لقي النصاري أول الأمر عذاباً شديداً، حتى جاء الامبراطور «جاليريوس» والامبراطور قسطنطين، فقدما للنصاري الدعم والحماية، واعترف الامبراطور «قسطنطين» بها، وأعلن الامبراطور «تيودوسيوس الثاني» المسيحية ديناً للإمبراطورية مع مطلع القرن الخامس. ومن خلال ذلك أخذت النصرانية بعض الأفكار المنحرفة والطقوس الجديدة من الوثنية الرومانية والمجتمعات الهيلينية، خاصة وأن رسالة عيسى عليه السلام كانت محصورة «لخراف بني إسرائيل الضالة». ذلك أن كل نبيّ كان، يبعث إلى قومه خاصة حتى بُعث محمد ﷺ للعالمين، للناس كافة. لم تستطع النصرانية، بسبب ذلك، أن تقدم حلولاً للقضايا الواسعة في الإمبراطورية الرومانية، فكان لابد أن تتسرّب بعض الأفكار البشرية وبعض التقاليد والعادات من المجتمع الروماني. وأخذت النصرانية تصطدم مع بعض العلوم الناشئة، وأخذت الكنيسة تنمو ويشتدُّ سلطانها، وأخذ يبرز اصطدامها مع العلم من ناحية ومع الملوك في أوروبا من ناحية أخرى، خلال ما يسمى بالعصور المظلمة، حين ذهبت حقوق الإنسان، ابتداءً من حقوق بعض الملوك، ونزولاً إلى طبقة العبيد. وزاد الأمر سوءاً أن

---

(١) يراجع كتاب الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته – للمؤلف – ط: ٣– من أجل تفصيلات أوسع عن هذه القضية – الباب الرابع – الفصل الأول [ص: ٢٥١ – ٢٩٢١].

أوروبا لم تتقبل رسالة الإسلام ، حين شعر أرباب السلطة في أوروبا أن رسالة الإسلام حقٌّ سيجردهم من الترف والسطوة والفساد الذي هم فيه ، ومن المُتَع المهلكة التي يحسبونها نعيماً ، وسيعيد للناس كافة حقوقهم المسلوبة . كان موقفهم شبيهاً بموقف « قريش » عندما بُعِث محمد ﷺ فيها . وقد بيّن القرآن الكريم هذا الموقف الممتد مع التاريخ بقوله سبحانه وتعالى ﴿... كبر على المشركين ماتدعوهم إليه .. ﴾ [الشورى : ١٣] لقد كَبُر في الماضي ، وكَبُر اليوم ، وسيكبر غداً مادام المشركون المترفون في غمرة ساهين لايعطون الناس حقوقهم . واشتد الصراع بين الكنيسة والعلم ورجال الحكم . وظهرت مذاهب فكرية وفلسفية وأدبية متعددة متصارعة ، كانت نتيجتها عزل الكنيسة والدين عن الحكم والمجتمع ، وحصرها في داخل الكنائس إلا حين يحتاج أهل السلطة استغلال الكنيسة لمصلحة لهم دنيوية ، وأعلنت معظم دول أوروبا أنها دول عَلمانية .

كان القرن الثامن عشر يسمى عصر التنوير ، وهو في حقيقته امتداد لعصر الظلمات أو لظلمات أوسع . فقد جعل هذا العصر العقل والفلسفة المثالية إلهاً . ثم جاء القرن التاسع عشر ليجعل العلم الوضعي الإله الجديد ، وجعل بعضهم الطبيعة والواقع إلهاً آخر ، وآخرون جعلوا الإنسان هو محور الكون كله وهو الإله .

وانتهت المسيرة في أوروبا إلى ظهور شكلين من الفلسفة التي انعزلت عن الدين : الفلسفة المادية الجدلية والتاريخية التي كانت أساس الفكر الاشتراكي الشيوعي ، والفلسفة المثالية التي أصبحت أساس الفكر الرأسمالي والديمقراطي ، والتي لاتكاد تختلف عن المادية إلا في نقاط قليلة . الفلسفة المادية تعتبر الوجود كله وجوداً خارجاً عن وعينا ، كله مادة ، لم يخلقه أحد . وتعتبر هذا الوجود المادي هو الأسبق ، وأما «الروح» ، وهي عندهم الوعي والعقل والفكرة ، فقد تلا وجودها الوجودَ الماديّ . وأما الفلسفة المثالية فإنها ترى الروح هي الوعي والعقل كذلك ، ولكنّها هي الأسبق في الوجود . وكلتا الفلسفتين افترضت نظريات بشرية لا تقوم إلا على الظن والتخمين ، لا يسندها علم تجريبي ، ولايسندها وحي من عندالله . وحين ترى كل من هاتين الفلسفتين وجود قوانين ثابتة في الحياة والكون ، فإنها تبحث عن مصدرها في مايتوهمونه ويسمونه «العقل

الشامـل» و «الفكرة المطلقة»، أو «الإرادة المطلقـة». وإن اعترف بعضهم بـوجود «الله»، فإنه الإلـه الذي تصنعـه تصوراتهم وليس الله الحق رب السمـوات والأرض ورب العالمين. ومن ناحية أُخرى لايرتبط اعترافهم بـوجود هذا الإله بأي دور له في الحياة أو في التشريع أو القانـون. وتظل القوانين بجذورها وتفصيـلاتها ثمرة للجهود البشرية المعـزولة عن الإيمان والتوحيد وشرع الله ودينه.

من هنا ظهـرت العَلمانية في الغرب كله مضطـربة المفاهيم والتصورات، لكنهـا كلها متفقة على عزل الـدين عن واقع الحكم والسلطة والتربية والاقتصاد والسياسـة. وهذا العزل هو الذي يسمـونه بحرية الدين. ومـن هنا كان الخلاف الرئيس بين مفهوم حـرية العبادة في الإسلام ومفهـومها في الغرب. فـالإسلام دين يمتد في جميع ميـادين الحياة البشرية وجـوانبها بتشريعـاتـه الرّبـانيـة ممـا يجعل عزلها عن الحيـاة خـروجـاً صـارخاً عن الإسـلام. إن الـدين الإسـلامي لاينحصر نشـاطه وتشريعـه في ميـدان أو بعض ميـادين الحياة. إنـه دين يـدخل ميادين الحياة البشرية كلها ميداناً ميداناً، في حياة الإنسان الفرد، والجماعة والأمة والبشرية.

من قلب هذه التصـورات المادية والمثاليـة كما أشرنا إليها، ومن قلب هـذه العَلمانية خرجت حقوق الإنسـان في الغرب على الصورة التي عرضناهـا، والتى تحمل معها أخطاء ونقائص كثيرة، مما جعلها في ميـدان التطبيق والواقع غير ناجحة، كما سنكشف عن ذلك بعد قليل.

الفصل الأول

موجز المسيرة التاريخية

للبيانات والوثائق الوضعية لحقوق الإنسان

على أثر هزيمة المسلمين في مواقع كثيرة في الأرض: في الجولات الأولى من الحروب الصليبية، في إسبانيا، في جنوب شرق آسيا، انحسار الدولة العثمانية عن كثير من أقطار أوروبا الشرقية، سقوط دولة المغول في الهند، على أثر هذه الهزائم التي أدت إلى سقوط الخلافة، وإلى احتلال الأعداء لمناطق واسعة من العالم الإسلامي، أخذ الغرب يعزو كل مظاهر التقدّم لنفسه، لعلمائه ورجاله وفلاسفته، . . ويُخفي ما للمسلمين من أثر كبير في التطور الذي بلغته أوروبا في العصور الحديثة، إلا قليلاً من رجالهم الذين حاولوا الإنصاف أو بعض الإنصاف.

لا نتحدث هنا عن العلوم والصناعة مع أهميتها، ولكننا نتحدث عن الفكر الإنساني والتصور للكون والحياة والإنسان، والتطور الذي بلغته القوانين بالنسبة لحقوق الإنسان.

لقد أصبح من الخطأ المتعارف عليه اليوم أن يُقال إن حقوق الإنسان وقوانينها بدأت مع الثورة الفرنسية التي امتدت من سنة ١٧٨٩م حتى سنة ١٧٩٩م. ويُرْوَى أن من بين من صاغوا وثيقة حقوق الإنسان في الثورة الفرنسية «الماركيز لافاييت The Marquis De lafayette (١٧٥٧ - ١٨٣٤م)[١]، وفي قول آخر أمانول جوزيف سييس (١٧٤٨ - ١٨٣٦م)[٢]، ثم أقرتها الجمعية الوطنية وأعلنتها كوثيقة رسمية لحقوق الإنسان في ٢٦ آب ١٧٨٩م. ويُقال إن هذه الوثيقة اعتمدت على مصدرين: الأول: كتابات جان جاك روسو (١٧١٢م - ١٧٧٨م) وفولتير (١٦٩٤م - ١٧٧٨م) وغيرهما من الفرنسيين، والكاتب الإنجليزي جون لوك Joh Locke (١٦٣٢ - ١٧٠٤م) وغيرهم من كتاب أوروبا. والثاني: إعلان وثيقة الاستقلال الأمريكي الصادرة في ٤ تموز (يوليو) ١٧٧٦م، التي

(١) New STandard Encyclopedia Vol. 10 : (L 30- 310)
(٢) د. محمد عماره - الإسلام وحقوق الإنسان ضرورات لا حقوق (ص: ١٣).

كتبها توماس جيفرسون (١٧٤٣ - ١٨٢٦م) وأقرّها الكونجرس الأمريكي. ومن أهم ماورد في وثيقة الاستقلال الأمريكي النصّ التالي: «نؤمن أن الحقائق التالية تثبت صحتها بنفسها: إن الناس خُلقوا جميعاً متساويين، وأن الله منحهم حقوقاً غير قابلة للتبديل. ومن هذه الحقوق: الحرّية والحياة وطلب السعادة».

وكذلك جان جاك روسو جاء في كتابه العقد الاجتماعي «أن الناس يولدون أحراراً ولكنهم يعيشون مكبَلين بالسلاسل في كل مكان».

وانطلقت شعارات الثورة الفرنسية في أوروبا: «الحرية، المساواة، الإخاء» "Liberté, Egalité, Fraternité: Liberty, equality, brotherhood".

ولكن الثورة الفرنسية في ممارستها خلال سنواتها العشر ارتكبت من المظالم ما يتناقض مع هذه الشعارات، ارتكبت المظالم باسم الشعارات، كما تُرتَكَبُ اليوم كثير من المظالم في الأرض تحت شعارات السلام والحرية والمساواة والإخاء.

وظل كثير من الناس يعتقدون أن حقوق الإنسان ابتدأت لأول مرة مع هذه الفترة في التاريخ البشري، وأن ماتلا ذلك كان مبنيا عليه. وفي ذلك مغالطة كبيرة. فالإنسان جاهد لأجل حقوقه منذ قديم الزمان. وكلما قام ظلم من فئة كان يظهر فئة من المظلومين تقود الثورة والصراع ضد الظالمين. إن حرص الإنسان على حقوقه قضية مغروسة في الفطرة كما سنوضح. فالجهاد ضد الظلم أو الصراع ضدّه تبعثه الفطرة السليمة أو بقيّة منها إذا شوّهت الفطرة. فقد يثور ضد الظلم طائفة من الناس، فإن نجحوا أصبحوا هم أنفسهم ظالمين، ونسُوا حقوق الإنسان وما كانوا يطالبون به. وفي كثير من الأحيان كان يقوم المنتصرون بوضع قوانين تعطي طرفاً من الحقوق للناس وتعطي كل الحقوق لأنفسهم. واستغرقت هذه الحالة مسيرة طويلة في التاريخ كانت الحقوق فيها تُمنَح من البشر للبشر، ويصوغها البشر كجزء مستقل عن رسالة عامة إن وجدت الرسالة العامة، أو كجزء مستقل يمثل جوهر الصراع، ولعله من المفيد أن نتتبَّع مسيرة القوانين البشرية في خطواتها الرئيسة:

١ - القانون البابلي الذي يعود للقرن الثالث والعشرين قبل الميلاد.

٢ - قانون حمورابي .

٣ - القوانين اليونانية والرومانية في مراحل مختلفة، وتعاليم المدرسة الرواقية التي أسسها زينون الكيتيوني في معبد أثينا ذي الأعمدة والأروقة وزينون عاش في الفترة ٣٣٥-٢٦٣ق.م.

٤ - وثيقة الحريات العظمى الماغناكارتا Magns Carta التي أُجْبِرَ ملك بريطانيا على توقيعها سنة ١٢١٥م.

٥ - وثيقة المثول أمام القضاء في بريطانيا تشمل بعض الضمانات للمتهم، وقد صدرت سنة ١٦٧٩م.

٦ - وثيقة الحقوق الإنجليزية سنة ١٦٨٩م.

٧ - وثيقة الاستقلال الأمريكي سنة ١٧٧٦م.

٨ - إعلان حقوق الإنسان أثناء الثورة الفرنسية الذي صدر سنة ١٧٨٩م.

٩ - وثيقة حقوق الإنسان العامة للأمم المتحدة بتاريخ ١٠/ ١٢/ ١٩٤٨م.

١٠ - الميثاقان العالميان الصادران عن العامة للأمم المتحدة أحدهما عن الحقوق المدنية والسياسية، والثاني عن الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية الصادران في ١٩/ ١٢/ ١٩٦٦م. ووثائق الأمم المتحدة هذه ليس لها قوة الإلزام.

وأمام الادعاء الغربي بأنهم أول من نادى بحقوق الإنسان، وأمام التجاهل الكامل للإسلام والمسلمين، والضعف العام الذي أصاب الأمة المسلمة وتمزّقها، حاول بعض المسلمين أن يضع وثيقة لحقوق الإنسان في الإسلام على غرار ما فَعل الغرب.

وكان من بين ما أُعلن من مثل هذه «الوثائق الوضعية» الوثائق التالية التي سنعلق عليها في الصحفات المقبلة .

«البيان العالمي عن حقوق الإنسان في الإسلام» الذي صدر عن المجلس الإسلامي العالمي الذي يتخذ من لندن مركزاً له، والذي عقد مؤتمراً عالمياً في باريس خلال شهر ذي القعدة سنة ١٤٠١هـ، وأصدر بيانه في ٢١ ذي القعدة ١٤٠١هـ الموافق ١٩ أيلول ١٩٨١م. وقد شمل

هذا البيان مدخلاً ثم ثلاثاً وعشرين مادة، ثم المصادر للآيات والأحاديث.

وقد صدر كذلك «إعلان القاهرة حول حقوق الإنسان في الإسلام» الصادر عن منظمة المؤتمر الإسلامي في ١٤ محرّم١٤١١هـ الموافق ٥ آب (أغسطس) ١٩٩٠م. وقد شمل هذا الإعلان خمساً وعشرين مادة. واختتمت موادها بالمادة الخامسة والعشرين التي تنصّ على أن «الشريعة الإسلامية هي المرجع الوحيد لتفسير أو توضيح أي مادة من مواد هذه الوثيقة» كما شمل الإعلان مدخلاً لمواده.

وقد نصت المادة الأولى في البيان العالمي الصادر من باريس الذي ذكرناه أعلاه:

« الناس جميعاً سواء في المجتمع لا امتياز ولا تمييز بين فرد وفرد على أساس من أصل أو عنصر أو جنس أو لون أو لغة أو دين». ونرى أن هذا النصّ جاء واسعاً عاماً دون أن يشير إلى القيود والضوابط التي وضعها الإسلام لتوفير العدالة و ضمان الحقوق العادلة. إن هذا النصّ نصّ عَلمانيٌّ لايتفق وحقائق الإسلام كما سنشير إلى ذلك بعد قليل.

أما بيان القاهرة فقد كان أكثر دقّة، لولا أنه أعاد النصّ العَلمانيّ السابق. فقد جاء في المادة الأولى:

(أ) البشر جميعاً أسرة واحدة جمعت بينهم العبودية لله والبنوّة لآدم ، وجميع الناس متساوون في أصل الكرامة الإنسانية وفي أصل التكليف والمسؤولية دون تمييز بينهم بسبب العرق أو اللون أو اللغة أو الجنس أو المعتقد الديني أو الانتماء السياسي أو الوضع الاجتماعي أو غير ذلك من الاعتبارات. وإن العقيدة الصحيحة هي الضمان لنمو هذه الكرامة على طريق تكامل الإنسان.

(ب) إن الخلق كلهم عيال الله، وإنَّ أحبَّهم إلى الله أنفعهم لعياله، وإنه لافضل لأحد منهم على الأخر إلا بالتقوى والعمل الصالح.

لقد وضّح هذا النص أن المساواة هي في أصل الكرامة الإنسانية وأصل التكليف، وورود كلمة «أصل» كان موفقاً جداً.

كما بين أن العقيدة الصحيحة التي هي الإسلام، وإن لم ينصّ على كلمة الإسلام،

هي الضمان لنمو الكرامة.

كما بيَّن أن أساس التفاضل بين الناس هو التقوى والعمل الصالح. هذه القواعد الربانيّة تكشف من حيث المبدأ الفرق الكبير بين البيانات الوضعية وبين البيانات النابعة عن منهاج الله.

ولكننا نود أن نشير إلى أن حقوق الإنسان لايمكن لبيان عام أن يوفيها حقَّها، ولكن منهاج الله كله هو البيان الحق المعجز المتكامل، كما سنوضح ذلك في فصول أُخرى. إن البيان أو الوثيقة على غرار ماذكرناه أعلاه لايستطيع أن يوفي عرض حقوق الإنسان أبداً، ولا أن يربطها بالمسؤوليات كما ربطها منهاج الله.

إن منهاج الله -قرآناً وسّنة ولغة عربية- هو بأكمله البيان الأول المعجز لحقوق الإنسان، وليست البيانات الوضعية التي أشرنا إليها سابقاً. فالنص، مثلا، على أن الناس متساوون دون تمييز بينهم بسبب اختلاف العرق أو اللون أو اللغة أو الجنس أو المعتقد الديني، هو نصٌّ عَلمانيّ غربي يُحْشر حشراً بين بعض الأفكار الإسلامية، كما رأينا في النصوص السابق ذكرها من البيانات الوضعية. فينكشف التناقض والاضطراب. إن هذا النصّ مناف لقواعد الإسلام، ونصوص القرآن والسنّة، وللتطبيق العملي في حياة النبوة الخاتمة والخلفاء الراشدين. فوجود بعض الحقوق التي يشترك فيها الناس، لايعني أنهم يشتركون في جميع الحقوق. فالمعتقد الديني له دور أساسيّ في تحديد الحقوق وفي التفرقة بينها، فلايمكن للإسلام أن يساوي بين المؤمن والكافر بعد أن فرّق الله بينهما:

﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لايستوون﴾ [السجدة: ١٨]

وتتوالى الآيات لتؤكد هذه الحقيقة الأساسية في الإسلام. وسنرى في الفصول المقبلة كيف أن رسول الله ﷺ وضح جوانب هذه القضية في الكتاب الذي كتبه في المدينة حيث جعل المؤمنين أمّة من دون الناس.

وكذلك قوله سبحانه وتعالى:

﴿أم حسب الذين اجترحوا السيّئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون.﴾ [الجاثية: ٢١]

وكذلك قوله سبحانه وتعالى:

﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ [النحل: ٩٧]

كيف يتساوى المؤمن والكافر في ميزان الله، وقد جاء الإسلام ليجتثّ الكفر من جذوره، وليجفف مستنقعاته، ولتقوم الدعوة الإسلامية، والأمة المسلمة، بهذه المسؤولية العظيمة.

وكذلك فرّق الإسلام في بعض الحقوق بين المسلم والذمي، وجعل للذمي حقوقاً يرعاها الإسلام ويوفي بها، على ضوء ما جاء في الكتاب والسنة. وكنا نتمنى أن تشير البيانات الوضعية السابقة إلى هذه الاختلافات، وأن تجهر بها لأنها حقٌّ من عند الله لانملك أن نخفيه ولا أن نعطّله. إنها مرحلة من الضعف نمرّ بها لن تكون حجّة على الإسلام، بل الإسلام حجّة على الجميع.

ولكن هذه النصوص التي وردت في البيان الصادر عن المجلس الإسلامي العالمي، أو إعلان القاهرة، يشعر القارىء أنها تتحاشى المجاهرة بنصوص إسلامية أُخرى واردة في الكتاب والسنة. ففي بيان القاهرة جاء التعبير: «العقيدة الصحيحة»، كأنما هو وسيلة لتحاشي المجاهرة بكلمة الإسلام. فالإعلان الواضح الصريح أنه هو وحده العقيدة الصحيحة، وأن الدين عند الله الإسلام، وأنه من يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه، وأنه في الأخرة من الخاسرين.

الدعاة مكلفون بتبليغ الإسلام كما نزل من عند الله، لايُكْتَم منه شيء، ولا يُتنازَل منه عن شيء، وإلا لايكون التبليغ قد تم. إن هذا شرط رئيس لتبليغ رسالة الله إلى الناس، وبهذا أمر الله رسوله:

﴿يا أيها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربك و إن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لايهدي القوم الكافرين﴾ [المائدة: ٦٧]

وقد لعن الله الذين يكتمون ما أنزل الله من البيّنات والهُدى، مشيراً بذلك إلى ما فعله اليهود والنصارى:

﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيّنّاه للناس

في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾ [البقرة : ١٥٩]

لذلك نرى أن الذين يقومون بأمر الدعوة والبلاغ في دين الله لايملكون إلا أن يصدعوا بما أمرهم الله، فيبلِّغوا رسالة الله كما أنزلت واضحة جلية.

﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾ [الحجر: ٩٤]

وإن التورية لن تفيد، لا من حيث البلاغ، ولا من حيث حقيقة المشركين. فالمشركون بينهم من يعرف الإسلام وتفاصيله ويدرسونه دون أن يؤمنوا به، بل ليحاربوه. فإن وارينا أو كتمنا فإنهم يعلمون عندئذ أننا خائفون منهم أو منافقون لهم، فنفقد هيبتنا في نفوسهم.

أما بالنسبة لما ورد في نصّ وثيقة الاستقلال الأمريكي من أن الناس خلقوا جميعاً متساوين، وأن الله منحهم حقوقاً غير قابلة للتبديل، فإن الوثيقة لم تشمل ولم تشر إلى منهج متكامل يبيّن حقوق الإنسان كاملة، ولا طبّقت أمريكا هذا النصّ لا مع الهنود الحمر، ولا مع السود، ولا مع شعوب أخرى كثيرة سَحَقت فيها حقوق الإنسان.

ولقد جَرَّد الغرب كله الإنسان من كثير من حقوقه حين جرّدوا المرأة من حجابها وسترها، وحين ألقوها في لهيب فتنة الجنس مع الشباب والرجال، وحين حطموا الأسرة وجرّدوا المرأة من حقوق الأمومة والزوجية، وجرّدوا الزوج من سكن الحياة الزوجية وحقّه في القوامة، وجرّدوا الأبناء من حقِّ رعاية الأبوة والأمومة.

ولايختلف الوضع كثيراً بالنسبة لوثيقة الثورة الفرنسية التي ارتكبت أقسى الجرائم الوحشية.

الفصل الثاني

أهــم النتائــج لمسيرة الوثائــق الوضعيــة لحقــوق الإنســان وأهــم المآخــذ عليهــا

١ - أهم النتائج والآثار :

إن القوانين الوضعية التي صدرت خلال المسيرة التي عرضناها لم تُحقق توفير الحقوق عمليا في ساحة الواقع. وإن جميع الحقوق التى صاغها البشر لم تستوف جميع حقوق الإنسان، ولم تستوف تطبيقاتها وتعريفها وخصائصها، وظل تطبيقها يختلف من مجتمع إلى مجتمع، وظل في كثير من الأحيان يخضع للمصالح الخاصة والمصالح المتصارعة، دون أن يجد التحديد اللازم ولا السلطة التي تنفذ هذه القوانين حتى مع عدم اكتمالها. وأخطر ما في هذا الأمر هو الادعاء أو الشعور بأن هذا أو ذاك هو الذي منح الحقوق للإنسان، فجاءت الحقوق معزولة عن رسالة الإنسان في الحياة. فالقوانين والوثائق والإعلانات لم تُبيّن أن للإنسان، لكل إنسان، رسالة في الحياة عليه أن ينهض لها. ولم تبيّن لنا جوهر مهمة الإنسان ولا خصائصها. وأنّى لها أن تفعل ذلك، وقد خرجت القوانين من البشر ومن تجاربهم المحدودة وتصوّراتهم المحدودة، ومصالحهم المتغيّرة المتضاربة. يقول الدكتور مراد هوفمان في كتابه الإسلام كبديل: «فضلا عن ذلك، فإنه لم يُتَحْ لأيّ إنسان منذ بدء الخليقة أن يخرج علينا بنظام قانوني مقنع عام استقاه أو استوحاه من مراقبته للطبيعة ومن دراسته لها. والحق أن غاية مايتوصل إليه الإنسان وحده في مثل تلك الحالات مجرّد إسقاط لتصوُّرات مثالية (محدودة) من الإنسان على بيئة (محدودة)، بحيث لايبحث عن أساس لصلاحية القانون أو لكفاءته إلا في العرف والتقليد في التطابق الاجتماعي»[(١)].

---

(١) د. مراد هوفمان: الإسلام كبديل ترجمة د. محمد غريب - مؤسسة بافاريا (ط: ١)-(ص: ١٨٩).

لذلك ظل الإنسان حتى هذه اللحظة مجرّداً من حقوقه الإنسانية الحقيقية الأساسية في معظم بقاع الأرض، وظلت الجريمة تتسع، والفساد والفاحشة يمتدان، وأصبحت عمليات إبادة الإنسان لا تهدف إلى إبادة الفرد وحده بل امتدت إلى إبادة الشعوب والعِرْق، وفاقت جريمة الإنسان وحشية الغابات.

انظر إلى الحرب الأهلية في لبنان، وانظر إلى الحضارة الغربية تُخرجُ شعباً من أرضه من فلسطين، وتلقيه في فيافي الأرض، انظر إلى البوسنة والهرسك، انظر الى كشمير والفلبين وبورما وراوندا وبورندي، والشيشان، وانظر أنّى شئت في الكرة الأرضية تجد الإبادة الجماعية والتشريد الجماعي، والإبادة والتشريد الفردي. انظر إلى القضاء كيف يتبدَّل في عقر دور الحضارة الغربية، حسب تغيّر المتهم من أبيض إلى أسود، أو من مسلم إلى غير مسلم، أو قوي إلى ضعيف. وحسبك أن تعرف أن الحضارة الغربية أشعلت أكثر من ١٣٥ حرباً في القرن العشرين حتى اليوم، وأنه كان ضحاياها من القتلى أكثر من ١٢٢ مليون قتيل غير المشوّهين والمرضى. وحسبنا أن نتذكّر القنابل النووية على هيروشيما وناجازاكي.

تجوّل في أقطار الحضارة الغربية لترى المعدمين على جوانب الدرج في مسالك القطارات تحت الأرض، يتسوّلون برسومات على بلاط الشارع، أو ألحان تشكو بؤسهم. أو لترى في الحدائق الكبرى الحفاة أشباه العراة بأوساخهم وملابسهم الممزّقة، والسكارى المعدمين الذين صرعهم الخمر والفقر، فارتموا في الشوارع حتى تلتقطهم سيارات الإسعاف والجماهير محتشدة حولهم. ولترى النسّاء شبه العاريات، سيقانهنَّ وما فوقها مكشوفة، ينزوين في جوانب الأزقة مع شدّة المطر والبرد، ينتظرن من يتقدم ليطلب مضاجعتهن مقابل دريهمات، ولترى الفاحشة التي تهدر كرامة الإنسان، كرامة الرجل والمرأة، ترتكب علانية في أماكن عامة، على صورة تستحي منها الحيوانات.

هذه جولة سريعة خاطفة عن آثار حقوق الإنسان. الإنسان يعيش اليوم في قلق وخوف. في كثير من البلدان تجد الإنسان كله مرهوناً: بيته وزوجه وسيارته بالتقسيط، لايكاد يُفلت من قبضة الدائنين ومؤسساتهم ولا من قوانينهم الظالمة.

لماذا آل الوضع في المجتمعات التي تدعي أنها صاحبة الفضل في الدعوة إلى حقوق الإنسان، في مجتمعات الحضارة الغربية، أو المجتمعات الشيوعية، إلى هذه الحالة التي بلغ معها عدد الجائعين في الأرض ثمانمائة وأربعين مليوناً حسب ما أعلن المؤتمر الأخير في إيطاليا. ولكن المؤسف أنهم لم يعلنوا عدد المتخمين في الأرض. والمؤسف أنهم أعلنوا أنهم سيحاولون تخفيض العدد بنسبة ٥٠٪ خلال عشرين عاماً. فاصبروا أيها الجوعى!

لماذا آل الوضع إلى هذه الحالة؟! لأن هنالك مسيرة أخرى لإقرار حقوق الإنسان في تاريخ البشرية، حقوقاً كاملة متكاملة مترابطة، تجاهلها المجرمون في الأرض، وأخذوا من الحقوق ما يُخَدِّرون به الجماهير بالإضافة إلى تخدير الخمور والجنس المتفلّت والشهوات الثائرة والصراع الملتهب على الدنيا حتى نسُوا الآخرة، وعزلوا فكرهم وقوانينهم ومناهجهم عنها. وأبقوا من الدين وللدين مايساعدهم على المضيّ في إلهاء الشعوب وتحقيق أطماعهم ومصالحهم.

هذه المسيرة الأُخرى هي المسيرة الرّبانيّة، المسيرة التي يدفعها الوحي المنزّل من عند الله الذي لا إله إلا هو رب الناس أجمعين ورب العالمين وهو العليم بحوائج الإنسان وحقوقه!

٢ - أهم المآخذ على ما ورد في الوثائق الوضعية لحقوق الإنسان:

أ - إن أهم مأخذ على ماورد في تلك الوثائق عن حقوق الإنسان أنها لم تستند إلى قواعد راسخة تحدد مفهوم الشعارات المعلنة وخصائصها وامتدادها في الحياة الإنسانية. ولذلك فقدت البعد الإنساني والعمق البشري، وارتبطت بالنظرة القومية أو الإقليمية. فما تطبقه هذه الدولة أو تلك من معاني الحرية أو المساواة أو الإخاء أو غير ذلك يُطَبَّق في النطاق القومي، وتُسَنّ القوانين على هذا الأساس. فيقع التضارب والتناقض في كثير من الحالات، ويشتد التناقض كلما خرجنا إلى صعيد أوسع من الصعيد القطري، أو إلى الصعيد الدولي.

ب - وهذا النقص الذي ذكرناه ولّد نقصاً آخر حين أَصبح للحرّية أو المساواة أو الإخاء معانٍ تختلف من بلد إلى بلد، وتختلف في البلد نفسه، مما جعل مجالاً لتسلل المصالح المادية إلى قلب التصوّرات لهذه الحقوق، وإلى صياغتها وإلى ممارستها. فعندما أعلنت الثورة الفرنسية شعار الحرية والمساواة والإخاء فشلت في تطبيقه في واقعها،

وارتكبت مظالم واسعة تتناقض مع الشعارات، وأخذت الثورة تأكل أبناءها. وحين نصّت وثيقة إعلان الاستقلال الأمريكي مبدأ الحرية والمساواة وحق طلب السعادة، فماذا كانت تفهم من كلمة السعادة وكيف وفّرتها لأبنائها، وكيف وفّرت الحرية والمساواة بين البيض والسود مثلا، أو بين الغني والفقير، وبين أصحاب رؤوس الأموال والشركات الكبيرة التي تتحكم في واقع الأمة، وبين الرجل العادي الذي أصبح مايملكه بالتقسيط مدينا به لأولئك الأغنياء مدى الحياة.

جـ - لقد نادت وثائق حقوق الإنسان بما تصوّرته من حقوق للإنسان، دون أن تربط ذلك **بمسؤوليات** الإنسان نفسه في الحياة، أو في أرضه، أو مع سائر الشعوب خارج وطنه. إن فصل الحقوق عن المسؤوليات يترك أثراً سيئاً في ميدان تربية الناشئة وبنائهم، وفي ميدان السياسة والاجتماع والاقتصاد وغيرها. فلا نعجب حين نرى أن جميع وثائق حقوق الإنسان لم تمنع الصرب عن قتل الطفل والشيخ والمرأة والاعتداء على الأموال والأعراض والحرمات. ويتكرر ذلك في نواحٍ أُخرى من الأرض، حتى أصبحت كلمة الإعلان العالمي لاتحمل إلا الشعار الذي ضاق في التطبيق حتى خُنق أو خجل مما يُرْتَكَبُ باسمه فانطوى على نفسه.

د - إن حقوقَ الإنسان التي أُعلنت في جميع الوثائق في الغرب حقوقٌ ناقصةٌ جرّدت الإنسان من أهم حقوقه وحرمته من ممارسة أهم مسؤولياته في الحياة الدنيا، وغذّتْ النزعات الجاهلية، وزادت الفرقة بين الشعوب، وغذت الحروب والعداء تحت شعارات السلام والنظام العالمي. وسنذكر أهم هذه النواقص في الصفحات المقبلة.

هـ - عند دراسة نصوص القوانين المتعلقة بحقوق الإنسان نجد التناقض فيها. فحين ساوت بين الرجل والمرأة في ميدان الفاحشة والجنس، والرذيلة، فرّقت بينهما في ميدان الأجور مثلاً. فبعض القوانين الأوروبية تعطي المرأة نصف أجر الرجل، وتمنعها من الاحتفاظ باسم عائلتها بل تكتسب اسم عائلة زوجها. وأهملت القوانين النظر في الفروق الطبيعية بين الرجل والمرأة، وكلفت المرأة بأعمال لاتتناسب وطبيعتها وحرمتها من الأعمال الرئيسة الضرورية لها كرعاية بيت الزوجية وتربية الأولاد في حضن الأمومة والأبوة. الأمثلة

كثيرة على تناقض القوانين مع الشعارات مما يصعب عرضه كله هنا.

و - مَزَّقتْ حقوقُ الإنسان ومايتبعها من القوانين الأُسْرة تمزيقاً شَلَّ قدرتها على الوفاء بواجبها نحو المجتمع. فالأُسرة بترابطها ضرورة أساسيَّة في المجتمع، وحاجة إنسانية. وكان من نتيجة تمزّق الأُسرة أن فقد الأبناء الشعور بواجب برّ الوالدين. وجاءت القوانين تثبت ذلك، فقست القلوب. وساعد هذا كله على انتشار الجريمة في المجتمع، وانتشار الفاحشة والرذيلة، وشتى أنواع الفساد.

ز- إن هذه العيوب والأخطاء والتناقض في وثائق حقوق الإنسان نابعة كلها من الخطأ الكبير الأول، ألا وهو عزل قضية الإيمان والتوحيد عن قضية حقوق الإنسان وعن سائر قضاياه. ولن يجد الغرب مخرجاً من التناقض الذي يعيش فيه إلا حين يعود إلى حضن الإيمان والتوحيد، وإلى رسالة الإسلام، دين إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، ودين خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ.

الغرب اليوم، ومعظم أقطار الكرة الأرضية، تحتاج إلى من يعيد إليها حقوق الإنسان، فحقوق الإنسان مسحوقة بالكفر والإلحاد، والعَلمانية وسائر أبواب الفتنة والفساد، والجنس والخمر والمخدرات، والأطماع الثائرة الهائجة بين الدول الكبرى، وأصحاب السلطة والقوى.

ليس أمام العالم اليوم إلا أن يهرع إلى الإسلام راكضاً مسرعاً، عسى الله أن ينزل رحمته ويهدي القلوب إذا تابت وأنابت. وعسى أن يدرك الذين ينتسبون إلى الإسلام خطورة هذه المسؤولية الملقاة على عاتقهم، والأمانة المعلقة في أعناقهم، ليتوبوا أيضاً وينيبوا، ولينهضوا إلى هذه المسؤولية والأمانة.

الفصل الثالث

المسيرة الإيمانية

لإقرار حقوق الإنسان في التاريخ البشري

أعتقد أن هنالك خطأً يقع فيه الكثيرون عندما يتحدثون عن الإسلام وحقوق الإنسان. كثير منهم يحصر الموضوع بخاتم النبيين وحده محمد ﷺ دون أي إشارة إلى الأنبياء والمرسلين قبله، وإلى دورهم في التاريخ البشري. ولمعرفة هذا الدور العظيم يكفينا ما جاء في حديث رسول الله ﷺ:

فعن أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: **«مثلي في النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها وترك فيها موضع لبنة لم يضعها. فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه ويقولون لو تمّ موضع هذه اللبنة. فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة»**
[رواه أحمد والترمذي وغيرهما][1]

هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرى فإن الدين عند الله الإسلام لادين سواه، بعث به جميع الأنبياء والمرسلين. وكان نوحٌ عليه السلام أوّل الرسل إلى الناس، وآخرهم خاتم النبيين والمرسلين محمد ﷺ. وامتدت مسيرة الرسل في التاريخ البشري، منهم من قصّ القرآن علينا خبرهم، ومنهم من لم يقصص. ولكن الله بعث في كلّ أمة رسولاً برسالة الإسلام، حتى لايكون للناس على الله حجة بعد الرسل:

﴿ولقد بعثنا في كلّ أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقّتْ عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ [النحل: ٣٦]

إذن هي مسيرة طويلة في تاريخ البشرية للأنبياء والمرسلين، أكّدها القرآن الكريم

(١) أحمد: الفتح الرباني -(ج: ٢١) -)(ص: ٢٨٣). صحيح الجامع الصغير وزيادته: (ج: ٥) (ص٢٠٤)- حديث رقم: ٥٧٣٣.

والسنة النبوية تأكيداً يوجب علينا الإشارة إليها وإبرازها وإبراز دورها .

لقد كان الناس أمة واحدة في مرحلة من مراحل التاريخ بعد نزول آدم عليه السلام إلى الأرض . كانت أمة واحدة تؤمن بالله واليوم الآخر. حتى أخذ الكفر يظهر في الواقع البشري . والكفر في ميزان الله أكبر جريمة تُرتَكَبُ في الأرض، لايوجد جريمة أفظع منها ، حتى إن خطرها يمتدّ في الدنيا وفي الآخرة(١) .

﴿إن الله لايغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يُشركْ بالله فقد افترى إثماً عظيماً﴾ [النساء : ٤٨]

وكذلك :

﴿إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ومن يشركْ بالله فقد ضلّ ضلالاً بعيداً﴾ [النساء : ١١٦]

وكذلك :

﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كُفَّار أُولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين* خالدين فيها لايخفّف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾

[البقرة : ١٦١، ١٦٢]

من أجل ذلك بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس بالحق ، وليبيّن حقوقهم ومسؤولياتهم .

﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البيّنات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ [البقرة : ٢١٣]

وكان نوح عليه السلام أول الرسل للناس . ابتدأت به المسيرة أو الدعوة الإسلامية ورسالة الإسلام . فقد كان نوح عليه السلام مسلماً يدعو إلى الإسلام :

---

(٢) يراجع كتاب «الحقيقة الكبرى في الكون والحياة» للمؤلف .

﴿فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجـري إلا على الله وأُمرتُ أن أكون من المسلمين﴾ [يونس : ٧٢]

وتوالى الأنبيـاء والمرسلون يحملون رسـالة الإسلام، كـل رسول كان يُبْعَثُ إلى قـومه خاصة يدعـوهم إلى الإسلام، إلى عبادة الله وحده لاشريك له، الله الـذي لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى كلها، الله الذي يقـرر حقوق الإنسان، ويوحي بها إلى رسلـه. فهو وحده الأعلم بما يصلح لـلإنسـان، وما هي مسـؤوليـاتـه وماهي حقـوقـه. ولقد كـان إبـراهيم وإسماعيل ويعقـوب وإسحق ويـوسف ومـوسى وعيسى وسـائر الأنبيـاء كلهم كـانـوا مسلمين يدعون لـدين واحد من عند الله، حتى جاء محمـد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، بعثه الله للنـاس كافة وأنزل معـه الكتاب مصدّقـاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمنـا عليه. فجاء القرآن الكريم والسنة النبوية يجمعـان الرسالات كلها، وليأخذ الإسلام برحمة من الله تشريعاته المتكـاملة المترابطة، وليبّلغ ذلك للعـالمين، ولتأخذ حقوق الإنسان ومسـؤولياته صورتها النهائية المتكاملة من خلال منهج رباني متكامل مترابط:

﴿شرع لكم من الدين ماوصّى بـه نوحاً والذي أوحينا إليك ومـا وصينا به إبـراهيم ومـوسى وعيسى أن أقيمـوا الـدين ولا تتفـرّقـوا فيـه كَبُرَ على المشركين ماتدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب﴾ [الشورى : ١٣]

هكذا أخـذت حقوق الإنسان صورتها المتكـاملة وخصائصها المفصلـة وتشريعاتها العمليـة التطبيقية، نـابعة من مصـدر واحد، من عنـد الله ومن خلال رسـالاته لأنبيـائه ورسله، التي ختمت بـرسالة محمـد ﷺ فلم يعد لأحـد من البشر أن يدّعي أنه هـو الذي وضع للإنسان حقـوقه، ولا لأمة من الأمـم أن تدّعي ذلك، إنه الله رب العـالمين هو الذي حدد حقـوق الإنسان ومسؤولياتـه. ومن هنا كان الاختلاف الأول بين التصـوّر الإسلامي لحقوق الإنسان وبين التصور الغربيّ.

من هنا كان الاختلاف الأول بين مفهوم حقـوق الإنسان في الإسلام ومفهومها لدى الحضارة الغربية. ويتحدث د. هوفمان في كتـابه الإسلام كبديل عن الشروخ التي أصابت التطور القانوني لحقوق الإنسان لدى الغرب، فيقول:

«ويعمى كثيرون أو يتعامون عن رؤية الشروخ والشقوق التي كثيراً ما أصابت هذا التطور القانوني (لحقوق الإنسان) بالوهن، علماً بأن تلك الشروخ كانت كافية لتهدِّد بنية هيكل حقوق الإنسان بأجمعه للسقوط. كان أول هذه الشروخ أو التصدّعات وأهمها ماثلاً في موقف وثيقة الاستقلال الأمريكية والوثيقة الفرنسية الأحدث ميلاداً. إذ أن آباء الثورة الأمريكية رأوا أن الحقوق والحقائق التى تناولتها الوثيقة إنما هي مسلمات وبديهيات مصدرها الله، أما اليعاقبة الفرنسيون فقد فهموا حقوق الإنسان على أنها حقوق طبيعية على عكس الأمريكيين. كانت هذه أول «خبطة» بالفأس في جدار هيكل حقوق الإنسان»(١).

ولعل هوفمان يقصد أن الأمريكيين حين قالوا إن مصدرها الله لم يربطوها بشريعة الله ودينه ورسالة الأنبياء والمرسلين. فأعطوا لكل حق أعلنوه مفهوماً من عند أنفسهم.

وظل قولهم «إن مصدرها الله» شعاراً لا رصيد له في الواقع، وأما الفرنسيون فقد ألغوا المصدر الربانيّ شعاراً وجوهراً من حقوق الإنسان.

ومضت مسيرة النبوة في الأرض لتكون هي أول من نهض ضد الظلم والفساد في الأرض. ولتظل هذه المسيرة حتى يوم القيامة، تتولاها الأمة المسلمة التي أصبحت تحمل رسالة الله إلى الناس بعد النبوة الخاتمة، بعد محمد ﷺ، لتجاهد في سبيل الله، وليكون من أهم أسباب جهادها إقرار حقوق الإنسان ومسؤولياته.

ولا بد هنا أن نعيد ونؤكد أن الله واحد لاشريك له، وأن دينه واحد هو الإسلام لا ثاني له، وأن الرسل والأنبياء كلهم حملوا رسالة هذا الدين الواحد، وأن أتباعهم الصادقين على مرّ التاريخ يكوّنون أمة واحدة تعبد رباً واحداً وتحمل رسالة واحدة.

﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون﴾ [المؤمنون: ٥٢]

﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾ [الأنبياء: ٩٢]

وأن محمداً ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين. وكان القرآن الكريم مصدّقاً لما بين

(١) د. هوفمان: الإسلام كبديل - (ص: ١٨٨).

يديه من الكتاب ومهيمناً عليه، فمنه تنطلق حقوق الإنسان ومسؤولياته كاملة. وبهذا الدين العظيم جاء محمد ﷺ ليبيّن للناس أن «حقوق الإنسان» منحة من الله وفضل ونعمة، منه وحده لا إله الا هو:

يَـــارسُـــولَ الهُدى! حَمَلْتَ إلى النَّـــا
س ســلاماً يَــرْعــاه دينٌ وصِيــدُ
كـم مَسحْتَ الـــدُّمُــوعَ، آسيت محزو
نــاً فَحَنَّتْ إليك مِنْهُمْ كُبــودُ
وَدَفَعْـتَ الأَسَـى وَرَعْشَــةَ خــوفٍ
فــاطمأنَّتْ إلى الــوفــاءِ العُهــودُ
أنْـتَ أرجَعْـتَ لابْـنِ آدمَ حقّـــاً
كَـمْ أضــاعَتْــهُ فِتنَــةٌ وجُحُــودُ
وَعُتَــاةٌ بَغَــوا عَلى النّــاس حتَّى
تَــاهَ في الــدرْب جَــائعٌ وطَــرِيــدُ
يــاحُقُــوقَ الإنســان! هــذا هــو الحَـ
ـــقُّ! ســواهُ فبــاطلٌ مَــرْدودُ
إنّها مِنْحَـــةٌ مِــن الله! حَــقٌّ
لَمْ تُشَرِّعْــهُ عُصْبَــةٌ وَعَبيــدُ
فــاسْتَقيمــوا لله نَبْنِ سَــلامــاً
لَمْ تخالطْــهُ فِتْنَــةٌ ووعــودُ
يَــارَسُــول الهُدَى! عَــدَلْتَ وسَاوَيْـ
ـــتَ فَمَا جَــارَ سَيِّــدٌ ومَسُــودُ

جَمَعَ الله أُمَّـــــــــــــــةَ الحَقِّ إخْـــــــــــــــوَا
نـــــــــاً فهَبّتْ عَـــــــــــزائِمٌ وَجُهـــــــــــودُ
غَيْرَ أَنَّ الـــــــزَّمَـــــــان حَـــــــالَ فعَـــــادتْ
للشّياطـــــــــــين دَولَــــــــــــةٌ وجُنـــــــــودٌ
أَشْعَلُـــــــوا الأَرْضَ فَجَّــــــروهَـــــا بَرَاكِيـــــــ
ـــــــــنَ فَمادَتْ ذُراً ومَـــــــــــادَ عَمُـــــــــودُ
صـــــاحَ مـن هَـــــوْل مَكْـــــرِهم كُـلُّ جَبّـــا
رِ وجُـــــــنَّ اللَّهيـــــــبُ «والأخـــــــدودُ»
غـــــيرَ أَنَّ اليقـــــينَ يَبـــــقَى ويمـــــضي
مَوكِـبُ الحَــقِّ يَجْتَــلي وَيَـرودُ (١)

• • •

---

(١) من ملحمة الأقصى للمؤلف .

الفصل الرابع

نشأة حقوق الإنسان في التصور الإيماني شروطها وخصائصها

١ - نشأة حقوق الإنسان في التصور الإيماني :

لا نستطيع هنا أن نعرض حقوق الإنسان كلها كاملة كما جاء بها الإسلام، ولايستطيع أحد أن يعرضها في بيان أو وثيقة حتى لو التصقت بكلمة «العالمي». إن أول إضاعة لحقوق الإنسان تحدث حين تُمَسَخُ هذه الحقوق فَتُعْرَضُ في بيان من بضع صفحات. إنها احتقار كبير للإنسان ولحقوقه.

إذا أردنا أن نوفي عرض حقوق الإنسان في الإسلام فيجب أن نقدّم القرآن الكريم كلّه والسنة كلّها. ذلك لأن حقوق الإنسان لايجوز فصلها عن مسؤولياته وواجباته، ولأن الحقوق والواجبات لايمكن أن تُفصل عن منهاج الله الذي يعطي المعنى الأمين لكل حق، والتعريف الوافي للخصائص والمسؤوليات.

وحين ندعو إلى حقوق الإنسان وحدها في بيان، فكأنما نجتزىء من الإسلام قسماً ثم ندعو إليه، فإذا جئنا لتطبيقه فشلنا وخَسرنا موقفنا أمام العالم كله. ذلك لأن حقوق الإنسان ومسؤولياته في الإسلام تحتاج إلى المجتمع المسلم والأمة المسلمة والدولة المسلمة، ليطبّق هؤلاء كلهم منهاج الله كاملاً في الحياة. وبغير تطبيق منهاج الله كاملاً كيف توفى حقوق الإنسان وكيف ينهض المسلم لمسؤولياته.

إن البيان الأوفى والأعلى لحقوق الإنسان هو منهاج الله كاملاً كما أُنْزِل على محمد ﷺ. إنه البيان الحق الكامل الذي يجب أن ندعو إليه دون تفريق بين أجزائه. إنه الدعوة الإسلامية التي يجب ألاّ تتوقف وأن تحمل خصائصها.

إن الحقوق تنبع من المسؤوليات. فالعامل ينشأ حقّه في الأجر بعد أن يؤدي مسؤولياته، وكذلك الموظف وكذلك جميع العاملين.

وتدبر حديث رسول الله ﷺ عن معاذ بن جبل: «يامعاذ بن جبل! هل تدري ماحق الله على عباده وما حق عباده على الله؟! فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولايشركوا به شيئاً. وحق العباد على الله أن لايعذّب من لايشرك به شيئاً» [رواه أحمد والشيخان والترمذي وابن ماجة][1]

نرى من هذا الحديث الشريف أن حق العبد على ربّه الله الذي لا إله إلا هو لاينشأ إلا بعد أن يؤدّي العبد مسؤوليته. وحقّ الله عليه في أن يعبده وحده ولا يشرك به شيئاً. فإذا لم يؤدِّ العبد حق الله عليه، فكيف ينشأ حقّه على الله؟!

من هذه الحقيقة الكونية الكبيرة تنشأ جميع حقوق الإنسان وجميع مسؤولياته. فإذا ضيّع الإنسان هذه الحقيقة وتجاهلها، فعلى أي أساس يطالب بحقوق وقد ألغى كبرى مسؤولياته. إن حقوق الإنسان منحة من ربّه وخالقه الله الذي لا إله الا هو. إنها نعمة منه سبحانه وتعالى وفضل منه كبير، ما دام الإنسان مُقرّاً بعبوديته لله، عارفاً أن حقوقه منحة منه سبحانه وتعالى. فإذا غابت هذه القضية الكبرى والحقيقة الكبرى في الكون والحياة، فإن الحقوق تصبح حقوقاً من عبيد إلى عبيد، في جوّ خانق مظلم، مجزّأة متناقضة، توحي بها المصالح المتناقضة المتصارعة، وفي أحسن الأحوال تخرج من بقية الفطرة التي فطر الله الناس عليها، إن كان هنالك بقية.

لذلك نبدأ أولاً بإيجاز أهم مسؤوليات الإنسان لننظر بعد ذلك في حقوقه.

٢ - المسؤوليات الرئيسة للإنسان في الحياة الدنيا:

المسؤولية الأولى: المسؤولية الأولى للإنسان أن يفكر ويتدبّر في أخطر قضية في حياته، قضية الإيمان والتوحيد، القضية الكبرى في الكون والحياة

﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثمّ تتفكّروا مابصاحبكم من جنة إن هو الا نذير لكم بين يدى عذاب شديد﴾ [سبأ: ٤٦]

وكأنما حصر سبحانه وتعالى مهمة رسوله وعبده محمد ﷺ في قضية واحدة هي أن يدعو الناس إلى أن يتفكروا في قضية الإيمان والتوحيد، وذلك لإبراز أهمية مسؤولية التفكير

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني: (ط: ٣)- (ج: ٦) - (ص: ٣٠٣) - (رقم ٧٨٤٥).

في حياة الإنسان، ولإبراز خطورة القضية التي يُدْعى الإنسان إلى أن يفكر بها.

المسؤولية الثانية : أن يتخذ قراراً بالإيمان أو قراراً بالكفر، ليَحمل هو نفسه مسؤولية تفكيره وتدبره، ومسؤولية قراره في الدنيا والآخرة:

﴿وقل الحقُّ من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً* إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لانضيع أجر من أحسن عملاً * أولئك لهم جنَّات عدن تجري من تحتهم الأنهار يُحلّون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا﴾ [الكهف : ٢٩-٣١]

إن الله لايقبل إيماناً لاينبع من قلب الإنسان بقناعة ويقين. لا يقبل إيماناً أُكره عليه الإنسان حتى ينافق فيظهر الإيمان ويبطن النفاق والشرك والكفر.

﴿لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم * الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ [البقرة: ٢٥٦، ٢٥٧]

فالإنسان حرٌّ في أن يفكر ثمَّ يتخذ قراراً. ولكنه سيتحمل مسؤولية تفكيره وقراره في الدنيا والآخرة، ولهذا القرار نتائج ولذاك القرار نتائج أخرى:

﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء مايحكمون﴾ [الجاثية: ٢١]

وكذلك :

﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتّقين كالفجار﴾ [ص: ٢٨]

وكذلك :

﴿أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون* أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين * أو يأخذهم على تخوُّف فإن ربكم لرؤوف رحيم﴾ [النحل : ٤٥- ٤٧]

وكذلك :

﴿ لايستوي أصحاب النار وأصحاب الجنّة أصحاب الجنّة هم الفائزون﴾ [الحشر: ٢٠]

ومن رحمة الله بعباده أن وفَّر للإنسان جميع الأسباب التي تهدي تفكيره إلى الحق وتدبره إلى الإيمان. فقد جعل الله برحمته الإيمان والتوحيد في فطرة الإنسان، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، وبثّ آياته الدالة عليه وعلى وحدانيته في نفس الإنسان وفي الكون كله، وأرسل الأنبياء والرسل وأنزل معهم الكتاب لكي لايكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وجعل فطرة الإنسان والسمع والبصر والفؤاد كل أولئك قادراً على استقبال رسالة الأنبياء واستقبال آيات الله المبثوثة في الكون، مادامت الفطرة سويّة لم تشوّه بالآثام والذنوب، وما يحيطها به المجرمون في الأرض من عوامل الإفساد.

المسؤولية الثالثة : فإذا آمن وأسلم لله تنشأ فوراً المسؤولية الثالثة وهي أداء الأركان الخمسة : الشهادتين والشعائر من صلاة وصوم وزكاة وحج.

المسؤولية الرابعة : وهي من أهم المسؤوليات وأخطرها لأنها من أكثر المسؤوليات التي يتهاون فيها المسلم. إنها النهوض لتدبّر منهاج الله -قرآناً وسنة ولغة عربية- تدبّراً ماضياً معه في حياته كلها، تدبّراً منهجياً، تصاحبه دراسة للواقع، ليعرف من خلال ذلك سائر مسؤولياته، من منهاج الله وليعلم أنها تكليف من عند الله ، وأنه محاسب على جميع مسؤولياته صغيرها وكبيرها يوم القيامة.

المسؤولية الخامسة : هي النهوض لممارسة منهاج الله في الواقع البشري ممارسة إيمانيّة تقوم على صدق الإيمان وصفائه، وصدق العلم بمنهاج الله والواقع في جميع ميادين حياته.

المسؤولية السادسة : هي النهوض إلى تبليغ دين الله ورسالته إلى الناس لإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد، ولإخراجهم من عذاب جهنم إلى نعيم الجنة. إن هذه المسؤولية هي أخطر المسؤوليات القائمة على المسؤوليات الخمس السابقة. إنها مسؤولية كل مسلم في حدود وسعه وطاقته الحقيقية الصادقة التي وهبها الله له، لا في

حدود وسعه الكاذب الذي قد يدّعيه . وهى من أكثر المسؤوليات التى يهملها المسلمون .

ثم تتوالى المسؤوليات كما يبسطها منهاج الله بسطاً مفصّلاً لا يدع عذراً لمارٍ أو متهاون .

والمسؤوليات في الإسلام إيمان وتشريع . وليست مسؤوليات متفلتة لاضابط لها . إنها مسؤوليات مترابطة متناسقة تمضي مترابطة مع حقوق الإنسان ، ثم مع منهاج الله .

ومن هنا تصبح المسؤوليات خاضعة للمحاسبة . وأكثر من ذلك ، فهي تستفيد وتقوى بالتذكير والنصيحة ، وبالإشراف والمراقبة ، والرعاية الدائمة في جو يملؤه التعاون على البرّ والتقوى .

والمحاسبة في الإسلام تبتدىء من محاسبة المسلم لنفسه ومراقبتها . وتمتد إلى محاسبة المسؤول لمن هو مسؤول عنهم ، بعد أن يؤدي واجب التذكير والنصيحة ، والإشراف والمراقبة ، والتوجيه والإرشاد .

وأكثر من ذلك ، فالإسلام يرعى الإنسان حتى يدرّبه على ممارسة مسؤولياته ، يرعاه ويدرّبه ويوفّر له الإمكانات للوفاء بمسؤولياته وعهده مع الناس ، وعهده مع الله .

والمسؤوليات في ميزان الإسلام ليست مسؤوليات الفرد المسلم وحده . ولكن من مسؤوليات الأفراد تنشأ مسؤوليات الأمة وتقوم عليها في جميع مستوياتها ومؤسساتها ومراكزها ومعاهدها . ولا يوجد في ميزان الإسلام إنسان دون مسؤولية . ويفصّل الإسلام في المسؤوليات كما يفصّل في الحقوق . وتدبَّرْ حديث رسول الله ﷺ لترى كيف تمتدّ المسؤولية من أدنى المستويات في الأمة إلى أعلاها :

فعن ابن عمر رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه قال : **«ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته . فالأمير الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته ، والرجل راع على أهله وهو مسؤول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسؤولة عنهم ، والعبد راع على مال سيده وهو مسؤول عنه ، ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»**

[رواه الشيخان والترمذي][(١)]

---

(١) البخاري : ١١/ ١١/ ٨٩٣ . مسلم : ٣٣/ ٥/ ١٨٢٩ . الترمذي : ٢٤/ ٢٧/ ١٧٠٥ .

الفصل الخامس

الحق الأول والأكبر للإنسان

حماية الفطرة التي فطر الله الناس عليها ورعايتها

١ - تمهيـــــد :

لقد كثـر الحديث عن حقوق الإنســان وصدرت وثائق وبيـانات كثيرة . وذكـرنا في الصفحات السابقة أهم مـآخذنا على تلك الوثائق . وبالنسبة للإسلام فـإنه هو الذي قدم البيان العالمي الأول لحقـوق الإنسان مرتبطة بمسـؤولياته ، لترتبط الحقـوق والمسؤوليات في منهـاج متماسك ، ليعلن ذلك الأنبياء والمرسلـون في رسالـة ربّانيـة خُتمتْ برسـالة محمـد ﷺ ، فأصبح المنهاج الرباني -قرآناً وسنة ولغة عربية- البيان الحق الكامل لحقوق الإنسان ومسؤولياته .

وإذا ذكرنا في الصفحـات السابقة صوراً ونماذج لمسـؤوليات الإنسان وحقوقـه ، فلا نعني أن ماذكرناه كان كاملاً . فإنه يتعـذّر أن نورد هنا جميع حقوق الإنسان ومسؤولياته كما فصّلهـا منهاج الله ، وإنما نـدعـو الناس ليعـودوا إلى منهـاج الله ليجـدوا فيه البيـان الحق الكامل ، مما لايجدونه في سواه أبداً .

ولكن الوثـائق التي أُعْلِنَتْ والبيانـات التي صدرت كانت تـدَّعي أنها كاملـة توفي الإنسـان حقـوقـه . وإذا ذكـرنا في صفحـات سـابقـة بعض النقـائص والمآخـذ على تلك البيانات والـوثائق ، فإننا نشير هنا إلى أكبر مآخذ لنـا على تلك الوثائق ، حين أهملت أهم حقٍّ للإنسان ، الحق الذي تقوم عليه سائر الحقوق والمسؤوليات وتنبع منه . إنه الحق الأول للإنسـان والحق الأكبر ، إنه حمايـة «فطرة الإنســان» ، حماية فطـرته التي فطـره الله عليها ، حمايتها من أن تلوّثَ أو تتشوّه أو تنحرف ، ثمّ رعايتها .

حين نعود إلى حديث رسـول الله ﷺ الذي سبق أن ذكرناه عن الفطـرة ، ندرك أهمية هذا الحق وخطورتـه . وتتأكد لنا هذه الأهمية حين نجـد أن الحديث الشريف ، شأنه شأن

سائر الأحاديث الشريفة ، نابعة من القرآن الكريم مرتبطة به .

٢ - الفطرة ومسؤولية الوالدين والمجتمع والأمة:

فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «**ما من مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجسّانه . اقرأوا : . . فطرة الله التي فطر الناس عليها . . . الآية**» .

ولنتدبر الآيات الكريمة التي صدر عنها هذا الحديث الشريف :

﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكنّ أكثر الناس لايعلمون • منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين• من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون﴾ [الروم : ٣٠-٣٢]

إن الله فطر الناس جميعهم على فطرة واحدة سليمة تكفل لهم الحياة الطاهرة السعيدة ، لتكون هذه الحياة الدنيا دار ابتلاء وتمحيص ، وممرّاً إلى الحياة الحقيقية في الدار الآخرة . وكذلك لتكون هذه الفطرة أساساً يعين الإنسان على الوفاء بمسؤولياته في الحياة الدنيا والتمتع بحقوقه ، مع ما هيأ الله لعباده من أسباب أخرى : الآيات المبثوثة في الكون وفي نفس الإنسان ، الدالة على الله الذي لا إله إلا هو ، والرسل والأنبياء الذين يبلّغون رسالة الله ويُذِكِّرون ، والسمع والبصر والفؤاد لتكون هذه أجهزة الاستقبال التي يستقبل بها الإنسان آيات الله من الكون وهو يتأمل ويتدبّر ، وآيات الله التي يبلغها الرسل والأنبياء ، حتى لايكون للناس على الله حجّة بعد الرسل .

وإن قدرة السمع والبصر والفؤاد على الاستقبال والإدراك والوعي تعتمد على سلامة الفطرة . ولذلك جاء الحديث الشريف ليبيّن مسؤولية الوالدين أولاً في حماية الفطرة . ومسؤولية الوالدين ليست مسؤولية معزولة عن واقع الحياة ، فواقع المجتمع والأمة كله يؤثر في سلامة الفطرة أو انحرافها . ولكن أثر المجتمع والعوامل المتوافرة فيه يصبُّ في البيت ، في الأسرة ، حيث يتحمَّل الوالدان معاً ، الرجل والمرأة ، الزوج والزوجة ، مسؤوليةَ حماية فطرة أبنائهم . إنها ليست مسؤولية أسرة واحدة . إنها مسؤولية الآباء والأمهات جميعهم في المجتمع . إنها مسؤولية خطيرة سيحاسَبون عليها بين يدي الله سبحانه وتعالى يوم القيامة ،

وإنها مسؤولية شديدة التأثير في واقع الأمة في الحياة الـدنيا. وبذلك تمتد المسؤولية إلى جميع العاملين في مختلف المستويات:

فعن ابن عمر عن النبي ﷺ أنـه قال: **«ألا كلكم راع وكلكم مسـؤول عن رعيته. فالإمام الذي على الناس راع وهو مسـؤول عن رعيته. والرجل راع في أهل بيته وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية على أهـل بيت زوجها وولده وهي مسؤولة عنهـم، وعبدالرجل راع على مال سيده وهو مسؤول عنه، ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»**

[رواه الشيخان والترمذي](١)

وهكـذا تمتـد المسـؤوليـة في الأمـة من أدنى مستـويـاتها إلى أعـلاهـا. وجميع هـذه المسـؤوليات تصب آثـارهـا في البيت، في الأسرة، حيث يتولّى الـوالـدان الرعـاية المبـاشرة هناك. فذكر الوالدين في الحديث الشريـف ومسؤوليتهما لاتنفي سائر المسؤوليات والقوى المؤثِّرة فى الأُمة من معاهد التربية ومراكز الإعلام وسائر المؤسسات.

وحين تنحرف هذه القـوى تنعكس آثارها على الزوجين، ثـم على الأبناء، لتنحرف بذلك فطرة الأبناء إلى النصرانية أو اليهودية أو المجوسية.

وتأتي الآية الكريمة لتؤكد أهمية الفطـرة الثابتة التي فطر الله الناس عليها، إنها فطرة واحدة لاتتبدل في أُسسها: «لا تبـديل لخلق الله» وكيف تتبدّل هذه الفطرة وهي رحمة من الله على عباده، رحمة واسعـة. ثم تبين لنا الآية الكـريمة أهم الـوسائل والركـائز الضرورية لحماية الفطرة: الإنابة إلى الله، والتقوى، وإقامـة الصلاة وسائر الشعائر التي فرضها الله. إن هذه هي أسس الحمايـة. فإن ضعفت أو تخلخلت أو ذهبت أثّر ذلك كله على سـلامة الفطرة.

وتبين لنا الآية الكريمة وكـذلك الحديث الشريف نتائج انحراف الفطرة في الواقع: الإشراك بـالله: **﴿ولاتكـونـوا من المشركين﴾**، **«وأبـواه يهوّدانـه أو ينصّرانـه أو يمجسانـه»**، وكـذلك تفريق الـدّين حتى ينقسم الناس شيعـاً وأحزابـاً يحارب بعضهم بعضاً، ويفـرح كل حزب بما لـديه، وتشتـد الفتنة وتضعف الأمـة ويهون أمرهـا في الحياة

(١) البخاري: ٩٣/١/. مسلم: ٣٣/ ٥/ ١٨٢٩. الترميذ: ٢٤/ ١٧/ ١٧٠٥.

الدنيـا ، وتنال غضب الله وعقابه في الـدنيا والآخرة ، إذا لم تتدارك نفسهـا بالتوبة والإنـابة والتقوى وإقـامة شعائر الـدين وسائر قـواعده ، لتكون أمـة مسلمة واحدة ، صفـاً واحداً كالبنيان المرصوص .

إن انحـراف الفطـرة خطـر كبير على الفـرد والأمـة والمجتمع الإنْسَـاني . ومن هـذا الانحـراف تنطلق المفاسـد في الأرض ، وتمتدّ الفتـن ، وتثور الأهـواء والشهوات والمصـالح المتصارعة ، وتنـافس الدنيا ، تحت جميع الشعارات المحببة إلى النفوس ، المزخـرِفة للفتنة : من سلام ووطنية وقومية ودين .

إن الله سبحانه وتعالى زوّد الفطرة السليمة بـوسائل التحكّم والموازنة والتوجيه . فإذا انحرفت الفطرة تعطلت هذه الوسائل فاختلّ التحكم واضطربت الموازنة وضاع التوجيه .

لهذا كله كانت حمايـة الفطرة على سلامتها كما خلقهـا الله أكبر حق للإنسان ، وأول حق لله . وهي مسؤوليتـه أن يُطالِب بها ولايتنازل عنهـا ، وأن يجاهد في سبيل ذلك . وهي كـذلك مسـؤولية جميع مستـويـات الأُمة ومـؤسسـاتها أن تخطط لـذلك بـوسائل التربيـة ومناهجها ، والقوانين وتوجيهها ، ووسائل الإعلام ، وغير ذلك .

٣ - القوى التي تعمل في الفطرة : أولها الإيمان والتوحيد:

ولندرك خطـورة الأمر بصورة أكثـر وضوحاً ، فإننا نشبـه الفطرة ونعتبرها مستـودعاً أودع الله فيها مـايشاء من قوى وميـول وغرائز، ممـا عرّفنا سبحـانه وتعالى ببعضهـا وجهلنا بعضها الآخر.

إن أهم ماغرسـه الله سبحانه وتعالى في الفطرة هو الإيمان والتـوحيد ، وشهادة أن لا إله إلا الله ، وشهادة أنّ محمداً رسول الله : أما بـالنسبة لشهادة أن لا إله إلاّ الله ، فهي جلية ثابتة في الآية من سورة الأعراف وفي الحديث الشريف :

﴿وإذ أخـذ ربك من بني آدم من ظهـورهم ذريتهم وأشهـدهم على أنفسهم ألست بربكم قالـوا بلى شهدنا أن تقولـوا يوم القيامة إنا كنـا عن هذا غافلين* أو تقـولـوا إنما أشرك أبـاؤنـا من قبل وكنـا ذريـة من بعـدهم أفتهلكنـا بما فعل

المبطلون* وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٤]

ويأتي الحديث الشريف ليبين هذه الحقيقة الهامة أيضاً:

فعن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «**يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة، أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديا به؟ فيقول: نعم! فيقول الله: «كذبتَ قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لاتشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك**» [رواه أحمد والشيخان][(١)]

هذا بالنسبة لشهادة: أن لا إله إلاّ الله، أما شهادة: أن محمداً رسول الله، فنجدها في الآية الكريمة من سورة آل عمران عهداً موثقاً أخذه الله من الأنبياء والرسل جميعاً ليكون جزءاً من رسالتهم ودعوتهم:

﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنُنَّ به وَلتنصُرُنَّه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾ [آل عمران: ٨١]

وهكذا ثبتت الشهادتان عهداً وميثاقاً بين الله وعباده، وبين الله ورسله، أساساً للإيمان والتوحيد، أساساً مغروساً في الفطرة السليمة.

إن الإيمان والتوحيد مغروسان في الفطرة تشهد عليهما الآيات المبثوثة في الكون، والآيات التي يأتي بها الرسل وحياً من عندالله. وتظل الفطرة السليمة قادرة على استقبال هذه الآيات بالسمع والبصر والفؤاد. وفي الفطرة قوى أخرى مغروسة برحمة من الله: كالحب والكره، والشجاعة والجبن، والشهوات والغرائز، وقوة التفكير وقوة العاطفة، وما يضع الله في عبد من عباده من مواهب وقدرات، يتميّز بها إنسان عن إنسان. ويكون الإيمان والتوحيد كالنبع الصافي، يروى جميع مافي فطرة الإنسان من ميول وغرائز وقوى رّياً عادلاً متوازناً. وكذلك يكون الإيمان والتوحيد في فطرة الإنسان كالمصفاة، تنقّي مايدخل إلى الفطرة من تجارب وخبرة من الواقع، أو علوم أو زاد يكتسبه في هذه الحياة الدنيا.

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته: (ط: ٣) - (ج: ٦) - (ص: ٣٥) - (حديث: ٧٩٧٩).

وكل عمل يقوم به الإنسان، أو فكرة يفكر بها، أو أمر يعزم عليه، هو عمل صالح يدخل في ساحة التقوى مادام مرتبطاً بالإيمان مروياً به. فإذا انعزل العمل عن الإيمان أو انقطع ريُّ الإيمان أو ارتوى من غيره، فإنه يدخل ساحة الفتنة والفجور والفساد. واستمع إلى آيات الله البيّنات توضح ذلك:

﴿ونفس وما سوّاها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دسّاها﴾ [الشمس: ٧-١٠]

إن العمل نفسه قد يكون طاعة لله وتقوى، وقد يكون فتنة وفجوراً وإفساداً، فإذا زكّى الإنسان نفسه وصدقت نيته كان عمله في ساحة التقوى، وإلا كان فجوراً. وكيف يكون ذلك؟!

٤ - النيّة ودورها في الفطرة والقوى المودعة فيها:

إنها النيّة! فالنِّيّة هي المفتاح الذي يفتح نبع الإيمان، لتطلق منه الريَّ، إذا كانت النيّة صادقة خالصة لله سبحانه وتعالى، واعية لنهج الإيمان والعمل الذي تقبل عليه. أما إذا فسدت النيّة فإنها لاتستطيع أن تفتح نبع الإيمان، أو أنها تغلقه، أو تفتح ريّاً فاسداً، فإما أن لايرتوي العمل من نبع الإيمان، وإما أن يرتوى بغيره.

فحين تصدق النية وتتوجه خالصة لله سبحانه وتعالى، فإن الإنسان يزكّي نفسه: **﴿قد أفلح من زكاها﴾**، ويفلح في مسعاه.

وحين تفسد النيّة ويرجو بها الإنسان غير وجه ربّه، أو يطلب الدنيا ويسعى لها، فإنه يكون قد دسّى نفسه، أي أخفاها بالضلال والنيّة الفاسدة: **﴿وقد خاب من دسّاها﴾**.

ويأتي حديث رسول الله ﷺ يرويه عنه عمر رضي الله عنه ليُبْرِز لنا أهميّة النيّة وخطورتها في حياة الإنسان وعمله كله. فبها يرتبط قبول العمل عندالله أو عدم قبوله. وصِدْق النية وصلاحها يستدعي أن يكون العمل خاضعاً لأحكام منهاج الله.

فعن عمر رضي الله عنه عن الرسول ﷺ أنه قال: « **إنما الأعمال بالنيّة. وإنما لامرىء ما نوى. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته**

لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» [رواه الشيخان](١)

فالنيّة هي المفتاح، مفتاح نبع الإيمان إن صدقت وصلحت، فيَروي كلَّ قوى الفطرة وميولها وغرائزها ريّاً متوازناً عادلاً، فيفلح الإنسان بعمله، ويصبح عمله براً وتقوى، فلا تطغى قوة في الفطرة على قوة، ولا غريزة فيها على غريزة، ولا شهوة على حساب فضيلة، وتتوازن بذلك القوى والغرائز والميول، وتؤدي عندئذ كل قوة مَهَمَّتَها التي خُلِقَتْ لها أداءً أميناً، فيوفي الإنسان بعهده مع الله، ويوفي بالأمانة التى حملها.

أما إذا فسدت النية فإن التوازن في الريّ يضطرب أو يختفي أو يتوقف الريّ. وعندئذ تطغى قوة على قوة، وغريزة على غريزة. فواحدة تنمو وأخرى تضمر فلا تعود القوى كلُّها أو بعضها قادرة على الوفاء بالمهمّة التي خُلِقَتْ لها، فينقض الإنسان عهده مع الله، ولا يوفي بالأمانة التي حملها، ويصبح عمله فجوراً وفتنة وفساداً، ويصبح الإنسان ظلوماً جهولاً.

فالعمل ذاته قد يكون تقوى وقد يكون فجوراً. فالشهوة الجنسية نفسها إذا انضبطت بضوابط الإيمان وأحكام منهاج الله كانت خيراً وتقوى، وأدت المهمة التي خُلِقت لها. وأما إذا تفلّتت من ضوابط الإيمان وأحكام منهاج الله فإنها تصبح فجوراً، وتُفسِد فى الأرض، ولاتؤدي المهمة التي خُلِقَتْ لها ولا الأمانة التي حملها الإنسَان. وقس على ذلك حب الوالدين حين يصبح براً وتقوى إذا ارتبط بالإيمان والتوحيد بصدق النية وإخلاصها، أو عصبية جاهلة إذا انفصل عن الإيمان والتوحيد.

وكذلك حب الأهل والأرحام، وحب الوطن، والكراهية والكرم والشجاعة وغير ذلك من القوى والميول والرغبات تكون برّاً وصلاحاً أو فتنة وفساداً.

ولاينحصر أثر الفطرة وما أودع الله فيها من قوى وغرائز ورغبات ومواهب على أوجه النشاط العادي للإنسان. ولكنه يمتدّ إلى الأعمال المتميّزة ، أعمال الإبداع والعبقرية في مختلف ميادين الحياة من فنٍّ وأدب وعلوم وصناعة وفكر وغير ذلك. فهناك فرق كبير بين عطاء الموهبة حين ترتوي من نبع الإيمان والتوحيد كما ترتوى سائر القوى، وبين

(١) البخاري : ١/ ٤١/ . مسلم ٣٣/ ٤٥/ ١٩٠٧ .

عطائها حين لا ترتوي من نبع الإيمان والتوحيد. ويتبيّن لنا الفرق حين ندرس كيف ينطلق العطاء المتميز.

٥ - ولادة العطاء المتميّز ودور الفطرة فيه والقوى العاملة في الإنسان:

فهذا العطاء المتميز تطلقه عدة قوى تعمل في داخل الإنسان، في ذاته، في فطرته التي هي مستودع القوى. وأهم هذه القوى التي تعمل على إطلاقه قوتان في الإنسان، طاقتان في فطرته، هما قوة الفكر والتحليل والتدبُّر، ولنُسَمِّها قوة «الفكر». والأخرى هي قوة الإحساس والشعور والعاطفة، ولنسمِّها قوة «العاطفة» وتعمل هاتان القوتان معاً في آن واحد، مع اختلاف في قوة هذه وقوة تلك مع هذا العطاء أو ذاك. ولكن لا يمكن أن تنعدم أيّ منهما في أي عطاء مبدع. وربما كان هنالك قوى أُخرى لانعلمها!

ومع مسيرة الإنسان في الحياة ينال تجارب وخبرة وزاداً من مختلف العلوم. وتمرّ هذه التجارب وهذا الزّاد على مصفاة الإيمان والتوحيد مادامت النيّة تعمل خالصة لله، ومادام الإيمان والتوحيد يعمل في الفطرة السليمة. حتى إذا صفا هذا الزاد من التجارب والعلوم، توجَّهَ ليَتْرُك على كل قوة من القوتين: الفكر والعاطفة شحنات تغذيها. ومع مسيرة الحياة يظل الواقع يمد هاتين القوّتين بهذه الشحنات. فكأن القوتين قُطبان كهربائيان تتجمَّع عليهما الشحنات الكهربائية، على حكمة لله غالبة، وسنن لله ماضية، قد نعلم بعضها ونجهل بعضها الآخر. حتى تأتي اللحظة المناسبة على قدر غالب من الله، وحتى تنمو الشحنات نمُوّاً يجعلها قابلة للتفاعل. فإذا ظلّت النيّة تعمل عملها، وفتحت نبع الإيمان والتوحيد ومصفاتها، وإذا ظلَّ هذا النبع الغنيّ الطاهر يروي الفكر والعاطفة وما عليهما من شحنات، كما يروي سائر القوى العاملة في الفطرة، ويروي الزاد والتجارب ويُنقّيها، ويروى الموهبة، ليظل عمل جميع القوى في ساحة التقوى، إذا حدث هذا كله، تأتي اللحظة المناسبة على قدر غالب من الله، فتأتي الموهبة المؤمنة المرويَّة بالإيمان، فتطلق التفاعل بين القطبين وما عليهما من شحنات، وينطلق من هذا التفاعل ومضة الإبداع، تحمل العطاء الإيمانيَّ المتميز، عطاءً غنيًا على قدر غِنَى الفكر والعاطفة، والإيمان والتوحيد، والزاد وشحناته، وعلى قدر غِنَى الموهبة أيضاً. إن هذه العوامل كلها تعمل في ذات الإنسان، في داخله، في فطرته، ليقدم الإنسان عطاءه. ويكون الإنسان مؤمناً، وعطاؤه عطاءً إيمانياً ما دامت الفطرة سليمة سوية لم تنحرف.

وقد يحدث أن تنحرف الفطرة، أو يضعف الإيمان، فلا يكون الريُّ متوازناً، فتنمو بعض القوى والغرائز والميول على حساب غيرها، فيختلُّ الأداء ويضطرب، ويدخل بعضه أو كله في ميدان الفجور.

وقد نجد في واقع الحياة عملاً يبدو لنا في ظاهره طيّباً مع فساد صاحبه أو انحرافه أو كفره وضلاله. أما عمل الكافر والملحد فقد بيّن الله ورسوله لنا أمره. فمهما حمل من زينة وزخرف فهو مرفوض عندالله:

﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثورا.﴾ [الفرقان: ٢٣]

وحين سألت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ عن عبدالله بن جدعان، وهل يقبل الله عمله وقد كان يصل الرحم ويقري الضيف...؟ فقال: «**لا! إنه لم يقل يوماً قط اللهم اغفر لي يوم الدين**»(١).

وقد يحدث أن يصدر عمل طيّب في ظاهره من رجل منحرف فيتساءل الناس كيف يصدر هذا العمل من هذا الرجل.

ومن خلال ما عرضناه عن الفطرة نرى أنه من الممكن أن يصدر عمل طيبٌ كما يبدو لنا من رجل نظنّ أنه ليس أهلاً لهذا العمل. فيكون هذا العمل من أثر البقيّة الباقية من فطرته التي انحرفت أو شُوِّهتْ، فيبقى جزءٌ ما يعمل فيها، فتصدر بعد ذلك بعض الأعمال التي تبدو لنا في ظاهرها طيبة، والله أعلم بخلقه وحسابهم على الله.

٦ - حماية الفطرة ورعايتها وسبيل الإسلام إلى ذلك:

من هذا العرض السريع الموجز لأهمية الفطرة ولخطورة دورها في حياة الإنسان، ندرك أهمية حمايتها وصونها من أن تتعرّض للانحراف أو التشويه، وأهمية رعايتها.

والفطرة ليست «عضلة» في جسم الإنسان، ولا هي مادة ذات شكل وحجم ووزن وموضع في الإنسان. إنها أمر من عند الله أعلمنا بها الله سبحانه وتعالى. إنها مجموعة قدرات وطاقات، وغرائز وميول ورغبات، أودعها الله في كيان الإنسان، تتفاعل

(١) أحمد: المسند: ٦/ ١٢٠.

مع أجهزة الجسم: من قلب ودماغ وجهاز عصبي، وغير ذلك مما لايعلمه إلا الله.

ومن هذا التصور أيضاً ندرك مدى امتداد أهميتها في كيان الإنسان، وهي تتفاعل وتؤثر وتتأثر بأجهزة الإنسان المختلفة على سنن لله ماضية وحكمة بالغة.

ومهما كان التصور فإنه يقودنا في النهاية إلى الأهمية البالغة للفطرة وخطورة دورها. ففيها أودع الله الحقيقة الكبرى في الكون والحياة، قضية الإيمان والتوحيد. ومنها ينطلق عطاء الإنسان مروياً بنبع الإيمان غنياً به، أو جافاً منحرفاً.

من هذا التصور ينطلق الأدب الملتزم بالإسلام بتميزه الفكري والإيماني والفني على قدر الإيمان والموهبة والزاد. ومن هذا التصور يخرج العطاء المتميّز كله من علم وفنٍّ وصناعة وغير ذلك.

ولذلك كانت القوى التي أودعها الله فطرة الإنسان تقرر مصيره في الدنيا والآخرة. وهل هنالك أخطر من ذلك؟!

ولذلك كانت حماية الفطرة هي الحق الأول للإنسان في هذه الحياة الدنيا. فإذا لم يوفَ هذا الحق تعطَّلت سائر الحقوق أو انحرفت أو تشوّهت، فدَخلها الظلم والفتنة والفسَاد، وتعطَّلت المسؤوليات كذلك.

وإذا كانت حماية الفطرة حقاً لكل إنسان، بل هي الحق الأول والأكبر، فإنها في الوقت نفسه مسؤولية الأُمة بكل مستوياتها ومؤسساتها وقوانينها، ابتداء من الأسرة والبيت والوالدين، وانتهاء بالدولة ورجالها، ومروراً بالمعاهد والجامعات وسائر المراكز.

ستختلف القوانين كثيراً حين يحرص واضعوها على حماية الفطرة، أو حين لايحرصون على ذلك. لذلك جاءت الشريعة الإسلامية حريصة كل الحرص على حماية الفطرة من أن تلوّث بالآثام والمعاصي والجرائم. حَرصت على ذلك في بناء الأُسرة وروابطها ونظامها، وحرصت على ذلك في تنظيم العلاقة بين الرجل والمرأة، ومنع الاختلاط الذي يفسد الفطرة ويدفع إلى الفجور. وحرصت على ذلك في تربية الفتاة خلقاً وديناً وعلماً

ولباساً، حتى تحفظ على الفتاة سلامة فطرتها. ألا ترى الحياء مغروساً في فطرة الفتاة، في فطرتها السليمة حتى يكاد يكون سلاحاً يحميها من الفتنة. فإذا فسدت الفطرة فقدت الفتاة حياءها وانزلقت في الرذيلة وجاهرت بها. وكذلك حرص الإسلام على حماية فطرة الفتى وحماية ما أودع الله فيها من قوى، لتؤدي كل قوة ما خُلِقَتْ له.

لقد جاء الإسلام بتشريعات كاملة تهدف إلى تحقيق هذه الحماية والرعاية. فهو يحرص على الإنسان وسلامة فطرته قبل الزواج، فسنَّ للزواج تشريعاً كريماً دقيقاً. فحرَّم زواج المسلم أو المسلمة من مشرك أو كافر. وجعل الإسلام أساس علاقة الزوجين، وأباح زواج الرجل المسلم من الكتابية مادام الرجل المسلم صادقاً في دينة عارفاً بمسؤولياته وحقوقه، يدرك أن من أهم مسؤولياته الدعوة إلى الله ورسوله ﷺ إلى الإيمان والتوحيد. فإن كان الرجل المسلم كذلك فهو أول ما يكون داعية في بيته. ولا يختار الكتابية إلا عن علم وبيّنة ليطمئن إلى أنه سيوفي بعهده مع الله في أداء واجبات الرسالة الربانيَّة، وأنه لن يترك منفذاً لانحراف أو فتنة. وإننا هنا نأخذ قبسات ليعود المسلم إلى الكتاب والسنة فيجد التفصيل البيّن المعجز:

﴿ولا تَنْكِحوا المشركات حتى يؤمنَّ ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تُنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أُولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبيّن آياته للناس لعلهم يتذكرون﴾ [البقرة: ٢٢١]

وحرّم الإسلام نكاح الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات، وبنات الأخ وبنات الأخت والأمهات اللاتي أرضعن الرجل وأخواته من الرضاعة وأمهات الزوجات والربائب اللواتي في الحجور من النساء اللاتى دخل الرجل بهن، وحلائل الأبناء الذين من الأصلاب، كما حرّم الجمع بين الأختين، و بين المرأة وعمتها و بين المرأة وخالتها.

وعن عائشة عن النبي ﷺ: «**يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة**» [رواه الخمسة][1]

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «**تُنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها**

(١) صحيح الجامع الصغير: (ط:٣)-(ح:٦)-(ص٣٢٧٠)-(حديث: ٧٨٩٤).

ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك» [رواه الخمسة][1]

فالدين هو الأبعد أثراً في حماية فطرة المولود ورعايته بعد ولادته.

وكذلك:

عن أبي حاتم المزني عن النبي ﷺ: **«إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه. إلا تفعلوه تكن في الأرض فتنة وفساد كبير»** قالوا: يارسول الله: وإن كان فيه؟ قال: **«إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه»**، أعادها ثلاث مرات. [رواه الترمذيّ][2]

وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي محمد ﷺ: **«تخيّروا لنطفكم، فأنكحوا الأكفاء وأنكحوهم»**. [رواه ابن ماجة والحاكم والبيهقي في سننه][3]

والكفاءة هي الدين والخلق.

وعن معقل بن يسار عن النبي ﷺ: **«تزوّجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم»** [رواه أبو داود والنسائي][4]

وعن ابن مسعود عنى النبي ﷺ: **«تزوّجوا الأبكار، فإنهنّ أعذب أفواها وأنتق أرحاماً، وأرضى باليسير»** [رواه الطبراني في الكبير][5]

وقواعد أخرى كثيرة جاء بها الإسلام لرعاية الزواج مما يعين على حماية الفطرة ورعايتها.

هذا قبل الزواج، ثم بعد الزواج حدّد الإسلام حقوق الزوجة وحقوق الزوج وآداب الأسرة تنظيماً وتحديداً كاملاً، حتى يكون بيت الزوجية سكناً تُرعى فيه الفطرة وتصان فيه الحقوق: حقوق الزوج والزوجة والأبناء، ويقوم كلٌّ من هؤلاء بمسؤولياته التي تنشأ عنها الحقوق.

من هنا: من هذا الحق الأول والأخطر للإنسان، حق حماية فطرته، من هذا الحق تنطلق سائر الحقوق والمسؤوليات، وتترابط الحقوق والمسؤوليات، من خلال فطرة سوّية

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته: (ط: ٣)-(ج: ٣)-(ص: ٥٦)-(حديث: ٣٠٠٠).
(٢) المصدر السابق: (ج: ١)-(ص: ١٣٤)-(حديث: ٢٦٧). (٣) المصدر السابق: (ج: ٣).-(ص: ٣٦)(حديث: ٢٩١٨). (٤) المصدر السابق: (ج: ٣)-(ص: ٤٠)-(حديث: ٢٩٣٧).
(٥) المصدر السابق: (ج: ٣)-(ص: ٤٠)-(حديث: ٢٩٣٦).

سليمة قادرة على استقبال رسالة الله وتدبّرها والإيمان بها والخضوع لها والتزامها، رسالة الله التي خُتمت بمحمد ﷺ ليبلّغها للناس كافة، للعالمين، رحمة من عند الله. إنها منهاج الله -قرآناً وسنة ولغة عربية.

حين ندرك هذه الخطورة لحماية الفطرة ستتغيّر أسس التربية والبناء، وقواعد الإعداد والتدريب، سيختلف النظام الاجتماعي، وستنتظم العلاقات بين الأفراد، وبين الشعوب، لتخضع كلها إلى منهاج ربّاني معجز، فيه وحده نجاة الإنسان في الدنيا والآخرة، وفيه وحده الحقوق الكاملة والمسؤوليات الكاملة للإنسان، وهو البيان العالميّ الحق المتكامل لحقوق الإنسان.

فعسى أن يعي المسلمون ذلك، ويعيه الدعاة، لتستقرَّ الدعوة الإسلامية على أسس ربّانية ثابتة، ولتلتقي القلوب المؤمنة صادقة مع ربها وفيّة لعهدها، صفاً واحداً كالبنيان المرصوص، تجمعها الفطرة النقية السوّية السليمة.

ولاتقف القضية عند حد الحماية والصون. ولكنها كذلك تمتد إلى الرعاية المستمرة خلال الرضاعة والطفولة والفتوة والصبا، وخلال مراحل الحياة كلها ليظل الإنسان في جو طاهر نظيف، ولتظل الفطرة سليمة توفي بمسؤولياتها، وتنال حقوقها.

ووضع الإسلام تشريعاً مفصّلا لحماية الفطرة وتشريعاً مفصّلاً لرعايتها.

ويبدأ حق الابن على أبيه في الإسلام أن يحسن اختيار أمه. فهذه مسؤولية كبيرة. ووضع الإسلام أسساً لهذا الاختيار:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**تُنْكَح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها. فاظفر بذات الدين تربت يداك**»

[رواه الشيخان وأبو داوود والنسائي وابن ماجة](١)

وكذلك:

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته: (ج:٣)-(ص:٥٦)-(حديث:٣٠٠٠).

فعن عائشة رضي الله عنها عن النبيّ ﷺ أنه قال: «تخيّروا لنطفكم فانكحوا الأكفاء وأنكحوا إليهم» [رواه ابن ماجة والحاكم والبيهقي في السنن][1]

وأحاديث أخرى تبيّن أسس الاختيار .

ومن حقوق الابن على أبيه أن يحسن اختيار اسمه. ومن أهم الحقوق أن يتعهده بالتربية الإيمانية وتزويده بالعلم الذي أساسه كله منهاج الله -قرآناً وسنة ولغة عربية- . فتعليم اللغة العربية حق للولد على أبيه ومجتمعه وأمته .

إن تعهّد الابن حقٌّ له على أبويه وعلى مجتمعه وعلى أُمته في كل ما فرض الله له من حقوق، والتقصير فيها إثم كبير، وتهديم للمجتمع والأُمة .

وحتى تُرعى المسؤوليات وتصان الحقوق في الأُسرة والبيت، جعل الله البيت المسلم سكناً تسكن فيه الأُسرة كلها في جوٍّ من البرّ والتراحم الكريم، والتعهّد والتعاون :

﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون﴾ [النحل : ٧٢]

وكذلك :

﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكناً .....﴾ [النحل : ٨٠]

وكذلك :

﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون﴾ [الروم : ٢١]

مع الفطرة السليمة والتمسّك بمنهاج الله يتحقّق السكن في الأُسرة، وتتحقّق المودة والرحمة، وتتصل الأرحام وتتواصل. أما حين تفسد الفطرة ويتولى الناس عن منهاج الله، فإن الأُسرة تتفرّق، وروابطها تتمزّق، والأرحام تتقطع، ويذهب السَّكَن والبرّ والرحمة والمودة :

﴿فهل عسيتم إن تولّيتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ [محمد : ٢٢]

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته : (ج : ٣)-(حديث : ٢٩٢٥) .

فـالسكن والبرّ، والرحمة والمودّة، والتعـاون الكريم، كلُّ هـذا ينشأ في الأسرة حين تكون الفطرة سليمة، والأُسرة متمسّكة بمنهاج الله، في جوٍّ يملؤه عبق الإيمان والتوحيد.

عندما لاتُصان الفطرةُ التي فطر الله الناس عليها ولاتُرعى، يفقد الإنسان كثيراً من حقوقه التي شرعها الله له:

١ - يفقد سلامة الفطرة وهذا هو حقه الأول والأكبر.

٢ - تتمزّق الأسرة وتتقطع الأرحام.

٣ - يـذهـب السكن والبِرّ، والـرحمة والمودة، ويفقـدهـا الإنســان وهي من أهم حاجاته وحقوقه.

٤ - تضطرب المسؤوليات وتضيع، وتضطرب الحقوق وتضيع في داخل الأسرة.

■ - إذا حصل هذا في الأُسرة وأفـرادها، فإن الفتنـة تمتدّ إلى المجتمع والأمـة كلها، وتضطرب الحقوق والمسؤوليات، وتنتشر الفتنة والفساد في الأرض.

وهذا الذي نـراه اليوم في الغرب، حيث تَولّى النـاس عن الإيمان والتوحيد، وتمزّقت الأسرة، وفسدت الفطـرة وشوّهـت بالآثـام والمعاصي، والـزنا واللـواط والخمور والجرائم المتـوالية، وامتـدت الفتنـة في الأرض كلهـا تحملها العَلمانيـة وحقـوق الإنسـان الوضعيـة المضطربة المتناقضة.

الفصل السادس

امتداد حقوق الإنسان في الإسلام وترابطها وتناسقها

إن الإسلام هو الدين الحق من عند الله، بعث به جميع الأنبياء والمرسلين، الذين ختموا بمحمد ﷺ، فاكتمل الدين به، منهجاً ربّانيا للإنسان، للناس كافة، للبشرية كلها:

﴿...اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا...﴾
[المائدة: ٣]

فالإسلام ينظر إلى الإنسان وإلى حقوقه في هذه الحياة الدنيا نظرة شاملة تمتد مع مختلف الأحوال والظروف، ومع العصور والأزمان، ومع الأقطار والأجناس، نظرة عادلة دقيقة، متوازنة على أسس ربّانية.

إن حقوق الإنسان تأخذ امتدادها وشمولها في الإسلام من القاعدة الربانية الأولى، قاعدة الإيمان والتوحيد، كما ذكرناها سابقاً، وكما يبيّنها لنا الحديث الشريف الذي نعيده هنا للتأكيد والتذكير:

« يامعاذ بن جبل! هل تدري ماحق الله على عباده وما حق عباده على الله؟ فإنّ حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لايعذّب من لايشرك به شيئاً»
[رواه أحمد والشيخان والترمذي وابن ماجة](١)

من هذا التصوّر، من هذه القاعدة الربانيّة تنطلق حقوق الإنسان وتنطلق مسؤولياته، وتترابط الحقوق والمسؤوليات بذلك.

ومن هنا نرى أن الحقوق والمسؤوليات شرع من عند الله لايعصف بها كِبْر الإنسان ولا غروره، ولا أوهامه ولا ظنونه، ولا مصالحه المتبدلة المتناقضة، ولكنها تدخل في أعمال الإنسان وأعماق مصالحه الطاهرة في الدنيا كما شرعها الله له.

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته: (ط: ٣)، (ج: ٦)، (حديث: ٧٨٤٥).

فارتباط الحقوق بالمسؤوليات على النحو الذي عرضناه، وارتباط الحقوق والمسؤوليات بجميع مصالح الإنسان الطاهرة العادلة التي شرعها الله له، هو المعنى الأول من معاني شمول النظرة الإسلامية لحقوق الإنسان.

ولا تنحصر حقوق الإنسان ولاتنشأ من ارتباطه بأرض، لتنفي الحقوق عن إنسان ارتبط بأرض أخرى. ولاتنحصر الحقوق باللون واللغة والجنس، ولكنها تمتد مع الإنسان حيثما كان، ومهما كان لونه أو كانت لغته، إنها نظرة في الإسلام شاملة لحقوق الإنسان في الأرض كلها بألوانه ولغاته. وهذا هو المعنى الثاني للامتداد والشمول.

وتمتد نظرة الإسلام إلى الإنسان في جميع مراحل حياته، ويقرر لكل مرحلة حقوقها ومسؤولياتها فالإسلام يقرر حق رعاية الجنين، والرضيع والفطيم والصبيّ والفتى والرجل والشيخ والهرم، لتكون هذه الحقوق ملّبية لحاجة كل مرحلة من مراحل حياة الإنسان. وتمتد هذه الحقوق إلى الميّت، فتنشأ له حقوق نابعة من القاعدة الربانية الأولى التي سبق ذكرها. إنها حقوق حدّدها الله رب العالمين وبلغها رسوله الأمين محمد ﷺ. وهذا هو المعنى الثالث من معاني الشمول والامتداد.

والمعنى الرابع للشمول والامتداد هو امتداد الحقوق والمسؤوليات في الإسلام إلى جميع الروابط الإيمانية وعلاقاتها. وأول هذه الروابط أخوة الإيمان التي فرضها الله وفصّل حقوقها ومسؤولياتها حتى لاتقف عند حدود العواطف التي تشتعل وتنطفىء حسب المصالح والأهواء. فكانت هذه الرابطة بحقوقها ومسؤولياتها جزءاً من إيمان وتوحيد. وكذلك رابطة الجوار والمصاحبة في العمل أو السفر، وكل رابطة تنشأ في الإسلام وتنبع من الإيمان وتخضع لشرع الله، هي علاقة لها حقوق ومسؤوليات في الإسلام.

والمعنى الخامس من معاني الشمول والامتداد هو امتداد الحقوق والمسؤوليات إلى جميع مستويات الأمة ابتداء من وليّ الأمر، إلى العلماء حتى الخادم والمولى. فقد فصّل الإسلام في هذه الحقوق والمسؤوليات لتتوازن موازنة أمينة عادلة تحفظ للأمة ترابطها. وتجد أن من الموالي في الإسلام من بلغ منزلة في العلم عالية، رفعته في الأمة وتاريخها. فنافع مولى عبدالله بن عمر كان من رواة حديث رسول الله، ومن الرواة الموثوقين الذين تأخذ الأمة

عنهم روايتهم. إنهم كانوا يتمتعون بحقوق لايكاد يتمتع بها كثير من عبيد حضارة القرن العشرين في أكثر الدول تقدّماً ماديّاً. وللخادم منزلته واحترامه وحقوقه كذلك، حقوق تكاد تُفقد في أعاصير الحضارة المادية وتهافتها وصراعها على الدنيا.

والمعنى السادس هو امتداد الحقوق والمسؤوليات إلى الأرحام، الحقوق التي فصّلها الإسلام ورعاها لتكون الصِّلات كريمة نديّة بالإيمان عَبِقة بعبق المودة والإحسان.

لقد رعى الإسلام حقوق جميع هذه الروابط الإيمانية ومسؤولياتها، وجميع حقوق المستويات ومسؤولياتها، حتى لاتتحول أي رابطة إلى عصبية جاهلية، ولا تتحول حقوق أي مستوى إلى كبر وغرور، وظلم وطغيان.

ومن أهم الروابط الإيمانية التي يرعاها الإسلام ويفصّل حقوقها ومسؤولياتها روابط الأسرة، الروابط التي تربط بين الزوج والزوجة، وبين الوالدين والأبناء، وبين الأبناء أنفسهم، لتظلّ الأسرة هي النواة التي يبنى منها المجتمع والأمة، والحياة البشرية، يرعى الإسلام هذه الروابط الإيمانية رعاية تصونها من الانحراف أو التحول إلى عصبيات جاهليّة تنصر الباطل وتصدّ عن الحق. وترعاها رعاية تحفظ لها قوتها وعدالتها. برّ الأبناء بوالديهم برّ يفصله الإسلام تفصيلا، وحنان الأبوين على الأبناء ورعايتهما لهم يرعاه الإسلام ويغذيه ليوفي الحنان بالحقوق وليقوم بالمسؤوليات.

إن هذه الصورة من امتداد النظرة لحقوق الإنسان ومسؤولياته وشمولها نظرة فريدة، لاتجدها لدى أيّ شعب ولا لدى أي تشريع. لقد تفككت الأسرة في حضارة القرن العشرين في دنيا العَلمانية، وتمزّقت روابط الأسرة وتقطعت وشائجها.

﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ [محمد: ٢٢]

وهذا هو المعنى السابع لامتداد النظرة في الإسلام وشمولها لحقوق الإنسان.

والمعنى الثامن لامتداد حقوق الإنسان في الإسلام وشمولها هو في نظرة الإسلام إلى المرأة وحقوقها. فلا تنحصر الحقوق في الإسلام بالرجل، وإنما تشمل المرأة وترعاها في جميع أعمارها وأحوالها، طفلة وصبية وزوجة وأمّاً. ويعطي الإسلام تفصيلات لكل حالة

من هذه الحالات. ويرعى المرأة وحقوقها عند الزواج والطلاق، والميراث والعلم في حدود ما شرع الله، وأعطاها حق التملك والتصرّف بأموالها، وغير ذلك.

لقد انتقلت المرأة بالإسلام نقلة عظيمة جداً لم تعرفها في تاريخ أي شعب من الشعوب. إنها انتقلت من الجاهليّة إلى الإسلام، إلى نور الإيمان والتوحيد، فأعاد لها إنسانيَّتها وفطرتها التي فطرها الله عليها سليمة نقيّة، ونبعت حقوقها ومسؤولياتها من القاعدة ذاتها، قاعدة الإيمان والتوحيد.

لقد شعرت المرأة في الإسلام بحُرّيَّتها الطاهرة الحقيقية، لا بحريَّة الدنس والجنس والفاحشة، ولا بحرّية الفتنة والفساد والجريمة.

لقد شعرت المرأة في الإسلام بالأمن والطمأنينة والأمان، حين عرفت حقوقها التي شرعها الله لها، وحين جعل الله الزوجَ قوّاماً في البيت، ليرعى حقوق جميع أفراد الأسرة من زوجة وبنين وبنات ومسؤولياتهم، وليحاسَب عليها كما تُحاسَب المرأة بين يدي الله، وحين جعل الإسلام مؤسسات الأُمة كلها ترعى هذه الحقوق جميعها وتحميها: المعاهد، والقضاء، والولاة، والعلماء وأولو الأمر، وقبل ذلك كله برُّ الأبناء الذي أمر به الله، ورعاية الزوج وحدبه ووفاؤه، والسكن الذي ينشأ من ذلك كله. إن هذا الأمن الذي تجده المرأة المسلمة يُضاف إلى الأمن الداخليّ في نفسها، الأمن النابع من صفاء الإيمان والتوحيد، وصدق التقوى وحسن التوكل على الله. إن هذا الأمن لا تعرفه ولا تجده أيّ امرأة في الغرب أو الشرق إلا إذا آمنت وصدق إيمانها، وأعانها على ذلك قوامة الزوج وبرّ الأبناء والمجتمع المسلم.

لقد تابع الإسلام المرأة في جميع مراحل حياتها وجميع أحوالها وبيَّن لها مسؤولياتها وحقوقها كما فعل مع الرجل، ومن خلال ذلك ضبط العلاقة بين المرأة والرجل ونظم حدودها وحقوقها ومسؤولياتها.

ولقد أثار بعضهم شبهات حول نظرة الإسلام للمرأة وحقوقها. ولكنّ الحقيقة أن الشبهات هي في نظرة أولئك إلى المرأة وليست في نظرة الإسلام.

الحقيقة المؤلمة أن حضارة الغرب، حضارة العَلمانيين، حين دفعت المرأة إلى ميدان العمل، ورفعت شعار مساواة المرأة بالرجل، جرّدت المرأة من لباسها وعفّتها، ثم جرّدتها

من حقـوقهـا وحملتها مـا لا تطيق، وأغـرقتهـا في مُتعَ الجنس المتفلّت والفـاحشة فخـدّرتها، وأهلكتها حين جعلتهـا تلهث راكضة وراء لقمة العيش. فما رعت حقـوق الزوج، ولا أوفت بحقـوق الأبنـاء، وتحطمت الأسرة، وتمزّقت وشـائجهـا، وذهب السّكن عن حيـاة الـزوج والزوجة.

إن التاريخ يقـدّم لنا أمثلة رائعة عـن عظمة المرأة في الإسلام وما قـدّمته من خير في ميـادين متعددة في الحيـاة. ويقـدم لنا التـاريخ أيضاً صـوراً مفـزعة عن هـوان المرأة وذلها وضياعهـا خارج الإسـلام قديما وحديثـا، حين أصبحت المرأة موضع لهو الـرجال وعبثهم تحت شعارات كاذبة كثيرة وزخارف مضللة.

وقد أخذ كثير من أبنـاء الحضارة الغربية يشعرون بما فقـدته المرأة حين تركت البيت ورعايته ومسؤولياته، وجرت تلهث في ميادين العمل الملوّث بالفاحشة.

لقد ذكرنـا بعضاً مما كتبه غـورباتشوف عن ذلك في كتـابه «البيروسترويكا»، حين أقرّ بـأن المجتمع ظَلَم المرأة والرجل والأبنـاء، حين لم تَعُد المرأة تجد وقتـاً للراحـة في بيتها، ولممارسة حق الأمومة ورعاية أبنائها وزوجها.

وكذلك أشـار نيكسون في كتـابه الأخير: «مـاذا بعد السـلام» عن انهيار الأسرة في أمريكا وانتشار الجريمـة والفساد في المجتمع، وقدّم إحصائيات هامـة عن هذه القضايا، وعن انهيار التعليم والمواليد غير الشرعيين وغير ذلك.

لقد كان من أخطر نتائج انفلات المرأة من ضوابط الإسلام انتشار الجريمة، وفساد الأجيال، حتى لم يعد العلم قادراً على ضبط المجتمع ومنع الجريمة، ولا المعاهد ولا دوائر الأمن ولا رجال الشرطة ولا القانون.(١).

وتمتـد نظـرة الإسـلام إلى حقـوق الإنسـان لتشمل جميـع الطـوائف وأصحـاب الديانات. فقدم الإسلام بذلك المعنى التاسع والصورة المشرقة لعدالة الإسلام في نظرته إلى حقوق الإنسان.

---

(١) يراجع كتاب «قبسات من الكتاب والسنة» للمؤلف: الفصل الثالث من الباب الخامس (ص١٩٥-٢٢٤) وكتاب واقع المسلمين أمراض وعلاج: الباب الأول، الفصل الخامس: (ص: ١٠٥-١٢٤)، لدراسـة أوسع عن المرأة في الإسلام. وكتاب التعامل مع مجتمع غير مسلم من خـلال الانتماء الصادق إلى الإسلام: الباب الثاني - الفصل الرابع (ص: ٦٧- ٧٨).

أما بالنسبة للكافرين والمشركين فقد جادلهم الإسلام أدق جدال، وردّ عليهم أعدل ردّ من خلال دعوتهم إلى الإسلام. إن الإسلام جاء ليجتثَّ جذور الكفر من الأرض وليجفف منابعه. ذلك لأن الإيمان بالله واليوم الآخر يمثل الحقيقة الكبرى في الكون والحياة، لأن من مات كافراً سيدخل النار. فمهمة الإسلام إذن هي إنقاذ الإنسان من فتنة الدنيا ومن عذاب الآخرة.

لذلك كان الحق الأول للكافر في الإسلام هو أن يُدعى إلى الإسلام دعوة واضحة صريحة، دعوة تحمل معها الحجة البيّنة المقنعة والأسلوب الأعمق أثراً في النفس. ولقد أخذت هذه الدعوة مساحة واسعة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لأنها هي القضية الأخطر والأكبر، وهي القضية الأولى.

من حق الكافر أن يُدعى إلى الإسلام بجلاء ووضوح، ومن مسؤولية الأمة المسلمة أن تقوم بذلك.

ومن حقّه كذلك أن لايجبر على الإيمان، بل يترك له الحق في أن يتخذ هو بنفسه قراره في أن يؤمن أولا يؤمن. فإن تاب وآمن فيصبح من المؤمنين، يرتبط معهم بأخوّة الإيمان، ويتمتع بحقوقهم ويتحمل مسؤولياته النابعة من ذلك.

﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصّل الآيات لقوم يعلمون﴾ [التوبة : ١١]

وأما إن استمرّ وبقي على كفره، فليس له في أرض الإسلام مجال. لامجال في دار الإسلام للكفر ولا للكافرين، فيطبق عليهم شرع الله كما جاءت به نصوص الكتاب والسنة. أما إن جاء أحد من المشركين مستجيراً فيجار حتى يُبلَّغ رسالة الله، ثم يُعان ليبلغ مأمنه.

﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾ [التوبة : ٦]

موقف الإسلام من الكافرين مفصَّل في منهاج الله كل التفصيل. أما بالنسبة لأهل الكتاب فقد جعل الله لهم وضعاً مختلفاً في الحقوق عن الكافرين والمشركين، وإن كانوا من

حيث المعتقـد كافريـن ومشركين، ولكن الله سبحانـه وتعالى أعطـاهم حقوقـاً في الإسلام ليست للكـافرين ولا للمشركين، لأنهم أصحـاب كتاب أُنـزِل من عندالله، وأتبـاع رسل بعثهم الله برسالتـه، ولكنهم بدّلوا وحرّفـوا وظلموا، فحسابهم في الآخرة عنـد الله سبحانه وتعالى كما هو حساب جميع عباده وخلقـه. أما في الدنيا فهم في ذمّة المسلمين، على أن لا يخونوا ولا يغـدروا، ويخضعوا لدولـة الإسلام، تمضي عليهم شريعتـه التي تفصل حقوقهم ومسؤولياتهم.

ويظل الحق الأول لهؤلاء وهؤلاء أن يبلَّغوا رسـالة الإسلام وأن يُدعـوا إليها بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم فيعاملون على قدر ظلمهم وبما يردّهم عن الفتنة والفساد :

﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بـالذي أُنـزل إلينا وأُنـزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحـد ونحن لـه مسلمون﴾
[العنكبوت: ٤٦]

هـذه هي الدعـوة الإسلاميـة: إبلاغ لـرسـالة الله إلى جميع خلقـه، ومتابعـة تحقيق أهدافها في الواقع البشري، أهدافها الرّبانية الثابتة.

وتمتد حقوق الإنسان في الإسلام إلى جميع ميادين الإنسان وحالاته سواء أكان ذلك في الإقـامـة أم السفـر. فللسفـر حقـوق وواجبات، وقـواعـد وآداب، يتـابعهـا الإسـلام ويـرعاهـا، وينشِّيء الأجيال عليها. فابن السبيل له حق الرعاية والعون المادي والمعنوي. وهذه الصورة العاشرة.

وحقوق الإنسان تمتد في الإسلام إلى جميع ميادين حيـاته ونشاطه وعمله، ابتداء من البيت والأسرة، إلى المعهد والدراسة، إلى المسجد، إلى السـوق، إلى الوظيفة. وكذلك تمتد إلى فكره وكلمتـه وسعيه وعـلاقاته، لتكـون الحقوق في هذا كلـه منضبطة بضـوابط إيمانية ربّانية مفصّلة، ومتكاملة متناسقة، ومترابطة مع المسؤوليات في كلّ حالة.

وكما ذكرنا سابقاً فليس الهدف هنـا إيراد جميع التفصيلات التي توضح ذلك، فهذا أمر لا نستطيعه نحن ولا يستطيعه غيرنا، لأن هذه التفصيلات هي منهاج الله كله.

من هذا العرض الموجز يمكن أن ندرك أنه مع امتداد نظرة الإسلام لحقوق الإنسان هذا الامتداد الذي عرضناه، جعل الله للإنسان حقّاً مؤكداً في الدار الآخرة لمن مات مؤمنا لايشرك بالله شيئاً. فأي امتداد للحقوق أكبر من هذا؟ لقد جعل الله للإنسان حقّاً أن يدخله الجنة إن مات على غير شرك، أي إن أدّى الحق الذي عليه، فيؤدّي الله الحق الذي وعده إياه.

حقوق الإنسان في الإسلام ممتدة مع جميع العصور والأجيال والأجناس، ومع جميع خلق الله ومراحل حياتهم وأحوالها، وهي ممتدة من الدنيا إلى الأخرة.

وليست القضية مجرد الامتداد، ولكنها الترابط والتناسق أيضاً. الترابط والتناسق النابعان من القاعدة الأولى التي عرضناها في أول الفصل، ومن تكامل منهاج الله وترابطه حقاً كاملاً لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه:

﴿إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز* لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ [فصّلت: ٤١، ٤٢]

وإن ما سيرد ذكره من حقوق للإنسان في الفصول المقبلة، لايمثل كامل حقوقه في الإسلام، وإنما هي قبسات أو مقتطفات. وما نذكره من هذه المقتطفات فإنه حقوق للرجل والمرأة كذلك. فإنّ الله قد كرّم الإنسان رجلاً أو امرأة، والمرأة لها حق الحياة والأمن، وحق العمل في حدود ما شرعه الله، وحق التملك، وحق التفكير وحرية الرأي، وحق التعلم، وغير ذلك مما سنذكره.

ولكن المرأة لها حقوقها الخاصة المتوازنة مع مسؤلياتها. فهي ليست مسؤولة عن الإنفاق على البيت إلا إذا هي أحبّت أن تعين زوجها برضائها واتفاقها، وحق قبول من يتقدّم لها للزواج أو رفضه على أسس شرعية، وحقوق أُخرى بينها الإسلام.

الباب السادس

صور ونماذج
من حقوق الإنسان في الإسلام
بين النصوص والوثائق

تمهيـــــد

كما ذكرنا سابقاً فإنه من المتعذّر أن نبسط كامل حقوق الإنسان في بيان أو وثيقة من صفحات. إن منهاج الله -قرآناً وسنة ولغة عربية- بتكامله وترابطه وإعجازه هو المصدر الوحيد الذي يعرض حقوق الإنسان كاملة. وهو البيان العالمي الوحيد لدى الإنسان، البيان الذي يعرض حقوق الإنسان دقيقة مفصلة عادلة.

لذلك نكتفي هنا بتقديم صور ونماذج من هذه الحقوق. وسنرى مع عرض هذه النماذج كيف أنها تنبع من المسؤوليات وترتبط بها، وكيف أن المسؤوليات والحقوق ترتبط معاً بمنهاج الله.

وسنرى كيف أن بعض الحقوق تكون حقوقاً للإنسان من ناحية، وتكون واجبات ومسؤوليات من ناحية أُخرى.

وسنرى كذلك كيف أَن هذه الحقوق في الإسلام تختلف اختلافاً واسعاً عما هي عليه لدى الغرب الرأسمالي العلماني الديمقراطي، أو عَمّا كانت عليه لدى الاتحاد السوفياتي الشيوعي الماركسي الديكتاتوري.

إن مصدر الاختلاف هو من النقطة الأُولى، من المنطلق، من النظرة للكون والحياة والإنسان.

إن العالم الغربي الرأسمالي والعالم الشيوعي الماركسي أَرادوا أن يفهموا الكون من خلال عقولهم ووسعهم وسعيهم فحسب، وما يؤدي إليه هذا «العقل» والوسع من تجارب وعلوم. وغاب عن بالهم أنهم يضعون مفهوماً وتصوراً لكون لايعرفون منه إلا ما يعادل حبة الرمل بالنسبة للرمال في الأرض كلها أو أقلّ، وبعقول محدودة ووسع محدود، ومن خلال فترة زمنية محدودة .

لاننكر أهمية هذه الأبحاث والدراسات من الناحية العلمية، ولكننا ننكر كل الإنكار أن تكون هذه الدراسات والعقول هي المصدر لفهم هذا الكون الممتد الذي يبدو لنا أنه لامتناهٍ، ولفهم الموت وما بعد الموت. إن مثل هذه المفاهيم هي ظنون وتخمين

لايسندها علم أبداً.

وما نـذكره هنا عن كل حقٍّ من الحقـوق هو مقتطفات وإرشادات سريعـة لاتوفي القضية المطروحـة حقَّها. فكل قضية مطروحة أو حق من حقوق الإنسـان نعرضه يستحق بحثاً كاملاً مستقلاً، أو كتاباً مفصَّلا يوفيه.

هذا عرض سريع نشير إليه هنا موجزاً بقدر مايناسب موضوعنا الذي ندرسه.

والنماذج من النصوص والوثائق كثيرة جداً لانستطيع عرضها كلها أو جمعها هنا.

إن حقـوق الإنسـان في الإسـلام مـاضيـة منـذ أن بُعـث محمـد ﷺ في النصـوص والتطبيق، ومع الخلفاء الراشدين كذلك، ومع التاريخ الإسلامي عامة.

وإن حدث خلل في ميدان الممارسة والتطبيـق خلال بعض الفترات، فهذه أخطاء ندعـو الله أن لا تعود في تاريخ المسلمين. ولكننا نـوقن أن الخير الذي قدّمـه الإسلام على مسـاحة واسعـة من الكـرة الأرضية، وخـلال فترة زمنيـة طـويلة، هـو خير كبير واسع لم تستطع أي أمة أخرى في التاريخ أن تقدّم مثله أو بعضه.

ونقدم في هذا الباب نماذج من النصوص والـوثائق، من الخُطب أو الرسائل، التي تعين على فهم سياسة الإسلام ومبادئه في تنظيم المجتمع ورعاية الحقوق.

فالحقـوق في نظر الإسلام ليست حقـوق فرد أو إنسان واحد أو بضعـة أشخاص. إنها حقوق الفرد والمجتمع والأمـة كلها وحقوق الشعوب والطـوائف والفئات. إنها حقوق يحدّدهـا الإسـلام على أساس من ميـزان ربّـاني واحـد، ومكيـال واحد لا تتبـدَّل أسسـه ومعاييره، وليست حقوقاً تتبدّل مع تبدّل المعايير والمكاييل كما هي في الحقوق الوضعية.

ونقدم في هذا الباب مختارات قليلة من الـوثائق، ونؤكد أن هناك وثائق أخرى كثيرة في التاريخ الإسلامي تخدم الهدف نفسه بالنسبـة لحقوق الإنسان، لايتسع المجال لعرضها كلها، ولكنَّا نكتفي بالوثائق التالية :

١ - «الكتاب» أو «الصحيفة» التي كتبها الرسول ﷺ بعد دخوله المدينة.

٢ - خطبته ﷺ يوم فتح مكة.

تمهيد

٣ – خطبته ﷺ في حجة الوداع .

٤ – خطبته ﷺ في مرض موته .

٥ – وصية أبي بكر لأسامة بن زيد رضي الله عنهما .

٦ – كتاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعرى رضي الله عنهما .

٧ – وصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه للخليفة من بعده .

ونرى أن كل وثيقة من هذه الوثائق أغنى من بيانات الوثائق الوضعية المعزولة عن الإيمان والتوحيد والمنهاج الرباني. إنها أغنى فكراً وحقوقاً، وأصدق لهجة وعزيمة ، وأبعد عمقاً في الإنسانية . إنها مدرسة تتعلم البشرية منها .

وتدلنا هذه الوثائق على أن ماتدعو إليه ليس مجرّد شعارات ، وإنما هي التزام ومسؤولية ، وأمانة وعهد ، وحساب في الدنيا والآخرة ، يقوم على ذلك سلطة ملتزمة ومؤتمنة لتنفّذ في الأمة شرع الله .

(١)

الصحفية أو الكتاب

الذي كتبه الرسول ﷺ في المدينة [١]

١ - النص :

[١] هذا كتاب من محمد النبي «رسول الله»، بين المؤمنين والمسلمين من قريش و«أهل»يثرب، ومن تبعهم لحق بهم وجاهد معهم.

[٢] أنهم أمة واحدة من دون الناس.

[٣] المهاجرون من قريش على رَبِعَتهم[٢]، يتعاقلون بينهم[٣]، وهم يفدون عانيهم[٤] بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

[٤] وبنو عوف على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

[٥] وبنو الحارث «بن الخزرج» على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

[٦] وبنو ساعدة على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

[٧] وبنو جشم على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

[٨] وبنو النجار على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

[٩] وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(١) الوثائق السياسية: د. محمد حميد الله - (ص: ٣٩-٤٧). (٢) أي على أمرهم الذي كانوا عليه.
(٣) العاقلة : الدية ؛ التي تجب على العاقلة - أي عصبة القاتل - والمراد دية القتل الخطأ . (٤) العاني : الأسير .

[١٠] وبنو النبيت على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

[١١] وبنو الأوس على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

[١٢] وأن المؤمنين لايتركون مفرَحا(٥) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل(٦).

[١٣] وألا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه.

[١٤] وأن المؤمنين المتقين [أيديهم] على [كل] من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة(٧) ظلم، أو إثما، أو عدوانا، أو فسادا بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعا، ولو كان ولد أحدهم.

[١٥] ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن.

[١٦] وأن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

[١٧] وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولامتناصر عليهم.

[١٨] وأن سِلْم المؤمنين واحدة، لايسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم.

[١٩] وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً.

[٢٠] وأن المؤمنين يُبيء(٨) بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.

[٢١] وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه.

[٢٢] وأنه لايجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً، ولايحول دونه على مؤمن.

[٢٣] وأنه من اعتبط(٩) مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود(١٠) به، إلا أن يرضى ولي المقتول[بالعقل]، وأن المؤمنين عليه كافة، ولايحل لهم إلا القيام عليه.

[٢٤] وأنه لايحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر

---

(٥) المفرح : بضم الميم وسكون الفاء وفتح الراء - المثقل بالدين ، والكثيرالعيال . (٦) اعقيل : الدية . (٧) الدسيعة : العطية ، أي طلب أن يدفعوا له عطية على سبيل الظلم . (٨) يبيء: من البواء - أي المساواة. (٩) اعتبط مؤمنا : أي قتله بلا جناية جناها، ولا ذنب يوجب قتله. (١٠) القود : بفتح القاف والواو - القصاص .

محدثا(١١) أو يُـؤويه، وأن من نصره، أو آواه، فإن عليـه لعنـة الله وغضبه يـوم القيامـة، ولايؤخذ منه صرف ولا عدل.

[٢٥] وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله وإلى محمد.

[٢٦] وأن اليهود ينفقون مع المؤمنون ماداموا محاربين.

[٢٧] وأن يهود بني عـوف أمـة مع المؤمنين، لليهـود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم، فإنه لايوتغ(١٢) إلا نفسه وأهل بيته.

[٢٨] وأن ليهود بني النجار مثل ماليهود بني عوف.

[٢٩] وأن ليهود بني الحارث مثل ماليهود بني عوف.

[٣٠] وأن ليهود بني ساعدة مثل ماليهود بني عوف.

[٣١] وأن ليهود بني جشم مثل ماليهود بني عوف.

[٣٢] وأن ليهود بني الأوس مثل ماليهود بني عوف.

[٣٣] وأن ليهود بني ثعلبة مثل ماليهـود بني عوف، إلا من ظلم وأثم، فإنه لايوتِغُ إلا نفسه وأهل بيته.

[٣٤] وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم.

[٣٥] وأن لبني الشُطَيْبة(١٣) مثل ماليهود بني عوف، وأن البر دون الإثم.

[٣٦] وأن موالي ثعلبة كأنفسهم.

[٣٧] وأن بطانة يهود كأنفسهم.

[٣٨] وأنه لايخرج منهم أحد إلا بإذن محمد.

[٣٩] وأنـه لاينحجـز على ثأر جـرح، وأنـه من فتك فبنفسـه وأهل بيتـه، إلاّ من ظلم، وأن الله على أبر هذا.

[٤٠] وأن على اليهـود نفقتهـم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.

---

(١١) محدثاً: مـرتكب الحدث.. الجنـايـة.. الـذنب (١٢) يـوتغ: يهلك. (١٣) في نهايـة الأرب - للنويري - (الشطنة) بضم الشين مشددة وضم الطاء.

[٤١] وأنه لايأثم امرؤ بحليفه وأن النصر للمظلوم.

[٤٢] وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين.

[٤٣] وأن يثرب حرام (١٤) جوفها لأهل هذه الصحيفة.

[٤٤] وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم.

[٤٥] وأنه لاتجار حرمة إلا بإذن أهلها.

[٤٦] وأنه ما كان من أهل هذه الصحيفة من حدث، أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره.

[٤٧] وأنه لاتُجارُ قريش ولا من نصرها.

[٤٨] وأن بينهم النصر على من دهم يثرب.

[٤٩] وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك، فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين.

[٥٠] على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم.

[٥١] وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحصن من أهل هذه الصحيفة، وأن البر دون الإثم، لايكسب كاسب إلا على نفسه، وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره.

[٥٢] وأنه لايحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وأثم وأن الله جار لمن بَر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ (١٥).

٢ - دراسة موجزة للكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ في المدينة:

لقد ذكرنا في أكثر من موضع أن حقوق الإنسان في الإسلام لايمكن جمعها في بيان من صفحات، ولا في دراسة عاجلة، وأن البيان التفصيلي الأمين لهذه الحقوق هو منهاج الله. ويظل منهاج الله نبعاً غنياً يرفد العصور كلها إلى يوم القيامة بكل ما تحتاجه من فكر وحقوق ومسؤوليات. وتظل كذلك مسؤولية الناس أن يؤمنوا بهذا المنهاج، ثم يدرسوه

---

(١٤) أي حرم. (١٥) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة] ص ١٥ - ٢١ جمعها الدكتور محمد حميد الله الحيدر أبادي. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.

ويتدبروه، ثم يمارسوه في الواقع البشري المتجدد.

وإذا كنا أوردنا بعض القبسات من الكتاب والسنة بصدد بعض الموضوعات، فإننا أشرنا معها إلى أنها قبسات فقط، وأنه لابد للمسلم أن يعود إلى منهاج الله ليأخذ من هناك الصورة الجليّة المعجزة.

وفي حياة الرسول ﷺ، وحياة الخلفاء الراشدين، وأئمة الإسلام الأعلام في جميع العصور نماذج رائعة من الممارسات الإيمانية العلميّة لمنهاج الله. وهذه النماذج الغنية كثيرة أيضاً تعين على فهم أوسع لمنهاج الله من ناحية، وعلى تطبيق أدق يستفيد من التجارب المتصلة.

لذلك نعرض هنا بعض النماذج السريعة من نصوص ووثائق في مواقف مختلفة.

ونبدأ أولاً بكتاب رسول الله ﷺ حين هاجر إلى المدينة، فوضع الكتاب الذي ينظم شؤونها ويبيّن حقوق أهل المدينة ومسؤولياتهم. ومن هذا الكتاب نخرج بقواعد هامة ودورس بليغة.

ولا نرى مسوّغاً لأحد أن يذهب بالظّن إلى أن هذا الكتاب كان «ثمرة مشاورة الرسول ﷺ لوجوه الرعية الذين يُسَمَّون أهل هذه الصحيفة»، كما يقول الدكتور محمد عمارة(١)، ذلك لعدم توافر بيّنة أو حجّة على حدوث المشاورة فعلاً، ولأنه لايحسن اتباع الظنّ في فهم سيرة الرسول ﷺ، ولأن مواقف النبوة منها مايخضع للوحي الذي ينزل عليه ليبلّغه للناس، أو اجتهاد يقوّمه الوحي ويسدّده ويرعاه، أو اجتهاد بعد أن تدور الشورى، أو اجتهاد شخصي في أمر فرعيّ يعرفه الناس بالتجربة والخبرة معرفة يقينيّة، يُرَدُّ الاجتهاد فيه إلى هذه الخبرة البشرية. ولكن هذا الكتاب أو الصحيفة يمثل نموذجاً لممارسة منهاج الله في الواقع البشري، يُعَلِّمُ فيه الرسول ﷺ أصحابه والناس كافة. إنه درس من النبوة في ميدان التطبيق.

فمن هذا الكتاب نخرج بقواعد هامة تنبع من القرآن الكريم، لتكون صورة عملية لممارسة الآيات الكريمة في الواقع البشريّ:

١ - إن الكتاب بيَّن حقوق كل جماعة وقبيلة ومسؤولياتها في المدينة بشكل واضح

(١) د. محمد عمارة: الإسلام وحقوق الإنسان ضرورات لاحقوق (ص: ١٥٣).

صريح ودقيق.

٢ - بيّن لنا العناصر التي يتألف منها المجتمع المدني آنذاك: المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب، من تبعهم فلحق بهم وجاهدهم.

٣ - بيّن لنا من تبع المؤمنين من اليهود فذكر قبائلهم واحدة واحدة، ثم ذكر آخرين ممن تبع المؤمنين.

٤ - بيّنت الصحيفة بوضوح أن للمؤمنين ارتباطاً وحقوقاً خاصة بينهم:

الفقرة ١٢ : وأن المؤمنين لايتركون مُفرَحاً بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل.

الفقرة ١٣ : وألا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه.

الفقرة ١٤ : وأن المؤمنين المتقين أيديهم على كل من بغى منهم..

الفقرة ١٥ : ولا يَقْتُل مؤمنٌ مؤمناً بكافر، ولاينصر كافراً على مؤمن.

الفقرة ١٦ : وأن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

الفقرة ١٨ : وأن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء بينهم.

الفقرة ٢٠ : وأن المؤمنين يبيىء بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.

الفقرة ٢١ : وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه.

الفقرة ٢٤ : وأنه لايحلّ لمؤمن أقرّ بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً أو يؤويه، وأن من نصره أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولايؤخذ منه صرف ولا عدل.

▪ - إن الإسلام هو الدين الذي يحكم في كل أمور المدينة وأهلها، كما في الفقرة (٢٥) التي تنص: وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإنَّ مردَّه إلى الله وإلى محمد ﷺ، والفقرة (٤٦) التي تنص: وأنه ما كان من أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فساده، فإن مردَّه إلى الله وإلى محمد ﷺ.

(والفقرة ٢٥) التي تنصّ : «وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مردّه إلى الله وإلى محمد».

٦ - أما حقوق غير المؤمنين فهي حقوق مدنيّة تتعلق بالرزق وأداء شعائر عبادتهم وغير ذلك، وأنها لاتقوم لهم إلا ما داموا خاضعين لدين الله لايغدرون ولايخونون.

وهنا كذلك لانرى ما رآه الدكتور محمد عمارة في كتابه المذكور، من أن هذا «الكتاب» قرّر التسوية في «المواطنة» وحقوقها وواجباتها بين هذه الرعية السياسية، وأقرّ التمايز الديني القائم في داخل هذا «الإطار القومي السياسي».

أولاً لا يوجد في الإسلام رعيّة سياسية ورعية دينية، ولم يكن البناء الذي بناه محمد ﷺ في «إطار قومي سياسي». ولا داعي لاستخدام مصطلحات بدلاً من مصطلح وضعه الرسول ﷺ. إن مجتمع المدينة مجتمع إسلامي يحكمه الإسلام، وإن أفراد المجتمع يكوّنون أمّة. إن هذه الأمة هي نواة لبناء الأمة المسلمة الواحدة في الأرض كلها، ولتكون امتداداً حقيقيا للأمة المسلمة الواحدة الممتدّة في التاريخ.

ويقول الدكتور عمارة : إنها دولة إسلامية - قومية. وكأنه يريد أن يبرز الصورة القومية التي أخذت تبرز في العصر الحديث، والتي تساعد على تمزيق المسلمين إلى قوميات متنابذة متناحرة. ولا أدري أين مصلحة المسلمين في هذا؟!

وأعجب لهذه الجرأة على الكتاب الذي وضعه رسول الله ﷺ، ليحوّر بعضهم في معانيه، ويستحدث مصطلحات له، وينحرف عن النهج الرباني الذي يشرق من هذا الكتاب، ومن ألفاظه ومصطلحاته وتعبيراته ومعانيه.

ولو أراد محمد ﷺ أن يبني دعوة قومية، أو دولة قومية لقالها منذ البداية وما تحمّل العنت والشدة والبذل للإصرار على صورة صافية للدعوة الإسلامية وأُمّتها ودولتها.

إن هذا الكتاب العظيم من محمد ﷺ ممارسة عمليّة تطبيقية لمنهاج الله، كل فقرة فيه نابعة من منهاج الله وآياته وأحكامه. ولو كان فيه مايخالف منهاج الله لنزل الوحي وقوّم وسدد.

وهذا الكتاب بين ارتباط الحقوق بالمسؤوليات. وبين أن أهل الكتاب يمكن أن يعيشوا في ظل دولة مسلمة ومجتمع إسلامي، يجدون فيه الرعاية والحماية لأعراضهم

وأموالهم ودورهم ومعابدهم، ولأفرادهم، وغير ذلك، إلا أنهم يخضعون للإسلام و يقرّون بكل ما ورد في الصحيفة.

إن هذا «الكتاب» لم يعط اليهود حق نشر ديانتهم والدعوة إليها وكسب الأنصار لها، لأنه لايحكم المجتمع الإسلامي الا دين واحد هو الإسلام.

ولا يوجد تفريق في الإسلام بين الدين ومسؤولياته الممتدة في واقع الأمة . لقد صاغ الإسلام المجتمع المسلم والأمة المسلمة صياغة تجعل السيادة كاملة للإسلام، وتغلق كل أبواب الغدر والخيانة والخديعة أو الفتنة والفساد.

فحين يخضع أهل الكتاب للدولة المسلمة لن يسمح لهم بنشر الفساد الذي ينشرونه اليوم في الأرض، ولن يسمح لهم بالعري والزنا واللواط، ولن يسمح لهم بنشر الخمور وما شابهها بين المسلمين.

إن هدف الإسلام من السماح لأهل الكتاب في الحياة في ظل المجتمع الإسلامي، وفي ذمة المسلمين، هو إعطاؤهم الفرصة الواسعة ليتوبوا إلى الله، وليعرفوا عظمة الإسلام ورحمته وبره . فلا يُظلم كتابيّ ولا يؤذى ، وإذا خان أو غدر فردٌ فلا تؤخذ الجماعة به وإنما تؤخذ الجماعة بما تفسد فيه الجماعة نفسها وينالون عدالة القضاء في الإسلام، وحماية معابدهم، وحرّية ممارسة عبادتهم، دون أن تكون هذه الحرّيات باباً لإحداث فتنة في الأمة، كما فعل اليهود منذ عهد المدينة. ولولا أن الرسولﷺ كان دقيقاً في صياغة هذا الكتاب لوجدوا مخرجاً لهم في فسادهم وفتنتهم. ولماَّ حاولوا الفتنة والإفساد أخذهم الإسلام بجريمتهم وأجلاهم.

إن ضعف المسلمين اليوم يغري بعضهم أن يدّعي أن بعض **فنون المعاصَرة** اليوم **ومذاهبها** هي من الإسلام **دون أن يكون هنالك مسوّغ لهذا الادعاء** ولا حاجة ولا حجة. إنه الشعور الداخلي بالهوان والضعف . ولكن المؤمن القوي بإيمانية يستعلي فوق هذه

المزالق.

(٢)

خطبته صلى الله عليه وسلم
يوم فتح مكة[١]

١ - النـص :

وقف على باب الكعبة ثم قال: «لا إِلَهَ إِلاَّ الله وَحْدَهُ لاشريك لـه، صَدَق وَعْدَهُ، ونصر عَبْدَه، وهـزم الأحزاب وَحدَهُ، ألاَ كلُّ مَـأْثُرَةٍ[٢] أو دم أو مالٍ يُـدَّعَى، فهو تحت قَدَميَّ هاتين، إلاَّ سِدَانَةَ البيت[٣]، وسِقَايَةَ الحاجِّ، ألا وَقَتْلُ الخطأ مِثْلُ الْعَمْدِ بالسوط والعصا، فيهما الديةُ مُغَلَّظَـةً، منها أربعون خَلِفَةً[٤] في بطونها أولادها، يامعشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نَخْـوَةَ الجاهلية، وَتَعَظُّمَهَا[٥] بالآباء، الناسُ من آدمَ، وآدمُ خُلِقَ من تراب، ثم تلا: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّـا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُـمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَـارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْـدَ الله أَتْقَاكُمْ﴾ الآية يـامعشر قريش (أو يـاأهل مكة) ماترون أني فاعل بكم؟ قالوا خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطُّلَقاء».

٢ - دراسة موجزة لخطبته ﷺ في فتح مكة:

إن هـذه الخطبـة الجليلـة بيّنـة كل البيـان لاتحتـاج لشرح ولا تفسير ولا استنتـاج وتأويل. وعندمـا نقارن هذه الخطبة التي خطبهـا الرسول ﷺ عند فتح مكـة وهو في ذروة الانتصـار والعزّة، والمنعَـة والقـوة، عندمـا نقـارنها بخطب القـادة والفاتحين في التـاريخ البشري، نجدها خطبة فريدة في روحها ومبادئها.

وفي هذا الموقف لم ينسب الرسول ﷺ أسبـاب النصر لنفسه، وإنما أرجعها كلها إلى الله وحده: صدق وعـده ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ثم بيّن حقوقـاً ومسؤوليات وتشريعاً. وبيّن أساس التفاضل بين الشعوب والأفراد:

---

(١) تـاريخ الطبري: ٣: ١٢٠، اعجـاز القـرآن ص ١١٢، الكـامل لابن الأثير: ٢ : ١٢١، سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٧٣، جمهرة خطب العرب: (ج: ١)- ص: ١٥٤

(٢) المأثرة: المكرمة　　(٣) خدمة الكعبة　　(٤) الحامل من النّياق

(٥) تكبّرها.

الناس من آدم وآدم خلق من تراب. . . . ، ثم تجيء الآية الكريمة من سورة الحجرات لترسي المبدأ العظيم في تاريخ البشرية : ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

من هذه الخطبة يمكن للحضارة الغربية كلها أن تقف أمامها لتتعلم منها معنى الإنسانية، وأساس حقوق الإنسان، وقواعد الحضارة الحقيقية. لتقف أمامها في خشوع وإجلال، ولتتعلّم الحق الذي قامت عليه السموات والأرض، وتذر الزور والبهتان والباطل الذي تعيش فيه.

في ذَروة القوة والعزّة تعلو الرحمة والبرّ، وتنجلي عظمة التواضع من رسول الله ﷺ، ليعلِّم البشرية كلها!

بدأ فتح مكة ودخولها ورسول الله ﷺ يضع رأسه على راحلته تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى إن عُثنونه ليكاد يمس واسطة الرحل.

وانتهى الفتح المبين وهو يخاطب أهل مكة: يامعشر قريش (أويا أهل مكة) ما ترون أني فاعل بكم؟! قالوا : خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم. قال : «اذهبوا فأنتم الطلقاء»!.

درس ضروري للدول الكبرى والصغرى، وجميع المعتدين في الأرض ليتعلموا معنى

الإنسانية الحقيقية.

(٣)
خطبتـــه صلى الله عليه وسلـم يـــوم حجـــة الـــوداع[١]

١ - النـــصّ:

« الحمد لله نحمده وَنستعينـهُ وَنستغفره وَنتوب إليِه، وَنعـوذ بالله من شرور أنفسنا، ومِنْ سَيِّئَات أعمالِنا، منْ يهد الله فلاَ مُضِلَّ لَـهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لَهُ، وَأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك لـه، وأشهد أن محمداً عبده ورسـوله، أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثُّكم على طاعتـه، وَأَستفتح[٢] بالـذى هو خير، أمـا بعد: أيها النـاس اسمعوا مني أبينْ لكم، فإني لا أدرِي لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا.

أيها النـاس: إن دمـاءكم وَأمـوالكم حرام عليكم، إلى أن تَلْقَـوا ربكم، كَحُـرْمَـةِ يومكم هذا، فى شهـركم هذا، في بلدكم هذا. ألا هل بَلَّغْتُ؟ اللهمَّ اشهـد! فمن كانت عنده أَمَانَةٌ فَلْيُـؤَدِّهِا إلى من ائتمنه عليها، وَإن ربا الجاهلية موضـوع، وَإن أوّل رباً أبدأ به ربا عمّي العباس بن عبـدالمطلب، وَإن دماءَ الجاهلية موضوعـة، وَإن أوّل دم نبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب[٣]، وَإن مآثر الجاهلية موضـوعة غير السَّدانة وَالسِّقَاية، وَالْعَمْدُ قَوَد[٤]، وَشبه العمد مَا قُتِل بالعصا والحجر وفيهِ مائة بعير، فمن زَادَ، فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس: إن الشيطان قد يئس أن يُعبـد فى أرضكم هذه، ولكنه[٥] قد رضي أن

(١) البيـان والتبيين: ٢: ١٥، العقـد الفـريد: ٢: ١٣، اعجـاز القـرآن: ١١١، شرح ابن أبي الحديـد: ١: ٤١، تـاريخ الطبري: ٣: ١٦٨، الكامل لابن الأثير: ٢: ١٤٦، سيرة ابن هشام: ٢: ٣٩٠، جمهرة خطب العرب لأحمد زكي صفوي: (ج: ١)، ص: ١١٥-١٥٨. (٢) الاستفتـاح: الافتتـاح والاستنصـار. (٣) وكـان مسترضعـا في بني ليث فقتلته بنـو هذيل. (٤) القود: القصـاص، أي من قتل عمدا يقتل. (٥) في رواية الكامل لابن الأثير: «إن الشيطـان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبـدا، ولكنه يطاع فيما سوى ذلك؛ وقـد رضى بما تحقرون من أعمالكم». (٦) أى تأخير حرمة شهـر إلى آخر: وذلك أن العـرب في الجاهلية كانـوا إذا جاء شهـر حرام وهم محاربـون أحلوه، وحـرموا مكـانه شهـراً آخر فيحلـون المحرم، ويحرمون صفـرا، فإن احتاجـوا أحلوه وحرمـوا ربيعاً الأول، وهكذا حتى استـدار التحريم على شهـور السنة كلها، وكـانوا يعتبرون في التحريم مجرد العدد لاخصوصية الأشهر المعلومة، وأول من أحدث ذلك جنادة بن عوف الكنانى، كان يقوم على جمل فى الموسم فينـادى: إن آلهتكم قـد أحلت لكم المحـرم فأحلـوه، ثم ينادى فى القبـائل: إن آلهتكم قـد حـرمت عليكم المحرم. فحرموه - زيادة في الكفر، أى كفر آخر ضموه إلى كفرهم.

يطاع فيما سوى ذلك مما تُحَقِّرُونَ من أعمالكم، أيها الناس: إنما النَّسِيُّ (٦) زِيَادَةٌ في الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا يحِلُّونهُ عاماً ويحرمونه عاماً ليواطِئوا عِدَّة ما حَرَّمَ الله، وَإن الزمان قد استدار كهيئتهِ يوم خلق الله السمواتِ وَالأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله، يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حُرُم ، ثلاثة متواليات، وَوَاحد فرد: ذو القَعدة، وَذو الحِجَّة، وَالمحرَّمُ وَرجب[١]. الذى بين جُمادَى وشعبان، ألا هل بلّغت؟ اللهم اشهد!

أيها الناس: إن لنسائكم عليكم حقًّا، ولكم عليهنَّ حق، لكم عليهنَّ ألا يُوطِئن فَرْشكم غيركم، وَلا يُدْخلنَ أَحَداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإن الله قد أَذِنَ لكم أن تَعْضُلوهُنَّ[٢] وَتهجروهنَّ في المضاجع وَتضربوهن ضربًا غير مُبَرِّح، فإن انتهين وَأطعنكم فعليكم رِزْقُهُنَّ وَكسوتهنَّ بالمعروف، وَإنما النساء عندكم عَوَانٍ[٣] لايَمْلِكْنَ لأنفسهن شيئاً، أخذتموهن بأمانة الله، وَاستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء، وَاستوصوا بهنَّ خيراً، ألا هل بلّغت؟ اللهم اشهد!

أيها الناس: إنما المؤمنون إخوة، وَلا يَحِلُّ لامرىء مالُ أخيهِ إلا عن طِيب نفس منهُ، ألا هل بلّغت؟ اللهم أشهد! فلا تَرْجِعُنَّ بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تَضِلُّوا بعده، كِتاب الله، ألا هل بلّغت؟ اللهم اشهد!

أيها الناس: إن ربكم وَاحد، وَإن أباكم وَاحد، كُلُّكُمْ لآدَمَ، وَآدَمُ من تراب، أكرمُكم عند الله أتقاكم، وَليس لعربي على عجمي فَضْلٌ إلا بالتقوى، ألا هل بلّغت؟ اللهم اشهد! قالوا نعم. قال: فليبلغ الشاهد الغائب.

أيها الناس: إن الله قد قَسَمَ لكل وَارِثٍ نصِيبَهُ من الميراث، وَلا يجوز لِوَارِثٍ

---

(١) قالوا في تثنية رجب وشعبان رجبان للتغليب.
(٢) العضل: الحبس والتضييق.
(٣) جمع عانية من عنا، أى خضع وذل، والعاني: الأسير.
(٤) وللعاهر: أى الزانى، أى لاحق له في النسب ولاحظ له في الولد، وإنما هو لصاحب الفراش أى لصاحب أم الولد وهو زوجها أو مولاها، وهو كقوله الآخر: له التراب، أى لاشىء له.

وَصِيَّـة ، ولا يجوز وَصِيَّةٌ فى أكثَـر من الثلث ، وَالولـد لِلفِراش وَلِلْعَـاهِرِ الحَجَـرُ[4] ، من ٱدَّعَى إلى غير أبيهِ ، أو تولَّى غيرَ مَوالِيهِ ، فعليهِ لعنة الله والملائكة وَالناس أجمعين ، لاَ يُقْبَلُ منهُ صَرْفٌ وَلاَ عَدْلٌ[4] ، والسلام عليكم ورحمة الله .

٢ - دراسة موجزة لخطبة الرسول ﷺ في حجة الوداع :

ومن أهم النصوص بعد كتـاب الله ما ورد في السنة النبوية ممـا يبين حقوق الإنسان في المجتمع المسلم القـائم على كتـاب الله وسنـة رسـولـه ﷺ، وكـذلك مـا ورد في خطب الخلفاء الراشدين ، وفيما ورد في بعض المواعظ والوصـايا . فبين الخطب والمواعظ والوصايا زادٌ عظيم في هذا الباب .

ونـدرس هنا خطبـة رسول الله ﷺ في حجـة الوداع . فقـد بيّن فيها رسـول الله ﷺ حقوقاً ومسؤوليات :

١ - حرمة الدماء والأموال .

٢ - أداء الأمانة .

٣ - ربا الجاهلية موضوع ، ودماؤها موضوعة ، ومآثرها موضوعة إلا السدانة والسقاية .

٤ - القتل العمد فيه القصاص ، وشبه العمد فيه مائة بعير.

٥ - النسيء زيادة في الكفر.

٦ - عدة الشهور اثنا عشر شهراً : منها أربعة حرم .

٧ - للنسـاء حق على أزواجهن .

٨ - وللرجال حق على أزواجهم .

٩ - إن الله قـد أذن للـرجـال إن فعلت الـزوجـات شيئـاً ممـا ذكـر أن يعضلـوهنَّ

(٤) الصرف : التوبة . والعدل : الفدية ، وقيل الصرف القيمـة . والعدل المثل ، وأصله في الفدية يقال : لم يقبلوا منهم صرفـا ولا عدلا ، أي لم يأخـذوا منهم دية ولم يقتلـوا بقتيلهم رجلا واحـدا ، أي طلبوا منهم أكثـر من ذلك ، ثم جعل بعـد في كل شيء حتى صار مثلا فيمن لم يؤخذ منه الذي يجب عليه وألزم أكثر منه .

(يحبسوهنّ يُضيّقـوا عليهنّ)، ويهجروهنّ في المضاجع ويضربـوهنّ ضرباً غير مبرح. فإن أطعن فعلى الرجال رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف.

١٠ – على الرجال أن يتقوا الله في النساء.

١١ – المؤمنـون إخـوة. لايحلّ لمسلم مـال أخيه إلا عـن طيب نفس، ولا يحلّ للمؤمنين أن يضرب بعضهم رقـاب بعض، فإن هذا من الكفر. وعليهم جميعـاً أن يأخذوا بكتاب الله، فإن فعلوا فلن يضلوا.

١٢ – إن الرب واحـد، والأب واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، وأكـرمكم عند الله أتقاكم، لافضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي إلا بالتقوى.

١٣ – لا وصيَّة لوارث. وقد قسم الله لكل وارث نصيبه من الميراث.

١٤ – لا وصية في أكثر من الثلث.

١٥ – الولد للفراش، وللعاهر الحجر.

١٦ – من ادّعى لغير أبيه، أو تـولى غير مواليـه، فعليه لعنة الله والملائكـة والناس أجمعين، لايقبل منه صرف ولاعدل.

ومن هـذه الخطبة العظيمـة لرسـول الله ﷺ تشريع ربّاني عظيم لايحلّ لأحـد كتمان شيء منه، ولا تبديل ولاتحريف.

ويرى الدكتور محمـد عمارة أن هذه «الصحيفة أكدت» مساواة النساء بـالرجال في الحقوق والواجبات»[(١)]. ولكننا نرى أن ادعاء هذه المساواة مغالاة كبيرة. فإن الله قد شرع للنساء حقوقاً ومسؤوليات عليهنَّ الوفـاء بها. وشرع الله للرجال حقوقاً ومسؤوليات عليهم الـوفاء بها. وقـد أجملت الخطبة ولم تفصّل. وإنما التفصيل في الكتـاب والسنّة. فللـرجل القوامـة وهي ليست للمرأة، وعلى الرجـل الإنفاق وهو ليس على الـزوجة، إلا إن أرادا أن يتعاونا برضاء الزوجة والزوج.

إن المساواة بين الرجال والنسَـاء في ميزان الله وشرعه، هي أن كلاً منهما محاسب بين

(١) د. محمد عمارة: الإسلام وحقوق الإنسان – (ص: ١٦٤).

يدي الله على مسؤولياتـه التي فرضها الله عليه. ويتساوى الرجـال والنساء في بعض الأمور وليس في جميعها، والمرأة مرأة إلى يوم القيامة، والرجل رجل إلى يوم القيامة، فأين المساواة؟ فلقـد قرأت الخطبـة مرات ومـرات فلم أجـد المساواة، وإنما وجـدت أن للرجـال حقوقـاً ومسؤوليـات، وللنساء حقـوقاً أخـرى ومسؤوليـات أخرى، وعلى الـرجال الـوفاء، وعلى النسَاء الوفاء، وأن الله أوصى الرجال بالنساء خيراً، كما هو وارد في نص الخطبة. وأن بيت الزوجية سكن وتعاون.

إن هـذا الشعـار الـذي طلعت بـه العَلمانيـة وردّده عـدد من المسلمين ومن دعـاة المسلمين: «مساواة النسـاء بالـرجال في الحقـوق والواجبـات»، شعار لايقبلـه العقل ولا طبيعة الأشياء والحياة، ولا نصوص الدين الثابتة الجلية في الكتاب والسنّة.

ولكنـه شعار حملتـه المعـاصرة والعَلمانيـة والديمقـراطيـة الغربيـة والـديكتـاتوريـة الشيـوعية. إن هـذه المساواة المدّعـاة إهانـة بالغـة للمرأة، وتجريـد لها من بعض حقوقهـا وواجباتها التي خلقها الله لها.

ولقد تحدثنا عن ذلك في فصول سابقة بما يغني عن الإعادة هنا.

(٤)
خطبته الرسول صلى الله عليه وسلم في مرض موته[1]

١ - النص:

عن الفضل بن عباس قال: جاءني رسول الله ﷺ، فخرجت إليهِ فوجدته مَوْعُوكاً قد عَصَب رأسهُ، فقال: خذ بيدي يافضْلُ، فأخذتُ بيده حتى جلس على المنبر، ثم قال ناد في الناس، فاجتمعوا إليه، فقال:

«أما بعد: أيها الناس فإني أحمدُ إليكم الله الذي لا إلٰهَ إلاَّ هو، وإنه قد دنا منِّي خفُوقٌ[2] من بين أظْهُركم، فمن كنْتُ جَلدْتُ لهُ ظَهْرًا، فَهذا ظهري فَلْيَستَقِد[3] منه ومن كنت شتمت لهُ عِرْضاً، فهذا عَرْضي فَلْيَسْتَقِدْ منهُ، ومن أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منهُ، ولا يَخْشَ الشَّحْنَاءَ مِنْ قِبَلِي، فإنها ليست من شأني، ألاَ وإنَّ أَحبَّكمْ إليَّ مَنْ أخذ منِّي حقًّا إن كَان لهُ، أو حَللَّني فلقيت ربي وأنا طيِّبُ النفس، وقد أرى أن هذا غير مُغْنٍ عنّي حتى أقُومَ فيكم مرارًا».

ثمَّ نزل فصلَّى الظهر، ثمَّ رجع فجلس على المنبر فعاد لمقالتهِ الأولى، فادعى عليهِ رجل بثلاثة دراهم، فأعطاه عِوضَها، ثم قال: «أيها الناس، من كان عنده شيء فَلْيُؤدِّهِ وَلا يقل فُضُوحُ الدنيا، ألا وَإن فضوح الدنيا أَهْوَنُ من فضوح الآخرة» ثم صلى على أصحاب أُحُد وَٱستغفر لهم، ثم قال: «إن عبداً خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده، فبكى أبو بكر، وَقال: فديناك بأنفسنا وَآبائنا».

٢ - دراسة موجزة لخطبة ﷺ في مرض موته:

---

(١) تاريخ الطبري: ٢ : ١٩١، الكامل لابن الأثير: ٢ : ١٥٤، جمهرة خطب العرب: (ج: ١)، (ص: ١٥٨ - ١٥٩) - أحمد زكي صفوت.

(٢) خفق النجم يخفق خفوقا: غاب، والطائر طار، والليل ذهب أكثره.

(٣) فليقتص (من القود) وهو القصاص، أقاد القاتل بالقتيل قتله به، واستقاد الحاكم سأله ان يقيد القاتل بالقتيل.

دروس ممتدة أبد الدهر من رسـول الله ﷺ ، يعلـم المؤمنين فيها ممارسة منهاج الله في واقع الحياة، ويعلم الناس كـافة عظمة هذا الدين، ليظل رسول الله ﷺ أبـد الدهر أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، ونذيراً لمن كفر وأدبر.

إن أول ما فكر فيه رسول الله ﷺ وهو مقبل على الآخـرة مدبر عن الدنيا، إن أول ما فكر فيه هو حقوق الناس:

فمن كنتُ جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه،

ومن كنتُ شتمت له عِرضاً فهذا عرضي فليستقد منه،

ومن أخـذت له مـالاً فهذا مـالي فليأخـذ منه ولايخش الشحنـاء من قبلي، ألا وإن أحبّكم إليّ من أخذ مني حقاً إن كان له،

أو حلّلني فلقيت ربي راضي النفس. . . .

هذا موقف جليل!

أمـا معظم قادة العـالم وزعماء الحضارة اليـوم، إذا شعـروا بدنـوّ أجلهم، شغلتهم أمـوالهم، وأحقـادهم وجـرائمهم، كأنهم لم يكتفوا بها أفسـدوا، ويتمنـون امتـداد الأجل ليزيدوا من ظلمهم وعدوانهم وجرائمهم!

من خطب رسـول الله ﷺ ، ومن الصحيفة التي كتبهـا بعـد دخولـه المدينة سيّـداً مظفّراً، وقائداً عظيماً، ونبيّاً رسولاً، من هذه النصـوص الأربعة نرى عظمة حقوق الإنسان وعدالتها وسموها في الميدان، في الممارسة، في الواقع.

وانظر إلى هذا الإصرار على أداء الحقوق:

وقد أرى أن هذا غير مغنٍ عنّي حتى أقوم فيكم مراراً .

ثمّ نزل فصلى الظهـر، ثم رجع فجلس على المنبر فعاد لمقـالته الأولى فـادّعى عليه رجل بثلاثة دراهم فأعطاه عوضها. . . . !

ثم قال:

إن عبداً خيّره الله بين الدنيا وبين ما عندالله، فاختار ما عنده. . . . ! فبكى أبو بكر. . . ! وقال: «فديناك بأنفسنا وآبائنا»!

وحقّ لأبي بكر أن يبكي، وحق لنا اليوم أن نبكي أشد مما بكى أبو بكر! فقد كان المسلمون في عزة ومنعة حين غادرهم رسول الله، ونحن اليوم في ذلة ومهانة، وأحوج ما نكون إلى قيادة مثل قيادته، فعسى أن يتعلم المسلمون اليوم، وهو الأسوة الحسنة للمؤمنين أبد الدهر! ولكننا نقول: حسبنا الله ونعم الوكيل! حسبنا الله لا إله إلا هو عليه توكلنا وإليه ننيب.

هذه هي حقوق الإنسان في الميدان في الإسلام، بعد أن رأيناها آيات بيّنات وأحاديث شريفة.

• • •

ولو تابعنا تلمُّس النماذج التطبيقية في حياة الرسول ﷺ، وحياة الصحابة رضي الله عنهم، والخلفاء الراشدين، وأئمة الإسلام الأعلام، لوتابعنا تلمس النماذج التطبيقية لحقوق الإنسان لوجدنا زاداً غنيّا ممتداً، قصّر المسلمون في حمله وتبليغه مع رسالة الإسلام، عسى أن يهتدي من أراد الله له الهداية.

حين نقدم هذه النماذج نتألم أشد الألم لتقصير المسلمين اليوم في حمل هذا الخير العميم والزاد العظيم لأنفسهم وللناس أجمعين، ليرى الناس ضآلة الحضارة الحديثة اليوم وهي ملوّثة بالجرائم والفساد والزنا واللواط، والعدوان على الشعوب ونهب ثرواتها، حتى

تكاد تقول ليس في حضارة اليوم حقوق للإنسان!

(٥)
وصيــــة أبي بكــر لأســامــة بن زيــد رضي الله عنهمـا[(١)]

١ - النـــصّ :

وأوصى أبو بكر أُسَامَةَ بن زيد رضي الله عنهما وجيشه حين سيَّرَهُ إلى أُبْنَى[(٢)] ، فقال :

« يـاأيها الناس : قِفُـوا أوصيكم بعشر فاحفظـوهـا عني : لاتخونوا، ولاتَغلُّـوا[(٣)] ، ولاتغدروا[(٤)] ، ولاتمثلوا، ولاتقتلـوا طفلا صغيراً، ولاشيخا كبيرا ولا امـرأة، ولا تَقْعَروا[(٥)] نخلا ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لِمأْكَلة[(٦)] ، وسوف تمرُّون بأقوام قد فـرَّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فـرَّغوا أنفسهم لهُ، وسوف تَقْدَمُون عَلَى قوم يأتونكم بآنية فيها ألـوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء، فاذكروا اسم الله عليها، وَتَلْقَوْنَ أقوامًا قد فحصوا أوساط رؤوسهم، وتركوا حولها مثل العصائب، فاخفِقُوهم[(٧)] بالسيف خفقًا، اندفعوا باسم الله[(٨)]».

٢ - دراسة موجزة لوصية أبي بكر لأسامة بن زيد رضي الله عنهما:

من هـذه الوصيـة نـدرك الفرق الـواسع بين الحضـارة التي ينشـدها الإسـلام وبين حضارة الغرب . ونشعر أن هذه الوصيـة يجب أن تلقّن لمفكري الغرب وقادته مع غيرها من الصور التطبيقية للإسلام في واقع الحياة، ليقارنوا بين مـا قدّمه الإسلام في فتوحاته وبين ما فعله الغرب ويفعله من مآس في عدوانهم الممتد.

---

(١) تاريخ الطبري ٣ : ٢١٣، الكـامل لابن الأثير: ٢ : ١٦٢، جمهرة خطب العـرب لأحمد زكي صفوت : ص : ١٨٧–ج : ١ .

(٢) موضع بقرب مؤتـة بمشارق الشام قتل فيه والده زيد بن حـارثة . (٣) غل يغل كنصر : خان كأغل، وغل صـدره يغل كضرب غليلا وغـلا : حقـد. (٤) غدره وغـدر به كنصر وضرب وسمع . (٥) قعـر النخلـة : كمنع فانقعـرت قطعهـا من أصلها فسقطت . (٦) المأكلـة : مـا أكل . (٧) خفقه : ضربـه بشيء عريض . (٨) وأورد العقد الفريـد هذه الوصية وذكر أنها وصية من أبي بكـر ليزيد بن أبي سفيان – راجع العقد ج ١ ص ٤٠ .

عشر وصايا لأبي بكـر رضي الله عنه يوصي بها الجيش وقائده قبل أن يتحـركوا، كل وصية نابعة من قرآن وسنة، من آيات وأحاديث، لتقدم الصورة التطبيقية في واقع الحياة، حماية للطفل الصغير والشيخ الكبير والمرأة وحقوق لهم لم تحفظهـا حضارة الغرب . وحماية للثروة الزراعية والثروة الحيوانية . إنها نظرة إنسانيّة عالمية انطلق بها الإسلام قبل خمسة عشر قرناً .

هذه حقيقـة من أهم جوانب الحيـاة الإسلامية، حين تمضي في واقع الحيـاة مسدّدة بالمنهاج الرباني في جميع ميادينها ومستوياتها، لاتعصف بها الأهواء ولا الشهوات .

في مثل هـذا الجو المشرق بقـواعـد ونهج يلتـزمــه الجميع، تُحفظ حقـوق الإنسـان وتصـان . أمـا في غير هـذا الجو فهي شعــارات لا رصيـد لها في الـواقع، ولكن يمارس في الواقع عسكها حيث تُضيَّع الحقوق .

(٦)

كتاب عمر بن الخطاب
إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما في القضاء
دستور القضاء

١ - النصّ :

كتب عمر إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما :

«بسم الله الرحمن الرحيم.

من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى عبدالله بن قيس.

سلام عليك. أما بعد :

فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم إذا أدلي إليك، وأنفذ إذا تبين لك، فإنه لاينفع حق لانفاذ له.

آس (أي سوِّ) بين الناس في مجلسك ووجهك حتى لايطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك.

البينة على من ادعى واليمين على من أنكر.

والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً، أو حرم حلالاً.

ولايمنعك قضاء قضيته بالأمس، فراجعت فيه نفسك، وهُديت لرشدك ان ترجع الى الحق(١)، فإن الحق قديم لايبطله شيء، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل.

الفهمَ الفهمَ فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا في سنة، واعرف الأشباه والأمثال ثم قس الأمور عند ذلك، واعمد الى أحبها الى الله، وأشبهها بالحق فيما ترى.

واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بيّنةً أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه،

(١) أي في دعوى أخرى مثلها، أما التي صدر فيها الحكم وصار (حقاً مكتسباً) لصاحبه فلا يبدل الحكم فيها، وذلك معنى قول عمر لما سئل عن اختلاف حكمين له في دعوتين متشابهتين: «تلك كما قضينا، وهذه كما نقضي».

وإلا استحللت عليه القضاء، فإن ذلك أنفى للشك، وأجلى للعمى، وأبلغ في العذر.

والمسلمون عدول في الشهادة بعضهم على بعض، إلا مجلوداً في حد، أو مجرباً عليه شهادة زور، أو ظنيناً في ولاء أو قرابة، فإن الله قد تولى منكم السرائر، ودرأ عنكم الشبهات.

وإياك والقلق والضجر والتأذي بالناس، والتنكر للخصوم في مواطن الحق، التي يوجب الله بها الأجر، ويحسن الذخر، فإنه من يخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ولو على نفسه، يكفه الله مابينه وبين الناس، ومن تزين للناس فيما يعلم الله خلافه منه شانه الله وهتك ستره، وأبدى فعله، فما ظنك بثواب عند الله عز وجل في عاجل رزقه، وخزائن رحمته والسلام».

وقد جمعت هذه الرسالة العجيبة آداب القاضي، وأصول المحاكمة، وقد شغلت العلماء بشرحها والتعليق عليها هذه القرون الطويلة، ولا تزال موضع دهشة وإكبار لكل من يطلع عليها.

ولو لم يكن لعمر من الآثار غيرها، لَعُدَّ بها من كبار المفكرين والمشرعين. ولو كتبها رئيس دولة في هذه الأيام التي انتشرت فيها قوانين أصول المحاكمات، وصار البحث فيها مما يقرؤه الأولاد في المدارس، لكانت كبيرة منه، فكيف وقد كتبها عمر من نحو أربعة عشر قرناً، ولم ينقلها من كتاب، ولا استمدها من أحد، بل جاء بها، ثمرة واحدة من آلاف الثمرات، للغرسة المباركة التي غرسها في قلبه محمد ﷺ، حين دخل عليه في دار الأرقم، فقال أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وحين مضى في مدرسة النبوّة الخاتمة ينال منها كلَّ يومٍ زاداً عظيماً.

صلى الله على محمد إمام الخير ومعلمه، ورضي الله عن هؤلاء الاصحاب الكرام الذين صاروا أساتذة الدنيا على مدى العصور لما صاروا تلاميذ محمد ﷺ[1].

٢ - الدراسة والتعليق سبق عرضه في باب سابق.

(١) البيان والتبيين ٢: ٣٧، ومفتاح الأفكار ٨٩، وعيون الأخبار: ٦٦، وصبح الأعشى ١: ١٩٣، ونهاية الأرب ٦: ٢٥٧. النص كله مأخوذ من كتاب أخبار عمر وعبدالله بن عمر للأستاذ علي الطنطاوي والأستاذ ناجي الطنطاوي، وكذلك التعليق بعد النصّ (ص: ١٨٤ -١٨٦)

(٧)

وصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه للخليفة من بعده

أوصيك بتقوى الله لا شريك له، وأوصيك بالمهاجرين الأوّلين خيراً، أن تعرف لهم سابقتهم، وأوصيك بالأنصار خيراً، فاقبل من محسنهم، وتجاوز عن مسيئهم، وأوصيك بأهل الأمصار خيراً، فإنهم رِدْءُ الإسلام، وغيظ العدوّ؛ وجُباة الفَيء، لاتحمل فيئهم إلا عن فضل منهم، وأوصيك بأهل البادية خيراً، فإنهم أصل العرب، ومادّة الإسلام، أن تأخذ من حواشي أموال أغنيائهم، فترد على فقرائهم، وأوصيك بأهل الذمة خيراً، أن تقاتل من ورائهم، ولا تكلفهم فوق طاقتهم، إذا أدّوا ما عليهم للمؤمنين طوعاً، أو عن يد وهم صاغرون، وأوصيك بتقوى الله وشدة الحذر منه ومخافة مَقْته، أن يطلع منك على ريبة، وأوصيك أن تخشى الله في الناس، ولا تخشى الناس في الله، وأوصيك بالعدل في الرعية، والتفرغ لحوائجهم وثغورهم؛ ولاتؤثر غنيَّهم على فقيرهم، فإن ذلك بإذن الله سلامةٌ لقلبك، وحطٌّ لوِزرك، وخيرٌ في عاقبة أمرك، حتى تُفضي من ذلك الى من يعرف سريرتك، ويحول بينك وبين قلبك، وآمرك أن تشتد في أمر أحد رأفة حتى تنتهك مثل ما انتهك من حرمة الله، واجعل الناس عندك سواء، لاتبالي على من وجب الحق، ثم لا تأخذك في الله لومة لائم، وإياك والأَثَرَةَ والمحاباة فيما ولاك الله مما أفاء الله على المؤمنين فتجور وتظلم، وتحرم نفسك من ذلك ما قد وسّعه الله عليك، وقد أصبحت بمنزلةٍ من منازل الدنيا والآخرة، فإن اقترفت لدنياك عدلاً وعفةً عما بسط الله لك اقترفت به إيماناً ورضواناً، وإن غلبك الهوى اقترفت به سخط الله، وأوصيك ألا ترخص لنفسك ولا لغيرك في ظلم أهل الذمة، وقد أوصيتك وحضضتك ونصحتك، فابتغِ بذلك وجه الله والدار والآخرة، واخترت من دلالتك ما كنت دالاً عليه نفسي وولدي، فإن عملت بالذي وعظتك، وانتهيت الى الذي أمرتك، أخذت به نصيباً وافراً، وحظاً وافياً، وإن لم تقبل ذلك ولم يهمك، ولم تنزل معاظم الأمور عند الذي يرضى الله به عنك، يكن ذلك بك انتقاصاً، ورأيك فيه مدخولاً، لأن الأهواء مشتركة، ورأس كل خطيئة إبليس، وهو داعٍ

الى كل هَلكَـة ، وقدأضلّ القـرون السـالفة قبلك فـأوردهـم النار، ولبئس الثمن أن يكـون حظّ امـــرىء موالاةَ عدو الله الداعي الى معاصيه ، ثم اركب الحق وخُضْ إليه الغمرات ، وكن واعظـاً لنفسـك ، أنشـدك الله لما تـرحمت على جماعــة المسلمين ، فأجللت كبيرهم ، ورحمت صغيرهم ، ووقـرّت عـالمهم ، ولا تضر بهم فيـذلـوا ، ولا تستأثـر عليهم بـالفيء فتبغضهم ، ولا تحرمهم عطـاياهـم عند محلهـا فتعقرهـم ، ولا تجمِّرهم في البعـوث فتقطع نسلهم ، ولا تجعل المال دُولـةَ بين الأغنيـاء منهم ، ولا تغلق بـابك دونهم ، فيأكل قـويُّهم ضعيفهم . هذه وصيّتي إليك ، وأشهد الله عليك والسلام[1] .

لا تحتاج هذه الوصية إلى تعليق ، فقد جمعت قضاياً كثيرة وحقوقاً كثيرة :

١ – تحديد منازل المهاجرين والأنصار والأعـراب وأهل الذمة على أساس من ميزان عادل هو ميزان منهاج الله .

٢ – تقوى الله لتكون هي أساس العدل ورعاية الحقوق .

٣ – العدل في الرعية والمساواة بين الأغنياء والفقراء في العدل والقضـاء .

٤ – الاشتداد في تنفيذ حدود الله .

٥ – النهي عن الجور والظلم وعن اتباع الهوى .

٦ – التوصية بأهل الذمة والتأكيد على ذلك .

٧ – أن لا يجعل المال دولة بين الأغنياء منهم .

٨ – أن لا يغلق بابه دون الناس حتى لايأكل قويُّهم ضعيفهم .

ما أحـوج عصرنا الحديث والـدول الكبرى وعلماء القانون ولجان حقـوق الإنسان أن يقفوا أمام هذه الوثائق ليتعلموا منها دروساً هم بحاجة إليها ، والبشرية كلها بحاجة إليها .

(١) البيان والتبيين : (٢ : ٣٥) . ابـن سعد : (١ : ٢٤٥) . الريـاض النضرة : (٢ : ٦٩) . ابن الجوزي : (١٩٦) . الخراج لأبي يـوسف : (١٦) . جمهـرة خطب العـرب لأحمد زكي صفـوت : (ج: ١) – (ص : ٢٥٥ – ٢٥٦) .

الباب السابع

نماذج ومختارات
من أهم حقوق الإنسان في الإسلام

تمهيـــــد

لقـــد عرضنا في الفصل السابق نماذج ومختارات من أهم الوثائق التي تكشف عن مساحة واسعة من حقوق الإنسان.

وذكرنا في أكثر من موضع أنه يتعـذّر جمع حقوق الإنسان كلها وحجتها ودلائلها في بيان بشري واحد. وأن منهاج الله -قرآنا وسنة ولغة عربية- هي البيان الحق الوافي لحقوق الإنسان.

ولكننا في هـذا الباب نقـدّم عرضـاً موجـزاً جداً لأهـم حقوق الإنسـان في الإسلام حسب اجتهادنا، دون أن نعني أن هذه هي جميع حقوق الإنسان في الإسلام.

وجميع هـذه الحقوق هـي للرجل والمرأة على ضـوء مـا شرعه الله . وللـرجل حقـوق خـاصـة وللمـرأة حقوق خـاصـة . وهنـالك حقـوق للشيخ والعجـوز وللطفل الـرضيع والفطيم، ولكل ذي حاجة ذكراً أو أنثى ، حسب ما يفصّله منهاج الله .

وهذه الحقـوق نوردها هنا لـلإشارة والتنبيه دون أن نـدّعي أننا أوفيناها شرحـاً وبيّنة وبيـانا. كل حق من هـذه الحقوق يستحـق مع أدلته من الكتـاب والسنة، ومن الممارسـة والتطبيق، دراسة مستقلة مـوسعة لا مجال لها هنا. إننا نهدف إلى الإشـارة والعرض الموجز فحسب. وأهم هذه الحقوق ما يلي:

١ - تكريم الله لبني آدم مما يفرض احترام إنسانية الإنسان في الحدود التي رسمها منهاج الله.

٢ - حق الإنسان في حماية فطـرته التي فطره الله عليها ورعايتها، وقـد سبق عرضهـا في فصل مستقل سابق.

٣ - حق الإنسان في حفظ الحياة الكريمة وأمنها على ضوء ماشرع الله سبحانه وتعالى.

٤ - حق العمل والسعي في طلب الـرزق، وحقه في حـالـة العجز أو عـدم توافـر العمل تأمين حاجاته الأساسية.

٥ - حق التعلّم وأساس العلم المنهاج الرباني.

٦ - حق حرّية التفكير والفكر والرأي وحدود ذلك.

٧ - حق حماية الفكرة والكلمة وأمانتها.

٨ - حق الحريةو حدودها.

٩ - حق المساواة وحدودها.

١٠ - حق العدالة.

(١)

تكريم الله لبني آدم ومانشأ عن ذلك

إن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان من صلصال من حمأ مسنون، وسوّاه ونفخ فيه من روحه. وهذا تكريم عظيم للإنسان من ربه وخالقه. وكرّم الله الإنسان بما وهبه من سمع وبصر وفؤاد، وبما وهبه من وسع يمضي به في الحياة، وبما رزقه من نعم في الأرض والسماء وفي نفسه، وبما سخّر له مافي السموات والأرض.

﴿ألم تروا أن الله سخّر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولاكتاب منير﴾ [لقمان: ٢٠]

﴿ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠]

وحين يدرك الإنسان نعمة الله عليه وتكريمه له ويقرُّ بذلك ويؤمن به، فإنه يشكر الله ويحمده. وإن كفر بنعمة الله وفضله فإنه يصبح كنوداً كافراً جاحداً. وهذا له شأن وجزاء، وذاك له شأن آخر وجزاء آخر:

﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً* إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً* إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً* إنا أعتدنا للكافرين سلاسلاً وأغلالاً وسعيراً* إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً* عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً﴾ [الإنسان: ١-٦]

ولقد رأينا في الصفحات السابقة كيف أن شأن المؤمنين يختلف عن شأن الكافرين في الدنيا وفي الأخرة. ولا مجال لأن نقول إن حقوق الإنسان في الإسلام واحدة للكافر وللمسلم. فالحقوق من عند الله، ترتبط بالمسؤوليات والوفاء بها. ولامجال لأن نقول إن الناس في الإسلام سواسية في كل شيء دون اعتبار الدين. ولكن هناك بعض الحقوق المحدَّدة ينالها الكافر في الدنيا بشرع الله. يجب أن ندرك أن الإسلام جاء ليجفّف

مستنقعات الكفر من الأرض رحمةً بعباده، لأن الكفر هو الجريمة الكبرى في الأرض والفساد الأوسع والفتنة الأشد، ولأن الإيمان هو أساس الصلاح والإصلاح والخير. فلايمكن أن يسوِّي شرع الله بين الإيمان والكفر. ولكن يحترم للإسلام إنسانية الإنسان فيساعده على أن يقترب من الإيمان ويدع الكفر، وييسّر له كل سبيل قويم لذلك. فانظر كيف يرعى الإسلام الكافر الذي يحارب الإسلام والمسلمين حين تشتد الحرب وتشتد الأحقاد ثم يقع الكافر في يد المسلم مستجيراً به في فترة الهدنة أو الأشهر الحرم التي قررتها سورة التوبة:

﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قومٌ لايعلمون﴾ [التوبة: ٦]

وفي هذه اللحظات نفسها يصف لنا القرآن الكريم موقف المشركين لو وقع المسلم بين أيديهم:

﴿كيف وإن يَظْهَروا عليكم لايرقبوا فيكم إلاًّ ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون* اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فصَدُّوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون* لايرقبون في مؤمن إلاًّ ولا ذمة وأولئك هم المعتدون﴾
[التوبة: ٨-١٠]

أعطى الإسلام للإنسان حق التفكير وحق اتخاذ القرار وهيأ له كل الأسباب التي تعينه على اتخاذ القرار الصحيح، ثم جعله يتحمل مسؤولية ما يتخذ من قرار في الدنيا والآخرة. ثم يبقى الإسلام يرعى الإنسان في جميع أحواله حتى ينقذه من الكفر والضلال، ويدخله إلى نور الإيمان، أو يدفع شرّه وفساده وفتنته إن أصرّ على كفره وعلى الصدّ عن سبيل الله.

لا بد أن ندرك أن القضية أكبر من كلمة حقوق مادية للإنسان. فهنالك قضية كبرى في الإسلام، قضية يقوم الكون كله عليها، وتقوم الحياة عليها، ومنها تنشأ المسؤوليات والحقوق، إنها قضية الإيمان والتوحيد، قضية إخراج الناس من عبادة الناس والأوثان إلى عبادة الله، وإخراج الناس من نار جهنم إلى نعيم الجنّة. إذا أغفلنا هذا

التصور، فإن كل دراسة لحقوق الإنسان بعد ذلك تنهار في نظر الإسلام وتفقد قيمتها.

ولـذلك أعطى الإسلام حقـوقـاً لأهل الكتاب خـاصـة بهم ليست للكـافـرين. أعطـاهم هذه الحقـوق تشريعـاً من عنـدالله لافضل لأحد مـن الناس بها. إنها حقـوق في الـدنيا وحسـابهم في الآخـرة عند الله. نـدرك أن هذا العـرض مـوجز لأن التفصيـلات في منهاج الله يتعذّر عـرضها كلها هنا. أهل الكتـاب جعلهم الله في ذمة المسلمين، لهم حقُّ الحماية والإعـالة والـرزق، وعدم الاعتـداء على أماكن العبـادة، وكثير غير ذلك، دون أن يُفتح لهم المجـال لنشر الفتنـة والفسـاد وتوهين الأمـة المسلمـة ودولتهـا، أو التعـامل مع أعدائها. إن إعطاء الحقوق لطائفة لايعني التهاون بحقوق الآخرين أو حقوق الأمة.

إن تكريـم الإسـلام للإنسـان تكريم حقيقي، تكـريم دعوة إليـه ورعايـة لإنقاذه، ولحماية البشرية من شره وفساده. إنها سياسة عظيمة لها تشريع عظيم من عندالله.

يقع بعض المسلمين اليوم في خطأ كبير، حين يعطـون لأنفسهم الحقّ في إخفاء شيء من الإسـلام أو إعـلان شيء على أنـه من الإســلام وهـو ليس منـه، تحت ضغط الانبهـار بحضارة الغرب، أو تحت ضغط سلطة الغرب وقوته وجبروت سلاحه، أو بحجّة المداراة.

إذا اضُطـرَّ الفـردُ المسلم العـاديّ أن يخضع لنظـام بـاطل، فـلا يحلُّ لـه أن ينسب ضعفه وما يقع فيه من انحراف فكريّ أو منهجيّ أو تطبيقيّ إلى الإسلام.

لايملك المسلم إلا أن يعرض الإسلام كما هـو دون تبديل ولاتحريف، ولا أن يدخل فيه أهواءه فيحرّف أو يبدّل، ولا أن ينسب إليه ضعفه وهوانه وانحرافه.

على المسلم والجماعة والأُمة والدعاة، عليهم جميعاً، أن يعرضوا الإسلام نقيّاً صافياً، وأن لايجعلـوا اجتهاداتهم وآراءهم الشخصيّـة هي الإسـلام. إننـا مكلفون أن نبلّغ النـاس جميعاً رسالة الله إلى عباده، رسالة الله كما أنزلها على نبيّه المصطفى دون تحريف ولاتبديل.

فـالإسلام يقـرر حقوقـاً لكل فئة أو طـائفة من عبـاد الله، لتكون جـزءاً من تشريع رباني يحترم إنســانية الإنسان الـذي كرّمه ربّه وخـالقه في الحدود التي شرعها الله سبحـانه وتعالى. فلا يتساوى في ميزان الإسلام من أدى حقَّ الله وأوفى بمسؤولياته التي كلفه الله بها والذي أدار ظهره ولم يؤدِّ حق الله ولم يوفِ مسؤولياته.

(٢)

حق الإنسان في حماية
فطرته التي فطره الله عليها ورعايتها

وهي أخطر حـق للإنسان وأكبره وأعظمـه . وهي الحق الأول النابع من تكـريم الله لبني آدم بأن فطره على فطرة سليمة .

وهذا الحق أهملتـه البيانات والوثـائق الوضعية ، وأهملته قـوانينها ، بل على العكس وضعت تشريعات تساعد على إفساد الفطرة وتشويهها .

وهذه الفطرة هي عامل هام في الإيمان والتوحيد ، وفي التفكير والعطاء في الحياة .

ولقد سبق أن أفـردنا لها فصلاً خـاصاً هو الفصـل الخامس من الباب الخامس من هذا الكتاب ، فَلْيُرْجَعْ إليه .

(٣)

حق حفظ الحياة الكريمة وأمنها

إن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ووهبه الحياة. فالله هو واهب الحياة وهو الذي يقبضها أو يأمر بشأنها. ولذلك أمر الله عباده بحفظ حياتهم على النحو الذي أمر الله به. فأحلّ أشياء وحرّم أشياء رعاية لحياة الإنسان وحفظاً لها.

وبعث الله الأنبياء والرسل الذين خُتِموا بمحمد ﷺ وبالكتاب المبين مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه، منهاجاً ربّانيا يرسم للإنسان النهج الحق في حياة كريمة طاهرة، عزيزة غنية بالعطاء، على درب ممتدٍّ للآخرة.

ويحترم الإسلام حق الحياة احتراماً كبيرا، يحترم الحياة الطاهرة الصالحة، لاحياة الفجور والفتنة، ولا حياة الظلم والعدوان. ولذلك يحمل الإسلام مفهوماً محدداً للحياة التي يحترمها، يختلف عن مفهوم الحياة في حضارة الغرب أو في الفلسفة المادية أو المثالية كما أشرنا إليهما قبل ذلك. وكذلك لانستطيع أن نوجز هذا الحق هنا، فإنه مفصّل في منهاج الله تفصيلاً معجزاً. وحسبنا أن نشير إلى قبسات:

﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زُيّن للكافرين ما كانوا يعملون﴾ [الأنعام: ١٢٢]

هكذا ينظر الإسلام إلى مبعث الحياة الحقيقية في الدنيا. إن الكافر يكاد يكون في نظر الإسلام ميتاً حتى يحييه الإسلام بالدعوة والبلاغ ليؤمن فيحيا في الدنيا وينجو في الآخرة.

والحياة في نظر الإسلام ممتدة حتى الدار الآخرة حيث هناك الحياة الحقيقية:

﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾ [العنكبوت: ٦٤]

﴿وجيء يومئذ بجهّنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ▪ يقول ياليتني قدّمتُ لحياتي﴾ [الفجر: ٢٣، ٢٤]

ستختلف الحقوق والواجبات اختلافاً كثيراً حين نلغي التصور للدار الآخرة، وحين نبحث في حقوق الدنيا معزولة عن الآخرة. سيختلف التصور كله. والإسلام في كل تشريعاته لايعزل الدنيا عن الآخرة؛ ويربط الأمور كلها بالدار الآخرة- الهدف الأكثر والأسمى للمؤمن- .

والإسلام يحترم حق الحياة للإنسان، لتكون الحياة الدنيا فرصة لأداء رسالته وأمانته التي كلّفه الله بها، ولتكون ممراً إلى الدار الآخرة. لذلك جاء التشريع من عند الله تأكيداً لاحترام حق الحياة، وتنظيماً لهذه الحياة وإلا فما قيمة احترام حق الحياة للإنسان إذا لم يصاحب الاحترام تشريع عادل للحياة وتنظيم لها.

ويرعى الإسلام حق الحياة لكل مخلوق حتى الحيوان والنبات والشجر والطير. فذلك كله يدخل في تشريعات الإسلام المفصلة.

ولكن للإنسان المؤمن منزلة خاصة في الإسلام، لأن الإنسان المؤمن يحمل رسالة ربّانية يدعو الناس إليها. فهو يقوم بأعظم عمل في الحياة الدنيا، حين يسعى جهده بدعوته الناس لينقذهم من فتنة الدنيا وعذاب النار في الآخرة. إنه أعظم عمل في حياة البشرية كلها. ولايمكن أن يدرك عظمة هذا العمل إلا من آمن بالله والدار الآخرة إيماناً يقينيّاً. ولذلك جاءت الآيات الكريمة تبين لنا منزلة هذا الإنسان المؤمن، وتقارنها بمنزلة الكافر:

﴿إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شرّ البرية* إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية﴾ [البيّنة: ٦، ٧]

نعم! أولئك هم خير البرية! إنهم خير البرّية في الدنيا لأنهم هم الذين يقومون بصلاحها وإصلاح للناس كافة، وهم الذين يوفون بعهدهم مع الله، وينهضون للأمانة التي حملها الإنسان، والتي يصبح الإنسانُ بتركها أو التقصير بها ظلوماً جهولاً:

﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً* ليُعذّب الله المنافقين والمنافقات

والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً﴾ [الأحزاب : ٧٢ ، ٧٣]

ويجيء حديث رسول الله ﷺ ليوضح هذه المنزلة الكريمة :

فعن البراء بن عازب عن الرسول ﷺ قال : «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق»[رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه](١) .

ونظرة الإسلام لحق الحياة تختلف من حيث جذورها عن النظرية المادية والغربية . فحين استباحت الحضارة الغربية قتل المئات والألوف والملايين من أجل الأطماع والمصالح المتصارعة ، لم تجز إعدام القاتل الذي يَقْتُل عمداً بغير حق ، تحت ادعاء حق الحياة . فَهَمٌ مضطرب وقوانين متناقضة وممارسة فاسدة .

فالإسلام سنّ تشريعاً مفصَّلا وَحْياً من عندالله للقتل الخطأ والقتل العمد . وجعل عقوبة القاتل العمد القتل حداً من حدود الله . وفي الآخرة عقوبته جهنّم إذا لم يتب في الدنيا ولم يقم عليه الحد :

﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذاباً عظيماً﴾ [النساء : ٩٣]

ويمتد التشريع الرباني مفصلاً واسعاً عادلاً ، ليصون حياة الإنسان ويحفظها ويوفر لها الأمن والغذاء والسعادة الحقيقيَّة . وبذلك يرتبط حق الحياة للإنسان بحق الأمن وبحق الحياة للآخرين ، وبحق المجتمع كله ، ومن ثمّ بحق الإنسانية . ولذلك جاء تشريع القِصاص في القتل عادلاً مفصَّلاً في الكتاب والسنة ، نذكر هنا طرفاً منه .

﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القِصاص في القتلى الحرُّ بالحرِّ والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عُفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ﴿

(١) الترمذي : أبواب الديات - باب (٧)- حديق : ١٣٩٥ - عن عبدالله بن عمر. النسائي : كتاب تحريم الدم - باب (٢) حديث : ٣٩٨٧ عن عبدالله بن عمرو بن العاص . وابن ماجه : أبواب الديات - باب (١)- حديث : ٢٦٤٨ عن البراء بن عازب . والنص أعلاه .

ولكم في القِصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون﴾ [البقرة: ١٧٨ ، ١٧٩]

وكذلك :

﴿ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق ومن قُتِلَ مظلوماً فقد جعلنا لوليِّه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً﴾ [الإسراء: ٣٣]

فالحياة هبة من الله فلا يجوز أن تؤخذ الحياة من إنسان إلا بشرع من الله! ولذلك جعل الإسلام من مسؤولية الإنسان أن يحافظ على حياته، وهيأ له الأسباب لذلك.

هذه هي القاعدة العظيمة في الإسلام تخرج من تشريع ربّانيّ:

﴿ولكم في القِصاص حياةٌ يا أولى الألباب لعلكم تتقون﴾ [البقرة : ١٧٩]

إنها آية كريمة مليئة بالبيان والإعجاز في البيان، والتشريع والإعجاز في التشريع. إن فيها حياة للبشرية كلها .

وحين يرعى الإسلام حق الإنسان في حفظ حياته، فإنه يرعاه لتكون حياة كريمة عزيزة، يحوطها الأمن والاستقرار والإطمئنان. وهذا لايتوافر إلا إذا توافرت الحقوق جميعها من عدالة ومساواة، وضبط الحدود حرية الرأي والتفكير والحرّية عامة. ولا تتوافر الحقوق جميعها إلا بتطبيق منهاج الله على تكامله وترابطه وتناسقه .

وأما الأمن فإنه ينبع أولاً من داخل الإنسان المؤمن ، من إيمانه ويقينه ، إيمانه الذي يحوطه بالنور ، ويدفعه إلى سبيل الهدى والعمل الصالح ، لا يقترف إثما ولا يقوم بظلم . لا يشرك بالله شيئاً ولا يشرك بالله أحداً . واستمع إلى إبراهيم عليه السلام يكشف حقيقة الأمن ويعظ الكافرين :

﴿وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزِّل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحقُّ بالأمن إن كنتم تعلمون * الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ [الانعام : ٨١، ٨٢]

لذلك لا يعيش الإنسان في حضارة الغرب في أمن . إنهم يعيشون في خوف وقلق وفزع يغذّيه فيهم شركهم ، أو لي خدر يدفعه في عروقهم الخمر والمخدرات والجنس .

ثم يتـابع الإسلام بنـاء الأمن في حياة المسلم بعـد أن بناه في نفسه فيقيـم العدل بين النـاس على شرع الله ، ويبني القـوة والسلطــان الـذي يقيم شرع الله في الأرض ، ويبني العلاقـات الكريمـة بين الناس في روابط إيمانيـة ، تحمي الأمن وتصونـه : أخوة في الله لها حقوق وعليهـا مسؤوليات ، أرحـام توصل في طاعـة الله ، وبر الوالـدين ، وحسن جوار وصحبة ، وسكن زواج . ثم تعارف بين الشعوب ليكون أكرم الناس أتقاهم . وهكذا .

وهكذا تنمـو الحياة في ظلال نـدِّية من الإيمان والتـوحيد ، وعزّة بين آيـات الكتاب وأحاديث السنة ، على صراط مستقيم ، في أمن وأمان وعزة وسلطان .

(٤)

حق السعي والعمل واكتساب الرزق
أو تأمين حاجات الإنسان

إن هذه الحقوق نتيجة طبيعية في أمة يحكمها منهاج الله، ويحكمها به الصالحون الأكفاء العادلون. إن العمل، وهو حق للإنسان، مسؤولية كذلك وواجب. وهو تكليف من عند الله جاءت به الآيات والأحاديث:

﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾
[الملك: ١٥]

وكذلك:

﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾ [الجمعة: ١٠]

والسعي في طلب الرزق فطرة في الإنسان. ولكنه في الإنسان المؤمن عبادة وطاعة وجزء من الأمانة التي حملها.

والإسلام يضبط هذا السعي بقواعد حتى لايظل الإنسان لاهثاً وراء الدنيا وجمع الثروة وكنز الذهب والفضة، والتفاخر بالأموال والأولاد. وحين يضبط الإسلام هذا السعي بقواعده، فإنه يُذكِّر المسلم بمسؤولياته الأُخرى التي كلفه الله بها، والتي هي جزء كذلك من الأمانة التي يحملها والتي سيحاسَب عليها يوم القيامة.

ونذكِّر هنا بما ذكرناه سابقاً من هذه المسؤوليات المبيّنة في منهاج الله. وأولها بعد الشعائر مصاحبة منهاج الله مصاحبة منهجيّة، مصاحبة تدبر وتلاوة وحفظ، مصاحبة عمر وحياة، مع دراسة اللغة العربية ودراسة الواقع دراسة منهجيّة من خلال منهاج الله.

والمسؤولية الثانية هي الانطلاق لتبليغ رسالة الله ودينه، على نهج واع وخطة مدروسة، لإخراج الناس من عبادة العباد والأوثان إلى عبادة الله، وللنجاة من فتنة الدنيا

ومن عذاب الأخرة. ثمّ تتوالى المسؤوليات بتفصيلاتها كما يعرضها منهاج الله.

وسعي الإنسان للعمل وطلب الرزق حق كما ذكرنا للإنسان وواجب عليه ومسؤولية. ومن أجل ذلك تصبح مسؤولية الأمة أن توفر للإنسان ممارسة هذا الحق من خلال أبوابه وطرقه الشرعية. ومن أجل ذلك تُسنّ القوانين التفصيلية المناسبة لكل واقع من خلال منهاج الله لتوفير حاجة الإنسان، وحاجة الرضيع والفطيم كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وحاجة الشيخ الهرم، حين فرض لهم من بيت مال المسلمين، وحق اليتيم والأرملة والمسكين.

إذن جعل الإسلام للرضيع حقّاً وللفطيم حقاً وللشيخ حقاً، ولكل عاجز عن العمل. وأموال الزكاة والخراج وبيت مال المسلمين يكفل ذلك ويكفيه، ومنهاج الله ينظم ذلك.

ولاننسى حقَّ المسلم بالرعاية الصحية وتوفيرها للناس كافة على ضوء واقع الأمة، ليكفل ذلك القانون الذي يُبنَى على منهاج الله وعلى أساس من الواقع.

وبالإضافة لما يوفره وليّ الأمر من تأمين للمسلمين، فإن تكافل المسلمين أمر يحضّ عليه الإسلام، ويصبح فرضاً على الغنيّ نحو الفقراء.

والزكاة والصدقات كلها صورة رائعة لعظمة التأمين الذي يوفره الإسلام. فقد جعل الإسلام للفقراء والمساكين حقّاً في أموال الأغنياء:

﴿وفي أموالهم حق للسائل والمحروم﴾ [الذاريات: ١٩]

﴿والذين في أموالهم حق معلوم ▪ للسائل والمحروم﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥]

ليس هدفنا هنا أن نورد تفصيلات ذلك، سواء في النصوص والتطبيق، ولكن هدفنا الإشارة إلى هذه الحقوق، ليعود المسلم إلى منهاج الله ليرى البيان الأوفى، وإلى سيرة النبوة الخاتمة والخلفاء الراشدين، وإلى سيرة الأئمة الصادقين الصالحين العاملين.

وإن كلّ حق من هذه الحقوق لايكفيه كتاب جامع لشرح النظرّية والتطبيق.

وبصورة عامة فإن من حقّ الإنسان في الإسلام العمل والسعي، ومن حقه الطعام واللباس والسكن والزوجة. فإن قعد عن العمل لعذر شرعيّ فالدولة مسؤولة عنه لاتضيعه.

(٥)

حـــق التعلـــم

جعل الإسلام طلـب العلم فريضة على كـل مسلم، وهيأ في تشريعاتـه سبل توفير الفـرصة إلى ذلك، ورغّـب ترغيبـاً شـديداً في طلب العلم، وجعـل رأس العلم وأساسـه الكتاب والسنة، وبيّن أن طلب العلم عبادة أجرها عظيم.

وطلبُ العلم بالنسبـة للمسلم مسؤولية، وواجب عليه أن ينهض للـوفاء بها. هذا من ناحية، ومن نـاحية أخرى هو حقٌّ لـه على الدولة والأمة والمجتمع أن يوفـوا له بها وفاءً يتناسب وقدراته وطاقاته.

ولذلك جاء حديث رسول الله ﷺ يبيّن هذه الفريضة الواجبة:

عن ابن مسعـود عن النبي ﷺ أنـه قـال: **«طلب العلم فـريضـة على كل مسلم»** [رواه ابن عدي والبيهقي والخطيب والطبراني][١]

وجاءت آيات كثيرة وأحـاديث كثيرة تبيّن أهمية العلم وترغّب فيه وتؤكـد أن أساسه العلم بمنهاج الله.

وعن أنس عن النبيّ ﷺ أنـــه قـال: **«طلب العلم فـريضـــة على كل مسلم. وإن طالب العلم يستغفر له كل شيء، حتى الحيتان في البحر»**

[رواه ابن عبدالبر في «العلم»][٢]

وتتوالى الأيات الكـريمة والأحاديث الشريفة تبيّن فضل العلم وعظيم ثـوابه إذا قام على الإيمان والتـوحيـــد، وعلى منهـاج الله. والثـواب عنـــد الله يأتي في طلب العلم، وفي تعليمه، وفي ممارسته في واقع الحياة ليكون خيراً وصلاحاً للإنسان.

فالعلم، إذا ارتبط بالإيمان والتوحيد وبمنهـاج الله، كان خيراً وبراً وتقوى. أما إذا انعزل عن الإيمان والتوحيد ومنهاج الله، فإنه يصبح فساداً وفتنة وفجوراً.

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته: (ج: ٤) - (ط: ٣) - (ص: ١٠)- (حديث: ٣٨٠٨).
(٢) المصدر السابق: (حديث: ٣٨٠٩).

وانظر كيف تحول العلم عند الغرب الرأسمالي والاتحاد السوفياتي الشيوعي إلى أدوات دمار مروّعة، وإفناء للبشر بالألوف ومئات الألوف. لقد تحول العلم إلى صناعة القنابل الذرية والنووية بمختلف أشكالها، وإلى صناعة الأسلحة الجرثومية المهلكة. وانظر كيف أصبح العلم لديهم في متناول المجرمين واللصوص والقتلة يستحدثون كل يوم أدوات جديدة وآلات مبتكرة لمزيد من الإجرام.

لقد قدم المسلمون للبشرية أبواباً عظيمة في مختلف ميادين العلم فكانت كلها خيراً وصلاحاً للإنسان، لم يستخدموه في شرٍّ ولا فتنة ولا فساد.

فالإسلام حين يحضّ على العلم فإنه يأمر باستخدامه في الخير، ويوجه إلى ذلك، ويضع التشريع الحق، ولا يتركه لهوى الناس وشهواتهم ومصالحهم الظالمة المتصارعة.

العلمُ في الإسلام منهج متكامل مرتبط بمنهاج رباني متكامل معجز، فيه الحق الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

والعلم مفتوح بابه للبشرية كلها، ليكون باب ابتلاء وتمحيص، تقوم به الحجة على الناس أو لهم يوم القيامة.

وقد فتح الله أبواب السموات والأرض وآفاقها ليخوض الإنسان هذه الآفاق بحثا عن آيات الله. فيصبح العلم وطلبه والنظر في السموات والأرض باباً للإيمان والخشوع بين يدي الله العزيز الجبار:

﴿ألم تروا أن الله سخّر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هوى ولاكتاب منير﴾
[لقمان: ٢٠]

وكذلك:

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنه الحق أو لم يكف بربّك أنه على كل شيء شهيد* ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط﴾

[فصلت: ٥٣، ٥٤]

ولذلك كان من الحق الجليّ أن يقوم العلم والنظر في السموات والأرض على أساس الإيمان والتوحيد ومنهاج الله -قرآناً وسنة ولغة عربية- فيكون منهاج الله وممارسته في واقع الحياة، والقيام بفرائضه العادلة هو أساس العلم:

فعن عبدالله بن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «**العلم ثلاثة فما وراء ذلك فهو فضل: آية محكمة، أو سنّة قائمة، أو فريضة عادلة**» [رواه أبو داود وابن ماجة][1]

ونرى أن معنى الفريضة العادلة هو ممارسة منهاج الله وفرائضه بعدل وإحسان وأمانة.

وإن كان الاستاذ الألباني يضعفه فإن الآيات والأحاديث تؤيد معناه.

وحين يجعل الإسلام طلب العلم فريضة، فإنه يجعل كذلك القيام بالتعليم واجباً على كل قادر[2] على أن يكون التعلُّم والتعليم على أساس الإيمان:

فعن جندب بن عبدالله قال: «**كنا مع النبيّ ﷺ ونحن فتيان حزاورة فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيماناً**» [أخرجه ابن ماجة][3]

وقد يصبح العلم لدى من لايؤمن بالله واليوم الآخر غرور وفتنة. وقد رأينا في أبواب سابقة كيف اتخذ بعض الفلاسفة من العلم القليل الذي أنعم الله به عليهم، باب شرك وفتنة حتى جعلوا منه وثناً وإلها.

(١) أبو داود: ١٣/ ١/ ٢٨٨٥. ابن ماجة: المقدّمة - (حديث رقم ٤٢٠).
(٢) يراجع كتاب دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية - (ط: ٦) - للمؤلف - من أجل تفصيلات أوسع وأدلة أكثر من القرآن والسنة، وبخاصة الباب الخامس - ملامح من مدرسة النبوة - (ص: ١٨١-٢٣٢). (٣) ابن ماجة: ١/ ٩/ ٤٩.

(٦)
حرية الفكر والتفكير والرأي وحدودها [١]

لقد سبق أن تحدثنا عن «التفكير» على أنه مسؤولية وواجب على المسلم أولاً. إن الله أعطاه العقل والقلب وسائر ماوفّر لـه في كيانه ليستخدم ما أعطاه، لا ليعطله ويشلّه. فالتفكير واجب على المسلم محاسَبٌ عليه كما ذكرنا. ونؤكد هنا أن الإسلام لم يترك الإنسان متفلّتاً تائهاً في تفكيره. إن الله زوّد الإنسان بكل ما يقوده إلى سلامة التفكير وسلامة القرار. فلا فائدة من تفكير لايصل إلى نتيجة وقرار، ولا قيمة للقرار إذا كان صاحبه لايتحمل مسؤولية قراره في الدنيا والآخرة.

ومن ناحية أُخرى فإن مسؤولية الأُمة كلها أن توفّر للإنسان الفرصة والحقَّ في أن يفكر ويتدبّر ويتخذ قراره. ولكن الأُمة يجب أن تحاسِبَه على نتيجة قراره. والله سيحاسِبُه على قراره، وتمضي عليه سنن الله في الدنيا وقضاؤه عليه في الدنيا والآخرة.

إن أي مسؤول لايرضى لموظف عنده أن يفكر ثمَّ يتخذ قراراً بمخالفته دون وجه حق، ومخالفة القانون في الدائرة! فكيف إذن لايُحاسَب من يتخذ قراراً ضد الأمة كلها، وضد شريعة الله ودينه الحقِّ، وكيف يمضي قراره دون حساب عند الله ؟

كثير من الناس اليوم ينادون بحرية الفكر، وحرية الدين، وحرية القول. وكثير يسمحون بذلك، حتى إذا خالف الفكرُ رغبة من أذن به عملوا سرّاً أو جهراً لمقاومة هذا الفكر، ولكن لو خالف الفكر شرع الله ودينه فلا يرون في ذلك بأساً، ويجيزونه تحت شعار الحرية، أو حرية الفكر كحقٍّ للإنسان، وما هو بحق أبداً.

إن الإسلام لايطلق حرية الفكر مفلوتة دون قواعد ودون مسؤولية وحساب. وما قيمة الفكر إذا تفلّت من الضوابط والقواعد، وتاه في ظلمات الأهواء والشهوات والمصالح الخاصة، ليخفي هذا كله تحت شعار حقوق الإنسان، أو حرية الفكر، أو الحرّية

(٤) يراجع كتاب الشورى وممارستها الإيمانية : (ط : ٣) للمؤلف : الباب الثاني : الفصول الثلاثة الأولى، وكتاب النظرية العامة للدعوة الإسلامية – نهج الدعوة وخط التربية والبناء التاسع .

العامة. إن هذا الفكر يصبح فتنةً وفساداً، لأنه خرج من أهواء بشرية وخاض في أمور غيبية أو أمور خارج حدوده.

ومن ناحية أخرى، فحين يعطي الإسلام للإنسان حقَّ التفكير ويجعله واجباً عليه، ليصل بتفكيره إلى قرار، فإنه يطالبه بأن يقدّم الدليل والبيّنة والحجة التي تثبت سلامة قراره وصحته. فما قيمة القرار الذي يصدر دون بيّنة ودليل؟ وانظر كيف يخاطب الإسلام أمثال هؤلاء:

﴿أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لايعلمون الحق فهم معرضون﴾ [الأنبياء: ٢٤]

وكذلك:

﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ [البقرة: ١١١]

وكذلك:

﴿أمَّن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ [النمل: ٦٤]

وهكذا يرفض الإسلام الرأي والفكر الذي لايحمل معه برهانه وحجته، بل يكون أمانيّ وأوهاماً وشهوات ومصالح لاحجة معه من حق.

ولو رجعنا إلى الفكر اليوناني والروماني والأوروبي وفحصناه لوجدناه يقوم أساساً على الوهم والظنّ والتخمين، دون حجة من حق ولابيّنة. وإن كان فيه ومضات من صدق، فإنها بقية من الحق الذي حرّفوه، الحق الذي بلغتهم إياه رسل الله. فالله قد بعث في كل أمة رسولاً.

لذلك يرفض الإسلام الفكر الذي يقوم على الظنّ والهوى، لأنه يقود إلى فتنة وضلال. وتدبّر آيات الله تؤكد ذلك:

﴿... إن يَتبعون إلا الظنّ وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ [النجم: ٢٣]

وكذلك:

﴿ومالهم به من علم إن يَتبعون إلا الظنّ و إن الظنّ لايُغني من الحق شيئاً﴾ [النجم: ٢٨]

﴿... إن يَتبعون إلا الظن و إن هم إلا يخرصون﴾ [الأنعام: ١١٦]

﴿... إن تتَّبعون إلا الظن وإن أنتم الا تخرصون﴾ [الأنعام: ١٤٨]

﴿ومايتبع أكثرهم إلا ظناً إنَّ الظنّ لايُغني من الحق شيئاً إن الله عليم بما يفعلون﴾ [يونس: ٣٦]

وتتوالى الآيات والأحاديث لتسفّه الفكر الذي يقوم على الظن والهوى، وتخرجه من دائرة الحق إلى دائرة الباطل.

إن للإيمان والتوحيد منهجاً محدداً في التفكير ونهجاً واضحاً في الفكر. والإسلام دين الله الحق الذي لايقبل الله من أحد سواه. ومهمة المسلم والأمة المسلمة أن تدعو إلى ذلك المنهج وذلك النهج بوضوح وجلاء، وبتكامله وتناسقه وترابطه.

وفي دائرة هذا المنهج والنهج تظل حرية الإنسان مكفولة في التفكير على أن يلتزم النهج والمنهج . وأن يبتعد عن الأمانيّ والأوهام، وعن التخمين والظن، وأن يأتي بالبيّنة والحجة والدليل، وأن يكون مسؤولاً عن فكره ونتيجته محاسباً عليه.

ونعيد لنذكر أنفسنا بأن الله هيأ للإنسان كل مايقوده إلى التفكير السليم، إلى الحق، وأودع ذلك في كيانه وذاته وفطرته، وفي الكون كله، وفيما أوحى به إلى الأنبياء والمرسلين. ولذلك كانت حماية الفطرة هي الحق الأول والأكبر للإنسان، فمنها تنطلق سائر الحقوق وعليها تعتمد، فإن فسدت الفطرة وانحرفت انحرف التصوّر كله واضطرب واختلطت الأمور، وفسد الفكر والتفكير.

إن الإسلام جاء ليجفّف مستنقعات الكفر والإلحاد والشرك من حياة الناس. ووضع من أجل ذلك تشريعاً ونهجاً. فلا يُعقل إذن أن يقبل الإسلام بالشرك والكفر والإلحاد كمظهر من مظاهر حرية الفكر وكحق للإنسان، إلا أن يُدْعَى أَولاً إلى الإيمان والتوحيد والإسلام، ثم تمضي أَحكام الإسلام وشريعته.

ونجد أن الله سبحانه وتعالى دعا عباده إلى التفكير والتأمل والتدبّر، حتى يكون هذا التفكير باباً للإيمان. وبذلك يصبح التفكير ليس مجرّد حقٍّ للإنسان، ولكنه واجب عليه، وجزء من الأمانة التي يحملها والتي سيحاسَبُ عليها:

﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثمّ تتفكروا مابصاحبكم من جنّة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾ [سبأ: ٤٦]

وكذلك:

﴿أو لم يتفكّروا ما بصاحبهم من جنّة إن هو إلا نذير مبين* أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأيّ حديث بعده يؤمنون﴾ [الأعراف: ١٨٤، ١٨٥]

وكذلك:

﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب* الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكّرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار﴾

[آل عمران: ١٩٠، ١٩١]

فالنظر في السموات والأرض، وفي آيات الله في الكون، والسير في الأرض للتدبُّر والتفكر قضية يلحّ عليها القرآن الكريم. وتتوالى الآيات الكريمة التي تنتهي بقوله سبحانه وتعالى: **﴿.. لعلكم تتفكّرون﴾** ويوجه التفكير إلى كل ناحية وإلى الإنسان نفسه:

﴿.. وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ [الذاريات: ٢١]

وإلى الأرض :

﴿وفي الأرض آيات للموقنين﴾ [الذاريات : ٢٠]

وحين يوجه الإسلام الإنسان للتفكير فإنه يبيّن له الهدف ويرسم له النهج والدرب، ويوفّر له الوسائل والوسع والقدرات، ثمّ يحاسَبُ الإنسان على قدر وسعه الذي وهبه الله له، لا على قدر الوسع الذي يتوهّمه ويدّعيه.

أما الهدف الأكبر والأسمى فهو الجنة والدار الآخرة ورضوان الله. فمن هذا الهدف تنطلق الحوافز، وإليه تتجه القوى حتى حين يسعى الإنسان في أمر من أمور الدنيا، فإنه يسعى ليجعل مبتغاه الدار الآخرة :

﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحبّ المفسدين﴾

[القصص : ٧٧]

وزوّد الله الإنسان بقوى تعينه على التفكير. وأول هذه القوى فطرة الله التي فطر الناس عليها. فشتان بين تفكير رجلٍ فطرته سليمة ورجلٍ فسدت فطرته، وشتان بين النتائج التي يصل إليها هذا والنتائج التي يصل إليها ذاك. وزوّد الله الإنسان بطاقة خاصّة هي «العقل». ولا نرى أن «العقل» عضلة ماديّة واحدة في جسم الإنسان، ولكنها طاقة تعمل لها أجزاء متعددة في جسم الإنسان: الدماغ، القلب، الجهاز العصبي . . . وغير ذلك.

أما في الفكر الماديّ أو المثالي، الفكر العلماني، فإن منطلق التفكير يختلف ونهجه يختلف، وهدفه الأكبر يختلف. فهدفه الأول والأخير هو الدنيا بمادّيتها وزينتها.

لذلك كانت حرّية التفكير في هذا الجوّ العَلماني المادي مرتبطة بالدنيا ومخنوقة فيها، حتى غاب عن الإنسان الجزء الأكبر من هذا الكون الممتد، وانفصل عنه.

حرّية التفكير في الإسلام أساس تقوم عليها حياة الإنسان كلها، لأنها حرية يجب أن يعقبها قرار، وأن يعقب القرار مسؤولية يحاسب عليها.

الإسلام أعطى الإنسان حـرّية التفكير ليتخذ قراره بنفسـه دون إكراه: هل يؤمن أم لايؤمن؟!

ولكل قرار مسـؤولية في الـدنيا وفي الآخرة، يتحملهـا الإنسان صـاحب القرار، في الدنيا وفي الآخرة.

ولكن الإسـلام لم يُعْطِ الإنسَـان حرّيـة الإفسـاد في الأرض، ونشر الفتنة والآثـام، والزنا واللـواط والجرائم المتعددة. فإذا كانت حرّية الفكر ستقـود إلى الجريمة والإفساد في الأرض، فإن الإسلام لايعطي هذه الحرّية، بل يمنعها.

ويمكن أن نـوجـز الآن أهم القـواعــد والأسس لحريـة التفكير والـرأي، ويمكن مراجعة تفصيلاتها في كتـاب: «الشورى وممارستها الإيمانية»، وكتاب: «النظـرية العامة للدعوة الإسلامية نهج الدعوة وخطة التربية والبناء»:

١ - صدق النيّة وإخلاصها وصفاء الإيمان والتوحيد.
٢ - صدق العلم بمنهاج الله والواقع من خلال منهاج الله والقضية المطروحة.
٣ - سلامة الممارسة الإيمانية في الواقع التي تكسب المسلم خبرة سليمة وزاداً طاهراً.
٤ - إدراك منزلة الكلمة والرأي في الإسلام وخطورتها.
٥ - ردّ الأمور كلها، صغيرها وكبيرها، إلى منهاج الله.
٦ - إعطاء الرأي مع البيّنة والدليل، والحجة والبرهان.
٧ - اجتناب الظنّ والوهم والتخمين.
٨ - البيان والوضوح مع أدب ورفق.
٩ - الأمن والطمأنينة وأهمية توافرهما.
١٠ - الإنصات وحسن الاستماع في حالة الحوار قبل اعطاء الرأي.
١١ - تجنب الغيبـة والنميمة والافتراء والظلـم وتتبع العورات وإفشـاء السرّ المؤتمن عليه وسوء الظن في غير محله، وسائر القواعد الخُلُقية.
١٢ - تقدير المسؤولية وحدودها وعدم التجاوز إلى ما لا علم به ولا خبرة ولا حق.
١٣ - ارتباط حرية التفكير والرأي بسائر حرّيات الإنسان في الإسلام.

(٧)

حق حماية «الكلمة» و «الفكرة» وأمانتها

﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ [الأحزاب : ٧٢]

مهما اختُلف في تعريف هذه الأمانة التي حملها الإنسان، فإنها ستظل دائماً في إطار ممارسة منهاج الله في الواقع البشري في الحياة الدنيا. إنها الممارسة الإيمانية في ميادين الحياة كلها.

ولقد كان من تكريم الله سبحانه وتعالى أن حمّل الإنسان هذه الأمانة. ويظل الإنسان في دائرة التكريم وهو يجاهد صادقاً ليوفي بهذه الأمانة العظيمة. فإذا تخلّى الإنسان عن هذه الأمانة وأعرض عنها فإنه يصبح ظلوماً جهولاً.

ولقد جاءت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة تلحُّ على هذه القضيّة إلحاحاً كثيراً، لتُبرِز لنا خطورتها في حياة البشرية كلها. وربطت بعض الآيات والأحاديث هذه الأمانة بالعهد الذي يُبرمه المؤمن في حياته الدنيا، سواء أكان العهد كلمة يلفظها، أم عقداً يبرمه ونأخذ هنا قبسات من منهاج الله، ليعود المسلم إلى منهاج الله فيرى الصورة بكامل تفصيلاتها :

﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ [المؤمنون : ٨]

وتتأكد هذه الآية في سورة المعارج :

﴿والذين هم لأمانتهم وعهدهم راعون﴾ [المعارج : ٣٢]

وعن أنس رضي الله عنه عن الرسول ﷺ أنه قال: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لاعهد له» [رواه أحمد وابن حبان في صحيحه](١)

إن الأمانة هي محور العهد الذي أخذه الله من بني آدم حين أخذ من ظهورهم ذريتهم في عالم الغيب. إنه عهد الإيمان والتوحيد الذي جعله الله في فطرة كل إنسان، إلا حين تنحرف الفطرة وتتشوّه فإن الأمانة تضيع والعهود تغيب.

---

(١) أحمد - المسند : ٣/ ١٥٤ ، ٢١٠ ، ٢٥١ . الفتح : ١٤/ ١١٨ ، ١٩/ ٢٣٣ . صحيح الجامع الصغير وزيادته - ط٣ حديث رقم (٧٠٥٦) .

﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين* أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذريّة من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون* وكذلك نفصّل الآيات ولعلهم يرجعون﴾ [الأعراف: ١٧٢ - ١٧٤]

وتمتد الأمانة في حياة الإنسان إلى جميع الميادين في الحياة الدنيا، ويظلّ المؤمن الصادق هو الذي يرعى الأمانة بأدقّ صورها، يجاهد نفسه وكبره وغروره، ويجاهد أهواءه وشهواته، حتى يظل على عهده مع الله، يوفي بالأمانة ويجاهد دون ذلك.

ويرتبط الوفاء بالأمانة التي حملها الإنسان بأمر النصر الذي ينزّله الله على عباده. فالنصر من عند الله وحده، يهيىء الله أسبابه كلها ويمضي بها قدره حتى يتحقق. فارتبط النصر إذن بالوفاء بعهد الله:

﴿... وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم...﴾ [البقرة: ٤٠]

وأما وعد الله فثابت في أكثر من آية:

﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ [غافر: ٥١]

﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لايشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ [النور: ٥٥]

هذا هو وعد الله ينجزه لعباده المؤمنين وينزل النصر عليهم، حين يوفون هم بعهدهم مع الله، وذلك بالوفاء بالأمانة التي حملوها.

ومن أجلّ أبواب الأمانة أمانة «الكلمة» وأمانة «الفكرة». وأول معاني أمانة الكلمة أن تأتي الكلمة مشرقة بالطّهر غنيّة بالصدق، تابعة من الإيمان والتوحيد، خاضعة لمنهاج الله، تحمل الحقّ وتنصره، وتصدّ الباطل والفساد.

إن أول الوفاء بأمانة الكلمة أن تكون طيبة ينتشر طيبها من صدقها ووضوحها وجلائها. وتلك صفة الكلمة عند المؤمنين:

﴿وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد﴾ [الحج: ٢٤]

وكذلك:

﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيّبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء* تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكّرون﴾
[إبراهيم: ٢٤، ٢٥]

والكلمة الطيبة لاتعني أنها الكلمة الضعيفة الخائفة، اللينة بضعفها المستسلمة بخوفها. كلا! إنها الكلمة القوية الصادقة.

إنها الكلمة التي تلين حين تدعو وحين تتألف القلوب، وهي الكلمة القوية حين تصدّ الفتنة والفساد، والعدوان والظلم. إنها عَبَق في لينها وشدتها.

ولقد أعلى الله سبحانه وتعالى منزلة الكلمة وبيّن عظيم خطرها، كما جاء في حديث معاذ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ:

«... وهل يكبّ الناس في النار على وجوههم، أو قال مناخرهم، إلا حصائد ألسنتهم».
[رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح][1]

ذلك عندما لاتكون الكلمة موفية بالأمانة والعهد، ولا نابعة من الصدق والحق، ولاتكون «الفكرة» نقيّة صافية نابعة من جوهر الإيمان وبركة منهاج الله. إنها تكبُّ عندئذ صاحبها على وجهه في النار. ذلك عندما تفارق الكلمة الوفاء وتدخل ميدان الغدر والخداع، والغش والظلم والعدوان.

ومن الوفاء بأمانة الكلمة حمايتها، حماية الكلمة الطيبة وحماية حقها من أن يُعتَدى عليها، وحماية صاحبها.

إن «الفكرة الصادقة» و «الكلمة الطيبة» هي من أعظم ما يقدمه المؤمن في حياته.

(١) سنن الترمذي: ٤١/٨/٢٦١٦.

إنها باب من أبـواب الجهاد في سبيل الله، وإنها خفقة من خفقات الحيـاة. إنها الحياة التي يعرف بها النـاسُ صاحبها، والعزم الـذي يتقدم به في دربه، والأسـاس المتين الذي يلتقي عليـه الصـادقـون، والنـور الـذي يشـقّ الظلمات. فمن اعتـدى على «الكلمـة الطيبـة» و «الفكرة الصادقة» فكأنه زلزل أساس اللقاء، وأطفأ النور والضياء.

إن «الفكرة الصادقة» و «الكلمة الطيبة» قطعة من الإنسان المؤمن، من كبده وقلبه ودمه. إنها تخرج من أعماق أعماق أحنـائه، وأعماق أعماق نفسه، فمن اعتدى عليهـا فقد اعتـدى على الحياة، على القلب، وكأنـه سفك الـدم وأحلّ القتل بغير حق. إنها جريمـة كبيرة في حق الإنسان.

إن «الفكرة الصادقـة» و «الكلمة الطيبة» شرف الإنسان المؤمن ومروءتـه وعرضه. وهي أغلى من المال والـذهـب. كيف لا وهي الشرف والمروءة والعـرض. ولابأس أن نذكـر ماقـاله شكسبير: «من سرق حـافظة نقـودي فقد سرق شيئـاً تافهـاً، ومن سرق شرفي فقد سرق كل شيء».

إ ن حماية الفكرة والكلمة حماية لحيـاة الناس جميعاً، وأمن المجتمع، وصون الأعراض، وحماية الروابط والعلاقات. إن حماية ذلك كله جزء من بناء الأمن، والوفاء بالأمانة.

والمسلمـون يجب أن يكونـوا أحرص النـاس على حمايـة الفكرة والكلمـة وحقوقهـا وحقـوق صاحبهـا. ولكن بعض المسلمين اليـوم ضيّع من هـذه الأمـانة ومـن الوفـاء بها الشيء الكثير.

نشرت إحدى المجـلات مقالاً وصلها من كـاتب يطلب نشره. ونشرت معه الأصل الذي سرق الكاتب منه مقالته حرفاً بحرف. فأي خزي أكبر من ذلك.

تقدّم شـاب لنيل شهادة الدكتوراة في بحث عـن الشورى. فنقل نقلاً حرفيـاً واحداً وثمانين صفحة من كتاب في الشورى لمؤلف آخـر دون أن يشير إلى ذلك. ولما عرفت الجامعة ذلك درست الموضوع وحقَّقتْ فيه، وكذلك الجهات المختصة، وأُوقفت أمر الشهادة.

شاب يشترك في نـدوة شعرية فيُلقي من جملة مـايلقيه واحداً وعشرين بيتاً يأخـذها

بحرفيتها من ديوان شاعر آخر، وينسب الأبيات لنفسه.

مجلة تأخذ فقرات من كتاب تنقلها حرفيا أو تضيف كلمة وتحذف كلمة، ثم تنشرها بتوقيع كاتب آخر. وعندما يُراجَع في ذلك صاحب المجلة يقول بكل هدوء: وماذا في ذلك، كل الصحف تفعل مثلنا. فقيل له كنت في خطأ فصرت في أخطاء. جميع الصحف والمجلات التي تحترم الكلمة لاتفعل ذلك.

هذه نماذج مكشوفة من عدم الوفاء بأمانة الكلمة. ولكن الناس مَهَروا في الوسائل والأساليب. فمنهم من تعجبه «الفكرة» في كتاب، فيأخذها ويغيّر من صياغة صاحبها، ويعيد نشرها كأنها كلمته. وحين يُسأل يقول: إنها خاطرتي، وإنها «مثل وقع الحافر على الحافر»! وإذا سُئل لماذا لم يُشر إلى دراسة سابقة لهذه الفكرة وقد عُرِضت عليه، يصمت. وقد يقول: ياأخي كله عمل لله وهذه أشياء بسيطة. ولما يجد أن الأمر قد وقف عند ذلك، يتمادى ويبحث عن فكرة جديدة يسطو عليها ويعيد نشرها بصياغة تقترب أو تبتعد عن الأصل. إنها مهارة ولكنها مهارة المفسدين في الأرض، مهارة الضالّين، لن تعود إلا بالشرّ على صاحبها.

وكأنما يتصور بعض الناس أن عزّه أن يثبت وجوده في ساحة الفكر والبيان بأي طريقة، فيتنافس الناس عندئذ الدنيا، وتفسد النيّة، وتفسد الفكرة، وتفسد الكلمة، ويبهت النور! ما أكبرها من جريمة.

إن الله سبحانه وتعالى هو الذي يبارك الكلمة ويطلق نورها، وإن الإنسان يُفسد على الناس بركتها ويُذهب نورها بظلمه وعدوانه، من خلال ابتلاء كتبه الله على عباده، ليُمَحِّص مافي الصدور ويكشف النيّات، ولتقوم الحجة لهم يوم القيامة أو تقوم عليهم.

وعندما يُعتدَى على الكلمة أو الفكرة، يُعتَدى على غيرها، فتتمزّق الكلمات والأفكار بين هذا وذاك، بعد أن كانت مترابطة متناسقة عند صاحبها.

ولو كانت «الفكرة» أو «الكلمة» جزءاً من منهج مترابط، فأخذ هذا فكرة من هذا المنهج وعرضها بين الناس كأنها فكرته وموهبته، لينال بها الثناء في الدنيا، ثمّ أخذ آخر

فكرة أُخرى يعرضها بنفس النيّة والسعي وراء زينة الدنيا وعَرَضِها بأسلوب غير كريم، ثم فعل ثالث ورابع مثل ذلك، فإن المنهج يتمزّق إرباً، وتضيع قيمته وفائدته، ولايجد من يدعو له، فتكون الخسارة كبيرة والإثم كبيراً، يحمل رائحة الخيانة أكثر مما يحمل رائحة الأمانة، وقد يقترب الإثم من الجريمة.

المسلمون أولى الناس أن يحترموا حقوق الإنسان كلّها. وحق حماية أمانة الكلمة والفكرة من أهم هذه الحقوق. ولقد أصبح هذا الحقّ معترفاً به بين الشعوب كلها حتى الوثنية منها، ومنذ زمن بعيد.

فما زلنا نقول حتى اليوم «نظرية فيثاغوروس»، ننسبها لصاحبها، لا يعتدي عليها أحد. وكذلك سائر النظريات العلمية والأفكار الفلسفية.

ولكن المفسدين في الأرض هم الذين يبحثون عن فكرة يسرقونها ويطيرون بها، أو فكرة يحرّفونها، ذلك كله ليكسبوا عرضاً رخيصاً وزخرفاً تافهاً، ولكنهم يرتكبون جريمة كبيرة.

وعمل المفسدين في الأرض قديم. فقد حرّف أهل الكتاب كلام الله وبدّلوا وغيروا، واشتروا به ثمناً قليلاً، وارتكبوا جريمة كبيرة بحقّ الإنسانية كلها.

ومهما ظنّ بعض الناس أنهم ناجون في الدنيا، فإن حساب الله شديد، وعذابه شديد. ونذكّر بحديث رسول الله ﷺ: «.. **فإذا ضُيّعت الأمانة فانتظر الساعة ..**» [رواه البخاري](١)

وربما يدّعي بعضهم أن الهدف الدعوة إلى هذه الفكرة أو تلك، إذْ المهم أن تنتشر الفكرة بين الناس ليستفيدوا منها. إنها مغالطة كبيرة يلبس فيها الشيطان على ابن آدم فيضلّه.

أولاً: ما الذي يمنع أن تُنشر الفكرة وتُعزَى لصاحبها.

ثانياً: كيف يُعطي أحد الحقَّ لنفسه بأن ينال الثناء والأجر من الناس على كلمة أو فكرة ليست له، ثم يعتبر أن صاحب الكلمة ليس من الضروري أن يلتفت إلى ذلك.

ثالثاً: إذا دعا صاحب الفكرة لفكرته، أو دعا غيره وعزى الفكرة لصاحبها،

(١) البخاري: كتابالعلم (٣) - باب (٢). حديث رقم (٦٠).

فهناك مجال لأن تكون النيّة صادقة لله . أما إذا دعا إلى الكلمة أو الفكرة غيرُ صاحبها ونسب الأمر لنفسه ، فقد فسدت النيَّة وبطل العمل .

ما أعظم الأمة التي تصون حق الإنسان في كلمته وفكرته بأمانتها وأمانة أبنائها ، أمانة نابعة من إيمان وتوحيد ، وخشية من عذاب الله شديد .

وما أجمل أن يكون هناك قانون يصدّ فتنة المفسدين المعتدين ، ويحمي الكلمة وثروة الأمة ، ويحمي صفَّ المؤمنين من وهن الضُعفاء وفتنة المنافقين ، وتسلل الشياطين .

إن منهاج الله يوفّر هذا القانون لمن يلتزم منهاج الله ، ولمن يتدبره ويعيه . وإظهار القانون النابع من منهاج الله يُوّفر الفرصة للكثيرين الذين لم تمتلىء صدورهم بالآيات والأحاديث .

إن الإسلام هو المنهج الحق والدين الحق الذي يكفل حقوق الإنسان كلها ويرعاها . والكلمة والفكرة حقٌّ لصاحبها ، لاتنفصل عنه . وحق لكل من يؤمن بها أن ينشرها ويدعو لها دون أن يعزوها لنفسه صراحة أو بالايحاء .

فما زلنا حتى اليوم ، وسنظل أبداً ، نقول : قال رسول الله ﷺ ، ثم نروي الحديث الشريف . ونقول : قال عمر بن الخطاب أو أبو بكر أو أيّ صحابيّ رضي الله عنهم ، دون أن يعزو أحد القول لنفسه ، إلا ما سرقه بعض مفكري أوروبا من مبادىء الإسلام بعد أن عزلوها عن الإسلام ونسبوها لأنفسهم .

وفي أقوال أبي بكر وعمر والصحابة رضي الله عنهم روائع من الفكر ، يتمنى الكثيرون لو كانت لهم ، ولكنّ المتقين يروونها وينسبونها إلى قائلها .

فحق الكلمة والفكرة حقٌّ لكل إنسان ، وهو حق يرعاه الإسلام لأنه يترتب على هذا الحق مسؤولية يتحملها صاحب الكملة . فكيف يحلّ لرجل آخر أن يأخذ هذا الحق فيعزو الكلمة لنفسه ، وحين تنكشف المسؤولية يفرُّ ويتبرأ!

لابد من رعاية حق الكلمة والفكرة حتى تصان الحقوق والمسؤوليات ، وتعرف الحدود والواجبات ، ولا تضيع بين اعتداء هنا وهناك .

إن في الكلمة والفكرة مسؤولية وحساباً ، وليس حقاً مجرّداً للتمتع والزهو والسعي

إلى ثناء الناس!

ولذلك كـان من مذهب أهل الحداثـة عزل الكلمةو الفكـرة عن صاحبها عـزلاً يجعله بعضهم كأنه القتل، ويجعله بعضهم موتاً للمـؤلف. ذلك لأن المسؤولية عندهم ماتت فماتت معها الحقوق، واختلطت الأفكار والحقوق والمسؤوليات. واستمع إلى قوله سبحانه وتعالى:

﴿لا تحسبنَّ الذين يفرحون بما أتوا ويحبـون أن يُـحـمـدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهمْ بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم﴾ [آل عمران: ١٨٨]

فانظر في هذه الصورة: **﴿... ويحبّون أن يُـحـمـدوا بما لم يفعلوا..﴾** فهؤلاء جعل الله لهم عذاباً أليما: **﴿... فلا تحسبنّهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم﴾**.

وفي الحديث الشريف:

«من ادعى دعوة كاذبة ليتكثّر بها لم تزده من الله إلا قلّة»

[رواه ابن كثير في تفسيره](١)

وفي الصحيحين:

«المتشبع بما لم يُعْطَ كلابس ثوبي زور» [رواه أحمد والشيخان وابو داود](٢)

وعن أبي ذر رضي الله عنه:

«من ادّعى ما ليس له فليس منا، وليتبوأ مقعده من النار» [رواه ابن ماجة](٣)

هكذا يرعى الإسلام حقوق كل إنسان، ويحاسبه على مسؤولياته حتى الكلمة والفكرة:

«... وهل يكب الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم..»

(١) تفسير ابن كثير للآية السابقة.
(٢) صحيح الجامع الصغير وزيادته: (ط: ٣)، (ج: ٦)، (حديث: ٦٥٥١).
(٣) المصدر السابق: (ج: ٥)، حديث: ٥٨٦٦)

(٨)
حـقُّ الحرّيـة وحدودهـا [١]

الحرّيـة هي الموضوع الـذي شغل الناس على مـرّ العصور، ومـازال يشغلهم حتى اليوم. وما كان لهذا الموضوع أن يشغل النـاس على هذه الصورة لولا سببان رئيسان: أولاً: المجرمـون في الأرض الذين نزعـوا الحرّية من الناس. وثـانيا: محاولة فهم حقـوق الإنسان وحدود حـرّياتـه من خلال تصورات بشريـة، عازلين رسـالة الأنبيـاء والرسل عنهم، أو محرّفين لها لتوائم أهواءهم وشهواتهم ومصالحهم.

لـذلك شُغِل كثير ممن يُسمَّـون بـالمفكـرين والفـلاسفة والعلماء بمـوضـوع الحرّيـة للإنسـان، ووضعوا مفهومـات ثورية أو مفهومـات استسلامية، بعيـدة عن المفهوم الحق الذي جاء به محمد ﷺ وحياً من عند الله.

للإسـلام أرفع نظرة للحـرية. إنها نظرة نـابعة من عظمـة التشريع الربـاني، الذي أوحى به الله إلى أنبيـائه ورسله، وإلى خاتم الأنبياء والمرسلين محمـد ﷺ. وحين قال جان جاك روسـو في كتابه العقـد الاجتماعي «إن الناس يـولدون أحراراً..» وحين قـالت وثيقة الاستقلال الأمريكي ذلك أيضاً، وحين ادعى «فوكويـاما» في كتابه «نهاية التاريخ والرجل الواحـد» أن الناس يـولدون أحـراراً، وأن هذا التصـور نابع من الحضـارة الغربيـة أو من أمريكا، حين قال هؤلاء هذه الحقيقة الصـادقة لم ينصفوا. لم ينصفوا لأنهم تجاهلوا المصدر الحق الذي أعلن هذا المبدأ العظيم، ولم ينصفوا لأنهم مسخوه بعد ذلك بالقانون ومسخوه بالممارسة، وشـوّهوا معناه، واستخدمـوه ليطلقوا الشهوات الملتهبة من عقـالها وضوابطها، ويُفلتـوا الفجور طـوفانـاً في الأرض، ولتمتدّ العبـوديّة تحت شعـار الحرية، والمظـالم تحت شعار العدالة، والخوف والقلق تحت شعار الأمن.

إن أول من أطلق هـذا الحق هو الإسلام الـذي جاء بـه الأنبياء والمرسلـون، الذين خُتموا بمحمد ﷺ، وبـرسالته الجامعة الخاتمة المصدّقة لما بين يـديها من الكتاب ومهيمنة

(١) يـراجع كتاب: التعـامل مع مجتمع غير مسلم من خلال الانتماء الصـادق إلى الإسلام للمـؤلف - البـاب الـرابع الفصل الثاني وكتاب الشورى وممـارستها الإيمانية (ط: ٣) للمؤلف: البـاب الثالث بفصوله الخمسة وبخاصة الفصل الثالث: «الرأي».

عليه. وأطلقها مدوية عمر بن الخطاب، تلميذ مدرسة النبوة الخاتمة.

فحين اعتدى محمد بن عمرو بن العاص، حين كان والده عمرو رضي الله عنه والياً على مصر، حين اعتدى على رجل في مصر بالضرب لخلاف حول فرس في سباق، وقال له: خذها وأنا ابن الأكرمين، شكا الرجل أمره إلى خليفة المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المدينة. فبعث يدعو عَمْراً وابنه فحَضَرا. وقال للرجل: دونك الدرّة فاضرب بها ابن الأكرمين. فضربه حتى استوفى واشتفى. وقال عمر رضي الله عنه لعمرو جملته المأثورة التي تعلمها من مدرسة النبوّة، وتعلمتها منها البشرية: «**متى تعبّدْتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً**». أطلقها عمر رضي الله عنه وهو يمارسها في واقع المسلمين ممارسة إيمانية ربّانية.

ونعتقد أن هذه القاعدة انتقلت إلى أوروبا، وهي في عصورها المظلمة أو بعد ذلك، من المسلمين في الأندلس الذين ظلوا فيها قروناً طويلة ينشرون العلم والنور في أوروبا، ويمدونها بمختلف أنواع العلوم وجوهر الفكر الإنساني، أو حين كان يأتي الأوروبيون إلى الأندلس يتزوّدون من جامعاتها وعلمائها، ويتعلمون حقوق الإنسان منهم، وفضل التسامح، وحسن الرعاية والوفاء بالذمة والعهود، أو من المسلمين في الشرق من خلال احتكاكهم بالإمبراطورية البيزنطية، أو من خلال المسلمين العثمانيين، أو من خلال الحروب الصليبية.

لقد أصبح الإسلام على أبواب باريس من الغرب، وعلى أبواب فينّا من الشرق، يحمل لأوروبا أكرم معاني الحرية والحياة وأكرم معاني حقوق الإنسان. جاء الإسلام لأوروبا من الشرق والغرب نوراً فيّاضاً، فأبت أوروبا أن تأخذ الإسلام، وآثرت ظلام المادية والشرك، والمتعة المهلكة بالشهوات والظلم والإفساد.

هذه القاعدة العظيمة أعلنها الإسلام مدوِّية في تشريعاته وتطبيقاته.

لقد احترم الإسلام حرّية الإنسان حين جعل الله حق المطالبة بها والرغبة بها مغروسة في فطرة الإنسان، حتى قال عمر رضي الله عنه: «... وقد ولدتهم أمهاتهم

أحراراً». إذن اقترنت الحرّية بالولادة التي يأتي بها الإنسـان، والإنسان يولد على الفطرة كما قرّر الإسلام:

فعن ابي هريرة رضي الله عنـه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من مولـود إلا يولد على الفطرة وأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجسانـه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جـدعاء؟ ثم قـال اقرؤوا: فطـرة الله التي فطر النـاس عليها لا تبـديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون**»(١).

أذكر وأنا فتى أن والـدي حدثنا عن الثورة الفـرنسية، وروى لنا ما حـدّثهم به أحد أساتذتهم في جامعة الملكيـة في استانبول من أن أحد قادة الثورة الذين كـانوا يصوغون بيان حقوق الإنسان قال: «لتعش أنت يا محمـدﷺ إنّك أوجدت العدالة بذاتها». ولا عجب في ذلك بل العجب كل العجب في غيره. فـالإسـلام أحاط أوروبـا قـرونـاً طـويلـة، ودار الاتصال خلال هذه القـرون حرباً وسلما، فلا يُعقل أن لايكون رجـال الفكر في أوروبا قد عرفـوا عظمة العدالة والحريـة والأمن وسائر ماقرره الإسـلام من مبادىء وقواعد وتشريع، فأخذوا وتركوا، وحرّفوا وشوّهوا.

وتـوالت الآيات والأحـاديث لتصـوغ حرّيـة الإنسان، ولتكـون أكـرم حريـة حتى لاتُسْتَغَلَّ فتصبحَ فسـاداً، كما هـو الحال في الحضـارة الغـربية والنظـام العـالمي الجديـد. ووضع الإسلام مع حق الحرية مسؤوليات يجب الوفاء بها.

إن الإسـلام لايطلق شعـارات عـائمـة. ولكنـه يطلق الشعـار ويضع لـه التشريع والتفصيلات، حتى لايكون للناس على الله حجة أبداً. (٢).

(١) البخاري: ٢٣/ ٨٠/ . مسلم:٤٦/٦/٢٦٥٨. الترمذي: ٣٣/ ٥/ ٢١٣٨. أبو داود: ٣٤/ ١٨/ ٤٧١٤.
(٢) يراجع كتاب: التعامل مع مجتمع غير مسلم من خلال الانتماء الصادق إلى الإسلام: الباب الرابع الفصل الثاني من أجل تفصيلات أوسع، تحت عنوان «الحرّية في ميزان الإسلام».

(٩)
حق المساواة وحدودها [(١)]

لقد وضع الإسلام تشريعاً عادلاً دقيقا لحق المساواة يختلف كذلك عن حق المساواة لدى الغرب. فالإسلام لايساوي بين جميع الناس في جميع الأمور. فهنالك أمور تجب المساواة فيها بين الناس جميعاً. وهناك أمور لاتجوز فيها المساواة. وهذا واضح، ليس في التشريع الإسلامي فحسب، ولكنه واضح في واقع الحياة في مختلف نواحي الأرض. فالناس كلهم سواسية أمام القانون، والعدالة حق للناس جميعاً. ولكن الناس لايتساوون في الأجر مقابل العمل إلا إذا تساوت الكفاءات وتساوى العمل. ولكن حقوق الإنسان في الغرب لاتحترم هذا المبدأ إلاَّ مِنْ حيث الشعار. فبعض القوانين الأوروبية لا تساوي بين الرجل والمرأة في الأجر بالرغم من تساوى الكفاءة والعمل. والإسلام يساوى بينهما. وبعض قوانين الغرب لاتسمح للزوجة بالاحتفاظ باسم عائلتها عند الزواج بل توجب عليها أن تنتسب لعائلة زوجها. والإسلام يعطيها هذا الحق لتحتفظ بنسبها وعائلتها. وتضع بعض القوانين شروطاً حتى يحق للزوجة أن تتصرف بأموالها. والإسلام يعطي الزوجة الحق في أن تتصرف بأموالها.

ولكن قوانين الغرب ساوت بين المرأة والرجل بحرية الزنا والفاحشة والتهتّك. والإسلام يساوى بين المرأة والرجل في منع هذه الجرائم والمساواة في العقوبة لهما.

لقد فرض الإسلام تشريعاً عادلاً متوازنا للمساواة بين عباده حتى يعطي كل ذي حقّ حقّه. والله سبحانه وتعالى أعلم بحقوق كل عبد من عباده، وكل وسع. فهو أعلم بما يُشرّع لصالحهم. ولذلك نظم الأُسرة وعلاقة الزوجين، وحقوق كل منهما، وحقوق الأبناء والبنات. وضع تشريع الزواج والطلاق والميراث على أدق مستوى. إنه التشريع الرباني.

وسنَّ الإسلام تشريعاً عظيماً للرقِّ، أَعاد فيه للرقيق حقَّه الإنسانيَّ بالمعاملة الكريمة والمساعدة والطعام واللباس والشراب والعلم. وأَعاد له حقّه في أن يتعلم، وأن يسمع رسالة الإسلام فيؤمن، ووضع تشريعات واسعة تساعد على إطلاق حرية الرقيق وإعتاقهم، وجعل ذلك عبادة لله لها أجرها الكريم عنده.

---

(١) يراجع كتاب الشورى وممارستها الإيمانية (ط: ٣) للمؤلف - الباب الرابع: الاختلاف.

وجعل إعتاق الرقبة كفّارة كافية للتوبة من بعض الذنوب . وكان من نتيجة هذه التشريعات أن نبغ من الموالي علماء عظام في التاريخ الإسلامي . وكان من أوامر النبوة الخاتمة أن لايقول المسلم ياعبْدي وياعبدتي، بل يقول يا فتاي ويافتاتي، بالإضافة إلى وجوب المعاملة الكريمة في المطعم والملبس والعمل، ممالا يتمتع به كثير من «أحرار» اليوم .

لقد ساوى الإسلام بين جميع الناس أمام القضاء. ولاتزال قصة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو خليفة مع الذِّمي حينما تقدما للقضاء أما شريح بن الحارث الكندي القاضي آية في المساواة لانجد مثلها في التاريخ البشري إلا في الإسلام . والحاكم والمحكوم سواء أمام القضاء . وساوى الإسلام بين المسلمين في المجتمع الإسلامي في حق طلب العلم وحق العمل، ليبلغ كل إنسان الدرجة التى تسمح بها موهبته وطاقته . ومنع الإسلام أن يكون الغنى أو النفوذ والسلطة أو المركز الاجتماعي أو النسب مسوغا لحرمان أحد من حقه في ذلك ، أو إيثار أحد على أحد دون حق من ميزان عادل .

وجميع الحقوق والمسؤوليات يقوم بها الإنسان، ويرعاها الإنسان. لذلك حرص الإسلام على بناء الطاقة البشرية المؤمنة وإعدادها وتدريبها على معرفة الحقوق والواجبات، ومعرفة أهميتها وخطورتها من أجل سعادة الإنسان، كما ربط ذلك كله بالإيمان والتوحيد. وجعل من أمارات الإيمان والتوحيد معالي الأخلاق ومكارمها، لينتفي الحسد والغيبة والنميمة والأحقاد والكذب والافتراء والظلم كله من بين الناس، حتى يسهل أداء الواجبات وإعطاء الحقوق.

وكيف تُرْعَى الحقوق وتُؤَدَّى الواجبات حين تثور الشهوات والأَهواء والأحقاد، والتحاسد في تنافس الدنيا والصراع على المصالح الذاتية؟ كيف تقوم المساواة إذا غلب المكر والخديعة والفتنة ومساوىء الأخلاق ؟

بغير الجيل المؤمن الصادق لا تُحتَرم حقوق الإنسان، ولا تقوم حرّية، ولاتقع مساواة، ولا تُعَرف منازل الناس . ولذلك لايكتفي الإسلام بإطلاق شعارات ووضع تشريعات، وإنما يحرص على بناء الجيل المؤمن الصادق الذي يرعى أمانة الحقوق وأمانة المسؤوليات، ويؤمن بتشريعاته ويلتزمها .

ولنستمع إلى قبسات سريعة من النصوص :

فعن أبي هريرة عن الرسول ﷺ أنه قال : **«الناس ولد آدم وآدم من تراب»**

[أخرجه ابن سعد](١)

هكذا يتساوى الناس في الأصل ، فلا يستكبر أحد على أحد بماله أو مركزه أو علمه .

ويظل القرآن الكريم يذكر الإنسان بأصله وخلقه بأساليب شتى حتى تنزع منه الكبر والغرور واستعلاء الإنسان ظلماً على الإنسان :

﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون﴾ [الحجر: ٢٦]

وكذلك :

﴿وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى* من نطفة إذا تمنى﴾

[النجم: ٤٥ ، ٤٦]

ومع ما في هذه الآية الكريمة من إعجاز علميّ ، حين قرر أن الذكر أو الأنثى يكون من نطفة الرجل ، مع هذا الإعجاز العلمي ، فإنها تُذكِّر الإنسان بأصله كذلك في مرحلة من مراحل خلقه .

وكذلك :

﴿ألم نخلقكم من ماء مهين* فجعلناه في قرار مكين* إلى قدر معلوم* فقدرنا فنعم القادرون﴾ [المرسلات: ٢٠-٢٣]

ويبيّن لنا القرآن الكريم كيف أن الله قد قدّر اختلاف الناس في الرزق ، والوسع والقدرات ، واللون ، واللسان ، وغير ذلك مما نراه آيات بيّنات في واقع الحياة .

﴿... والله فضّل بعضكم على بعض في الرزق ...﴾ [النحل : ٧١]

وكذلك :

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته : (ج : ٦) - (حديث : ٦٦٧٤) .

﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾
[الأنعام : ١٦٥]

فالاختلاف بين الناس هو باب من أبواب الابتلاء يُمحَّص فيه الناس لتقوم عليهم الحجّة يوم القيامة أو تقوم لهم[1] .

ولابد أن نذكّر بالقبسات التالية من القرآن والسنة :

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً﴾ [النساء : ١]

وكذلك :

عن أبي نضرة قال حدثني من سمع خطبة النبيّ ﷺ في أوسط أيام التشريق فقال: **«ياأيّها الناس إن ربكم واحد وأباكم واحد ألا لافضلَ لعربي على عجميّ ولا لعجمي على عربيّ ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى . أبلّغت»** [رواه أحمد][2]

وكذلك :

عن حذيفة عن النبي ﷺ أنه قال : **«كلكم بنو آدم وآدم خُلِق من تراب ، ولَيَنْتَهِيَنَّ قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونُنَّ أهون على الله من الجعلان»** [رواه البزّار في مسنده][3]

هكذا ينظر الإسلام للمساواة والاختلاف حتى لاتختلط الأمور في ظلام الشعارات المضلّلة . فحين يعطي الإسلام للإنسان حقوقه التي شرعها الله له كاملة ، نرى الغرب من خلال عَلمانيّته يعطي مايريد ويحجب مايريد . يعطي الإنسان حرّية التفلّت في الجنس والخمور، ويسرق جهده وتعبه ليصّب معظمه في جيوب المجرمين ويأخذ

(١) يراجع باب الاختلاف – الباب الرابع – في كتاب الشورى وممارستها الإيمانية – (ط : ٣) للمؤلف .
(٢) الفتح الرباني: كتاب الحج والعمرة (١٠)– باب (٤)– (ج : ١٢) – (ص: ٢٢٦) .
(٣) صحيح الجامع الصغير وزيادته : (ط : ٣)–(ج : ٤)–(ص: ١٨٣)–(حديث : ٤٤٤٤) .

العامل الفتات، فلا يأخذ حقَّه قدر جهده وبذله. خلل في التقويم وخلل في العطاء.

وادعاء المساواة بين المرأة والرجل في الغرب ادعاء فاشل. فقد خسرت المرأة الكثير من حقوقها بهذه المساواة. خسرت دورها في البيت وحقَّها في الأُمومة ورعاية أطفالها. فلا الابن نال حقّه من حنان الأم، ولا الأم نالت حقها في الأمومة والرعاية، وتمزّقت الأسرة.

فقد الغرب بذلك التوازن وسلامة الموازنة، فدفع إلى المجتمع أجيالاً حرمت من حنان الأُمومة والأبوة، وصفاء الأخوة، وصلة الرحم. فقدت الأجيال هذا كله، ونزلت إلى المجتمع بما تحمل من عقد وأمراض نفسية من ناحية، وبما تحمل من رجس الفاحشة ودنسها. فكانت الجريمة من أكبر مظاهر الحياة الغربية ومجتمعاتها.

وهذا جورباتشوف يكشف لنا جانباً من جوانب هذا الخلل وآثاره في المجتمع في الاتحاد السوفياتي. إنه يقول: (.. ولكن في غمرة مشكلاتنا اليومية الصعبة كدنا ننسى دور المرأة ومتطلباتها المتميّزة المختلفة بدورها أُمّاً وربّة أُسرة. وكدنا ننسى وظيفتها التي لا بديل لها عنها مرّبية للأطفال. فلم يعد للمرأة العاملة في البناء والإنتاج وقطاع الخدمات وحقل العلم والإبداع، ما يكفي من الوقت للاهتمام بالشؤون الحياتية اليومية، كإدارة المنزل وتربية الأطفال. وحتى مجرد الراحة المنزلية. وقد تبيّن أن كثيراً من المشكلات في سلوكية الفتيات والشباب، وفي قضايا خُلقيَّة اجتماعية وتربوية وحتى إنتاجيّة، إنما يتعلّق بضعف الروابط الأسريّة والتهاون بالواجبات العائلية)(١)

ولقد أجرت مجلة «ماري كير» الفرنسية استفتاء بين أكثر من مليوني ونصف فتاة فرنسية من جميع الأعمار والمستويات عن رأيهنّ بالزواج من المسلمين ولزوم البيت فكانت الإجابة بنسبة ٩٠٪ نعم. وبيَّنَّ الأسباب كما يلي: مَلَلْنَ المساواة مع الرجل، وحالة التوتر ليل نهار، والاستيقاظ باكراً عند الفجر جرياً وراء القطار، والحياة الزوجية التي لايرى الزوج زوجته إلا عند اللزوم، والحياة العائلية التي لاترى الأم أطفالها إلا على مائدة الطعام(٢).

(١) م. س. غورباتشوف: بيرويسترويكا والتفكير الجديد لبلادنا والعالم أجمع - ترجمة د. محمد أحمد شومان مع مجموعة من الأساتذة - نشر «الفارابي» - لبنان(ص: ١٦٦).
(٢) محمد رشيد العويد: رسالة إلى حواء (ط: ٢) - (ص: ٢٠ , ٢١).

أين المساواة في هذا الجو المظلم الظالم!

و استمع إلى هذه المرأة التي امتدّ بها الانحراف الفكريّ إلى مدى بعيد، الكاتبة الفرنسيّة «سيمون دي بوفوار» في حديث لها مع مجلة New York Magazine Saturday Review وهي تقول: ستظلّ المرأة مستعبدة حتى يتم القضاء على خرافة الأُسرة وخرافة الأمومة والغريزة الأبوية [1].

مؤتمر روما الدولي لمكافحة الجوع في العالم أعلن أن عدد الجوعى في العالم بلغ (٨٤٠) مليوناً من البشر وأنهم سيعملون على انقاص العدد إلى النصف خلال عشرين عاماً، ولكن المؤتمر لم يعلن عدد المتخمين في العالم المتخمين الذين أخذوا حقوق (٨٤٠) مليوناً من إخوانهم في الإنسانية» تحت شعار حقوق الإنسان ولجانها وجمعياتها. ولم يعلن المؤتمر عدد الذين ماتوا جوعاً خلال مدة انعقاد المؤتمر العدد الذي بلغ ١٧٥ ألف إنسان [2].

أين المساواة بين المتخمين والذين يموتون جوعاً. علماً أن أعضاء المؤتمر في روما أُتخموا بالمأكولات الإيطالية التي حفلت بها الوجبات، كما صرّح بذلك وزير الزراعة الأمريكي «دان جليكمان» عن وجبة العشاء التي تكونت من أربع مراحل [2]. هذه هي المساواة في عالم المجرمين المعتدين الظالمين!

أين المساواة!

المساواة العادلة الأمينة هي في الإسلام الذي ينهى المسلمَ عن أن يبيت وجاره جائع.

(١) علي عزت بيجوفتش: الإسلام بين الشرق والغرب - (ص: ٢٥٨).
(٢) مجلة المجتمع: الثلاثاء - العدد: ١٢٢٧-١٥-٢١ رجب ١٤١٧هـ - ٢٦ نوفمبر - ٢ ديسمبر ١٩٩٦م (ص: ٤٢، ٤٣).

(١٠)

حــق العــدالــة

ليست العدالة قضية معزولـة عن واقع الحياة، ولا هي معزولة عن سائر التشريع في الإسلام. إنها قضيـة مرتبطة بسـائر الحقوق وسائر الواجبـات، ومرتبطة بـالتشريع كله في سائر الميادين.

فـالعدالـة في الأداء واجبة، والعـدالة في القضـاء، والعدالـة في الصلة مع الـرحم والقريب، والبعيـد والجار، والزوجة والأبنـاء. والعدالة في السياسـة والاقتصاد، والحرب والسلم، والصديق والعدو.

فالعـدالة مبدأ رئيس يمتـد في الحياة كلها، وتقوم عليـه حقوق ومسؤوليـات. وهو أساس الفلاح والنجاح للفرد والجماعة والأمة، وللحاكم والقائد.

وكما هي حق للفـرد يجب أن يُوفَى، فهي حـقٌّ للشعوب. وهي بـذلك واجب على الحاكم والمسؤول والقائد، عليهم أن يوفوها.

ولذلك لانستطيع أن نـوفي هنا كل مـا ورد من أحكام العدل في الإسـلام. ولكنها جليّة مفصَّلة في الكتاب والسنة، حيث يجدها المسلم هناك ممتدة مترابطة متناسقة.

إننا نأخذ هنا قبسات من الكتاب والسنة لنشير إلى القضية في بعض جوانبها.

وحين فرض الإسـلام العدالة والمساواة فيهـا بين الناس جميعاً، فقد جـاءت الآيات الكريمة تؤكد النواحي التي يُحتَمل فيها الانحراف أو الميل مع الهوى:

﴿ولايجرمنكم شنـآن قـوم أن صـدوكم عن المسجـد الحرام أن تعتـدوا وتعاونوا على البرّ والتقوى واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾ [المائدة: ٢]

ذلك لأن أساس العـدل في الإسلام ومنطلقه هو الإيمان والتوحيـد، وتطبيق منهاج الله في واقع الحياة، لينتفي الهوى.

وكذلك العدالة مع من بينك وبينهم شنآن وكراهية:

﴿يا أيها الذين آمنـوا كونوا قوامين لله شهـداء بالقسط ولايجرمنكم شنآن قوم على ألاّ تعدلوا اعدلوا هـو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعلمون﴾ [المائدة: ٨]

وكذلك العدالة مع الغني والفقير، والقريب والبعيد، ومع النفس والوالدين:

﴿يـا أيها الذين آمنـوا كونـوا قوامين بـالقسط شهداء لله ولـو على أنفسكم والـوالدين والأقـربين إن يكن غنياً أو فقيراً فـالله أولى بهما فلا تتبعـوا الهوى أن تعدلوا وإن تلْوُا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ [النساء: ١٣٥]

وكذلك العدالة بأداء الأمانات وبالحكم بين الناس:

﴿إن الله يأمـركم أن تـؤدّوا الأمـانات إلى أهلهـا و إذا حكمتم بين النـاس أن تحكموا بالعدل إن الله نِعِمّا يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً﴾ [النساء: ٥٨]

وكذلك الحكم بما أنزل الله وعدم اتباع الهوى والحذر من المُضلّين:

﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولاتتبع أهواءهـم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فـاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم و إن كثيراً من الناس لفاسقون﴾ [المائدة: ٤٩]

ولانستطيع أن نـورد جميع النصوص مـن الآيات والأحـاديث. ولكنهـا كلها تـربط قضية العدالـة والمساواة بين الناس فيها بقضية الإيمان والتوحيـد، كما تربط بهما كل قضية أخـرى، وتربط ذلك كلـه بقواعـد منهاج الله، ليكـون منهاج الله منهجـاً محكماً متناسقـاً مترابطاً كاملاً.

ونعيـد هنـا رسـالـة عمـر بن الخطـاب رضي الله عنـه إلى أبي مـوسى الأشعـري في القضاء، الرسـالة التي سبق ذكرها، الرسـالة التي خرجت من مشكاة مـدرسة النبوة ومن نور منهاج الله، لأهميتها:

من عبدالله أمير المؤمنين إلى عبدالله بن قيس: سلام عليك، أما بعد:

فإن القضـاء فريضة محكمـة، وسنّة متبعـة، فافهم إذا أدلي إليـك، وأنفذ إذا تبيّن لك، فإنـه لاينفع حق لا نفـاذ لـه. آسِ (أي سـوّ) بين النـاس في مجلسك ووجهك حتى

لايطمع شريف في حيفك، ولاييأس ضعيف من عدلك. البيّنة على من ادعى واليمين على من أنكر. والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحلّ حراماً أو حرّم حلالاً. ولا يمنعك قضاء قضيته أمس، فراجعت فيه نفسك، وهديت لرشدك أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم لايبطله شيء، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل. الفهمَ الفهمَ فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا في سنّة، واعرف الأشباه والأمثال، ثم قس الأُمور عند ذلك، واعمد إلى أحبها إلى الله، وأشبهها بالحق فيما ترى. وأجعل لمن ادّعى حقاً غائبا أو بيّنة أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه، والا استحللت عليه القضاء، فإن ذلك أنفى للشك، وأجلى للعمى، وأبلغ في العذر. والمسلمون عدول في الشهادة بعضهم على بعض، إلا مجلوداً في حد، أو مجرّباً عليه شهادة زور، أو ظنّينا في ولاء أو قرابة، فإن الله قد تولّى منكم السرائر، ودرأ عنكم الشبهات. وإياك والقلق والضجر والتأذي بالناس، والتنكر للخصوم في مواطن الحق، التي يوجب الله بها الأجر، ويحسن الذخر، فإنه من يخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ولو على نفسه، يكفه الله مابينه وبين الناس، ومن تزيّن للناس فيما يعلم الله خلافه منه شانه الله وهتك ستره، وأبدى فعله، فما ظنك بثواب عند الله عزّ وجل في عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام».

وقد نالت هذه الرسالة شروحاً ودراسات من عدد من علماء الإسلام ، وما زالت حتى اليوم في قمتها العالية من حيث الفكر والقضاء والبيان. وقد تناولها ابن قيّم الجوزية في كتابة «أعلام الموقّعين عن رب العالمين» بالدراسة والشرح في أربعمئة واثنتين وثمانين صفحة.

هذا هو القضاء وهذه هي عدالته في الإسلام، لا يرقى لهذا القضاء ولا لعدالته قضاء آخر في الأرض. ولو أن الغرب أو الشرق أرادوا الحق والوفاء بحقوق الإنسان والأمانة في أدائها، لأخذوا بهذا القضاء، ولأخذوا بهذا الدين.

نحن لم نورد إلا طرفاً بسيطاً من تفصيلات العدالة في الإسلام. وهذا مثل بيّن كيف أنَّ الإسلام لايطرح شعارات يتركها دون أن تستقر على قواعد راسخة، وتفصيلات

وافية، ودون أن تدخل في منهج متكامل تترابط فيه مع سائر القضايا .

وحين أقر الإسلام مبادىء العدل في الحكم والقضاء، حرّم الظلم كله على نفسه وعلى الناس جميعا، وأكد تحريم الظلم تأكيداً كبيراً.

﴿إن الله لايظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾ [يونس: ٤٤]

﴿إن الله لايظلم مثقال ذرّة وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾ [النساء: ٤٠]

وعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ فيما يرويه عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «ياعبادي إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً فلا تظالموا. يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم. ياعبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم. ياعبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم. ياعبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم. ياعبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجِنَّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك في ملكي شيئاً. ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم مانقص ذلك من ملكي شيئا. ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فَسَألوني فأعطيت كل واحد مسألته مانقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر. ياعبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله عزّ وجل، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه». [رواه مسلم][1]

فالعدالة في الإسلام عدالة ربانية، وضع الله سبحانه وتعالى قواعدها الراسخة، لتكون عدالة في كل الميادين، لجميع الناس والشعوب، على ميزان قسط. ومن الحديث الشريف السابق نرى كيف أن الله حرّم الظلم على نفسه، ثمَّ حرّمه بين الناس، في جميع أحوالهم. فالشرك والضلالة أكبر أنواع الظلم، وحرّم الظلم بين العباد في الطعام والكساء. والأمر من الله للناس جميعاً أن لايتظالموا في شيء. فهي مسؤوليتهم، حتى إذا

(١) مسلم: ٤٥/١٥/٢٥٧٧.

تمهيد

صدقوا وآمنوا دعوا الله فأمدهم بعونه، ومكّن لهم أسباب الهداية والرزق والكساء. والله غنيّ عن العالمين.

والعدالة مع الأبناء في الهبات أو القسمة:

فعن النّعمان بن بشير قال: تصدّق عليّ أبي ببعض ماله. فقالت أُمي عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تُشهد رسول الله ﷺ. فانطلق أبي إلى النبيّ ﷺ ليشهده على صدقتي. فقال له رسول الله ﷺ: «أَفعلتَ بولدك كلهم؟» قال: لا. قال: «**اتقوا الله واعدلوا في أولادكم**» فرجع أبي فردّ تلك الصدقة! [رواه مسلم](١)

وعن زهير بن حرب قال رسول الله ﷺ: «**إن المقسطين عند الله على منابر من نور، عن يمين الرحمن عزّ وجلّ وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا**» [رواه مسلم](٢)

وعدل الوالي الذي يسترعيه الله رعية:

عاد عبيدُ الله بن زياد معقِلَ بنَ يسار المزني في مرضه الذي مات فيه فقال معقل: إني محدّثك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ، لو علمت أن لي حياة ما حدّثتك. إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مامن عبد يسترعيه الله رعيّة، يموتُ يوم يموت وهو غاشٌّ لرعيّته، إلا حرّم الله عليه الجنّة**» [راه مسلم](٣)

والحديث الجامع لرسول الله ﷺ، عن نافع عن ابن عمر:

«**ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته. فالأمير الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته. والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عنهم. والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسؤولة عنهم. والعبد راع على مال سيده وهو مسؤول عنه. ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**» [رواه الشيخان والترمذي](٤)

ويكره أن يقضي القاضي وهو غضبان:

---

(١) مسلم: ٢٤/ ٣/ ١٦٢٣. (٢) مسلم: ٣٣/ ٥/ ١٨٢٧. (٣) مسلم: ٣٣/ ٥/ ١٨٢٩.
(٤) البخاري: ١١/ ١١/ ٨٩٣. مسلم: ٣٣/ ٥/ ١٨٢٩ الترمذي: ٢٤/ ٢٧/ ١٧٠٥.

فعن عبدالرحمن بن أبي بكرة قال: كتب أبي وكتبت له (أي كنت كاتبا له) إلى عبيدالله بن أبي بكرة وهو قاض بسجستان أن لاتحكم بين اثنين وأنت غضبان. فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لايحكم أحد بين اثنين وهو غضبان» [رواه مسلم](٥)

والعدل كذلك في البيع والشراء، والوزن والمكيال، وفي أداء الشهادة. والعدل بين الزوجات، وهكذا تمتد قاعدة العدل ونفي الظلم إلى جميع ميادين الحياة وأمورها. صغيرها وكبيرها.

ونحن هنا نذكر ملامح عامة فقط. وإلا فإن هذا الباب واسع وفقهه كبير.

مع هذا الفقه العظيم المفصّل في منهاج الله. وهذا التشريع الرباني، نعجب كل العجب من أمرين:

أولاً: كيف يتجاهل الغرب والشرق هذا الخير العظيم وهو قريب منهم وبين أيديهم لو أرادوه، وينكبّوا على تشريع بشريّ يحمي المجرمين في الأرض واللصوص، ويسمونه عدلاً، وينادون بحقوق الإنسان وهي ضائعة عندهم.

ثانيا: كيف يرغب المسلمون أنفسهم عن التشريع العظيم والنور الفيّاض، ويتبعوا سنن المغضوب عليهم والضالين.

إن هذا يكشف لنا كيف أن المسلمين مقصّرون في حق دعوتهم وحق دينهم وحق أنفسهم، وحق الله عليهم.

والإسلام ينهى عن طلب الإمارة والحرص عليها، وينهى أن يتولّاها من لا يقوى عليها، أو من يأخذها بغير حقها.

وحين جاء رسول كسرى إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ذهل وأخذه العجب حين رأى أمير المؤمنين مستلقيا دون حراسة خارج بيته فقال: عَدَلْتَ فأمنت فنمت.

وحين نتابع سيرة الرسول ﷺ وتلامذته الأبرار من الخلفاء الراشدين نجد الذروة العليا من العدالة في حياة البشرية كلها: عدالة مع الأفراد والشعوب، عدالة مع الأصحاب والخصوم، عدالة مع الطوائف والديانات الأخرى، عدالة في السلم والحرب.

---

(٥) مسلم: ٣٠/ ٧/ ١٧١٧.

الباب الثامن

نماذج ومختارات
حقوق الإنسان في الإسلام
في ميدان الممارسة والتطبيق

تمهيـــد

عرضنا في البابين السابقين نماذج ومختارات من الـوثائق التي تكشف جوانب هامة من حقوق الإنسان، ونماذج ومختارات من أهم تلك الجوانب من حقوق الإنسان.

ونريـد أن نعرض هنـا نماذج ومختارات سريعـة من وقائع وأحـداث تكشف عظمة حقوق الإنسان في الإسلام في ميدان الممارسة والتطبيق.

وكما ذكرنـا قبل عن الوثائق والـرسائل والخطب، فإننـا نذكر هنـا نماذج من حقوق الإنســان في الإسلام في ميـدان الممارسـة والتطبيق، فإنها سجلّ حـافل غنيّ يكـوّن مدرسـة عظيمة للإنسان على مدى الدهر، حريٌّ بحضارة الغرب كلها أن تقف أمام هذه المدرسة في إجـلال وخشـوع لتتعّلم منهــا، عسى أن تخفّ مـآسي الإنســان في العصر الحديث وتخف مظالمه.

لـو أردنا أن نـذكـر جميع المواقف التي تكشف عن حقـوق الإنسان في الإسـلام في ميـدان الممارسة والتطبيـق لطال بنـا الأمـر كثيراً. ولكننا نهدف إلى أخـذ نماذج سريعـة من المواقف والممارسـة لنشير إشارة سريعة، ونحـن نعلم أن هذه الأمثلـة التي نسوقهـا لاتوفي الموضوع حقّه. ولكنه ومضات!

والمسلم وهو يتلـو كتاب الله ويتدبره، وهـو يدرس سنة رسول الله ﷺ ويتـدبّرها، يجد النّور الفيّاض والحقّ المشرق لا الومضات فحسب.

ولا بد للمسلم أن يدرس هـذه القضية دراسة واسعة حين يتدبّـر الكتاب والسنة، لأنـه مكلّف أن يعـرف حقـوقه ومسـؤوليـاتـه، ومكلف أن ينهض إليهـا. ولا تفلح أُمـة لايعرف أبناؤها حقوقهم ومسؤوليـاتهم، وحدودهم التي يجب أن يقفوا عندها، وواجباتهم التي يجب أن يبادروا إليها بحوافز إيمانية.

(١)

مع سيرة الرسول ﷺ

سيرة كلها وفاء بحقوق الإنسان

ونموذج خطبته في مرض موته

إنها النبوّة! وإنها النبوة الخاتمة! فكانت سيرته ﷺ كلها خطوة خطوة وفاء بحقوق الإنسان ليكون الرسول ﷺ الأسوة الحسنة للمؤمنين وللبشرية كلها.

لقد كانت حياته وفاء بحقوق الإنسان: وفاء بحقوق أهله وأرحامه، وزوجاته وبنيه. ووفاء بحقوق الجار والصاحب في السفر والقريب والبعيد، ووفاء بحقوق الأمة كلها.

وكان الوفاء بالحقوق ممتداً إلى كافة الميادين: في السلم والحرب، في المال، الرعاية، العطف، الأمر، النهي، التفقّد، الوفاء بالعهود، الشراء، البيع، . . . ! وبإيجاز كان الوفاء بالحقوق تنفيذ شرع الله في واقع الناس!

﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾ [الأحزاب: ٢١]

ولابد من دراسة سيرة الرسول ﷺ، ليرى المسلم النموذج الأعلى لشرع الله في ميدان الممارسة والتطبيق برعاية الوحي الأمين.

وحسبنا هنا أن نذكّر بمثلين فقط من السيرة العظيمة: خطبته ﷺ في مرض موته، وموقفه مع الحباب بن المنذر في معركة بدر.

أمّا خطبته في مرض موته ﷺ فهي نموذج أعلى في تاريخ البشرية كلها، وقد جاء فيها: . . . . فمن كنتُ له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه، ومن كنتُ شتمتُ له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه، ومن أخذتُ له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه، ولايخش الشحناء من قبَلي، فإنها ليست من شأني. وإنَّ أحبّكم إليّ من أخذ منّي حقّاً إن كان له، أو حللني فلقيت ربي وأنا طيب النفس، وقد أرى أن هذا غير مغنٍ عنّي حتى أقوم فيكم مراراً»

ثم نزل فصلى الظهر، ثم رجع فجلس على المنبر فعاد لمقالته الأولى. فقام رجلٌ

فادَّعى عليه بثلاثة دراهم فأعطاه عوضها. ثم قال: «**أَيها الناس! ألا وإنّ فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة**»

ثم صلى على أصحاب أُحد واستغفر لهم. ثم قال: «**إن عبداً خيّره الله بين الدنيا وبين ماعنده، فاختار ما عنده**»...!

ألسنا بحاجة أن نعيد هذه الخطبة مراراً ومراراً، ونذْرُسَها، وندرِّسَها، ويتعلمها الكبير والصغير، وأن ننشرها بين الأمم ليعرفوا حقيقة حقوق الإنسان وجوهرها!

(٢)
رسول الله ﷺ
والحباب بن المنذر
في بدر

فخرج رسول الله ﷺ يبادرهم إلى الماء، حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزل به فقال الحباب بن المنذر: يارسول الله! أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدّمه ولانتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟! فقال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة. فقال: يارسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فتنزله، ثمّ نغوّر ما وراءه من القُلُب، ثمّ نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولايشربون. فقال رسول الله ﷺ: لقد أشرْت بالرأي.

هنا في مثل هذه المواقف تبرز أهمية الرأي، ويبرز أهميّة بناء الجيل المؤمن الذي يعرف مسؤولياته فيبادر إليها مبادرة ذاتية بحافز إيماني، ويعرف حدوده فيقف عندها: أمنزلاً أنزلكه الله.... أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟!

وهنا تبرز خصائص الرأي المؤمن، الرأي الذي يسوق معه الحجة والبرهان، والذي يقوم على العلم والخبرة.

وهنا تبرز خصائص الرأي المؤمن حين ينطلق من نيّة صادقة لله سبحانه وتعالى تريد إعزاز دين الله ونصرته.

هذا هو الرأي وحدوده:

نيّة خالصة لله سبحانه وتعالى، على وعي وإدراك

علم وخبرة متمكنة.

حجة وبرهان.

أدب وخلق

مبادرة ذاتية وحافز إيماني.

معرفة للحدودو والتزامها.

تمهيد

(٣)

عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضي الله عنه ورجـــل مــن الأعـــراب مع شريــح القـاضـــي (١)

اشترى عمر بن الخطـاب رضي الله عنه وهو أمير المؤمنين فـرساً من أحـد الأعراب ودفع قيمته ومضى به. وما كاد يبتعد حتى ظهـر في الفرس عيب عاقه عن متابعة الجري. فعاد عمر إلى الرجل وأراد ردّ الفرس واسترجاع ثمنه. رفض الرجل. فقال عمر اجعل بيننا حكماً. فقال الرجل: شُريح بن الحارث الكندي. فوافق عمر.

فلما سمع شريح مقـالـة الأعـرابي قـال لعمر: هل أخـذت الفـرس سليماً يـا أمير المؤمنين؟! قال: نعم!

فقال شريح: احتفظ بما اشتريت ياأمير المؤمنين أو ردّه كما أخذت.

فقال عمر: هذا هو القضاء! قـولٌ فصلٌ وحكم عدل. اذهب ياشريح إلى الكوفة فقد وليتك قضاءها.

وضوح من الأعرابي ودفاع عن حقّه، لم يمنعه من ذلك سلطان أمير المؤمنين ولا هيبته.

واستجـابـة من أمير المؤمنين للبحث عن الحق حتى طلب تعيين حَكَم. عـدالـة القضاء، وقول فصل، وحكْم عدل من القاضي شُريح كما وصفه أمير المؤمنين.

نزول أمير المؤمنين عند حكم القضاء.

مكافأة أمير المؤمنين للقاضي العادل بتوليته قضاء الكوفة.

حقوق محفوظة بين الجميع. ومعرفة كل منهم لحدوده وحدود غيره!

ولم يكن عمـر بن الخطـاب رضي الله عنه متعجـلاً. فقـد هداه الله لاختيـار شريح للقضاء، واستمر شريح في القضاء في خلافة عمر وعثمان وعلى ومعاوية ومن بعد معاوية حتى طلب اعفاءه من منصبه أثناء ولاية الحجاج.

---

(١) صورة من حياة التابعين: د. عبدالرحمن رأفت الباشا - الكتاب الثاني (ص: ٣٣- ٥٤).

(٤)

عمـــر أمير المؤمنين رضي الله عنه

يقضي حوائج النساء وحقوقهن (١)

كان عمـر رضي الله عنه أبا العيال. فكـان يرعى المغيّبات اللـواتي غاب أزواجهن، فيتولى تأمين حوائجهنّ من السوق مع غلمانهن وجواريهنّ.

● ● ●

وإذا مرّ بـرجل من العامة يحتـاج إلى عون أعانـه. فقد أعان رجـلاً على وضع حمله على حماره. ثم سأله من أنت؟ قـال: أنا فـلان الجهني. فقال له: إذا أتيت أبـاك فقل له إن أمير المؤمنين يقـول لك: إياك وذبـح الجداية، فإن ودَك (دسم) العتـود (ابن سنـة من أولاد المعـزى) خيرٌ من إنفحـة الجدي. فقال الـرجل: من أنت رحمك الله؟! قـال: أنـا عمر أمير المؤمنين.

● ● ●

وكـان عمـر رضي الله عنـه يعسُّ بـالليل يتفقّـد أحوال الـرعيّـة، فيقضي حـاجـة المحتاج، وينظـر في أمور الناس وأحوالهم. فيجـد عجوزاً عمياء مقعـدة لاتجد من يعينها فيوفّـر لها العون. ويجد هو وخـادمه أسلم، امرأة ومعها صبيـان وقدراً منصوبـة على نار، وصبيانها يتضاغون. فعلما أن الليل والبرد قصّرا بهم، وأن في القـدر ماء تسكت به الصبية حتى ينامـوا. ثم قالت المرأة: والله بيننا وبين عمـر! قال: ومايدرى عمـر بكم؟! قالت: يتوّلى أمرنا ويغفل عنا! فزوداها بالـدقيق والشحم وحمله إليها عمر بنفسه! ولما قال خادمه أنا أحمله عنك، قال له عمر: أتحمل عنّي وزري يوم القيامة!

امـرأة تطالـب بحقّهـا وهي تعرفـه من الإسـلام «يتولى أمـرنا ويغفل عنـا؟!» وأمير المؤمنين يدرك مسؤولياته من الإسلام فيعسُّ بـالليل. ويدرك أنه محاسب بين يدي الله يوم القيامـة فيحمل الطحين ليكفّر عما اعتبره تقصيراً في حق الـرعيّة. ومـا تركـا المرأة وأطفالها حتى طبخا لهم الدقيق وأكلوا وشبعوا وناموا، فاطمأن عمر. وقالت المرأة: كنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين! فقال لها: قولي خيراً! إذا جئت أمير المؤمنين وجدتني هناك.

(١) المرجع السابق: (ص: ٣٦٦- ٣٨٨).

تمهيد

(٥)

عمر بن الخطاب رضي الله عنه والتسوية بين الناس في الأعطيات [١]

كان أبو بكر رضي الله عنه قد سوّى بين الناس في القسم. فقيل لعمر في ذلك؛ فقال: لا أجعل من قاتل رسول اللهﷺ كمن قاتل معه. فكان يقدّم الأقرب من رسول اللهﷺ، فاذا استووا في القرابة، قدّم أهل السابقة حتى انتهى إلى الأنصار.

ولما رأى المال قد كثر قال: لئن عشت إلى قابل لأُلحقنّ آخر الناس بأولهم حتى يكونوا في العطاء سواء. فرجع إلى قول أبي بكر رضي الله عنه.

رجال أمناء! يتحرّون الحق والميزان القسط على قدر اجتهادهم. فلا تُعطَى الأُعطيات ولاتُقسَم إلا على أساس وميزان يلتزمون به. ولا يتركونه حتى يروا الحق في غيره. ذلك ليؤدوا للناس حقوقهم بأمانة وعدل، على قدر اجتهاد، دون أن يكون في الاجتهاد هوى، ولكن حجة ودليل.

فحجة أبي بكر رضي الله عنه كانت: هم اخوة أبوهم الإسلام فهم في هذا المعنى أسوة، وأجور السوابق عند الله.

وأما حجة عمر رضي الله عنه: لا أجعل من قاتل رسول الله ﷺ كمن قاتل معه.

ثم عاد عمر رضي الله عنه إلى رأي أبي بكر لما كثر المال ولم يعد هناك مسوّغ للتفريق، وقد أصبحوا كلهم أبناء الإسلام من قاتل رسول الله ومن قاتل معه، آمنوا كلهم فجمعهم الإيمان! هم إخوة وأبوهم الإسلام!

منطلق واحد هو منهاج الله وهدف واحد هو نصرة دين الله وإعلاء كلمته وإعزاز أُمة الإسلام وحماية حقوقها وحقوق أبنائها.

(١) أخبار عمر وأخبار عبدالله بن عمر: على الطنطاوي وناجى الطنطاوى - (ص: ١٠٢)

(٦)
عمر أمير المؤمنين رضي الله عنه
وحق الفطيم والرضيع
ولكل مولود

قال عبدالرحمن بن عوف: قدمت رفقة من التجار، فنزلوا المصلى، فقال لي عمر: هل لك أن تحرسهم الليلة من السرق ، أي السرقة؟

فباتا يحرسانهم، ويصلّيان ما كتب الله لهما.

فسمع عمر بكاء صبي، فتوجّه نحوه، فقال لأمه: اتقي الله وأحسني الى صبيّك. ثم عاد الى مكانه فسمع بكاءه، فعاد إلى أمّه فقال: اتقي الله وأحسني إلى صبيك، ثم عاد الى مكانه.

فلما كان من آخر الليل سمع بكاءه فأتى أمه فقال: ويحك إني لأراك أمّ سَوْء، مالي أرى ابنك لايقرّ منذ الليلة؟

قالت ياعبد الله قد أبرمتني منذ الليلة (أي أضجرتني) إني أريغه عن الفطام فيأبى.

قال: ولِمَ؟

قالت: لأن عمر لا يفرض إلاّ للفطيم.

قال: وكم له؟

قالت: كذا وكذا شهراً.

قال: ويحك لا تعجليه.

فصلى الفجر ومايستبين الناس قراءته من غلبة البكاء. فلما سلمّ قال: يابؤساً لعمر: كم قتل من أولاد المسلمين.

ثم أمر منادياً فنادى:

أن لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام، فإنا نفرض لكل مولود في الإسلام، وكتب بذلك الى الآفاق[١].

---

(١) ابن سعد: ١: ٢١٧، والمسامرات: ٢: ٤٩ - اخبار عمر وعبدالله بن عمر: ص: ٣٦٩.

(٧)

عمر أمير المؤمنين رضي الله عنه
وحق اليتيم والأرملة والمسكين
وواجب ولي الأمر

قدم على عمر بن الخطاب وفد من العراق فيهم الأحنف بن قيس، في يوم صائف شديد الحرّ، وعمر معتجرٌ (متعمّم) بعباءة يَهنَأ بعيراً من إبل الصدقة (أي يطليه بالقطران). فقال:

يا أحنف، ضع ثيابك وهلمّ فأعن أمير المؤمنين على هذا البعير فإنه من إبل الصدقة، فيه حقّ اليتيم والأرملة والمسكين.

فقال رجل من القوم: يغفر الله لك ياأمير المؤمنين، فهلا تأمر عبداً من عبيد الصدقة فيكفيك؟

فقال عمر: وأي عبد هو أعبد مني ومن الأحنف؟ إنه من ولي أمر المسلمين يجب عليه لهم مايجب على العبد لسيّده في النصيحة وأداء الأمانة.

هكذا تُرعى حقوق الإنسان في الإسلام، فأتني بمثل ذلك في أي أمة من الأمم غير أمة الإسلام!

(٨)

علي بن أبي طالب أمير المؤمنين ورجل من أهل الذمة مع شريح القاضي[١]

افتقد علي رضي الله عنه درعاً عزيزة عليه. فوجدها ذات يوم في يد رجل من أهل الذمّة يعرضها للبيع في سوق الكوفة. فقال للذمّي: هذه درعي سقطت مني عن جمل ذات يوم. فقال الرجل: هذه درعي ياأمير المؤمنين! فقال: بل هي درعي. فاختلفا، وقال الذمي: إلى قاضي المسلمين يحكم بيننا.

ذهبا إلى شريح القاضي. واستمع شريح إلى مقالة كلّ منهما. فقال شريح: يا أمير المؤمنين أنت عندي صادق ولكن لابد لك من شاهدين على صحة دعواك فقال عليّ: مولاي قَنْبَر وولدي الحسن.

فقال شريح: ولكنّ شهادة الابن لأبيه لاتجوز. فقال عليّ: رجل من أهل الجنة لاتُقبَل شهادته، وقد قال رسول الله ﷺ: الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنّة. قال شريح: بلى يا أمير المؤمنين، ولكني لا أجيز شهادة الولد لوالده. فقال عليٌّ للذمّي: خذها فليس عندي شاهد غيرهما.

وهنا ذهل الذمّي من عدالة هذا القضاء وتواضع الرجال ومعرفة كلٍّ لحدوده. فقال: أشهد أن الدرع لك يا أمير المؤمنين. يا لّله! أيقاضيني أمير المؤمنين أمام قاضيه، وقاضيه يقضي عليه لا له! فشهد الشهادتين ودخل الإسلام. وقال: إن الدرع سقطت عن جمل أمير المؤمنين الأورق وهو منطلق إلى صفّين. ثمّ وهبها عليٌّ رضي الله عنه. وحسن إسلام الرجل وقاتل الخوارج مع عليّ رضي الله عنه يوم النهروان حتى نال الشهادة.

---

(١) صور من حياة التابعين - د. عبدالرحمن رأفت باشا - الكتاب الثاني (ص: ٣٣- ٥٤).

(٩)
عمر بن عبدالعزيز أمير المؤمنين ومراكـب الخـلافـة[1]

ما كاد يتسلّم عمر بن عبدالعزيز شـؤون الخلافة حتى وافته مراكب ورجال وضجة ورجة، وصاحب الشرط مع نفر من رجال الشرطة مع زينة الاحتفال من حراب وسواها.

فنظر وقـال ما هذا كله؟! قـالوا: هذه مـراكب الخلافة أُعُدّت لك تركبهـا، وهذه رجال الشرط وصاحبهم اصطفوا لتحيتك ومرافقتك.

فقال: مالي ولها، مـالي بها حاجة فأنا رجل مـن المسلمين، أغدو كما يغدون وأروح كما يروحون.

ولما ذهب إلى المسجد قـام خطيباً فقـال: أيها الناس إني قـد ابتليت بهذا الأمر على غير رأي مني ولا طلب ولا مشـــورة من المسلمين. وإني قـد خلعت مـا في أعنـــاقكم من بيعتي. فاختاروا لأنفسكم خليفة ترضونه.

فصاح النـاس: قد اخترناك فتـولَّ أمرنا. فلما هـدأ الناس وعظ فزهّـد ورغّب وذكَّر بالموت حتى أبكى الناس.

ثم رفع صوته وقال: أيها الناس من أطاع الله وجبـت طاعته، ومن عصى الله فلا طاعة له على أحد. أيها الناس: أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم!

هذا هو سبيل الخلفاء الراشدين مدى الدهر!

رعاية لحق الأمـة، ووفاء بالعهد مع الله، وزهـد في الدنيا مع قوة وعـزيمة بالحق إن أقبلت الدنيا ، ورغبة بالدار الآخرة.

---

(١) المرجع السابق: الكتاب الأول ص (١٣٨ - ١٦٠).

(١٠)

عمر بن عبدالعزيز أمير المؤمنين وابنه عبدالملك [١]

ما كاد ينتهي عمر بن عبدالعزيز من دفن سليمان بن عبدالملك، ثم من مراسيم الخلافة التي تنحّى عنها ورفضها، حتى أخذه التعب، فاتجه إلى بيته لينال شيئاً من الراحة. فما كاد يسلم جنبه إلى مضجعه، حتى أقبل عليه ابنه عبدالملك، وكان في السابعة عشرة من عمره وقال: يا أمير المؤمنين: ماذا تريد أن تصنع؟! فقال: أي بني! أريد أن أغفو قليلاً...!

فقال ابنه: أتغفو من قبل أن تردّ المظالم إلى أهلها ؟!

فقال عمر: أي بني إني قد سهرت البارحة في عمّك سليمان... ! وإني إذا حان الظهر صليت في الناس ورددت المظالم إلى أهلها إن شاء الله.

فقال: ومن لك ياأمير المؤمنين بأن تعيش إلى الظهر؟ فألهبت هذه الكلمة عزيمة عمر وهبّ من مضجعه وضمّ ولده وقال: الحمدلله الذي أخرج من صلبي من يعينني على ديني.

ثم قام ونادى في الناس: ألا من كانت له مظلمة فليرفعها!

هذه هي المسؤولية... ! وهذه هي الحقوق! مسؤولية الوالي وحقوق الرعية في ميدان التنفيذ لا في الشعارات فحسب.

(١) المرجع السابق: الكتاب الأول - (ص: ١٣٨ - ١٦٠).

الباب التاسع

قضـــايـــا وعقبـــات

بين تيسير وتفلّت وبين مبشرات وتخدير

الفصل الأول

مجابهة التحدّيات وأهم العقبات[(١)]

١ - مجابهة التحديات بين حالات :

المسلمون اليوم أمام تحدٍّ كبير. تطلع الحضارة الغربيـة بكبرها وغرورها وسلاحها المدمّر الفتـاك، لتقدّم للنـاس الـدنيا وزينتَهـا وفتنتَها، وليـدور الصراع بين الأمم على هـذه الدنيـا وغنائمها وعَرَضِها. ويطلع الإسلام بالحق المبين ليذكِّر الناس بالآخرة ولتكون الدنيا ممرّا لها.

نهجـان مختلفـان متضـادان لا يلتقيـان. اختلف المُنطَلَق، واختلفت الأهـداف، واختلفت الدرب والوسائل، فكيف يكون اللقاء؟!

وهذان النهجان قديمان في حياة البشرية، فهما ليسا وليدين في العصر الحاضر.

قبل نـوح عليه السـلام كان النـاس أمـة واحدة على دين واحـد هو الإسـلام، فلما حدث الانحراف وبـرزت عناصر الكفر والشرك والانحراف بعث الله نوحـاً عليه السلام، فلبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعو إلى الله ورسوله، فما آمن معه إلا قليل.

ومضى التاريخ البشري بعـد ذلك يشهد قوى الانحراف والشرك، ويشهـد الرسل تترى تدعـو الناس إلى الله، وإلى الإيمان والتـوحيد، إلى الله الـذي لا إله إلا هـو وحده لا شريك له، وامتد الصراع.

فواقعنـا اليوم، بخطوطـه الواسعة، ليس جـديداً على البشرية. إن الجديـد هو في الـوسائل التي تطـورت تطوراً واسعـاً، وفي الفلسفات التـي ظهرت لتسـوّغ باطـلاً عرفتـه البشرية سـابقاً، وفي اشتـداد ضراوة الوحشيـة والإبادة العـرقية والمذهبيـة والدينيـة، وفي امتداد الجرائم. . . !

(١) تراجع الكتب التاليـة للمؤلف من أجل تفصيلات أوسع: «الصحوة الإسـلامية إلى أين ؟!»، «واقع المسلمين أمراض وعلاج».

وعندما بعث الله محمداً ﷺ ، كان الفساد ممتداً في الأرض امتداداً كبيراً، وكانت الفتنة تغطي معظم أنحاء الأرض، وكانت فارس الوثنية والامبراطورية الرومانية الشرقية النصرانية لهما السلطة والنفوذ.

فجابه النبيّ ﷺ عندما بُعِث عالماً يموج تحكمه الفتنة والفساد، حتى وصف القرآن الكريم هذه الحالة بقوله سبحانه وتعالى:

﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون* قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين* فأقم وجهك للدِّين القيِّم من قبل أن يأتي يوم لامردَّ له من الله يومئذ يصَّدَّعون * من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون﴾

[الروم : ٤١ - ٤٤]

ظهر الفساد في البر والبحر. . ! تعبير عن اتساع الفساد وامتداده. ولم يظهر هذا الفساد إلا بما كسبت أيدي الناس. إنهم هم الظالمون المفسدون الذين يقومون بما لم يأذن به الله، والذين يديرون ظهورهم لبلاغ الأنبياء.

وظهور هذا الفساد بما كسبت أيدي الناس ماضٍ على سنن ربّانية. فهو عقاب من الله سبحانه وتعالى: **﴿.. ليذيقهم بعض الذي عملوا...﴾**! إنه عقاب منه سبحانه وتعالى عسى أن يجعل الناس يفيقون من سكرة الفساد، فيرجعون إلى الحق.

ثمّ يبيّن لنا الله سبحانه وتعالى أن هذا الفساد لم يظهر آنذاك لأول مّرة. فقد سبق أن ظهر في فترات سابقة. وهذا الفساد مصاحب دائماً للشرك بالله.

إذن وقف الإسلام وجهاً لوجه مع ذلك الشرك والفساد المصاحب له. بُعث محمد ﷺ في مكة المكرّمة، حيث كانت قريش سيدة العرب، وحيث كان صناديدها سادة العرب. فوقف محمد وأصحابه أمام هذه القوة الكبيرة آنذاك وجهاً لوجه.

إن جميع وسائل الإقناع وتألف القلوب لم تُجدِ فتيلاً مع تلك القلوب القاسية. فما هو المخرج؟! وما هو الحل؟!

إن هذا الموقف متجدد في تاريخ البشرية، وفي كل مرّة كان المؤمنون يبحثون فيها عن حلٍّ ومخرج! إنه هو الموقف الذي نجابهه اليوم، والذي جابهه المؤمنون سابقاً، وسيجابهونه غداً وبعد غد إلى قيام الساعة!

إنه الابتلاء والتمحيص، سنّة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً أبداً. إنها سنة لله ماضية على حكمة لله غالبة.

سيقف المشركون دائماً في وجه الدعوة الإسلامية، لأنهم يجدون ما تدعو إليه رسالة الله ودينه، ومايدعو إليه الإيمان الصافي والتوحيد الخالص، يهزّ مراكز الطغاة الظالمين، والمعتدين المجرمين، سيجدون للدعوة الربانية أمراً كبيراً يهدّد مصالحهم الاقتصادية ومطامعهم العدوانية، ويحرمهم من الترف الظالم المستكبر على حساب الضعفاء والمستضعفين!

﴿.. كَبُر على المشركين ما تدعوهم إليه...﴾

إذن لسنا نحن اليوم أول من يجابه هذا التحدّي، فقد جابهه من كان قبلنا:

﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين﴾

إذن هذه هي الخطوة الأولى في البحث عن المخرج أمام هذا التحدي الماضي مع الزمن. إنها النظر في سير السابقين لأخذ العبرة مما حل بهم، ولمعرفة سنن الله الثابتة الماضية.

والعبرة أو السُّنَنُ واضحة في التاريخ البشري. فمن صدق الله وأوفى بعهده معه، أوفى الله له بعهده، ومن أوفى بعهده من الله؟! وماهو عهد الله؟! إن عهد الله ووعده أن ينصر من يصدق الله:

﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ [غافر: ٥١]

يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم﴾ [محمد: ٧، ٨]

وحتى ينصر المسلم ربّه يجب أن يعرف دينه على قدر وسعه الذي وهبه الله له،

حتى يعرف التكاليف التي أمره الله بها، والأساليب التي حددها الله له، وأن يستقرَّ يقينه ويسمو حتى ينهض إلى تلك التكاليف التي ينصر بها الله، وحتى يهتدي إلى المخرج أمام تلك التحديات.

ثم تقدِّم لنا الآيات الكريمة من سورة الروم، الآيات التي عرضناها قبل قليل، تقدِّم لنا المخرج والحل. إنها عرضت أولا جوهر التحدِّيات أمام المسلم وهي ظهور الفساد في البر والبحر، ثم عرضت الخطوة الأولى من أجل البحث عن كيفية مجابهة هذا التحدِّي الممتدّ مع الزمن، وذلك بالسير في الأرض والنظر في عاقبة الأمم السابقة ممن صدق وآمن، وممن فتن وأشرك. ثم عرضت الحلّ الحقَّ والمخرج الأمين:

﴿فاقم وجهك للدين القيّم من قبل أن يأتي يوم لامَرَدَّ له من الله يومئذٍ يصّدَّعون* من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلانفسهم يمهدون﴾

إن الدرب بيّن مشرق. وقد يكون فيه معاناة. ولكن المعاناة ليست مقصورة على المؤمنين وحدهم، فإن أَهل الفتنة يعانون مثل عناء المؤمنين وأشد. ولكن المؤمنين الصادقين يرجون من الله العون والمدد والنصر، يرجون من الله مالايرجوه غير المؤمنين. إن المخرج والدرب بيّن: فأقم وجهك للدين القيم!

﴿ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون وكان الله عليماً حكيما﴾ . [النساء: ١٠٤]

إن الذين يبحثون عن مخرج من هذه التحديات أو حلول يريدونها، أو «فتوى شرعية»، دون أن يبذلوا ويعانوا ويصبروا، فإنهم واهمون. إلا أن يكون ما يريدون هو التنازل والاستسلام والسقوط في الفتنة، فإنهم لن ينجوا من الابتلاء والمعاناة، ولكن المعاناة ستختلف مع أجواء الاستسلام.

في حالة الصبر والصدق مع الله سيكون هناك بذل ومعاناة لايخفّف وطأتها إلا اليقين والاطمئنان إلى رحمة الله وعونه ونصره:

﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب* الذين

آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب﴾ [الرعد: ٢٨، ٢٩]

وأما الذين يسقطون أو يتنازلون أو يستسلمون، فلن يخفِّف من معاناتهم وآلامهم إلا بعض الخدر الذي تصبّه الفتنة في العروق، والسهوة التي تغمرهم إلى حين:

﴿قتل الخرّاصون ▪ الذين هم في غمرة ساهون﴾ [الذاريات: ١١]

﴿فذرهم في غمرتهم حتى حين* أيحسبون أنما نُمدُّهم به من مال وبنين* نسارع لهم في الخيرات بل لايشعرون﴾ [المؤمنون: ٥٤-٥٦]

إلا أن فرحة الخدر قصيرة، ثم تنتهي ليبحث الإنسان عن خدر جديد، وسهوة جديدة. وهكذا يظل يلهث وهو يبحث عما ينسيه آلامه ومعاناته، حتى يأتيهم العذاب الذي يأخذهم.

إن المخرج أمام هذه التحدّيات واضح جلّي بيّنه الله لنا في كتابه المبين:

﴿فأقم وجهك للدين القيّم من قبل أن يأتي يوم لامَردّ له من الله يومئذ يصّدّعون﴾.

هذه الآيات الكريمة من سورة الروم عرضت القضيّة أولاً وجوهر التحدّي. ثم دعت المسلم أن ينظر في مصير من خَلَوْا ليجد العبرة الجلية، ثم بيّنت السبيل الذي يُتّبع مع هذه التحدّيات وأسلوب مجابهتها.

لا نرى أمام المسلم سبيلاً غير أحد هذين السبيلين. فالسبيل الأول هدى ونور من عند الله، والسبيل الثاني فتنة وضياع قد يقود إلى الشرك والكفر في آخر الدرب أو أوّله، مع آخر التنازلات أو أولها.

إن ميدان الإسلام متسع لكل الطاقات والمستويات، متسع لكل ظروف الواقع. ولكنه لايتسع للفتنة ولا للانحرافات ولا للشرك والضلال.

ومن الصعب اليوم أن نخاطب المسلمين بمصطلحات عامة عائمة، لا تحدد لهم درباً جليّا. وربما استغل بعضهم هذا المصطلح ليسوّغ لنفسه التفلّت، أو ذاك المصطلح

ليسوّغ لنفسه العدوان والظلم. وتظل مصطلحات القرآن والسنة أيسر وأكثر هدياً.

ولكن هـذه المصطلحات أو تلك يختلف أثـرها حينَ يتلقّاهـا جيل عرف دينـه من كتاب الله وسنّة رسوله. فإن مخاطبة هذا الجيل تكون لمسات من الإرشاد والتوجيه، بعد أن تمّ البناء والإعداد.

٢ - أهم العقبات:

أ - العقبة الأولى:

حين يجابه المسلم اليوم هذه التحدّيات تقف أمامه بعض الصعوبات. ومنشأ هذه الصعوبات هو المسلم نفسه ومدى سلامـة تعامله مع الواقع الذي يعيشه، والأسس التي يبني عليها موقفه وأسلوبه.

إن الله سبحـانه وتعـالى خلق عباده وهـو أعلم بأحوالهم وبما سيكـون من شأنهم. فالله سبحـانه وتعالى يعلم أن عبـاده المؤمنين سيعيشون حينـا في جو إيمانيّ طاهـر، أو جوّ مضطرب متنـاقض، أو جوّ عَلمانيّ تـائه، أو جوّ إلحادي كافـر. وإن الله سبحانـه وتعالى أرحم بعباده مـن أن يتركهم في هذه الأجواء دون أن ينير لهم الطـريق ويرشـدهم إلى سبيل قويم في كل مجتمع وفي كل واقـع. فلا شك أن الله سبحانـه وتعالى وفّر للمـؤمنين جميع ما يحتاجونـه من أسس وإرشاد لشق طريقهم ولمجابهة التحدّيـات. كيف لا؟! والله سبحانه وتعالى هو القائل:

﴿الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور....﴾[البقرة: ٢٥٧]

وهو القائل:

﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زيّن للكافرين ما كانوا يعملون﴾

[الأنعام: ١٢٢]

وهو القائل:

﴿... ومن يؤمن بالله يهد قلبَه والله بكل شيء عليم﴾ [التغابن : ١١]

وإذا كان الحال كـذلك ، فإن أول الأمر أن يلجأ المؤمن إلى ربـه حقَّ اللجوء ، وأن يتدبّر دينه وكتاب الله وسنة نبيّـه ﷺ. فإذا توانى المسلم عن هذه الخطوة الأُولى وقعد لاهياً بالأمـاني ، يبحث عن حلول هنا وهناك ، ويلقي التبعـة على هذا وذاك ، ناسياً أو متنـاسياً مسؤوليـاته الشرعيـة والتكاليف الربـانية التي أمـره الله بها ، فأيّ حل سيفيده ، وأي مخرج يمكن أن ينفذ منه؟!

معظم المسلمين اليوم يـريدون أن يحيلوا قضـاياهم ، صغيرهـا وكبيرها ، إلى العلماء والشيـوخ ، يستفتونهم في أهـون الأمور وأبسطهـا ، لايكلفون أنفسهم عنـاء ساعـة أو أقل ليعرفـوا حق الفتوى للقضيـة التي يسألـون عنها ، وهي قـريبة منهم ، في كتـاب الله وسنة رسوله ﷺ.

لا أريد أن ألوم المسلم العاديّ الآن ، وإن كان موضع لوم أيضاً. ولكنني الآن أبدأ بمن يتصدَّرون مراكـز في الدعوة ، ويطلعون على النـاس بأنهم دعاة وتجدهـم يحملون أعلى الشهادات في الطب والهنـدسة وغير ذلك . قضوا الليـالي الطويلة بالسهـر والكدّ والتعب لينالوا هـذه الشهادات في علوم لم يقل الله إنها ميسّرة ، وتركوا العلم الـذي يسّره الله للذكر ، والـذي أمر عبـاده المؤمنين أن يكـون أول علمهـم وأسـاس طلبهم وجوهـر أمـانيهم ، وأن يكون هو المرجع لهم في كل أمورهم يردّونها إليه!

﴿ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ [القمر : ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠]

﴿نحن أعلم بما يقـولون وما أنت عليهم بجبـار فذكـر بالقـرآن من يخاف وعيد﴾ [ق : ٤٥]

وكذلك :

﴿اتَّبِعوا ما أُنزِل إليكم من ربكم ولاتتَّبِعوا من دونه أولياء قليلاً ماتذكرون﴾ [الأعراف : ٣]

لقد كان المسلم في عهـد النبوّة الخاتمة يدرك أن عليه واجباً وفرضـاً فرضه الله عليه ،

ألا وهو طلب العلم وأوله الكتاب والسنّة :

عن أنس عن الرسول ﷺ : «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**»

[رواه ابن عديّ في الكامل والبيهقي في شعب الإيمان](١)

وأول العلم وأساسه في ميزان الإيمان وفي منهاج الله هو القرآن والسنة . وفي واقعنا اليوم : القرآن والسنة واللغة العربية .

لقد غاب هذا التصور عن أجيال كثيرة من المسلمين لقرون طويلة ، ولم يعد المسلم يشعر بأهمية هذا الفرض ، فأهملته الملايين من المسلمين ، وأهمله حملة الشهادات من العلوم الدنيوية ، هجروا القرآن والسنة واللغة العربية .

لقد كان تدبّر القرآن الكريم هاجس كل مسلم في مدرسة النبوة ، وكانت دراسته أمنية عظيمة لكل مسلم ، كيف لا ودعاء كل مسلم يرد فيه :

«... **واجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري**....»

في واقعنا اليوم تغيّر الهاجس وتبدّلت الأماني ، وانصرف الملايين من المسلمين عن منهاج الله -قرآناً وسنة ولغة عربية - .

كيف يرضى التصور الإيماني أن يبذل المسلم قصارى جهده وماله ووقته ليدرس اللغة الأجنبية بغية الدنيا ، ولايبذل جهداً لدراسة لغة القرآن بغية الآخرة ، وما حجّته عند الله يوم القيامة؟!

كيف يرضى الله عن رجل بذل جهده ووقته وماله من أجل علم من علوم الدنيا بغية الدنيا ، وأدار ظهره للكتاب والسنة ، فما هي حجته عند الله يوم القيامة؟! وربّما تعلّل أحدهم أنه يتلو القرآن الكريم تلاوة عادية كلما سنحت له الفرصة ، أو كل يوم أحياناً ، وفي جميع الحالات لايتدبّر ولايدرس ولايتفقّه!

هذا الجيل كيف يمكن له أن يجابه التحدّيات في مجتمعات غير مسلمة ، أو في مجتمعات غلب عليها التفلّت من الإسلام؟!

هذه هي العقبة الأولى أمام المسلم وهو يجابه التحدّيات دون أن يدري ما يأمره الله

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته : (ط : ٣) - (ج : ٤) (ص : ١٠) (حديث ٣٨٠٨) . ورواه عن الحسين بن علي الطبراني في الصغير ، والخطيب في التاريخ وعن ابن عباس رواه الطبراني في الأوسط وآخرين .

به وما هي السبيل التي حددها الله له. إنه لايدري لأنه لا يشعر أن الحل والسبيل ميسّر له في الكتاب والسنة، ولأنه لايشعر أو لايدرك حقيقة مسؤوليته في هذا الأمر.

ولابأس أن يرجع المسلم إلى العلماء فيما يستعصي عليه فهمه، وفيما هو خارج عن دائرة تكاليفه التي يأمره الله بها، بعد أن يكون قد استوفى واجبه وأوفى مسؤولياته وصدق العزم في ذلك. فكما أن على العلماء مسؤوليات وواجبات، فعليك أنت أيها المسلم مسؤولياتك وواجباتك أيضاً(١).

ب - العقبة الثانية:

إن العقبة الثانية هي الخلل في التصور لقضيّة الإيمان والتوحيد، والخلل في البذل لها، والخلل في ممارستها في الواقع. ومن المفروض أن تكون هذه هي العقبة الأولى، لولا أننا رغبنا أن نفترض من حيث الأساس سلامة الإيمان، لنبين أن سلامة الإيمان تفرض على المسلم أن ينهض إلى القرآن والسنة واللغة العربية. والقرآن والسنة كما جاءا باللغة العربية يغذيان الإيمان والتوحيد وينمّيانهما، ويظل التأثير متبادلاً، منهاج الله يروي الإيمان ويغذّيه وينمّيه، والإيمانُ يدفع المسلم إلى منهاج الله لينهل منه.

وحين يحدث هذا في حياة المسلم، فإن الدرب ينفتح له ويمتدّ ويشرق. ويسير فيه المسلم وهو يحمل زاده الضروري الذي لا غناء عنه في مسيرته على الدرب والدرب منير مشرق على صراط مستقيم.

ولقد تعرّضنا لهاتين العقبتين في فصل سابق، وكتب سابقة، ونرى أنهما بحاجة إلى الإعادة والتكرار، ومتابعة التذكير والنصيحة، حتى تلين القلوب على الحق، فتقبل على منهاج الله إقبال شوق ويقين.

إذا لم يتغلب المسلمون على هاتين العقبتين، فإننا نعتقد أن كثيراً من الجهود ستضيع، وكثيراً من الآراء ستزيد الناس اختلافاً وشقاقاً وتدابراً، أو تتحوّل إلى تخدير يسري في العروق، فيزيد الناس غفوة وسباتاً.

---

(١) يراجع كتاب بناء الأمة المسلمة الواحدة والنظرية العامة للدعوة الإسلامية - للمؤلف - الباب الخامس: «المسؤولية الفردية بين الحقوق والواجبات...».

منهاج الله بـالنسبة للمـؤمن كالماء بـالنسبة للغـرسة أو الشجـرة . فإذا انقطع الماء والريّ تأخذ الغـرسة بالذبول بعـد أن يتوقّف نموها . وإذا هجـر المسلم منهاج الله أو تلاه دون تـدبّر أو على انقطـاع، فإن الإيمان يضعف شيئاً فشيئـاً، وتتفتّح ثغرات يتسلل منهـا الوهن والانحراف وسائر أشكال الفتنة وألوانها، يغذّيها الشيطان بزهوة الدنيا وغرورها .

والخطر الكبير في هـذه الحالة أن من المسلمين من قـد لايشعر بـانحرافـه أو وهنه، ويـزيّن له الشيـاطين ذلك، شياطين الإنس والجن، فيستكبر على النصيحـة والتوجيـه، فتزيد العقبات عقبة بعد عقبة .

كيف يريد المسلم المؤمن الداعية أن ينزل إلى الميدان بغير الزاد الذي أمره الله أن يتزوّد به؟!

كيف يجابه المسلم التحدّيات دون زاد حق وعدة كافية وتحصين قوي؟!

إنه سيكون أول الضحايا لفتنة هذه التحديات، وإنه سيكون من أول دعاتها بعد ذلك!

الفصل الثاني

بين التيسير والتفلّت وبين المبشرات والتخدير

يجب أن نسأل أنفسنا، نحن معشر الدعاة والكتاب والمؤلفين والأدباء، يجب أن نسأل أنفسنا: من نخاطب؟! لمن نكتب؟! ولماذا نكتب؟!.

هنالك فرق كبير بين أن تخاطب أجيالاً واعية لدينها مصاحبة لمنهاج الله، وبين أن تخاطب أجيالاً عجمت ألسنتها فجهلت لغتها، وهجرت منهاج الله فلا تتلوه إلا لماما، أو تتلوه دون تدبّر وعي، ودون خشية وخشوع.

إن كثيراً مما تحمله الصحف والمجلات والكتب من مصطلحات عامة، تحمل جمال الرنين وحلاوة الظلال، ولكنها لاتحقق الهدف الذي يرجوه قائلها في كثير من الأحيان.

عندما قال رسول الله ﷺ فيما رواه عنه أنس: «يسِّروا ولا تعسّروا وبشّروا ولا تنفّروا» [رواه الشيخان وأحمد والنسائي](١)

أو فيما رواه أبو موسى: «يسّرا ولاتعسِّرا وبشّرا ولا تنفّرا وتطاوعا ولاتختلفا»

[رواه الشيخان وأحمد](٢)

عندما قال رسول الله ﷺ هذا الحديث كان يخاطب أبناء مدرسة النبوّة الذين فقهوا كتاب الله وتعلموا سنة النبي ﷺ.

فإذا خاطبنا عامة الناس اليوم بهذا الحديث الشريف وهم لايحملون علماً ولا فقهاً، فكيف ييسروا ولايعسروا» وكيف يبشروا ولا ينفّروا. ومن مشاهدة الواقع الحي فإنك ترى من «المثقفين» من يستخدم هذا الحديث ليتحلّل من واجبات، وليخرج به عن الحق، وليجادل ويماري.

(١) أحمد: الفتح الرباني: (ج: ١) - (ص: ١٥٢). صحيح الجامع الصغير وزيادته: (ج: ٦) ص: ٣٤١ حديث: ٧٩٤٢، وعند أحمد: سكّنوا بدل بشّروا. مسلم: ٣٢/ ٣/ ١٧٣٤.

(٢) صحيح الجامع الصغير وزيادته: (ج: ٦)- (ص: ٣٤١) - حديث ٧٩٤٣. مسلم: ٣٢/ ٣/ ١٧٣٣.

ولقد أخذ أناس بهذا التيسير وعدم التعسير في ميدان السياسة ليهوّن ضياع البلاد والعباد. لقد تحوّل استخدام هذا الحديث إلى تخدير أو تضليل من أناس لايصاحبون منهاج الله ، والله أعلم بإيمانهم.

ولقد استخدم الكثيرون الكثيرون مصطلح «الصحوة» ليُخْفوا به شروراً، وليدافعوا عن باطل، وليماروا ويجادلوا، حتى كأنَّ شعار الصحوة الإسلامية أصبح مصدر تخدير لامصدر إفاقة ويقظة. ولقد وجدت «الصحوة» عاصفة وحماسة أكثر مما وجدت من التوجيه والإرشاد. ولقد مرّت قضايا كثيرة في واقعنا اليوم تحوّلها العاطفة والممارسة إلى تخدير مع جفاف التوجيه والإرشاد. ثم نأخذ بالتلاوم بعد الفشل والهزيمة والاندحار.

إن «التبشير» يجب أن لايُخفي حقيقة الأمراض التي يعاني منها المسلمون، وأن لايحول دون وضع العلاج.

ولقد بدأت هذه الحقائق تتكشف حتى إن الدكتور يوسف القرضاوي يعلن في صحيفة الشرق الأوسط في مقالته عن الصحوة أنه يخشى على الصحوة من أبنائها لا من أعدائها! لماذا؟! لأن هنالك خللاً لم يعالج.

و «الوسطية» تعبير جميل نجد له مايسوّغه في الكتاب والسنّة. ولكننا حين نطلق هذا التعبير فمن نخاطب به؟!

هل نخاطب العامة؟! فماذا يفعلون بالوسطية؟!

هل نخاطب المثقفين المنتسبين إلى الإسلام؟! ولا زاد لهم يعينهم على معرفة الوسطيّة من غيرها؟!

هل نخاطب الدعاة أم الأحزاب أم المقاتلين؟! لقد بيّن لنا الواقع المؤلم اليوم أننا بعد عشرات السنين من البذل والعمل، نجد أن كثيراً ممن يتقدّمون في الساحة إلى العمل لا يتجاوز زادهم الشيء القليل القليل من هذا الدين! فماذا يفعلون بهذه المصطلحات التي أخذت تتزايد في واقعنا اليوم دون أن تحمل تفصيلات تعين وتوجه، ودون أن تحمل منهجاً مفصّلاً مدروساً.

إننا لاندعو إلى شيء من هذه المصطلحات العامة التي لايستطيع العدد الأكبر من المسلمين أن يستفيد منها، وهو خالٍ من الزاد الذي يحتاجه .

إننا ندعو إلى منهج عمليّ تطبيقيّ مفصّل، يحمل النظرية ومناهج التطبيق ونماذجها العملية، ولابأس عندئذ أن يحمل المنهج مصطلحات محدّدة التعريف والدلالة والتطبيق .

إننا ندعو إلى منهج يحمل النظرية والمناهج والنماذج ليقود هذا المنهج إلى الصحوة التي ننشدها، وإلى «اليقظة» التي «نحلم» بها، وإلى سلامة تطبيق الوسطية، حتى لاتتحوّل «الوسطية» نفسها إلى مغالاة أو إلى تفلت .

إننا ندعو إلى منهج يحمل التفصيلات التي تعين على بناء جيل يحمل المسؤولية التي كلفه الله بها، وينهض إلى «الأمانة» التي خلق للوفاء بها .

لقد أصبحت المصطلحات في واقعنا اليوم موضع نزاع في المفهوم . لقد انتشر مصطلح الأصولية بعد أن وفد إلينا من الغرب مع سائر بضاعته . انتشر المصطلح وكأن الغرب يريد أن يفرض علينا مفهومه، ثم يغرس في قلوبنا كراهية المصطلح ومن ينتسب إليه وما يرتبط به .

كيف يكون إسلام دون التمسك بأصوله؟! وهل للإسلام، لدين الله أصول ثابتة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها غير الكتاب والسنة؟!

من هم الأُصوليون ومن هم غير الأصوليين؟! وإني لأسأل نفسي هل أنا أصوليٌّ أم لا؟ هل علماء المسلمين الصادقون أصوليون أم لا؟!

تزاحمت المصطلحات حتى صارت هي نفسها موضع نزاع واختلاف وصراع . إن جميع هذه المصطلحات لم تقدّم العلاج لأمراضنا، ولم تشقّ الطريق أمام أمتنا، وزادتنا حيرة على حيرة .

وما زال الكثيرون من الدعاة، ومن الدعاة الذين ارتقى علمهم وزادهم، مازال الكثيرون من هؤلاء يدافعون عن أحزاب وتكتلات أكثر مما يدافعون عن الإسلام . حتى لو أنك جئت تنصح رجلاً أو تكشف زللاً لثارت ثائرته مادام الزلل يمس جماعته أو حزبه أو

زعيمه وقائده!

لقد أصبح كل فريق يـرى من الناحية العملية أنه خال من العيـوب والأخطاء ، وأنه فـوق النصح الذي أصبحـوا يسمّونـه نقـداً. نكاد نجعل من هيـاكلنـا أوثانـاً نقدّسهـا، ثم نتحدث عن الإسلام والدعوة وغير ذلك.

والمبشرات بانتصار الإسلام! إنها حقيقة لاننكرهـا. فالمبشرات آيات كريمة وأحاديث شريفة! ولكن ليست هذه هي المشكلة التي نحتاج أن نخاطب واقعنا اليوم بها وحدها!

إن الخوف الحقيقي الذي يجب أن نخـافه ليس على الإسلام. فلـلإسلام ربٌّ سينصره بجنوده حين يريد الله سبحانه وتعـالى. إن الخوف الحقيقي هو على أنفسنا يوم نقف بين يدي الله يحاسبنا على مـابذلنـاه لنصرة دين الله، وكيف كـانت نيّاتنـا، وماذا فعلنـا وماذا تـركنا؟! سيحـاسبنـا الله سبحانـه وتعـالى عن الصراع الـدائر والشقـاق الثـائر والجهود الضـائعـة؟! سيحاسبنا هـل نصَحنا وصدقنا الله في النصح؟! هل حـدّدنا أمراضنا ودرسنـاها ووضعنا لها العلاج؟! وأين هو العلاج!

أيها الناس! أيها المسلمون! أيها الدعاة! لاتخافـوا على الإسلام، فالإسلام سينتصر لا محالة بإذن الله، ولكن خـافوا على أنفسكم، فهذه مـرحلة ابتلاء وتمحيص لتقوم الحجـة يوم القيامة لكم أو عليكم!

إنها فترة ابتـلاء وتمحيص، وإن الموت حق، والبعث حـق، والسـاعـة حق، والجنـة والنار حق! إنها فترة ابتلاء وتمحيص سنة الله في خلقه:

﴿وليمحّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾ [آل عمران: ١٤١]

وكذلك:

﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كـان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي مـن رسلـه من يشـاء فـآمنـوا بـالله ورسوله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم﴾ [آل عمران: ١٧٩]

فآمنوا بالله ورسله....!

والإيمان مفاصلة وحسم، وتكاليف والتزام، ومسؤولية وحساب! فانهضوا إلى التكاليف أيها المسلمون، فهذا هو أول المبشّرات!

إذا أغرقنا في طرح التفاؤل، ولم نكشف الأخطار والأمراض، ولم نضع العلاج والحلول العمليّة، فإن التفاؤل يتحوّل إلى تخدير، أو يدفع إلى انحراف وأخطاء يقع فيها الكثيرون حين لايجدون العلاج!.

الفصل الثالث

مواقف تحتاج إلى دراسة ورأي

١ - تمهيد :

لقد كان من أخطر آثار الوهن في واقع المسلمين تسلل العَلمانية إلى العالم الإسلامي، كما عرضنا في فصل سابق، العلمانيّة المتسلّلة من الغرب، والعَلمانية الكامنة في الواقع الإسلامي.

ولقد تسللت العَلمانية إلى قلوب ونفوس في داخل العالم الإسلامي، وإلى قلوب ونفوس تقيم في العالم الغربي أو الشرقي، في أوروبا وأمريكا وروسيا وغيرها.

وأصبح من بين المسلمين أنفسهم من يدعو إلى العَلمانية بصورة واضحة جلية. وإنهم يدعون إلى العلمانية دون أن يخلعوا أنفسهم من الإسلام. ويزيد الأمر بلبلة أنّ منهم من يقول إنه لافرق بين العَلمانية ومقصود الشريعة الإسلامية.

نوجه حديثنا من حيث الأساس إلى جميع من يدعو إلى العَلمانية سواء أكان مقيماً في دار المسلمين أو في الغرب ، عسى أن يعود بعضهم عن الفتنة التي وقعوا فيها. وكذلك نوجه حديثنا إلى المسلمين ليعوا ويحذروا ويدركوا مايحاك من حولنا.

لقد سبق أن درستُ جانباً غير قليل من هذه القضية في كتابي «التعامل مع مجتمع غير مسلم من خلال الانتماء الصادق إلى الإسلام». وفى هذا الكتاب نتابع الموضوع على ضوء ما جدّ من حوار ونقاش وأحداث.

من خلال جولات متعددة في مؤتمرات إسلامية تُعْقَد في العالم الغربي برز أن بعض هذه المؤتمرات متأثر بالعَلمانية تأثراً كبيراً، حتى تكاد تتساءل أهذا مؤتمر عَلماني أم مؤتمر إسلامي!

لقد شعرت أن الفتنة كبيرة، وأن واجب النصح ضروري، وأن دراسة القضية يجب أن تكون جادة لتوفّر النصيحة الإيمانية الضرورية، ولتوفر الحجة والبيّنة معها. ولابد أن نشير إلى أن هناك مؤتمرات لايظهر تأثرها الكبير بالتصوّر العَلماني، فليس كلّ المؤتمرات الإسلامية في الغرب متأثرة تأثراً واحداً، ولكن الجميع يجابهون تحديات حقيقية قاسية، وتختلف ردود

الفعل أمام هذه التحديات من بلد إلى آخر .

وفى حديثنا هنا نخاطب الجميع ، ونخصُّ أولئك الذين فُتِنوا بالعَلمانية وانجرفوا معها لأسباب متعددة . فمنهم من انجرف نتجية ضغوط ، ومنهم من انجرف عن فتنة يخفيها ويبديها .

لم تكن الهزائم العسكرية وحدها السبب في ما أصاب كثيراً من المسلمين من إحباط . إن الهزيمة النفسية كانت كذلك بعيدة الأثر.

حين يتلفّت المسلم ليبحث عن صورة من صور القوة والعزة ، صورة من صور التطور الفنّي والعلمي ليزاحم الدول العَلمانية ، فيرتدُّ إليه طرفه مع حسرة وأسى .

وحين يراجع الجهودَ التي بُذِلت خلال القرن الأخير على الأقل ، فيجدها جهوداً كبيرة ضخمة بين مظاهرات وهتافات ، وسجون واقتتال ، ودفاع عن الأرض ابتداء من الفيليبين ، إلى كشمير، إلى جنوب شرق آسيا ، إلى الهند ، إلى فلسطين، إلى البوسنة والهرسك ، إلى الشيشان ، إلى مساحات واسعة في الأرض ، حين يراجع المسلمُ الجهودَ التي بُذِلت ويقارنها مع النتائج التي وصل إليها ، يجد درجة من الإحباط غير قليلة .

إن هذا الإحباط النفسي يسهّل الأمر على العلمانية لتتسلَّل إلى داخل العالم الإسلامي .

وحين يبحث المسلم عن مدى ما قدّمه المسلمون من نظريات إدارية ومناهج أدبية وقواعد في السياسة العصرية مما يقف على قدم المساواة على الأقل ، إن لم يكن مما يتميّز ويعلو، مع ماتقدِّمه الدول العَلمانية ، فلا يكاد يجد الإنتاج المقنع .

والمؤتمرات الإسلامية يفترض فيها أن تقدِّم دراسات جادة فيما يحتاجه المسلمون من قضايا ، وعمّا يجابهونه من مشكلات ، لتبيّن هذه المؤتمرات عظمة الإسلام وقدرته على تقديم الحلول على أساس من منهاج الله وليدور في هذه المؤتمرات تبادل وجهات النظر، ولتدور الشورى ، في جوّ من الصفاء والتعاون .

ولكنّ كثيراً من المؤتمرات لا تقدّم هذه الدراسات ، وإنما هي للدعاية أقرب ، وللتنافس بين المسلمين أدنى . ولا تدور بين الدعاة الشورى والتناصح . وتصدر البيانات المعدّة مسبقاً ، ثم يتسارع الوفود إلى مؤتمرات أُخرى ، وتضيع الجهود وتُنفَق الأموال وتمضي السنون . والمسلمون يبقون في فتنتهم وصراعهم وخلافاتهم وهوانهم .

٢ - وقفة مع بعض المؤتمرات الإسلامية :

في بعض هذه المؤتمرات الإسلامية التي تُعْقَد في بلاد الغرب، نلمس شدّة التحدي الذي يلقاه المسلم هناك، وعنف الإجراءات، وقسوة التنفيذ من السلطات المسؤولة .

قضية الحجاب التي ظهرت في فرنسا منذ أكثر من ثلاث سنوات مازالت ثائرة، يدور بها المسلمون من دائرة إلى دائرة ومن مستوى إلى مستوى، في بلد عَلماني يدّعي نظامه حرّية الأديان . القضية هي أن بعض المدارس الفرنسية فَصلت طالبات مسلمات لأنهنّ أصررن على التزام الحجاب الشرعي الذي ترفضه المدرسة . الراهبة تلبس لباس رأسها كما تشاء، واليهودية كذلك، حيث لا أحد يعترض، أما أن تلبس المسلمة حجاب الرأس فهذه جريمة كبرى . حتى هذه اللحظة فإن المشكلة لم تحلّ!

أعتقد أن هذه المشكلة على صغرها كشفت حقيقة التحدّي الذي يجده المسلم بين الديمقراطية الغربية والعَلمانيّة وحقوق الإنسان الوضعية .

العَلمانيّة تدّعي أن الدين قضيّة شخصية لا تتدخل الدولة بها ولايسمح للدين بالتدخل في شؤون الدولة . والإنسان حرٌّ في معتقده وممارسة دينه .

والقانون، كما تقول الباحثة الفرنسية «جوزلين سيزاري»، لايمانع في الحجاب الإسلامي، وإحدى دور القضاء الفرنسية المختصة أصدرت قرارها مخالفاً لموقف المدارس وموقف وزارة التعليم، وقالت إن القانون لايمنع المسلمة من حجابها الإسلامي .

والديمقراطية الغربية التي هي أخت العَلمانيّة أو ابنتها، تسمح للمرأة أن تخلع ثيابها فهذه حرّيتها الشخصية، فلا بد أن يكون من حرّيتها أن تلبس ماتشاء!

إذن أين المشكلة؟! إذا كانت العَلمانيّة والديمقراطية والقوانين لاتعارض في حجاب المرأة المسلمة، فلماذا عارضت المدرسة ووزارة التعليم وبعض الصحف؟!

التحدّي الكبير هو أنك لن تجد الإنصاف أيُّها المسلم من العَلمانيّة ولا الديمقراطية ولا قوانينها .

العَلمانيّة تجعل من أخطر قضية في حياة الإنسان، ومن الحقيقة الكبرى في الكون والحياة، قضية الإيمان والتوحيد، قضيّة شخصيّة لا علاقة للدولة بها ولا علاقة لها بالدولة .

وفي الوقت نفسه تتخذ الدول جميع الإجراءات لتدفع الناس دفعاً إلى الفجور والخمور . . إنها تجعل من الحرّية الشخصية قوة دافعة للفتنة ، ومن القانون حامياً للفتنة ، ومن وسائل الإعلام مشجعاً ومغرياً ودافعاً ، ومن واقع الحياة لهيب الجنس . . . . ! لقد غرق في هذا الفساد النصرانيُّ واليهوديُّ والعَلمانيُّ ، ويُراد للمسلم أن يقع فيه . لأن هذه الحرّية الشخصية وميدانها الواسع من الفتنة تلعب دور «التخدير» للإنسان كي ينسى الآخرة ، ويلهث خلف الدنيا ، وليستطيع المجرمون استغلال المخَدَّرين لباطل جرائمهم وعدوانهم وظلمهم في شعوب الأرض ، تحت شعارات مُزَخرفة تزيد تخدير الشعوب .

والمسلم يريد أنْ يبين أنَّ قضية الإيمان والتوحيد والدار الآخرة وما يتبع ذلك من تصور وتشريع هي أخطر قضية في حياة كل إنسان على الأرض ، وأنها هي الحقيقة الكبرى في الكون ، الحقيقة الكبرى التي يجب أن ترتبط سائر القضايا بها ، قضايا الاقتصاد والاجتماع والسياسة والتربية والعلوم والصناعة وغير ذلك! فكيف يمكن أن تلتقي العَلمانيّة مع الإسلام .

العَلمانيّة لاتستطيع أبداً أنْ تكيل بمكيال واحد ، ولا أن تزن الأمور بميزان واحد . ذلك لأن العَلمانية فلسفة الدنيا وحدها ، فلسفة المصالح المادية والمطامع العدوانيّة ، قوانينها وتصوارتها وفسلفتها صناعة بشرية وصياغة بشرية . وعندما تصطدم المصالح والمطامع والأهواء بأي قضية ، فيمكن تغيير القانون في هذا المستوى أو ذاك ، حتى لو تطلب الأمر استصدار قرار ديمقراطي علمانيّ من سُدَّة الرئاسة العليا!

ويظنّ بعض المسلمين أن الرئيس الأعلى لا صلاحيات له وأنه ملزم بنتائج الشورى التي تخرج من المجالس المختلفة برأي الأغلبية . تصّور خاطىء لامكان له في دنيا الواقع إلا في أوهام الحالمين من المسلمين . تصور خاطىءغرسة الغرب الديمقراطي في عقول بعض المسلمين فصدّقوه وجعلوه ديناً . والديمقراطية الغربية لاتجعل من المسؤول رجلاً مشلولاً . فلكل مستوى صلاحيات ومسؤوليات نابعة من التصور العَلماني .

العَلمانية والديمقراطية لاتستطيعان أن تكيلا بمكيال واحد ، لأنها صناعة دنيوية بشرية مرتبطة بالأهواء والمصالح . ولكن الإسلام دين الله ، من عند الله ، لايستطيع أحد من البشر أن يبدّل فيه ، وقد تعهد الله بحفظه ، ومن أوفى بعهده من الله؟ فالإسلام وحده هو الذي يكيل بمكيال واحد من خلال تشريع ربّاني ثابت .

للعَلمانية إذن مكاييل باطلة على قدر الأهواء والمصالح والمطامع، وللإسلام مكيال واحد حق لاباطل معه. فكيف تلتقي العَلمانيّة والإسلام؟!

الإسلام دين الله بعث الله به رسله وأنبياءه جميعهم بهذا الدين، وخُتِموا بالنبيّ الخاتم محمد ﷺ وبالقرآن الكريم الذي جاء مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب (قبل تحريفه)، ومهيمناً عليه. هذا الدين له رسالة يجب إبلاغها للناس كافّة، ويجب تأليف القلوب عليها وتوفير وسائل الإقناع بالحكمة والموعظة الحسنة، لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله الذي لا إله إلا هو. فإذا اعتُديَ عليه أو مُنِع من البلاغ والدعوة، فله أن يُغلظ على المعتدين المجرمين المفسدين الظالمين بالقول وبالجهاد بأنواعه كلها، الجهاد الذي تقوده الأُمة على نهج وخطة تنفي الارتجال والفتنة وردود الفعل الآنية.

إذن من أهم أهداف الإسلام هو تجفيف منابع الكفر من الأرض كلها بالكلمة الطيبة والحكمة والموعظة الحسنة، وبالقول الشديد الغليظ، وبالجهاد في سبيل الله. والعَلمانية حين تدّعي حرّية الأديان فإنها تنشر الفتنة والإلحاد والكفر والشرك. وهل هنالك كفر أكبر من عزل الدار الآخرة ومايرتبط بها عن التشريع والقانون والتربية وبناء الإنسان؟! فكيف تلتقي العَلمانيّة والإسلام إذن؟! وكيف يؤكّد أحد دعاة المسلمين «عدم وجود تعارض أو تناقض بين العَلمانية ومقاصد الشريعة الإسلامية».

القوانين العَلمانيّة تحرِّم ما أحلّ الله وتحلّل ماحرّم الله! فكيف تلتقي هذه العَلمانية مع الإسلام؟! وكيف يقول أحد الدعاة المسلمين وهو يردّ على الذين يدَّعون أنه يوجد تعارض بين الإسلام وقوانين الجمهورية الفرنسية، يقول: «والإسلام يمنع الخمر ولكنّ قوانين فرنسا لاتفرضه. وتعدّد الزوجات تمنعه قوانين فرنسا ولكن الإسلام لم يوجبه».

ماأشدّ هذه المغالطة! وما أسوأ تغيير تعبيرات الإسلام! فالإسلام لا نقول إنه يمنع الخمر. فكلمة يمنع لاتعطي المقصود الشرعي، ولكننا نقول إن الإسلام يحرّم الخمر. «فالتحريم» هي لفظة التشريع الإسلامي. هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرى وقعت المغالطات في الألفاظ الأُخرى. فلا نقول إن قوانين فرنسا لم تفرض الخمر ولكننا نقول إنها «أحلّته وأباحته»! ألا يوجد عند الداعية المسلم فرق بين الإباحة والتحريم؟!

وكذلك بالنسبة لتعدّد الزوجات جاءت التعبيرات من الداعية المسلم غير موفّقة تحمل مغالطات تضلّل الناس وتسيء إلى الإسلام. فإذا كانت قوانين فرنسا منعت تعدد الزوجات، فإن الله أحله وأباحه ووضع له شروطاً. فلو أراد المسلم أن يتزوّج امرأة ثانية عن قدرة واستطاعة كما أباح له الله وأحل له، فهل تسمح له القوانين الغربيّة بذلك؟! ألا يُعتبر هذا تعارضاً؟!

ومن ناحية أخرى فإن الإسلام حين حرّم الخمر اتخذ من الإجراءات ومن وسائل التربية والتعليم، ومن قوانين المجتمع مايمنع انتشار الخمر، ويساعد المسلم على تركه. أما العَلمانية فإنها تتخذ الإجراءات للتشجيع على شرب الخمر في الحفلات الرسمية، والمطاعم والبيوت، حتى إن الطفل يعتاد الخمر من طفولته. أليس في هذا تعارض وتناقض؟

وقس على ذلك الزنا واللواط وسائر أشكال الفاحشة، حيث لايلتقي التشريع الإسلامي مع قوانين العَلمانيّة التي تطلق العنان للفجور.

والإسلام هو دين الله بمعنى أنه منهج كامل للحياة في جميع ميادينها. جاء الإسلام ليحكم وينظم المجتمع كله والعَلمانيّة لاتقرّ له بذلك، فأين اللقاء وعدم التناقض؟! والإسلام يحرّم الربا والعَلمانيّة تبيحه، فأين عدم التعارض؟!

والإسلام يرفض السياسة الميكيافيلية وينهج بسياسة طاهرة نظيفة لاغدر فيها ولاخيانة، والعَلمانية ميكيافيلية السياسة. فأين التقارب؟!

والعجيب العجيب أن يقول داعية مسلم آخر قولاً أبعد في الإساءة والانحراف: إنه يقول: «... وأعتبر أنه لايمكن إلا أن نعمل من أجل إسلام منفتح ومنسجم مع المجتمع، وفيّ لمصادره الأُولى، ومندمج مع النسيج الثقافي والديني في المجتمع العَلماني».

هكذا! دفعة واحدة: اندماج مع النسيج! وأي نسيج؟ إنه النسيج الثقافي والديني! وماذا بقي بعد هذا الاندماج من الوفاء للمصادر الأولى؟! إن هذا الاندماج النسيجي يعني الانفصال الكامل عن مصادر الإسلام الأُولى.

وما هو الإسلام المنفتح؟ هل هناك إسلام منفتح وإسلام منغلق؟ والإسلام المنفتح

منفتح على ماذا؟ كـلاّ! إن هناك إسلامـاً واحداً ديناً من عنـدالله، ولكنْ هناك مسلم منفتح على الحقِّ يمارس دينه في واقعه دون تحريف ولاتبديل. وهناك مسلم منفتح على الباطل .

من أهم أهداف الإسلام أن تكون كلمة الله هي العليا ، فهل العَلمانية هذا هو هدفها أيضا؟! فإذا لم يكن، فكيف لايوجد تعارض بين العَلمانية ومقصود الشريعة الإسلامية؟!

إن المسلم ليتساءل أحياناً هل المؤتمر مؤتمر إسلامي أم مؤتمر عَلماني؟!

وفي موقف آخر يتساءل المسلم هل هذا الداعية داعيـة للإسلام أم داعية للديمقراطية الغربية؟!

لقد غالى أحد الدعاة في مديح الديمقراطيـة الغربية واستغرق حديثه وقتاً طويلاً حتى خلتُ أنـه نسي أن المؤتمر مؤتمر إسـلامي. وأنه وإخـوانـه معه دعـاة مسلمون، دعـاة إلى الله ورسوله.

لقـد قال في جملـة مـاقالـه إن الـديمقراطيـة فيهـا الحرية والعـدالـة والمساواة . وهنـا اضطررتُ للتـدخل وسألتـه : إذا كانت الـديمقراطيـة فيها الحرّيـة والعدالـة والمساواة، وإذا كانت هـذه كلها غير موجودة في الإسـلام ، لماذا نحن مسلمون؟! وإذا كانت هذه مـوجودة في الإسلام في دين ربّانيّ، فلماذا تظلُّ الدعوة المفضلة هـي الدعوة إلى الديمقراطية ، وليست إلى الإسلام؟!

وقال في جملـة ماقـاله : لـو قام حكم إسـلامي، فيمكن للنصراني واليهودي والكـافر الملحد أن يدعو كلٌّ منهم في ظل الحكم الإسلامي إلى معتقده سواء بسواء كالمسلم!

وإني لأعجب من هـذا الداعيـة المسلم الذي يـرى بأم عينيه مـايعانيه المسلمـون من فواجع ومآسٍ، تقوم بها الديمقراطيـة في العالم الإسلامي، وفي الأرض عامة، ثم يظل يتغنّى بالـديمقراطية ويدعـو لها، ويتخذ الإسلام ظهريـاً، حتى كأن الديمقراطية أصبحت لـديه هي الميزان الذي يحكم بموجبه صلاح هذه أو تلك، وليس الإسلام.

هذا من حيث الأفكـار والمبادىء ومايُدْعَى إليه في هذا المؤتمر أو ذاك . ولكننا يجب أن نؤكد أنه ليس كل المؤتمرات يقع فيها هذا الانحراف.

والمؤسف أنه مع وجـود دعاة مسلمين يسمعون هذا الانحـراف، ولكنهم لاينصحون النصيحة الواجبة، لإزالة مايعلق في أذهان الجمهور الواسع من أخطاء.

ربما يكون من بين الأسبـاب التي يلجأ إليها هـؤلاء لتسويغ هـذا الانحراف هـو سوء الأوضاع في بعـض البلاد الإسـلامية مما يـزيّن الـديمقراطية أو العلمانيّـة في نظرهـم. ولكننا لانحكم على الديمقراطية من خلال مقـارنتها مع مايحدث في العالم الإسلامي، وإنما نحكم عليهـا من خـلال ردّها إلى منهـاج الله، من خـلال مقـارنتهـا مع الإسلام الـذي أُنـزل على محمدﷺ، لا من خـلال واقع أساء المسلمـون فيه تطبيق الإسـلام أو تركـوه، وتركـوا حدوده وأحكامه.

وعلى كل حـال فقد مـارست بعض البـلاد الإسلاميـة الـديمقراطيـة، فهل نجحت الديمقـراطية والعَلمانيّـة في معالجة مشكـلاتها، أم زادتها عنفاً وفتنـة وتمزيقاً، فخسروا الـدنيا والآخرة معاً؟!

وربّما يسوّغ آخـرون العَلمانية وقبولهم بها بأنهم يعيشـون في بلادها في الغـرب ويحملون جنيستها، فأصبحوا مـواطنين فيها، تفرض عليهم «المواطنة» أن يخضعـوا لقوانين العَلمانية. ونقول لهؤلاء إنه يجب التفـريق بين الخضوع إلى مايخالف الإسلام مضطـراً وبين قبول مايخالف الإسلام والدعوة إليه وإعلان ذلك.

وهنالك فرق بين حالة فردية أو أفـراد، وبين حالة حركة أو جماعة أو منظّمة تعلن عن نفسها أنّها تمثّل الإسلام والدعوة الإسـلامية. ففي هذه الحالة لايحل لها التنازل عن شيء من الإسـلام، ولا الإعلان عن قبـولها شيئاً يخالف الإسـلام ولـو كان ظـاهريـاً، مادام الإعـلان يصدر عن جماعة تمثّل الدعوة الإسلامية ولايصدر عن فرد أو أفراد تحت ضغط الضرورة.

وفي حالة الفـرد ضرب لنا الإسلام أمثلة شتى على مواقف مختلفـة. ذلك أننا لسنا أول من يعيش بين ظهراني المشركين أو الكافرين. فلقد مـرّ المسلمون في تاريخهم الطويل بأحوال شديدة مثلما يمر به بعض المسلمين اليوم.

فبلال رضي الله عنـه أبى مسايـرة الكفار وهـم يعـذّبونـه عذابـاً شديـداً ويدعـونه إلى

الشرك . وحبيب بن زيد الأنصاري لما وقع بين يدي مسيلمة الكذاب عدوّ الله ، ومسيلمة يقول له : أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول نعم . فيقول : أتشهد أني رسول الله؟! فيقول : لا أسمع . فلم يزل يقطّعه إرباً إرباً وهو ثابت على ذلك . وعبدالله بن حذافة السهمي أحد الصحابة أسرته الروم، فجاءوا به إلى ملكهم فقال له : تنصَّر وأنا أشركك في ملكي وأزوجك ابنتي . فقال له : لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب على أن أرجع عن دين محمدﷺ طرفة عين مارجعت . فقال : إذن أقتلك . فقال : أنت وذاك . قال فأمر به فصُلب وأمر الرماة فرموه قريباً من يديه ورجليه ، وهو يعرض عليه النصرانيّة فيأبى ، ثم أمر به فأُنزل . ثم أمر بقدر فيه زيت فأحمي ، وجاء بأسير من المسلمين فألقاه فيه وهو ينظر ، فإذا هو عظام تلوح ، وعرض عليه فأبى ، فأمر به أن يُلقى في القدر، فرفع في البكرة ليلقى فيها ، فبكى ، فطمع فيه ودعاه . فقال : إنما بكيت لأنّ نفسي إنما هي نفس واحدة تلقى في القدر الساعة ، فأحببت أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي نفس تعذّب هذا العذاب في الله . وفي بعض الروايات أنه قدّم له خمر ولحم خنزير. فلم يقربه فقال : مامنعك أن تأكل؟! فقال : أما أنه قد حلَّ لي، ولكن لم أكن لأُشَمِّتَك فيّ . فقال له الملك : فقَبّل رأسي وأنا أطلقك . فقال : وتطلق معي جميع أسرى المسلمين؟ قال : نعم . فقبّل رأسه ، فأطلقه وأطلق جميع أسارى المسلمين . فلما رجع قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبدالله بن حذافة ، وأنا أبدأ . فقام فقبَّل رأسه رضي الله عنهما .

ومثل آخر: أخذ المشركون عمار بن ياسر فعَذَّبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا . فشكا ذلك إلى النبيﷺ . فقال له : كيف تجد قلبك؟! قال : مطمئناً بالإيمان . فقال : إن عادوا فعد وفيه نزل قوله سبحانه وتعالى :

﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم﴾ [النحل : ١٠٦]

هذه بعض النماذج من أفراد مسلمين وقعوا في أيدي المشركين، وتعرّضوا للعذاب الشديد .

وهذه النماذج والحالات لاتنطبق على حالة صفّ من المسلمين يُمثّل الدعوة

الإسلامية ويمثّل الإسلام . فهذه الحالة أكثر خطورة من حالة فرد أو أفراد معدودين . إن أيّ موقف تقفه حركة إسلامية أو جماعة إسلامية سيؤثر تأثيراً أبعد في مسيرة الدعوة الإسلامية . فلا بد أن تقف الموقف الذي يمثّل الإسلام حق التمثيل وأصدقه .

وفي جميع الحالات لايجوز أن نحمّل ضعفنا وهواننا على الإسلام ، ونجعل من مواقف الضعف أو التنازل أو الاستسلام فقهاً إسلامياً . يجب التفرقة بين فقه الإسلام وبين الضعف أو الانحراف . وليتحمل المسلم نفسه أو الجماعة مسؤولية مواقف الضعف .

ومن الخير أن لانعلن مواقف الضعف ، وندفع الملايين من المسلمين إلى هذه المواقف ليحسبوها أنها مواقف إسلامية إيمانية .

وكذلك هناك فرق كبير بين موقف من يُحسَب داعية أمام الناس وبين موقف المسلم العادي ، وبين موقف العالم وبين موقف المسلم العاديّ . وكلما ارتفع مستوى المسلم ومستوى مسؤولياته ، فإنه يطالب بمواقف أشدَّ التزاماً بالإسلام .

٣ - مواقف أخرى تحتاج إلى التناصح:

إذا كان ماعرضناه يُمثّل بعض الخلل الفكري ، فإن هناك خللاً في نواحي أُخرى ، يجدر أن ينصح بعضنا بعضاً بها .

فلقد رأيت في بعض المؤتمرات الإسلامية التي تُعقد في الغرب سيطرة اللغات الاجنبية وانحسار اللغة العربيّة . وربما يحرص بعض المسلمين على ذلك لإبراز أنهم مواطنون صادقون ! لا نرى بأساً أن يكون للمسلم لغة قومية غير العربية ، ولكن الذي نراه خطراً على المسلم نفسه وعلى الدعوة الإسلامية مايشبه التنازل عن اللغة العربية ، حتى جهلها الكثيرون فجهلوا بذلك الكتاب والسنة . ولا ننكر أن هذه مشكلة أمام المسلمين فرضها واقع العالم الغربي وهوان المسلمين . ولكن الذي ننكره هو عدم المبالاة بمعالجة هذه المشكلة معالجة منهجية بأساليب متعددّة . ومن أهم هذه الأساليب إثارة الحافز النفسيّ باحترام اللغة العربية وإبراز أهميتها بالنسبة للإسلام والمسلمين . ومن أهم وسائل الاحترام هو إعطاؤها حيّزاً في المؤتمرات . ففي بعض المؤتمرات كان جدول الأعمال ومعظم المحاضرات والتوصيات ، كل ذلك كان باللغة الأجنبية دون أن يكون هنالك دور حقيقي للغة العربية .

وإبرازهـذا الدور لايكلف المؤتمر كثيراً. فترجمة جدول الأعمال إلى العـربية وغيرها من الـوثائق يعتبر أمراً سهلاً لو عزم المسلمون عليه.

والأمر الآخـر هو احترام المسلمين العرب المدعـوّين لا بالمجامـلات ولكن بإطلاعهم على مايدور وعلى مايقـال باللغة الأجنبية مما هو ذو بال. فالتـوصيات لايشترك فيها المدعوون العـرب أولاً، ولا تُترجم لهم، ولا تُترجَم للجاليـة العربيـة، وإنما تُقْرأ في نهايـة المؤتمر باللغـة الأجنبية وحدها، والضيوف العرب يقِفـون مع غيرهم يستمعون ولايفقهون شيئاً. لم يكن هذا الموقف كريماً، ولا يليق بـالدعـوة الإسلامية، ولا بحق الضيـافة، ولا بـاحترام المسلم لأخيه المسلم. فمن حقِّ المسلم أن يعيَ، ومـن واجبه أن لايكـون إمّعـة ولا فـرداً في قطيع يسـاق. ومن الخير أن يرى غير المسلمين احترام المسلم لأخيه المسلم، ليحترم هو المسلمين والإسلام.

وعلى كلٍّ فمهما تكن الأخطـاء، فسيظل المسلمون بخير مـا داموا ينصحـون ويقبلون النصح، ويعالجون الأخطاء حتى لاتتراكم فيزداد شرُّها ويصعب حلّها.

ونود أن نؤكد أن هذه الحالة ليست عامة في جميع المؤتمرات الإسلامية في الغرب.

الفصل الرابع

الرأي والاجتهاد والفتوى

بين العلم والحق وبين الهوى والأماني

بعد هذا الموجز لقضية نجابهها اليوم، وهي واقع ملايين من المسلمين الذين يعيشون في بلاد الغرب، حيث تحكم العَلمانيّة بمناهجها وفكرها وفتنتها وقوانينها، بعد هذا العرض الموجز السريع، يتساءل المسلم ما هو الحل والمخرج؟!

وقبل أن نقدّم أي رأي أو فتوى، لابد أن نضع بعض الأسئلة الضرورية، حتى تعين على عرض الواقع، وحتى ندرك مدى ضرورة الرأي وأهميته. والسؤال الأول: لماذا يقيم هؤلاء المسلمون هناك ومدى ضرورة ذلك وماهي منزلة تلك الضرورة في الإسلام؟. والسؤال الثاني: هل هؤلاء المسلمون ملتزمون بالإسلام أم أنهم ينتسبون إلى الإسلام انتساب هويّة وعاطفة.

فلو أَخذنا بلداً من بلاد الغرب وفرضنا أن فيها خمسة ملايين مسلم. فما هي نسبة المسلمين الملتزمين بالشعائر وحدها، وما هي نسبة الملتزمين بالشعائر وبحمل مسؤولية الدعوة الإسلامية، وما هي نسبة المنتسبين إلى الإسلام هويّة وعاطفة دون التزام؟!

ذلك لنعرف إلى من ستصدر الفتوى ومن سيلتزمها ومن هو بحاجة إليها حقّاً؟

والسؤال الثاني: هل هؤلاء يعرفون دينهم وما هو مستوى معرفتهم. فإن كانوا لايعرفون دينهم هل هم يرغبون بمعرفة دينهم وبذل الجهد لمعرفته؟ وكم من هؤلاء المسلمين يعرفون اللغة العربيّة؟! وإن كانوا لايعرفونها فهل لديهم الحرص على معرفتها؟!

من خلال دراسة الإجابة على هذه الأسئلة نعرف بصورة واضحة واقع هؤلاء المسلمين، ثمّ ندرس ما الذي يحتاجونه؟!

هل هم يحتاجون إلى فتوى ورأي حقيقةً؟! أم أنهم يحتاجون إلى منهج يتبعونه؟! أم

أنهم بحاجة إلى دعوة إسلامية تقوم بمسؤولياتها نحوهم؟!

ومن دراستنا المبدئية لهذه الأجواء نخشى أن يكون العدد الأكبر من المسلمين ليس بحاجة إلى فتوى عن العَلمانية، فقد أصبح عَلمانيًّا مندمجاً مع المجتمع الغربيّ، جاهلاً لدينه وللغة دينه. أصبحت لغته هي اللغة الأجنبية وحياته هي الحياة الغربية، ولكنه مازال يحمل عاطفة نحو الإسلام. وفي هذه الحالة لن يكون للفتوى والرأي من أثر إلا أن يُطمئنهم ويُجيز لهم الواقع الذي هم فيه، فنظلمهم بالفتوى ونظلم الإسلام.

في هذه الحالة هم بحاجة إلى منهج علميّ يغيّر واقعهم الذي هم فيه لا أن يقرّهم عليه.

وتبقى الفئة المسلمة التي تتكون من الدعاة الملتزمين الذين تكون مسؤوليتهم الأولى أن يحرصوا على أنفسهم ليعدّوها إعداداً سليماً لحمل الأمانة التي يتصدّون لها والتي وضعها الله بناء على ذلك في أعناقهم.

إذن الخطوة الأولى قبل إصدار أي رأي هو أنه لابدَّ من دراسة واعية لواقع المسلمين في هذا البلد الغربيّ أو ذاك، ومعرفة ما يحتاجونه، وليس ما يتمنونه.

وفي جميع الحالات يجب أن لايكون الرأي أو الفتوى مطلوبة لمجرّد إقرار وضع خاطىء لايرضاه الإسلام. لابد من بيان مايرضاه الإسلام وما لايرضاه، وبيان حدود هذا وحدود ذاك.

وإذا كان يراد إصدار رأي أو فتوى تحت حجّة الضرورة، فلابد من دراسة الضرورة ومعرفة حكمها في الإسلام. فليست الرغبات دائماً ضرورة، ولا الصعوبات دائماً ضرورة.

فإذا كان هنالك مثلاً مجموعة من المسلمين في بلد غربي، لايعرفون الإسلام ولايريدون أن يعرفوه، ويلتزمون منه قدر رغبتهم وهواهم لاقدر وسعهم الذي أعطاهم إياه الله، ويقولون نحن مضطرون للإقامة في هذا البلد الغربي فأَفْتُوا لنا أيها العلماء أن نظل جاهلين بديننا وبلغة ديننا، وأن نحيا حياة الغرب ونقيم فيه! فكيف تصحّ الفتوى لهؤلاء؟! وما هي الضرورة التي تلزمهم جميعاً البقاء هناك؟! إن تشجيع هذا الواقع وتهوين أمره وإعطاء فتوى تشجّع الاستمرارية وتنفي الخطر، هو أمر أقرب إلى الإثم.

وبصورة عامة نقسم الوضع كله إلى حالتين : حالة المسلم الفرد وحالة الجماعة . أما حالة الفرد فقد أوضحناها وبيَّن لنا الإسلام موقفين : موقف بلال وحبيب بن زيد الأنصاري وعبدالله بن حذافة السهمي رضي الله عنهم ، هو موقف الصبر وتحمل الابتلاء الشديد . والموقف الآخر موقف عمار بن ياسر الذي قارب بعض ما أراده المشركون حين عذّبوه عذاباً شديداً . ولكن لا يجوز لفرد أن يقارب حدود الشرك وهو لايتعرّض لعذاب شديد . ولايجوز أن يتنازل عن شيء من دينه أبداً ، وعليه أن يمضي يدعو إلى الله ورسوله . وأخيراً عليه أن يتأكد هو بنفسه أنه مضطر للإقامة هناك ، وأن اضطراره شرعي .

أما بالنسبة للجماعة أو المنظمات أو الحركات الإسلامية ، فإن من أول واجباتها الدعوة إلى الله ورسوله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن تعلن إسلامها وتدعو إليه بعد أن تلتزمه ، لتكون مخوّلة بتمثيل الإسلام . وإنها تستطيع أن تستفيد من قوانين العَلمانية فتطالب بحقّها في التزام دينها ، مثل سائر أصحاب الديانات ، التزاماً واضحاً أمينا ، دون أن تفسد في المجتمع أو تؤذيه .

تستطيع الجماعة المؤمنة الداعية إلى الله ورسوله ، إلى الإيمان والتوحيد ، أن تمضي في دعوتها ليتأكد المجتمع الغربي من تميّز المؤمنين بالعمل الصالح والدِّين القويم .

مُهمّة المسلمين في هذه المرحلة هناك الدعوة والبلاغ والتعهد والتربية . وهذه مرحلة هامة لها فقهها وأحكامها . لانقرّ الباطل الذي هم عليه من خمر وزنا وسائر مظاهر العَلمانيّة ، ولا ندّعي أن هنالك تقارباً بين الإسلام وعَلمانيّتهم أبداً . ولكننا ندعو بوضوح وجلاء وعزيمة وتصميم ، وخلق وإصلاح .

ومن الخطأ الكبير أن يُدَّعى على الإسلام ماليس منه ، أو أن يُتَنَازل عن شيء من الإسلام . ويجب أن نتذكر أن هذه الدول العَلمانية لها تاريخ طويل مع الإسلام ، ولديهم المختصون الذين يعرفون الإسلام أكثر مما يعرفه بعض المنتسبين إلى الإسلام ، فإن أخفينا شيئاً من ديننا أو كتمناه فإننا نفقد نصر الله واحترام هؤلاء . ولايحسبنّ أحد من المسلمين أننا بالتنازل عن بعض قواعد الإسلام أو بالتقرّب إليهم بإعلان التقاء الإسلام بالعَلمانية ، نتألّفَ قلوبهم أو نستلّ حقدهم على الإسلام والمسلمين . واذكروا قوله سبحانه وتعالى :

﴿ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفّاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ماتبيّن لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير﴾ [البقرة: ١٠٩]

وكذلك :

﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من وليّ ولانصير﴾
[البقرة: ١٢٠]

إن أساس الفقه لهذه الحالة أن تكون الجماعة المسلمة هناك أمّة واحدة لا أحزاباً وشيعاً. وأن يكونوا دعاة إلى الله ورسوله، إلى الإيمان والتوحيد، إلى القرآن والسنة، إلى الإسلام دين الله، وأن لايكونوا دعاة إلى الفرق والأحزاب، وأن يكون ولاؤهم الأول الحق وعهدهم الأول الحق مع الله سبحانه وتعالى، وأن يكون حبهم الأكبر لله ولرسوله، وأن يتعهّدوا أولاً أنفسهم في دراسة الكتاب والسنة وتدبّرهما و إتقان اللغة العربية، ثم يتعهَّدوا من يدعونه.

ولنتذكر أن محمداً ﷺ بدأت دعوته وهو مقيم بين الكافرين الذين يناصبونه العداء الشديد، وآذوه وآذوا أصحابه. وكان موقفهم جميعاً كما علمهم الله سبحانه وتعالى:

﴿قل يا أيها الكافرون* لا أعبد ما تعبدون* ولا أنتم عابدون ما أعبد* ولا أنا عابد ما عبدتم* ولا أنتم عابدون ما أعبد* لكم دينكم ولي دين﴾

[الكافرون: ١-٦]

وستظل محاولة المشركين والكافرين أن يفتنوا المسلمين عن دينهم. هذا هدف ثابت عندهم وعند من ينتمون إلى النصرانية واليهودية، حتى ولو سَمَّوا أنفسهم عَلمانيين.

﴿مايودّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزّل عليكم من خير من ربكم والله يختصّ برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ [البقرة: ١٠٥]

﴿ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند

أنفسهم من بعد ماتبيّن لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير﴾ [البقرة : ١٠٩]

ولقد حاولوا أن يفتنوا الرسول ﷺ، كما هم يحاولون اليوم مع المسلمين. فنزل الوحي يبيّن الحكم للرسول ﷺ وللمسلمين أبد الدهر:

﴿وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذاً لاتخذوك خليلا* ولولا أن ثبّتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلاً* إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثمَّ لاتجد لك علينا نصيراً﴾ [الإسراء: ٧٣- ٧٥]

وفي جميع الحالات لايحلّ الركون إلى الظالمين ولا الاطمئنان إلى مايدعونه من عدالة، بعد أن كشف الله لنا خبيئة النفوس، وكشف التاريخ تفجّر الأحقاد:

﴿فاستقم كما أُمرت ومن تاب معك ولاتطغوا إنه بما تعملون بصير* ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثم لا تُنصَرون* وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين* واصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين* فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين﴾ [هود: ١١٢- ١١٦]

من هذه الآيات الكريمة وأمثالها، من الكتاب والسنة، تخرج الفتوى ويدور الاجتهاد. والآيات الكريمة جليّة واضحة ميسّرة للذكر، تعين المسلم الذي امتلأ قلبه بنور الإيمان وصدره بالآيات والأحاديث، على أن يشقَّ دربه في كل واقع.

وانظر إلى بلال وحبيب بن زيد الأنصاري وعبدالله بن حذافة السهمي وعمار بن ياسر رضي الله عنهم أجمعين كيف اجتهدوا في موقف كانوا فيه تحت سطوة المشركين، لم يحتاجوا إلى عالم يفتي فقد كانوا هم العلماء بصحبتهم الدائمة للكتاب ولرسول الله ﷺ ومدرسته. ولْنَذْكُرْ كذلك قول الله سبحانه وتعالى :

﴿أهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمْتَ عليهم غيرا المغضوب عليهم ولا الضالّين﴾ [الفاتحة : ٦، ٧]

إذا كان هذا هو الدُّعاء الذي أُمرْنا به ، وإذا كان المغضوب عليهم هم اليهود ، والضالّون هم النّصارى ، فكيف يُجيزُ مسلم لنفسه أن يندمج مع النسيج الثقافيّ والدينيّ لهؤلاء .

ونوجز أهم ما عرضناه في نقاط سريعة للتثبيت والتركيز:

١ - لابد من دراسة الواقع الذي يشكو منه المسلمون، لنرى مدى التزام المسلمين لدينهم ووعيهم له، ومدى الإيذاء الذي يتعرّضون له، ومدى ضرورة إقامتهم هناك .

٢ - يجب أن لاتكون الفتوى ولا الرأي لإقرار باطل يرفضه الإسلام، ولا للاستجابة لأمانيّ ورغبات، ولا لإخفاء العيوب والأخطاء وتسويغها .

٣ - يجب أن تهدف الفتوى والرأي إلى عون المسلمين على الثبات والبذل والصبر وإلى ماهو أقرب للتقوى .

٤ - أن يكون المسلمون في كل موقع أمة واحدة تنهض إلى تبليغ رسالة الله ودينه إلى الناس، ثم تعهدهم عليه، للمضيّ على صراط مستقيم إلى الجنّة .

٥ - على الأمة المسلمة في كل موقع أن تحرص على تعهّد أبنائها أولاً لينهض كل فرد إلى صحبة الكتاب والسنة وتدبرهما صحبة عمْر وحياة في دراسة منهجية، وإتقان اللغة العربية .

٦ - عدم التنازل عن شيء من دين الله، وعدم التغيير والتبديل .

٧ - الوضوح في الدعوة والبلاغ بالكلمة الطيبة والحكمة الحسنة مستفيدين من قوانين العَلمانية والديمقراطية .

٨ - عدم القول بأن العَلمانية أو الديمقراطية لاتختلف عن مقصود الشريعة الإسلامية ، فالاختلاف كبير جداً، ولا القول بإمكانية الاندماج في النسيج الثقافي والديني، ولا مايشبه ذلك، ولا إعلان ذلك ففيه فتنة وضلال .

٩ - وأخيراً إذا خيّر المسلم بين دينه وبين التعذيب أو القتل أو الطرد، فلينظر هو نفسه في حاله، ليلقى الله على ما اجتهد واختار، وليتحمل مسؤوليته، على أساس من الكتاب والسنة .

١٠ - ولايجوز اتخاذ «المواطنة» حجّة للتبديل في دين الله، ولا سبباً لطلب فتوى تقرّ الباطل أبداً، ولا أن نحمّل أخطاء المسلمين وضعفهم وهوانهم على الإسلام.

إن حكم الإسلام واضح. فقبل أن يحرص المسلم على «المواطنة» والاندماج عليه أن يحرص على أن يدرس القرآن والسنة ويتدبرهما ويسعى جهده ليحرص على الجنّة والدار الآخرة.

ونذكّر أخيراً باوائل الآيات التي سبق ذكرها، ففيها نور وهدى :

١ - ﴿ **قل ياأيها الكافرون * لاأعبد ماتعبدون...** ﴾

٢ - ﴿**لكم دينكم ولي دين...**﴾

٣ - ﴿**مايودّ الذين كفروا أن ينزّل علكيم من خير من ربكم...**﴾

٤ - ﴿**ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفّارا...**﴾

٥ - ﴿ **ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم...** ﴾

٦ - ﴿**وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره..**﴾

٧ - ﴿ **فاستقم كما أُمرت ومن تاب معك...** ﴾

٨ - ﴿**ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار...**﴾

٩- ﴿**أهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين** ﴾

إن القضية الأولى بالنسبة للمسلمين الذين يعيشون هناك، والذين يُعتبرون دعاة عاملين منهم حملة الشهادات العالية، إن القضية الأولى بالنسبة لهم هي أنه يجب أن يكونوا دعاة عاملين حقيقة يحملون مسؤولية دعوة الناس إلى الله ورسوله، إلى الإيمان والتوحيد، إلى الإسلام دين الله.

فإذا دار الحوار بينهم وبين أحد من أهل الكتاب أو المشركين، فيجب أن تكون الدعوة إلى الله ورسوله هي أساس الحوار وعموده الفقري. يجب أن يكون الحوار دعوة

بالكلمة الطيبة والحكمة والموعظة الحسنة ليتألف المسلم قلوب الناس على الحق، وليخرجهم من الشرك إلى نور الإيمان والتوحيد، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده. وهذا «الحوار» في مصطلح الإسلام هو «الدعوة» إلى الحق، لا التنازل أو التبديل:

﴿ادعُ إلى سبيل ربك...﴾ ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله...﴾ ذلك لأنّ المسلم يحمل حقاً آمن به والتزمه ولا مجال لديه ليغيّر رأيه إلا إذا أراد الله أن يُضلّ عبداً من عباده لحكمة يراها. المسلم يحمل حقاً يؤمن به فهو يدعو إليه. ومن خلال الدعوة والبلاغ لابأس أن يستمع المسلم «للرأي الآخر» ليبيّن المسلم للآخر حقيقة الإسلام بأصدق أسلوب وأطيبه، وليتألف قلبه على الحق ويرغبه فيه.

ومن خلال ظلال كلمة «الحوار» جاء تعبير «تقريب الديانات» أو تقريب وجهات النظر بين الديانات. فكيف يمكن تقريب وجهات النظر بين حق وباطل ؟!

ولقد استمع رسول الله ﷺ للمشركين وأهل الكتاب ثم ردّ عليهم جميعاً بما أوحى الله إليه في كتابه الكريم، دون أي محاولة لتقريب وجهات النظر، وإنما في محاولة لإقناعهم بالحق وبأنهم على باطل. والأمثلة على ذلك كثيرة في القرآن الكريم. ونأخذ مثلاً واحداً من كتاب الله:

﴿الحق من ربك فلا تكن من الممترين* فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكافرين* إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله و إن الله لهو العزيز الحكيم* فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين* قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾

[آل عمران: ٦٠- ٦٤]

نعم! تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم...!

فإن تولّوا ولم يقبلوا هل نتنازل عن ديننا أو عن شيء منه؟! وما هو حكم الإسلام؟!

فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون!

وقد يكون جدالاً، فبالحسنى من حيث الأساس، إلا مع المعتدين الظالمين:

﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أُنزل إلينا وأنزل إليكم و إلهنا و إلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾ [العنكبوت: ٤٦]

إنها الدعوة وتبليغ الرسالة سواء أكان هنالك حوار أم جدال. هذه هي ميزة المسلم الداعية، يعرف مسؤوليته الأولى، وعلى ضوئها يقرر مواقفه كلها، يقبل أو يرفض، ويظل يردد **﴿فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾**!

ويردّد **﴿و إلهنا و إلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾**!.

ويردّد: **﴿أهدنا الصراط المستقيم • صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾**

ويردّد: **﴿قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون﴾**

الفصل الخامس

المخرج والحلول[1]

إن ما عرضناه في الفصول السابقة من رأي واجتهاد قدّمناه مع أدلته من الكتاب والسنة بنقاط محدّدة.

ولكن الواقع اليوم يُعرِّض المسلمين لمواقف متجددة تختلف من منطقة إلى أخرى ومن حين إلى حين. ولايستطيع المسلم، أو لا يَحِقُّ له، أن يظلّ معتمداً على غيره في الرأي في كل صغيرة وكبيرة. فهناك قضايا يجب عليه أن يتحمل مسؤوليتها كما يتحمل الطبيب مسؤولية معالجة المريض الذي بين يديه، وكما يتحمل المهندس مسؤولية سلامة البناء الذي يقيمه. وفي الإسلام لا يوجد طبقة خاصة من رجال الدين يكونون هم وحدهم العالمين بالإسلام و يكون باقي الأُمة جهلاء. فالعلم، كما سبق وبيَّنَّا بالآيات والأحاديث، فريضة على كل مسلم، وليس وقفاً على طبقة محدَّدة. ولكن الإسلام يدعو لرعاية المواهب وتنميتها لتُنْزَل منازلها، وتقوم بمسؤولياتها التي تزيد مع قوة الموهبة.

فمن وهبه الله القدرة على دراسة الطب الذي لم يقل الله إنه يسّره كما يسّر القرآن للذكر، فعليه واجب أن يدرس القرآن والسنة على قدر وسعه وطاقته دراسة منهجية صحبة عمر وحياة. وكذلك يجب على كل مسلم أن يستوعب من دينه على قدر وسعه الذي وهبه الله له، والذي سيحاسبه عليه يوم القيامة.

ولكن المسلم يعود إلى من هو أعلم منه فيما يُشكل عليه من قضايا، أو في أي قضيّة في صورة مرحليّة إلى أن يوفي عهده مع الله بتدبّر الكتاب والسنة.

من أجل ذلك، نقدّم النظرية العامة للدعوة الإسلامية بموجزها وبتفصيلاتها لتكون عوناً للمسلم على معالجة واقعه والنهوض لمسؤولياته التي كلفه الله بها من ناحية، ولتكون أساساً يلتقي عليه المؤمنون الصادقون العاملون ليجابهوا تحديات الواقع على أسس ربّانية.

---

(١) تراجع دراسة النظرية العامة للدعوة الإسلامية من عدة كتب للمؤلف أهمها: «النظرية العامة للدعوة الإسلامية نهج الدعوة وخطة التربية والبناء»، «بناء الأمة المسلمة الواحدة والنظرية العامة للدعوة الإسلامية وغيرها.

ويمكن أن نشير هنا إلى النظرية العامة للدعوة الإسلامية إشارة سريعة بنقاط :

أولاً : القاعدة الصلبة : تقوم النظرية العامة على قاعدة صلبة هي قضية الإيمان والتوحيد، فهي جوهر الدعوة الإسلامية، وهي الهدف الثابت الأول، وهي الحقيقة الكبرى في الكون والحياة.

ثانيا : الركنان الرئيسان : ينهض على القاعدة الصلبة ركنان رئيسان هما : المنهاج الرباني، والواقع من خلال المنهاج الرباني.

ثالثا : المشكلات الأربع الرئيسة : الخلل في التصور لقضية الإيمان والتوحيد والبذل لها، الخللُ في العلاقة بمنهاج الله وهجرُه، الخلل في فهم الواقع من خلال منهاج الله، الخلل في الممارسة الإيمانية. وأي مشكلة أُخرى أو خلل آخر فإنه يرتبط بواحدة من هذه المشكلات الأربع أو بأكثر أو بها كلها.

رابعاً : عناصر التنفيذ : وهي العناصر التي لابد منها للعمل في الميدان ونوجز عناصر التنفيذ بالنقاط التالية :

أ – الأسس الأربعة التي كانت المشكلات الأربع الرئيسة، والتي تتحوّل لدى الداعية إلى أسس أربعة تنطلق منها سائر العناصر.

فالأسس الأربعة هي : سلامة التصور للإيمان والتوحيد والبذل له، تدبر منهاج الله والعمل به، ميدان الجهاد في سبيل الله ، وعي الواقع من خلال منهاج الله، سلامة الممارسة الإيمانية.

ب – التخطيط العام للدعوة الإسلامية.

جـ – التخطيط لكل ميدان تخوضه الدعوة الإسلامية : ميدان الدعوة والبلاغ، ميدان التربية والبناء والإعداد، ميدان الأدب الملتزم بالإسلام، ميدان التدريب على الممارسة الإيمانية، ميدان الجهاد في سبيل الله ، كل ميدان جديد تخوضه الدعوة.

د – الإدارة والنظام.

هـ – ميزان المؤمن.

و - المؤسسات الإيمانية.

ز - التقويم الدوري.

ح - النموّ والتطور على أساس الإيمان والتوحيد ومنهاج الله .

ونجد هـذه الأجزاء موضحـة في الرسم الهيكلي المرفق. ونشير إلى أن العنصر الأخير من عنـاصر التنفيذ، ألا وهو عنصر النمـوّ والتطور، عُـرض في أكثر من كتـاب من كتب الدعوة، ورأينا أن ندخله هنا كعنصر من عناصر التنفيذ وكمثل على النمو والتطور.

إننا نؤمن أن الجهد البشري في رعـاية الإيمان والتوحيد والمنهاج الربـاني -قرآنا وسنة ولغة عربية- هو جهد نام متطور على أسس ربانية، تحفظه من الانحراف.

وقد عـرضنا خصـائص الممارسة الإيمانيـة في كتاب : «التـوحيد وواقعنـا المعاصر»، وعرضنـا نظريـة النمو والتطور في كتـاب : «تقويم نظريـة الحداثة ومـوقف الأدب الملتزم بالإسلام منها».

من هذه النظرية العامـة، بأجزائها وتفصيلاتها، يمكن أن يسهل على المسلم إيجاد الحلول لما يعترضـه من قضايـا ومشكلات بـالعودة إلى منهـاج الله عودة صـادقة عن إيمان ويقين، وعلم وإعـداد وبنـاء، وخبرة وممـارسـة ووعـي للـواقع من خـلال منهـاج الله . ونعرض مـوجز النظـرية العـامة في أكثر مـن كتاب ، ومنها : «النظـرية العـامة للـدعوة الإسلامية - نهج الـدعوة وخُطة التربية والبناء» ، «بنـاء الأُمة المسلمة الواحـدة والنظرية العامة للدعوة الإسلامية» ، وغيرها .

النظرية العامة للدعوة الإسلامية

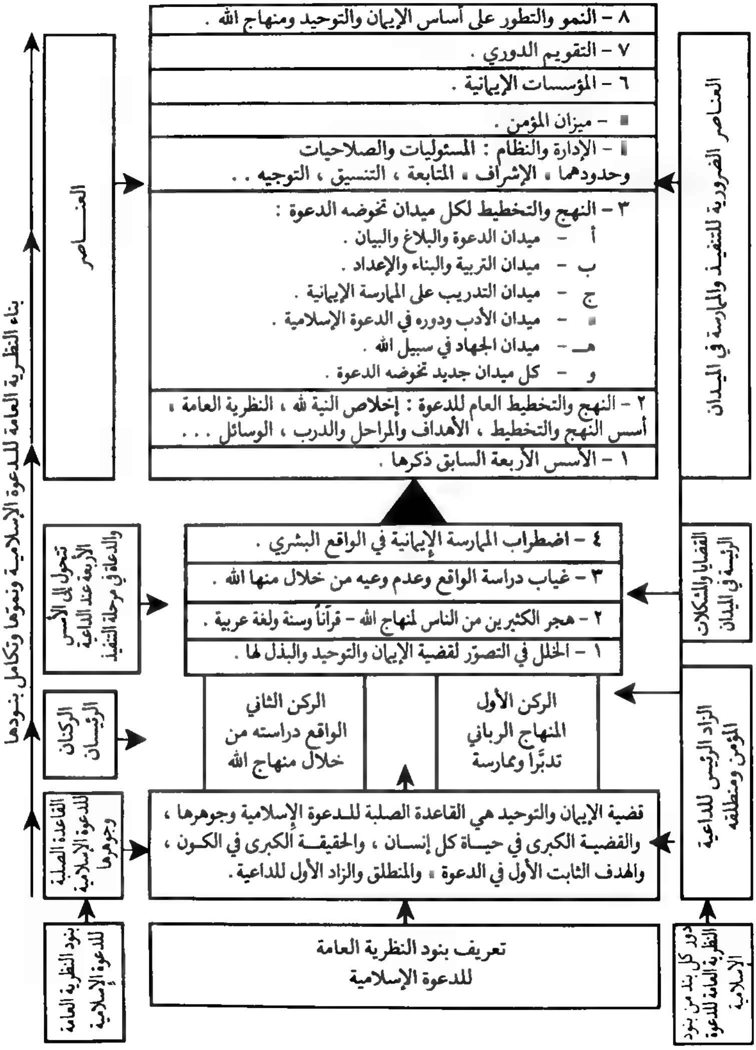

فهـرس كتــاب
المسلمون
أمام تحدّيات العلمانيّة وحقوق الإنسان الوضعية

الموضــــــــــوع	رقم الصفحة
الإهــداء .	٥
الافتتـاح .	٧
المقدمــة .	٩
الباب الأول	
الجذور التاريخية للانحرافات الفكرية في أوروبا ونشأتها وصراعها	
الفصل الأول : الجذور التاريخية للفكـر الأوربي بين الوثنية وبين النصرانية وصراعهما والانحراف إلى العَلمانية :	١٥
١ – تمهيد	١٥
٢ – امتـداد الـرسل والأنبيـاء في التــاريخ البشري وسنن الله الثابتة.	١٦
٣ – الصراع بين الوثنية والنصرانية.	١٨
٤ – تقويم الانحـراف عن رسالـة التوحيـد التي جاء بها عيسى عليه السلام وجميع الرسل والأنبياء.	٢٠
الفصل الثاني : العلمانية : نشأتها ومسيرتها وتطورها :	٢٧
١ – أهم العوامل التي صاغت الفكر الأوروبي.	٢٧
أ – امتداد تأثير الوثنية اليونانية والرومانية .	٢٧
ب – مجيء النصرانية إلى أوروبا وصراعها مع الوثنية.	٢٧
جـ – الإسلام وتأثيره من الأندلس ومن الشرق.	٢٧

الموضـــــــوع	رقم الصفحة
٢ – أهم العصور التي مرّ بها الفكر الأوروبي.	٢٧
أ – عصر الظلمات.	٢٨
ب – عصر النهضة.	٢٨
ج – عصر الإصلاح.	٢٨
د – عصر التنوير.	٢٨
هـ – العصر الحديث.	٢٩
٣ – أهم آثـار صراع النصرانيـة مع الوثنيـة وظهـور العَلمانية	٢٩
٤ – انفجار العَلمانية إلى مذاهب تترك الدين أو تعزله أو تحاربه.	٣٣
■ – حركة الإصلاح الديني.	٣٥
٦ – الحركة العلميّة وصراع الكنيسة معها.	٣٦
٧ – السلطة الزمنية وصراعها مع الكنيسة.	٣٧
٨ – اليهود ودورهم في تغذية العَلمانية وترسيخها.	٣٨
٩ – امتداد نفوذ العَلمانية مع القرن الثامن عشر.	٤١
١٠ – استقـرار العَلمانيـــة في القـرن التـــاسع عشر وتطورها إلى الإلحاد الصريح المعلن.	٤٥
١١ – العَلمانية في القرن العشرين.	٤٩
الفصل الثالث : بين العلمانية والحداثة.	٥٥
الفصل الرابع : أسس الاختـــلاف والافتراق بين الإســـلام وبين العلمانية والحداثة :	٥٩
١ – الاختلاف الأول: النظرة إلى الكون والحياة والإنسان.	٥٩
٢ – الاختلاف الثاني : الإيمان والتوحيد هما الحقيقة الكبرى في الكون والحياة في ميزان الإسلام.	٦٣

رقم الصفحة	الموضـــــــوع
٦٧	٣ – الاختلاف الثالث : مصادر المعرفة.
٦٩	٤ – الاختلاف الرابع : التصور لنهج النموّ والتطور.
٧٠	٥ – الاختلاف الخامس : النظرة إلى الماضي والتراث.
٧١	٦ – الاختلاف السادس : النظرة إلى اللغة.
٧١	٧– الاختلاف السابع : الجمال بعامة ، والجمال الفني بخاصة .
٧٣	٨– اختلافات أخرى هامة .
٧٥	الفصل الخامس: اختلاف الاقتصاد بين الاسلام والرأسمالية .
	الباب الثاني
	تسلُّل العَلمانية إلى العالم الإسلامي
٨٥	الفصل الأول : أهم العوامل الداخلية التي مهدت لتسلل العلمانية للعالم الإسلامي.
٨٥	١ – أهم العوامل .
٨٨	٢ – أهم معالم المكر والخداع والتخطيط.
٨٩	أ – الحرب على اللغة العربية وإبعاد المسلمين عنها.
٩٤	ب – التخطيط والكيد لعزل المسلم عن الكتاب والسنة.
٩٨	جـ– العمل على غرس الخلل في التصوُّر الإيماني ونشره.
١٠٣	الفصل الثاني: موجز لمظاهر تسلل العَلمانية إلى العالم الإسلامي.
١١١	الفصل الثالث : أهم الأحداث التي دفعت العَلمانية إلى العالم الإسلامي :
١١٢	١ – حرب القرم.
١١٢	٢ – استقلال لبنان عن مركز الخلافة.
١١٤	٣ – الحملة الفرنسية على مصر.
١١٤	٤ – محمد علي في مصر .

الموضـــــوع	رقم الصفحة
٥ – الاحتلال البريطاني لمصر.	١١٥
٦ – في بلاد الشام.	١١٨
٧ – في تونس.	١٢٣
٨ – في إيران.	١٢٤
٩ – في أفغانستان.	١٢٥
١٠ – في الهند .	١٢٦
الفصل الرابع : المسلمون في مواجهة العَلمانيّة ودولها المعتدية من خلال تاريخ طويل.	١٢٩
الباب الثالث	
أهم نتائج العَلمانية وآثارها في حياة الإنسان	
الفصل الأول : أهم نتائج العَلمانية وآثارها :	١٤٣
تمهيد.	١٤٣
١ – امتداد الظن والوهم وإنزاله منزلة العلم..	١٤٤
٢ – انحسار المبادىء والقيم الثابتة وظهور ردود الفعل.	١٤٩
٣ – النظام الديمقراطي وليد العَلمانية وحامل شرورها.	١٥٢
٤ – ضياع حقوق الإنسان بين الظلم والتخدير.	١٥٥
٥ – التعامل بين الدول والشعوب على أساس المصالح المادية والتنافس عليها.	١٥٧
٦– غياب التصور الإيماني للاقتصاد وسيطرة النظام الرأسمالي الربوي حتى اليوم ، والنظام الشيوعي لفترة .	١٥٩

الموضـــــــــوع	رقم الصفحة
٧ – استغلال التطور العلمي لحمايـة المصالح المادية وفتنة الناس.	١٦٢
٨ – الحروب الممتدة وصراع المصالح المادية.	١٦٦
٩ – قيـام المؤسســات الـدوليـة التي تـدعم وتحمي مصالح المعتدين المجرمين.	١٦٧
١٠ – امتداد الحرب على الإسلام.	١٧٠
قضايا اخرى متعددة :	١٧٣
١١ – التعاون النصراني اليهودي.	١٧٣
١٢ – ظهور الصهيونية ومؤسساتها .	١٧٣
١٣ – قيام دولة لليهود في أرض فلسطين المغتصبة.	١٧٣
الفصل الثاني : حجاب المرأة المسلمة والعَلمانية .	١٧٥
الباب الرابع	
اليهود	
هم الطائفة التي كفرت من بني إسرائيل	
الفصـل الأول : موجز لأصل اليهود وتاريخهم وطبائعهم.	١٨٥
١ – أصل اليهـود ولغتهم والاختـلاف حول تـاريخ كتابة التوارة وتحريفها.	١٨٥
٢ – اليهود في فلسطين .	١٨٦
٣ – اليهود في المنفى وما بعد المنفى.	١٨٩
٤ – قبسات من القرآن الكريم عن اليهود.	١٩٢
٥ – مقتطفات مما قيل عن اليهود.	١٩٦
الفصل الثاني : التعاون النصراني اليهودي في العصر الحديث.	٢٠١
الفصل الثالث: قيام الحركة الصهيونية.	٢١٥
الفصل الرابع : دولة اليهود قامت بين الدعم الدولي والأمريكي.	٢٢٩

الموضـــــوع	رقم الصفحة
الباب الخامس	
حقوق الإنسان	
بين المسيرة الإيمانية والمسيرة الوضعية	
تمهيد .	٢٤١
الفصل الأول : موجز المسيرة التاريخية للبيانات والوثائق الوضعية لحقوق الانسان.	٢٤٥
الفصل الثاني : أهم النتائج لمسيرة الوثائق الوضعية لحقوق الانسان وأهم المآخذ عليها:	٢٥٣
١ – أهم النتائج والآثار.	٢٥٣
٢ – أهم المآخذ عليها :	٢٥٥
أ – لم تستند إلى قواعد راسخة .	٢٥٥
ب – لم يعد للشعارات معانٍ محدَّدة.	٢٥٥
جـ – لم ترتبط بمسؤوليات الإنسان ورسالته في الحياة.	٢٥٦
د – الحقوق التي أعلنت حقوق ناقصة.	٢٥٦
هـ – التناقض والاضطراب.	٢٥٦
و – مزّقت الحقوق الوضعية وقوانينها الأسرة والأرحام.	٢٥٧
ز – عزل حقوق الإنسان عن قضية الإيمان والتوحيد.	٢٥٧
الفصل الثالث : المسيرة الإيمانية لإقرار حقوق الإنسان في التاريخ البشري.	٢٥٩
الفصل الرابع : نشأة حقوق الإنسان في التصور الإيماني، شروطها وخصائصها.	٢٦٥
١ – نشأة حقوق الإنسان في التصور الإيماني.	٢٦٦
٢ – المسؤوليات الرئيسة للإنسان في الحياة الدنيا.	٢٦٦

الموضـــــــــوع	رقم الصفحة
المسؤولية الأولى: التفكير والتدبر.	٢٦٦
المسـؤوليـة الثانيـة : اتخاذ قـراره بـالإيمان أو الكفر وتحمله مسؤولية القرار في الدنيا والآخرة.	٢٧٧
المسؤولية الثالثة : الأركان الخمسة.	٢٦٨
المسؤولية الرابعة: دراسة منهاج الله وتدبّره.	٢٦٨
المسـؤوليـة الخامسة : ممـارسـة منهـاج الله في الواقع ممارسة إيمانية.	٢٦٨
المسؤولية السادسة : تبليغ رسالة الله إلى الناس والدعوة إلى الله ورسوله، إلى الإيمان والتوحيد.	٢٦٨
الفصل الخامس: الحق الأول والأكبر لـلإنسـان – حمايـة الفطـرة التي فطـر الله النـاس عليهـا – وهي الحق الـذي أهملته وثائق حقوق الإنسان الوضعية.	٢٧١
١ – تمهيد.	٢٧١
٢ – الفطرة ومسؤولية الوالدين والمجتمع والأمة.	٢٧٢
٣ – القوى التي تعمل في الفطرة : أولها الإيمان والتوحيد.	٢٧٤
٤ – النيّة ودورها في الفطرة والقوى المودعة فيها.	٢٧٦
■ – ولاء العطاء المتميز ودور الفطرة فيه..	٢٧٨
٦ – حماية الفطرة ورعايتها وسبيل الإسلام إلى ذلك.	٢٧٩
الفصل السادس : امتداد حقوق الانسان في الاسلام وترابطها وتناسقها .	٢٨٧
الباب السادس **صور ونماذج** **حقوق الإنسان في الإسلام** **بين النصوص والوثائق**	
تمهيد	٢٩٧

رقم الصفحة	الموضـــــــوع
٣٠٠	(١) الصحيفة أو الكتاب الذي كتبه ﷺ بعد دخوله المدينة
٣٠٨	(٢) خطبته ﷺ يوم فتح مكة.
٣١٠	(٣) خطبته ﷺ في حجة الوداع.
٣١٥	(٤) خطبته ﷺ في مرض موته.
٣١٨	(٥) وصية أبي بكر لأسامة بن زيد رضي الله عنهما.
٣٢٠	(٦) كتاب عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعرى رضي الله عنهما في القضاء.
٣٢٢	(٧) وصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه للخليفة من بعده.
	الباب السابع نماذج ومختارات من أهم حقوق الإنسان في الإسلام
٣٢٧	تمهيد .
٣٢٨	(١) تكريم الله لبني آدم وما ينشأ عن ذلك.
٣٣١	(٢) حماية الفطرة التي فطر الله الناس عليها.
٣٣٢	(٣) حق حفظ الحياة الكريمة وأمنها.
٣٣٧	(٤) حق السعي والعمل واكتساب الرزق، وتوفير حاجات الإنسان الأساسية عند تعذر ذلك. وحق الرضيع والفطيم والأرملة واليتيم والمسكين والمحتاج عامة والشيخ العجوز.
٣٣٩	(٥) حق التعلم.
٣٤٢	(٦) حرية الفكر والتفكير والرأي وحدودها.
٣٤٨	(٧) حق حماية الكلمة والفكرة وأمانتها.
٣٥٦	(٨) حق الحرّية وحدودها.
٣٥٩	(٩) حق المساواة وحدودها.
٣٦٥	(١٠) حق العدالة.

رقم الصفحة	الموضـــــــــوع
	الباب الثامن
	نماذج ومختارات
	من حقوق الإنسان في الإسلام
	في ميدان الممارسة والتطبيق
٣٧٣	تمهيد
٣٧٤	(١) مع سيرة الرسول ﷺ وخطبته في مرض موته.
٣٧٦	(٢) الرسول ﷺ والحباب بن المنذر في بدر.
٣٧٧	(٣) عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضي الله عنه ورجل من الأعراب مع شريح القاضي.
٣٧٨	(٤) عمر أمير المؤمنين رضي الله عنه يقضي حوائج النساء وحقوقهن.
٣٧٩	(٥) عمر بن الخطاب رضي الله عنه والتسوية بين الناس في الأُعطيات.
٣٨٠	(٦) عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضي الله عنه وحق الفطيم والرضيع.
٣٨١	(٧) عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضي الله عنه وحق اليتيم والأرملة والمسكين.
٣٨٢	(٨) علي بن أبي طالب أمير المؤمنين رضي الله عنه ورجل من أهل الذمة مع شريح القاضي.
٣٨٣	(٩) عمر بن عبدالعزيز أمير المؤمنين ومراكب الخلافة.
٣٨٤	(١٠) عمر بن عبدالعزيز أمير المؤمنين وابنه عبدالملك.
	الباب التاسع
	قضايا وعقبات
	بين تيسير وتفلّت وبين مبشّرات وتخدير
٣٨٧	**الفصل الأول : مجابهة التحدّيات وأهم العقبات.**
٣٨٧	١ – مجابهة التحدّيات بين حالات.
٣٩٢	٢ – أهم العقبات.

رقم الصفحة	الموضـــــــــوع
	أ – العقبـــة الأولى : تفلـت المسلم نفســـه مـن العلم
٣٩٢	بمنهاج الله. ....
	ب – العقبة الثانية : الخلل في التصوّر لقضية الإيمان
٣٩٥	والتوحيد. ....
٣٩٧	**الفصل الثاني : بين التيسير والتفلّت وبين المبشرات والتخدير.** ....
٤٠٣	**الفصل الثالث : مواقف تحتاج إلى دراسة ورأي .** ....
٤٠٣	١ – تمهيد. ....
٤٠٥	٢ – وقفة مع بعض المؤتمرات الإسلامية . ...
٤١٢	٣ – مواقف أخرى تحتاج إلى التناصح. ....
	الفصل الرابع : الرأي والاجتهـاد والفتوى بين العلم والحق وبين
٤١٥	**الهوى والأماني.** ....
٤٢٥	**الفصل الخامس: المخرج والحلول.** ....
٤٢٩	**الفهـــرس** ....
٤٣٩	**كتب المؤلف** ....

كتب للمؤلف

الرقم	اسم الكتاب	الطبعة
أولاً : كتب توجز النهج العام والنظرية العامة للدعوة الإسلامية :		
١	موجز النهج العام للدعوة الإسلامية وأساس لقاء المؤمنين	ط ١
٢	أضواء على طريق النجاة	ط ٢
٣	النهج والممارسة الإيمانية في الدعوة الإسلامية	ط ٥
ثانياً : كتب تفصل النهج العام والنظرية العامة والمناهج :		
٤	دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية	ط ٦
٥	منهج المؤمن بين العلم والتطبيق	ط ٥
٦	النظرية العامة للدعوة الإسلامية - نهج الدعوة وخطة التربية والبناء	ط ٣
٧	منهج لقاء المؤمنين	ط ١
٨	لقاء المؤمنين - أسسه وقواعده - الجزء الأول	ط ٤
٩	لقاء المؤمنين - الجزء الثاني - الأهداف	ط ٤
١٠	العهد والبيعة وواقعنا المعاصر	ط ٤
١١	قبسات من الكتاب والسنة تدبر وظلال	ط ١
ثالثاً : كتب تعرض أهم قضايا التوحيد في واقعنا المعاصر والنهج والخطة للدعوة والبلاغ والبيان		
١٢	التوحيد وواقعنا المعاصر	ط ٣
١٣	الحقيقة الكبرى في الكون والحياة	ط ١
١٤	النية في الإسلام وبُعدها الإنساني	ط ٣
١٥	الولاء بين منهاج الله والواقع	ط ٢
١٦	الحوافز الإيمانية بين المبادرة والالتزام	ط ٣

الرقم	اســــم الكتـــــاب	الطبعـة
١٧	الخشوع	ط٢
رابعاً : كتب تدرس بعض القضايا الفكرية في الواقع :		
١٨	الشورى وممارستها الإيمانية	ط ٣
١٩	الشورى لا الديمقراطية	ط ٤
٢٠	الصحوة الإسلامية إلى أين ؟	ط ٣
٢١	التعامل مع مجتمع غير مسلم من خلال الانتماء الصادق إلى الإسلام	ط ١
٢٢	واقع المسلمين أمراض وعلاج	ط ٢
٢٣	بناء الأمة المسلمة الواحدة والنظرية العامة للدعوة الإسلامية	ط ١
٢٤	المسلمون بين العَلمانية وحقوق الإنسان الوضعية	ط١
خامساً : كتب تدرس بعض أحداث الواقع وقضاياه «وتدخل معها الملاحم»		
٢٥	على أبواب القدس	ط٢
٢٦	فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع	ط ٤
٢٧	عبدالله عزام أحداث ومواقف	ط ١
سادساً : كتب تدرس الأدب الملتزم بالإسلام والنقد (النصح) الأدبي ، وترد على المذاهب الأخرى :		
٢٨	الأدب الإسلامي - إنسانيته وعالميته	ط ٣
٢٩	النقد الأدبي المعاصر بين الهدم والبناء	ط ١
٣٠	الحداثة في منظور إيماني	ط ٤
٣١	تقويم نظرية الحداثة وموقف الأدب الإسلامي منها	ط ٢
٣٢	أدب الوصايا والمواعظ : منزلته ونهجه وخصائصه الإيمانية والفنية	ط١
سابعاً : الدواوين الشعرية :		
٣٣	ديـوان الأرض المباركـة	ط ٦

الرقم	اسم الكتاب	الطبعة
٣٤	ديوان موكب النور	ط ٤
٣٥	ديوان جراح على الدرب	ط ٣
٣٦	ديوان مهرجان القصيد	ط ١
ثامناً : الملاحم الشعرية		
٣٧	ملحمة فلسطين	ط ٥
٣٨	ملحمة الأقصى	ط ٢
٣٩	ملحمة الجهاد الأفغاني	ط ٣
٤٠	ملحمة البوسنة والهرسك	ط ٢
٤١	ملحمة الإسلام في الهند	ط ٢
٤٢	ملحمة القسطنطينية	ط ٢
٤٣	ملحمة الغرباء	ط ٣
تاسعاً : كتب في الدعوة الإسلامية باللغة الانجليزية		
٤٤	خطة الداعية (The Caller's Plan)	ط ١
عاشراً : كتب ترجمت إلى لغات أخرى :		
٤٥	لقاء المؤمنين – الجزء الأول « باللغة التركية »	ط ١
٤٦	فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع «باللغة التركية »	ط ١
٤٧	فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع « باللغة الانجليزية »	ط ١
حادي عشر : كتب في علوم أخرى :		
٤٨	دراسة الموجات الإلكترومغناطيسية المتوسطة «بالانجليزية»	ط١

دار النحوي للنشر والتوزيع
تلفون وفاكس : ٤٠١٠٢٥٧
ص.ب : ١٨٩١ الرياض : ١١٤٤١
المملكة العربية السعودية

الجمع التصويري والإخراج بالتعاون مع : مركـز حسن للطباعة - الرياض - هاتف ٤٠٥٥١٤٥/٠١

مع هذا الكتاب

يجابه المسلمون اليوم، والعالم الإسلامي كله، تحدّيات كثيرة امتدَّتْ داخله وخارجه. وكان من أبرز هذه التحدِّيات: «العَلمانيّة» بمختلف ألوانها وأثوابها، و«حقوق الإنسان الوضعية». ولقد حملت هذه وتلك كلَّ ما استطاعتاه من فتنة الزخرف وخداع الزينة ومكر الأساليب، مما أخفى على بعض الناس سَوْءاتهما وشرورهما. وقد ارتبطتا فيما بينهما ارتباطاً وثيقاً، حتى كأنَّ كلَّ واحدة وُلِدَتْ من الأُخرى.

تعود جذور العَلمانيّة إلى عهد بعيد، وبدأت تشتد وتنمو في أوروبا نتيجة للصراع الطويل بين النصرانيّة والوثنيّة اليونانيّة والرومانيّة. ومع أنّ النصرانيّة حقّقتْ نصراً في ميدان السلطة الزمنية، إلا أنّ الوثنيّة تسلّلت إليها في بعض مظاهرها من خلال هذا الصراع، ومن خلال دعم بعض الأباطرة الرومانيين الذين استغلّوا النصرانية ورجالها للوصول إلى الحكم، وأَخْفَوا في نفوسهم الوثنيّة والشرك، ودفعوا إلى الفكر النصراني ونشاطه بعض مظاهر الوثنيّة في بعض الطقوس والنشاط الكَنَسِيّ. وزاد من قوة التصوُّرات العَلمانيّة الصراعُ الطويل بين الكنيسة والعلماء من ناحية، وبين الكنيسة والسلطة الزمنيةمن ناحية أخرى، حتى انتهى الصراع، ولو مؤقتاً، بانفصال السلطتين بعضهما عن بعض، ومضيّ السلطة الزمنية تبني فكرها وفلسفتها وقوانينها من تصوّرات تعزل الدنيا عن الآخرة، وعن النصرانيّة وتصوّراتها الدينية. وزادت الفتنة لهيباً حين عمّمت أوروبا هذا الانفصال على كل الأديان، وحين امتدَّت الفتنة إلى مختلف ميادين الحياة. ففي نظام الحكم كانت الديمقراطية، وفي النظام الاقتصادي كانت الرأسماليّة والاشتراكيّة، وفي السياسة كانت الميكيافيلية، وفي الأدب كانت الحداثة ومذاهبها.

من هذه التصورات والنظم والقوانين خرجت «حقوق الإنسان الوضعية» ولجانها ومؤسساتها، وخرج النظام العالمي وهيئاته، وخرجت شعارات كثيرة ما زالت تموج في حياة الشعوب، تموج مع الدماء المتدَفّقة والأشلاء المتطايرة، والجرائم الوحشية، ثمّ تُسْحق حقوق الإنسان في ميدان الممارسة والتطبيق.

المسلمون مدعوُّون اليوم ليكشفوا للعالم عظمة الإسلام وتميُّزه وعلوّه، ويُبرِزوه في ميدان التطبيق في واقع الحياة: في الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والفكرية وغيرها، ليَرى العالم الصدّق والأمانة، والعدل والح[illegible]ع الناس لِيَتَفَيَّؤوا في ظلاله وأنسامه ونداه.

والحمد لله رب العالمين !!!

مطابع دار طيبة - الرياض - ت: ٤٢٨٣٨٤٠
ردمك ١-٣٤-٦٨٧-٩٩٦٠